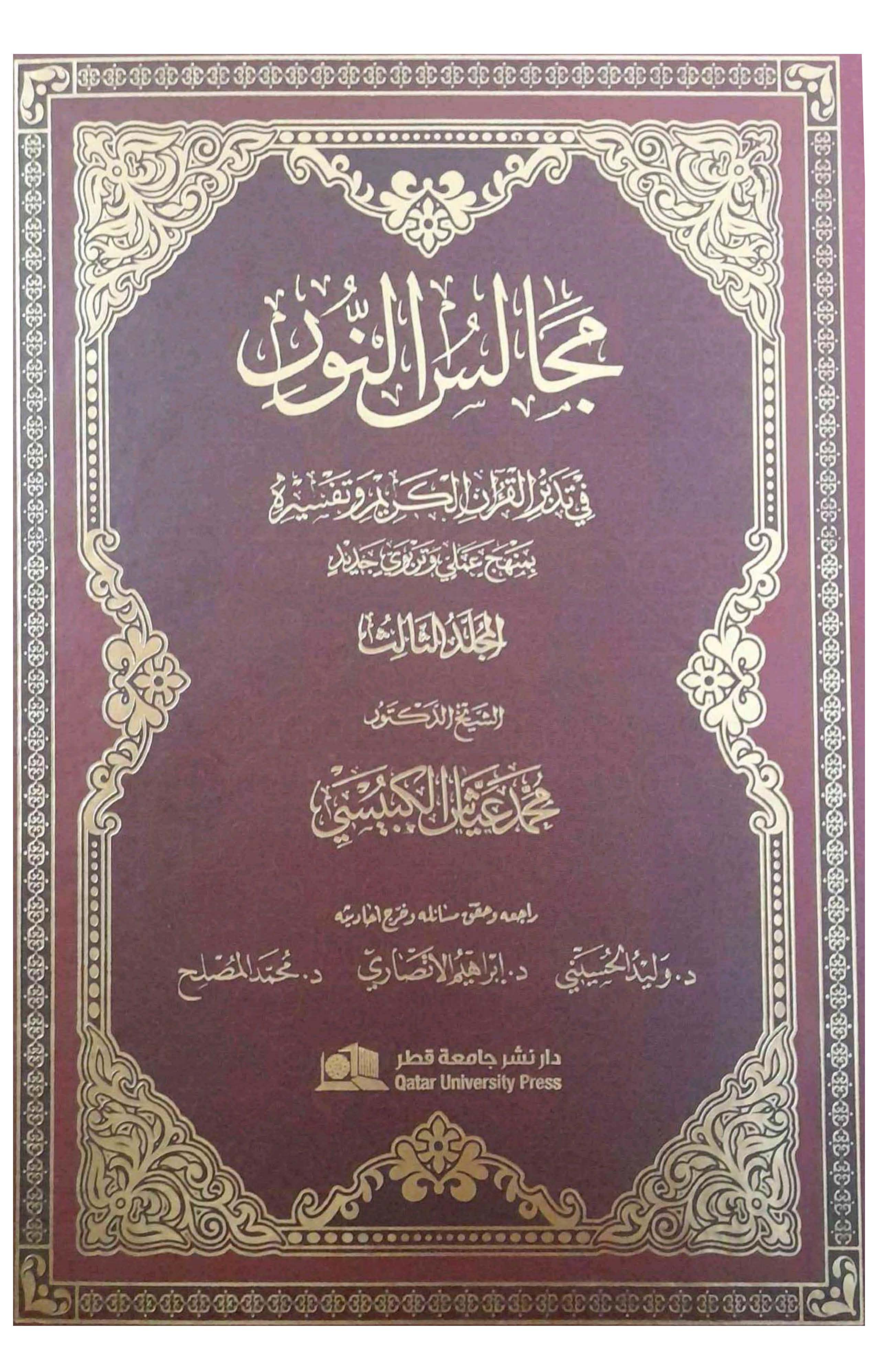

مجالس النور
في تدبر القرآن الكريم وتفسيره
بمنهج عملي وتربوي جديد
المجلد الثالث
الشيخ الدكتور
محمد عياش الكبيسي
راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه
د. وليد الحسيني
د. إبراهيم الأنصاري
د. محمد المصلح
دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مجالس النور

في تدبر القرآن الكريم وتفسيره

بمنهج علمي وتربوي جديد

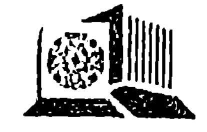
المجلد الثالث

الشيخ الدكتور

محمد عياش الكبيسي

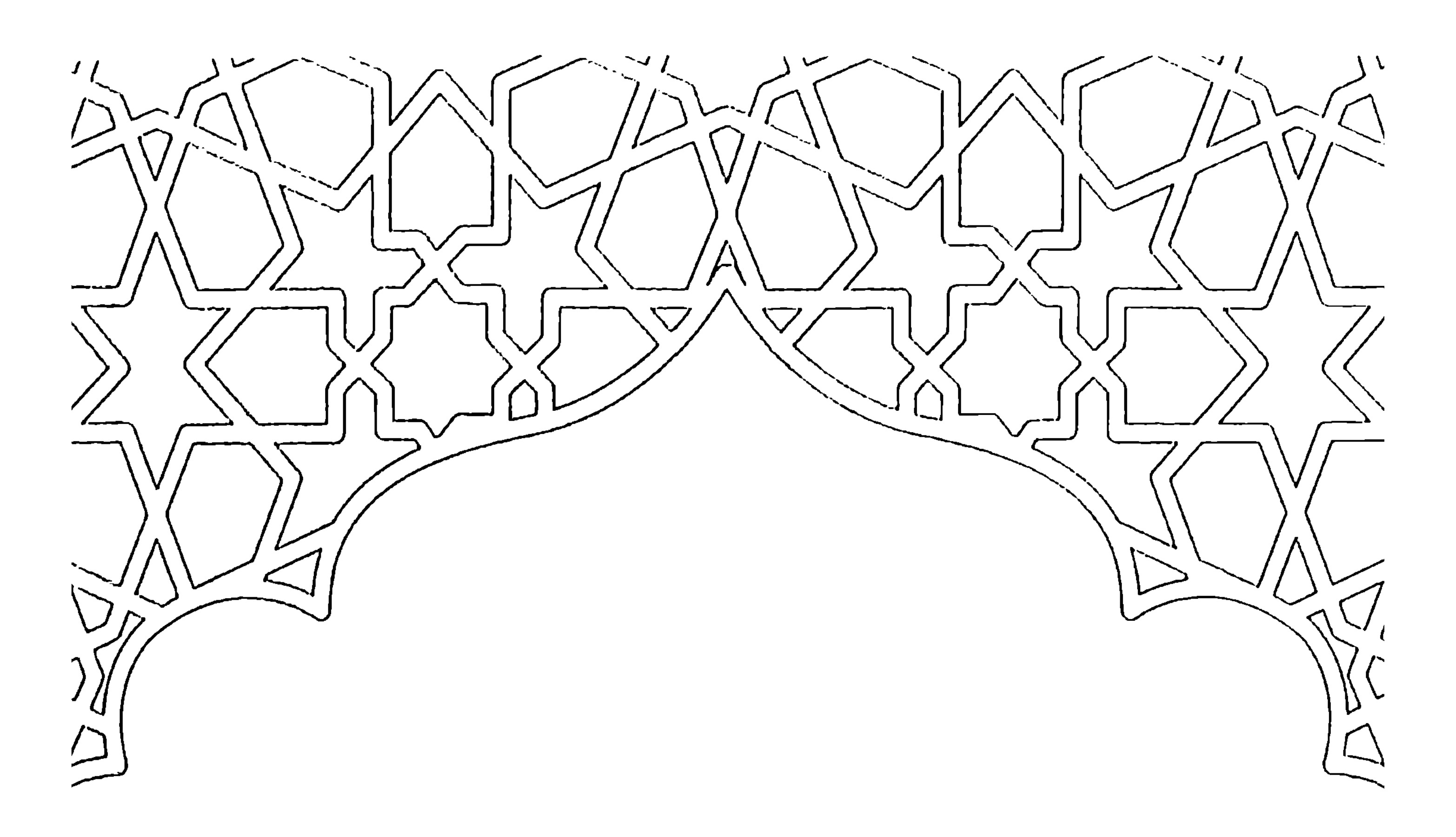
راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه

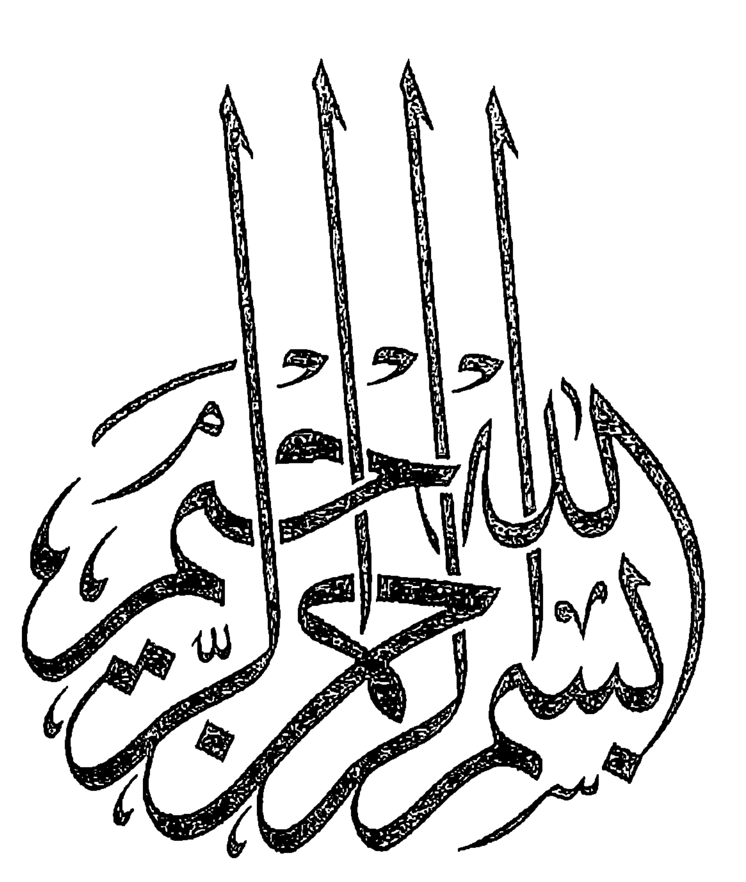
د. وليد الحسيني د. إبراهيم الأنصاري د. محمد المصلح



دار نشر جامعة قطر

Qatar University Press




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المجلد الثالث

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر



سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

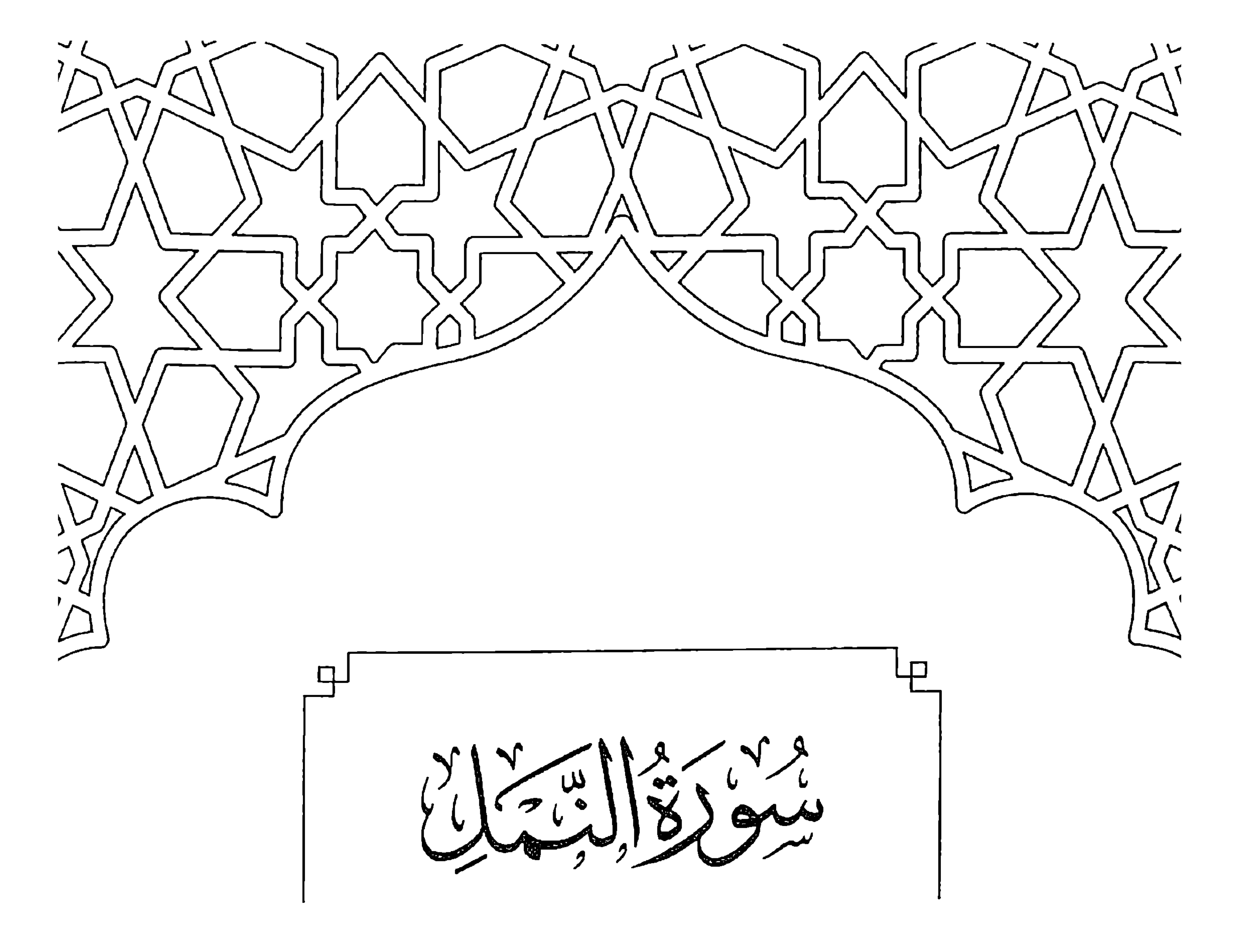
سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق



سورة النمل

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾

ومضات من الدعوتين المحمدية والمُوسوية

الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة والخالدة والمهيمنة على كلِّ الرسالات السماويَّة الأخرى، وقد استوعَبَت تجارب النبيِّين السابقين على نبيِّنا وعليهم الصلاة والتسليم؛ ليكون هذا ذخيرةً للأمة الوريثة، وهي تتحمل رسالة الله الأخيرة إلى هذا الكوكب.

غير أنَّ الرسالة الأقرب إلى رسالتنا الإسلاميَّة هي - بلا شكٍّ - الرسالة المُوسويَّة، فهي الرسالة الشاملة والغنيَّة بنماذجها العمليَّة في كلِّ مجالات الحياة: الدعويَّة والتربويَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة؛ فيها مواجهة السلطان الباغي (فرعون) بما معه من جيشٍ ومالٍ وسحرٍ ومكرٍ، وفيها قيادة المجتمع المؤمن، وتخليصه من وطأة الظلم، والسير به في معارج العلم والتزكية والقوَّة، وفيها مواجهة الانحراف ودعاة الضلال كالسامريِّ، وفيها الكثيرُ مما لا نجده في كلِّ القصص النبوي.

مِن هنا كان الاهتمام بقصَّة موسى، وتجربته المتنوعة هذه، ومِن هنا كان الربط المُتكرِّر بين الدعوتَين المباركتَين: الدعوة المحمَّديَّة، والدعوة المُوسويَّة، فلنتدبَّر الآن ما جاء في فواتِحِ هذه السورة عن هاتَين الدعوتَين المباركتَين:

أولًا: تأكيد أنَّ هذا القرآن الذي هو مصدر هذه الرسالة المحمَّديَّة الخالِدة قد أنزله الله كتابًا مبينًا، فيه الهُدى والبُشرى لكلِّ طالِبٍ وراغِبٍ وباحِثٍ عن طريق الحقِّ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أكَّد موثوقيَّة هذا القرآن، وأنه رسالةُ الله العليم فلا يفوته شيء، والحكيم فلا يختلُّ في هَديِه شيءٌ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

ثانيًا: أنَّ الناس قد انقَسَموا في هذه الدعوة بين مؤمنٍ وكافرٍ؛ أما المؤمنون الذين اتَّبَعُوا الهُدى واستحَقُّوا البُشرى، فهذه صِفاتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقينٌ بالله واليوم الآخر يدفَعُهم لأداء حقِّ الله، وحقِّ عباد الله، هذه سِمَتُهم وخلاصة ما يُميِّزُهم عن غيرهم.

ثالثًا: في مُقابِل هؤلاء المؤمنين يأتي الحديث عن الفريق الآخر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ إنَّهم كفَروا بالله واليوم الآخر، فقادَهم هذا إلى حالةٍ من العَمَه والتِّيه والتخبُّط في الضلالات، فكان لهم الخُسران بدل البُشرى جزاءً لاختيارهم الضلال بدل الهُدى.

رابعًا: ذكَرَ القرآن هنا بقصَّة موسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وكيف أنه تلقَّى الوحيَ عن الله باصطفاءٍ إلهيٍّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وأنَّ الله تعالى قد أيَّدَه بالآيات البيِّنات والبراهين القاطِعات، وأرسله إلى فرعون وقومه، لكنَّهم كفروا بها ظُلمًا وعدوانًا، وفي هذا تسلِيةٌ

لرسولنا الكريم ﷺ عمّا يلقاه من قومه مِن جحودٍ وصدودٍ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ الإيمان اليقيني بيوم الحساب هو الذي يدفع الإنسان لأداء الحقوق التي في ذمَّتِه تجاه الخالق تعالى، وتجاه المخلوق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ تأكيد للمعنى السابق بذكر ضدِّه أو نقيضه؛ فالذي لا يؤمن بيوم الحساب لا يخشَى من عمله الباطل، ولا من أكله الحرام، بل يرَى ذلك فرصةً له مهما أمِنَ الحساب، وذلك هو التزيين الذي يكتسبه جرَّاء كفره وليس بالجبر الإلهي، وإنما نسبه الله لنفسه؛ لأنَّه جارٍ على سُنَنه تعالى في ربط النتائِج بأسبابها.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتخبَّطُون تخبُّط الأعمى.

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ رأيتُ نارًا، ولفظ ﴿ءَانَسْتُ﴾ مُشعِرٌ بالأُنس والأمل.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ إذْ ظنَّ على النار بَشرًا يمكن أن يُرشدُهُ إلى الطريق.

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بجذوةٍ من النار.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا الحدث الذي لا ينبغي للمُتدبِّر معه إلا أن يقِف موقف الهيبة والخشوع، والشعور بضآلة العقل البشري لو حاول أن يتجاوز حدود إمكانياته وقدراته، إنها لحظة اتصال السماء بالأرض بالكيفيَّة التي لا يستطيع العقل تخيُّلها، ولا ملامسة كُنهها، لكنه يُسلِّم لها؛ لما ظهر منها في عالم الأرض من آياتٍ بيِّنات، ومعجزاتٍ قاهرات.

وقوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ قصد به موسى ﷺ؛ لأنَّ ضوء النار أحاط به، فكأنَّه كان فيها.

﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ ذكر المُفسِّرون هنا أنَّ العرب تُطلِق الجانَّ على ضَربٍ مِن الحيَّات معروفٍ بسرعة الحركة، ولا يبعُد أنه أرادَ واحد الجنِّ؛ لما هو معهودٌ في أذهان الناس من خِفَّتهم وسرعة حركتهم، ويُعضِّدُ هذا أنَّ العصا قُلِبَت حقيقةً إلى حيَّة، فكان تشبيهها بالجنِّ أقرب مِن تشبيهها بالحيَّة، والله أعلم.

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ هرب خائفًا مما حصل لعصاه ولم يرجع.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع؛ لأنَّ الأنبياء مُنزَّهُون عن الظُّلم، فلا يكون فيهم ظالِمٌ.

﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ﴾ من غير عاهةٍ ومرضٍ.

﴿تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ المعجزات التي أيَّد الله بها نبيَّه ورسولَه موسى ﷺ؛ كالعصا، والطوفان وغيرهما.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ أي: واضِحة تُبصِرُها العيُون، ونَسَبَ الإبصارَ للآيات على سبيل المجاز.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ هذا دأب الطغاة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ أنهم لا يستجيبون للحقِّ ولو استبان لهم كالشمس؛ لأن ما في قلوبهم من الكِبْرِ والغرور يحول بينهم وبين ذلك.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

لا ينبغي ونحن نتدبَّر قصَّة سيدنا سُليمان على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام أن نغفَل عن حقيقة أنَّ مُلك سُليمان إنما هو ثمرةٌ للدعوة الموسويَّة التي نجَحَت بإخراج بني إسرائيل مِن وطأة فرعون، وكوَّنَت منهم أمةً قادرةً على أن تَشُقَّ طريقها، وأن تصنع تجربتها بنفسها.

ومِن ثَمَّ فإننا حينما نقرأ عن نبوَّة سُليمان ﷺ وتجربته في المُلك، فإننا نقرأ امتدادًا لنبوَّة موسى ﷺ وتجربته في التأسيس والتمهيد لهذا المُلك.

وأما صِلَة هذه التجربة بالدعوة المحمديَّة، فلا شكَّ أن هذه الأُمة موعودة بالمُلك والتمكين، وقد كان لها ذلك في عصر النبوَّة والخلافة الراشدة، ثم في العصور المتعاقبة أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم، والأمة الوريثة لا غِنَى لها عن تجارب أسلافها، إضافةً إلى القاعدة المحوريَّة: أن هذه الرسالة المحمديَّة ليست على قطيعةٍ مع تلك الرسالات، بل هي امتدادٌ لها ولنور الوحي فيها، ولكن بما يناسب تطوُّر الحياة الإنسانيَّة وتوسُّعها وتشعُّبها.

ويمكن أن نُلخِّص هذه التجربة المُبارَكة بالآتي:

أولًا: أنَّ الله قد فضَّل سُليمان كما فضَّل أباه داود ﷺ بالعلم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد أعطاهما الله المُلك، ثم ورِث سُليمان أباه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ في إشارةٍ أن المُلك لا يكون بغير علم، وإلَّا كان وبالًا ووباءً عامًّا، وفتنةً عميَاء.

ثانيًا: لقد حظِيَت التجربةُ السُّليمانيَّةُ بمؤيِّدات ومعجزات ربَّانيَّة لا يُمكن القياس عليها، ولا الاعتماد عليها في العمل، أو اتخاذها مثالًا يُحتذى أو يُنتظر، وإنما جاءت للتذكير بقدرة الله التي لا تحدُّها حدود، وسعة عطائه من حيث يحتسب الناس ومن حيث لا يحتسبون،

ويستلزم هذا أدبًا وتواضعًا لمن يُعطِيهم الله بعضًا من عطائه، وأملًا ورجاءً مفتوحًا لمن يُعانون ويئنُّون تحت وطأة الظلم والحِرمان.

ومن تلك المؤيِّدات والمعجزات: أنَّه ﷺ كان يفهم لغة الطير والنمل وغيرهما: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ثم أكَّد هذا بحواره مع الهدهد كما سيأتي، وأما النمل فقد سمِعَ سُليمان نملةً تُوجِّهُ صاحباتها وتُحذِّرُهم: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

ومنها: تسخير الجنِّ والمخلوقات الأخرى له، بل كانوا جُندًا من جُنده ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾، والإتيان بعرش بلقيس هو بذاته معجزة أيضًا.

ثالثًا: أنَّ هذه المؤيِّدات أو المعجزات قد تضمَّنَت دروسًا عمليَّةً كبيرةً، ومن ذلك:

في قصة النملة تبرزُ قيمة المبادرة، وقيمة الحرص على المجتمع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ويلحظ في قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قيمة أخرى، وهي: التِماس العُذر للمُخطِئ الذي قد لا يكون قاصدًا أو عامدًا.

وفي قصة الهدهد: تأكيد لقيمة المبادرة مع قيمة الحرص على الدعوة، وقيمة الأمانة في النقل، وقيمة الشجاعة في قول الحقِّ، والدفاع عن النفس ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

وفي قصة العفريت وصاحب العلم تظهر ميزة العلم وتفوُّقه على القوَّة، وفي هذا دلائل ومعانٍ عميقة ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ

﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾.

رابعًا: برز في هذه التجربة حدثٌ تاريخيٌّ كبيرٌ، ألا وهو إسلام ملكة سبأ مع قومها، وقد تضمَّن هذا الحدَث عددًا مِن الدروس الكبيرة أيضًا، ومنها:

الدرس الأول: تجاوز الدعوة لحدود العِرق واللون والولاءات الضيقة؛ فملكة سبأ وكلُّ قومها الذين أسلموا مع سُليمان لم يكونوا مِن قوم سُليمان، وليس لهم صلة نسب ولا مصاهرة، ولا جِوار ببني إسرائيل، وقد كان هذا المعنى راسخًا حتى عند الطير المسخَّر في ذلك الوقت لخدمة الدعوة ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

الدرس الثاني: السياسة الحكيمة التي اتَّبَعها سُليمان ﷺ مع الملكة وقومها، فأرسل لها رسالة متضمِّنةً معنى الرحمة: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم أعرب لها عن قوَّته وشدَّته بالحقِّ ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، ثم بهرها بالعلم الذي معه من خلال العرش والصرح؛ العرش الذي نقله بطرفة عين، فرَأَتْه أمامها في الشام بعد أن خَلَّفَتْه وراءها في اليمن ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾، والصَّرح الذي لم تعهده في دولتها حتى حسِبَتْه بِركةَ ماء ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ فهذه قيم ثلاث: الرحمة، والقوَّة، والعلم، وهي منظومة المُلك والحكم الرشيد.

الدرس الثالث: أن المرأة بإمكانها أن تتحلَّى بأخلاق القيادة الرشيدة، وأن تقودَ شعبَها إلى الخير، وهذا النموذج القرآني الكبير لا يجوز أن نَمُرَّ عليه سريعًا؛ فبلقيس أدارَت معركتها السياسيَّة مع سُليمان بحكمةٍ فائقةٍ.

فجمَعَت أُولِي الرأي في قومها واستشارَتْهم مشورة صادقة ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ (٣٢) قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾، ثم شخَّصَت الخطر المحتمل وفق خبرتها وتجاربها السابقة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ

﴿قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، ثم بادَرَت بما يسمَّى اليوم (جسّ النبض)، فأرسَلَت بهديَّتها إلى سُليمان، وفي الهديَّة أكثر من رسالة، ثم أعربت عن مستوى عالٍ من الشعور بالمسؤوليَّة والاعتراف بالخطأ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إنَّ هذا النموذج ينبغي أن يكون مُوجِّهًا لنا في فَهمِ بعض الأحاديث التي يُوحِي ظاهرها بما يُخالف هذا النموذج الكبير، ولا يصحُّ بحالٍ الأخذ بتلك الروايات، وببعض الاجتهادات الفقهيَّة المنبثقة منها بمعزِلٍ عن هذه الآيات، والله أعلم.

خامسًا: صفة التبيُّن والتثبُّت التي كان سيِّدنا سُليمان يتحلَّى بها حتى مع أضعَفِ رعيَّته؛ فحينما اعتذر الهُدهُد عن غيبته بالخبر الذي ساقَه عن مملكة سبأ، قال له سُليمان: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

إنَّ هذا الجوَّ المليء بالثقة والعدل والصدق هو الذي شجَّع الهُدهُد أن يقول لسُليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ هذا درسٌ في استنهاض الطاقات، وكشف المخبوء منها في نفوس الرعيَّة، أما التعالِي والاستخفاف فإنه يجعل الدولةَ تخسَرُ الكثير من الطاقات، وتُضيِّع الكثير من الفرص.

سادسًا: الصفة الثابتة والمكررة في هذه القصة والتي يتحلَّى بها سُليمان ﷺ هي الشكر، الشكر بمعناه العملي السلوكي ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

سابعًا: يُلاحَظ هنا - إلى جانب ما تقدَّم - أنَّ طبيعة المُلك كانت طبيعة مترفة، وفيها قَدر كبير من إظهار النعمة: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾، وفي موضعٍ آخر يقول القرآن:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ [سبأ: ١٣].

وفي هذا تصحيحٌ لمفهوم الحكم الرشيد الذي اقترَن لدى كثيرٍ مِن الوعَّاظ بالزهد والتقشُّف، وحِرمان النفس من النعم، وهي الصورة المأخُوذة من حياة الخلفاء الراشدين ﷺ دون النظر إلى أسبابها الموضوعيَّة، ومنها: الحالة الاجتماعية العامة، ومستوى الحياة الاقتصاديَّة، ومنها: التوجُّه الشخصي نحو الإقلال من التَّرَف، وهذا حقٌّ، لكنه ليس شَرعًا مُلزِمًا لكلِّ الناس، فضلًا عن ملوكهم وأمرائهم، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ أي: ورِثَ عنه العلم والنبوَّة والحكم، وليس المال؛ لما ورد في «الصحيحين» عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»(١)، وقوله ﷺ: «**إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ**»(٢)؛ ولأنَّ وراثةَ المال لا يستحِقُّها سُليمان دون إخوته وباقي الورثة.

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: فهم المعنى الذي تُعبِّرُ عنه الطيور فيما بينها بصَفيرها وتقطيع صوتها، فالحيوانات تتفاهمُ فيما بينها بأصواتها وحركاتها وإن كانت بالنسبة لنا لا دلالة لها،

(١) مُتفقٌ عليه عن عائشة وأبي هريرة ومالك بن أوس ﷺ، وتكرَّر في «الصحيحين» في عدَّة مواضع، وانفرد البخاري ببعضها، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١١٢٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٥/ ١٥١/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) رواه أبو داود (٣/ ٣١٧/ دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي (٥/ ٤٩/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وابن ماجه (١/ ١٥١/ دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي) كلهم عن أبي الدرداء ﷺ، وقال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

وقد خصَّ الطيرَ بالذكر مع أنَّه ﷺ كان يفهم لغة النمل أيضًا، ربَّما لما سيأتي من قصة الهُدهُد؛ تنبيهًا لأهميتها، وعظيم أثرها.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ دلالة أنَّ هؤلاء جميعًا كانوا في خدمته وتحت سلطانه، وهذا مِن عطاء الله الذي لا يُقاس عليه، ولا يصحُّ اتخاذه مثالًا يُحتذى.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُنظَّمون في وقفتهم وحركتهم، ويعرف كلٌّ منهم مكانه ومكانته.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسرنَّكم، إشارة إلى أنَّ جسم النملة مُكوَّن مِن مادةٍ قابلةٍ للكسر، وهو ما بَدَا ينكشف في بعض الدراسات الحديثة أنَّه تغلب عليه مادة الزجاج، والله أعلم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كأنَّها تعتذر لهم، بمعنى أنَّهم يحطمونكم عن غير قصد.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ صيغة من صيغ التأكيد، كأنَّه قال: فتبسَّم تبسُّمًا، واختيار الضحك بدل التبسُّم فيه تأكيدٌ معنويٌّ، أي: بالغ في التبسُّم، والله أعلم.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهِمني ووفِّقني.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ تفسير لمعنى الشكر؛ ولذلك ورد عن الجنيد ﷺ قوله: (الشُكر ألا تستعينَ بنِعم الله على معاصِيه).

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ تفقُّد المسؤول من هم تحت مسؤوليَّته، والنظر في أحوالهم وأخبارهم.

﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ بمعنى: هل هو موجود ولكنَّ عيني أخطأَتْه، أو غابَ عن الحضور دون علمي؟

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن لم يأتِني بعُذرٍ بيِّن فقد استحقَّ العقوبة، وهذا الحزم المشفوع بالتثبُّت هو شرط الحاكم الرشيد في التعامل مع جنده، أما البحث في عقوبة الحيوانات والبهائم إذا خرجت عن المطلوب منها فلا أراه مناسبًا هنا؛ إذ إنَّ سُليمان يتعامَلُ مع كلِّ جنوده كأنَّهم عُقلاء ومُكلَّفون، وهذه خصوصيَّة له

لا يصحُّ القياس عليها، ولا اعتمادها دليلًا في أي مسألةٍ فقهيةٍ من هذا القبيل، وإنَّما يُستفاد منها: الحزم والتثبُّت مع الجند الآدميين المكلَّفين بالأمر والنهي.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي: لم يتأخَّر الهُدهُد إلا قليلًا.

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ كلمة شجاعة، وفيها أكثر من درس؛ فعدالة الحاكم هي التي فتَحَت البابَ لهذه الشجاعة ولهذه المبادرة، وأنَّ العالِمَ مهما بلغ علمه لا يجمع العلم كلَّه، فقد يفوته شيء منه ليطَّلِع عليه مَن هو أقلُّ شأنًا وأقلُّ علمًا؛ ولذلك يقترن العلم بالتواضع عند العارفين المخلصين، بخلاف أهل الكبر والرياء.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ مِن أرض اليمن.

﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ تنبيه إلى ضرورة التيقُّن في مثل هذه الأخبار، خاصة تلك التي تهمُّ الشأن العام، وينبني عليها عمل.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ هي بلقيس.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عام مخصوص بالعقل والحس، أي: من كلِّ شيءٍ يُناسِبُ الملوك في ذلك الزمن.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ السرير أو الكرسيّ الذي تجلس عليه.

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حيث كانت عبادة الشمس شائعة في تلك العصور، ويلاحظ هنا أنَّ النبأ الذي رفعه الهُدهُد إلى ملكه وقائده قد جاء شاملًا للجوانب السياسيَّة والدينيَّة التي يحتاجها الملك قبل أن يتَّخذ قراره.

﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ يظهر المخبوء والمستتر، مما يغيب عن علم الناس، من أرزاق وآجال إذا حان أوانه.

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي: سننظرُ نظرَ المتأمِّل المُدقِّق.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أمَرَه أن يتنحَّى عنهم قليلًا؛ بحيث يسمع كلامهم ولا يرَونه.

﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ بمعنى: أنَّه نفيسٌ من حيث خَتمه وشكله وخطِّه وجزالته، بما يُعبِّر عن احترام صاحبه وإتقانه، ودقَّة ذَوقه.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ لا تتكبَّروا عليَّ.

﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ أشِيروا عليَّ.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ حتى تحضرون، وهذا من تمام عقلها، وحسن سياستها.

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ أعربوا أولًا عن قوَّتِهم وشدَّةِ بأسِهم، ثم أعطَوها مساحةً مرِنةً لاتخاذ القرار الأصوَب والأصلَح.

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ إذا دخَلُوها بالقوة والقهر أفسدوها بالتخريب والتدمير، تُلمِّحُ لهم بالمُسالمة والمُوادعة؛ لما تعرفه عن قوة جيش سُليمان ﷺ، ولما تخبره من تاريخ الحروب والغزوات.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وهذا اختبار سياسي حكيم؛ فإن قبِلُوا الهديَّة - ويبدو أنها كانت مالًا عظيمًا - يتبيَّن لها أنَّ مطلَبَ سُليمان المال لا غير، فتستعد معه للتفاوض الاقتصادي، وإن رفضوا كان الموضوع أبعَدَ من ذلك، وهذا الذي كان مِن سُليمان: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ الخطاب لزعيم الوفد الذي حمل الهدية إليه.

﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ من سبأ.

﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ خاضعون لحكمنا.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ في القصة اختصار يدلُّ عليه السياق، والظاهر أنَّها بعد أن أبلغها الوفد رسالة سُليمان ومعها الهدية التي رفض قبولها، أرسلت إليه تُخبِرُه بأنَّها قادمة إليه، فطلَبَ سُليمانُ مِن جنده أن ينقلوا عرشَها إليه لتجِده أمامها عند سُليمان!

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ تقديرٌ لِقِصَر الوقت، بمعنى: أنَّه سيُحضِره له قبل أن يُغادِر مجلسه.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: بلا زمن، والذي عنده هذا العلم لم يُخبِرنا الله بشأنه، وكيف حصل على هذا العلم، والظاهر أنَّه جزءٌ مِن الحالة العامَّة التي كانت سائِدة في مُلك سُليمان، فلا هذا العلم يقبل التعلُّم، ولا الجنّ يقدِرون اليوم على أن ينقُلوا الأشياء الثقيلةَ مِن مكانٍ إلى آخر، فذلك كلُّه مِن خصائص مُلك سُليمان الذي هو معجزات وخوارق للعادات، لا يُقاس عليها ولا يُقتدَى بها، والله أعلم.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن الله تعالى وتقدَّس لا ينتفع بشُكرنا له، وإنَّما نفعُ الشكر يعود لنا ثوابًا منه وقربةً إليه.

﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيِّرُوا فيه؛ بحيث لا يظهر لها كما عهِدَتْه، أراد اختبار ذكائها، واتِّزان رأيها، ودقَّة مُلاحظتها.

﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أتعرف عرشها بعد التغيير الذي أُحدِث فيه، أم تكون غافلةً عنه، ولو عرَفَتْه فماذا ستقول فيه وقد خلَّفَتْه وراءَها في سبأ؟ إنه أشبَه باختبار نمَط شخصيَّتها ومكانة عقلها.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ جوابٌ في غاية الذكاء والاتِّزان، والظاهرُ أنَّها عرَفَتْه؛ فهو عرشُها الذي عهِدَتْه رغم ما حصل فيه من تغييرٍ، لكنها ترَكَتْه وراءَها، فما الذي

جاء به؟ فأجابَت بجوابٍ مُحتمل، لا يستطيع أحدٌ أن يُكذِّبَها فيه، وهذه عادةُ السياسيين في كلامهم وحواراتهم.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ الظاهرُ أنه من قول سُليمان حين رأى علمَها ورجاحَةَ عقلها، ذكر نعمةَ الله عليه بالعلم السابق على علمها، والإيمان السابق على إيمانها سبق زمان، وسبق رتبة، والله أعلم.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ جوابٌ لسؤال مُفترض؛ أنها إذا كانت برجاحة العقل هذه، كيف إذن صُدَّت عن توحيد الله وعبادته؟

والجوابُ: أنها نشأت في قومٍ كافرين لا يعرفون إلا عبادةَ الشمس، والإنسان مهما بلغ، أسيرٌ لبيئته ومجتمعه، خاصَّة لمن يتصدَّر فيهم، ويسعى للاحتفاظ بمكانته عندهم.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ هنا ظهر التفاوُت في العلم وهندسة العمران، فلم ينفعها الذكاءُ بشيءٍ؛ لقلة خِبرَتها في هذا، وهذه مُقاربة لطيفة بين مفهوم العقل ومفهوم العلم؛ فالعاقل مهما بلغ عقله قد يزِلُّ أو يضِلُّ بسبب نقص المعلومات التي عنده.

ومن ثَمَّ فالدرس المستفاد من هذه الحادثة: أن لا يتَّكِل الذكيُّ على ذكائه في تحليل الأشياء والأحداث من غير علمٍ كافٍ بتفاصيل المسألة وما يحيط بها، وفوق كل ذي علم عليم.

واللُّجَّةُ: بِركة الماء، والقوارير: الزُّجَاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهنا قادَها ذكاؤها ورجاحة عقلها، واتِّزان شخصيَّتها إلى التفكير بحالها وعقيدتها التي نشَأَت عليها، فاعترفت بخطئها، ثم أعلَنَت إسلامَها على قاعدة التخلِيَة قبل التحلِيَة؛ فهي قد هدَمَت عقيدتَها الفاسدة أولًا، ثم أقامَت مكانها عقيدة التوحيد؛ لتبقى عقيدةً نقيَّةً خالصةً لا تشوبها شائبة الماضي.

وفي الربط بين ما رأته من معالم العلم وإتقان الصنعة وبين دخولها في الإسلام تأكيد أن القِيَم الإسلامية حين تترجم واقعًا في حياة الناس، ونموذجًا صالحًا على الأرض، فإنَّ هذا يكون أدعَى لنجاح الدعوة، وإقناع الآخرين بها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

صالح ولوط عليهما السلام

بعد تجربة المُلك التي قادَها نبيُّ الله سُليمان، يعرض القرآن هنا نموذجًا مختلفًا، نموذج الطغيان الذي يحاصر الدعوة ويحارب أهلها بعنادٍ ومُكابرة، فتكون غاية الدعاة: النجاة بأنفسهم ومن معهم مِن وطأة الظلم، ومِن عذاب الله الذي يأخذ هذا الطغيان وأهله.

وقد تضمَّن هذا النموذج حالتَين مختلفتَين:

حالة الظلم الذي يُواجِهُه الدعاة بسبب تعصُّب القبيلة، وتمسُّكها بموروث الآباء والأجداد ولو كان خرافةً وكفرًا، وقد مثَّل هذه الحالةَ سيِّدنا صالِحٌ في مُواجهة قبيلته ثمود.

وأما الحالة الثانية: والتي مثَّلها سيِّدنا لوطٌ، فكانت تجسِّد مُواجهةَ الدعاة للفساد والمنكر الذي ينتشر في المجتمعات المدنية على خلاف المجتمعات القبليَّة، ويمكن تلخِيصُ هذا النموذج كما ورد في هذه الآيات بالآتي:

أولًا: كانت دعوة صالح ﷺ لقومه مركَّزة في جانب الإيمان وعبادة الله وحده: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، بينما كانت دعوة لوط لقومه مركَّزة في الأخلاق؛ لإنقاذهم من الشذوذ الذي شطَّ بهم بعيدًا عن فِطرة الآدميين: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

ثانيًا: رفضَت ثمودُ دعوةَ نبيِّها ﷺ، ومكَرُوا به مُحاوِلين قتله وأهله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وكذلك رفضَ قومُ لوط ﷺ دعوةَ نبيِّهم، ومكروا به ليُخرِجُوه وأهله من قريتهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

ثالثًا: أهلَكَ الله ثمودَ، ونجَّى صالحًا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، وكذلك نجَّى الله لوطًا، وأهلَكَ قومَه ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

إن الغاية من تقديم هذه النماذج المختلفة – مع ما فيها من دروس وعبر مُتنوِّعة – إنما هي فتح مجال الاحتمالات المتوقعة لمسيرة هذه الدعوة مهما كان القائمون عليها من الصلاح وحسن الاستقامة؛ فسُنن الله غلَّابة، والتمكين في الأرض لا بُدَّ له من اجتماع أسبابه، ولا

يكفي فيه صدق النيَّة، وحُسن السيرة.

وقد رأينا كثيرًا من الأنبياء - وهم أنبياء - لم يُمكِّن الله لهم، بل كان غايةُ أمرهم: النجاة بأنفسهم وبمن معهم.

إن الدعوة اليوم بحاجةٍ إلى أن تنظر في واقعها وواقع العالم من حولها، والتفاوُت الضخم في موازين القوى، ولا تتألَّى على الله بالأماني، ومن ثَمَّ ترسُمُ طريقةَ عملها بما يُناسِب إمكانياتها لا بما يناسب رغباتها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

دقائق التفسير

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فريق مصدِّق وفريق مكذِّب، والمصدِّقون هم القلَّة المستضعَفون، بدلالة قوله تعالى في مكان آخر: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، والآية تشير إلى معنى المخاصمة أيضًا.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لِمَ تطلبون العذاب وتستعجِلُونه عليكم بعِنادكم وتكذيبكم، ولا تطلبون رحمة الله وهي قريبة منكم لو اهتديتم؟

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ﴾ أسلوب من أساليب الحث والطلب، بمعنى: هلَّا تستغفرون الله.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أصلُه: تطيَّرنا، ومعناه: تشاءَمنا.

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: ما قُدِّرَ لكم من خيرٍ أو شرٍّ فهو عند الله، وذلك بحَسب أعمالكم وما تُقدِّمُونه لأنفسكم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الحِجر، وذِكرُ المدينة لا ينفي عنهم طبع القبيلة، فثمود قبيلة معروفة وقد استوطَنَت الحِجر، والحِجر بين الحجاز والشام.

﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ تسعة أشخاص، وأصل الرهط: العدد القليل من الناس، والظاهر أنهم من عتاة القوم وطغاتهم.

﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ تعاهَدوا وتحالَفوا بالله، وهذا دليلٌ أنهم كانوا يعرفون الله، لكنَّهم يُشركون به على عادة كثيرٍ من العرب.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ لنقتلنَّه مع أهله غِيلةً وغدرًا.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لِوَليِّ دمه، والظاهر أنه ممن لم يشمَله وعيدهم؛ لأنه ربما كان من ملَّتهم.

﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: لم نحضر مقتله ومقتل أهله، ولا ندري عن قاتلهم شيئًا، وإنا لصادقون فيما نُخبركم به.

﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ باستدراجهم إلى حَتفهم وهلاكهم.

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ خالية من أهلها، وكانت في الطريق بين الحجاز والشام يراها الناس.

﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ بمعنى أن الذي يعقِل ويُبصِر لا يمكن أن ينتكِس إلى مثل هذا الشذوذ.

﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ فهم لا يريدون أحدًا يُعكِّر عليهم ما هم فيه مُنغمِسون، وهذا دَيدَن الغارق في الشهوة، بخلاف صاحب الشُّبهة والفكرة الخاطئة.

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ربما كان ذلك على سبيل التهكُّم والسخرية، لكن حالة هؤلاء القوم لا يُستبعد معها أنهم يُفاخرون بالفساد والرذيلة، ولا يُحاولون تغطيتها أو تسميتها بغير أسمائها، وهذا دَرك ما تحته دَرك، وشذوذ ما بعده شذوذ.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين الباقين في العذاب، بسبب موالاتها لهم.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ إشارة إلى أن عذابهم لم يكن ابتداءً، رغم ما هم فيه من كفر وفساد، وإنما كان بعد النذارة وإقامة الحجة.

وهنا تدبُّرٌ دقيقٌ: أن قوم صالح تآمروا عليه لقتله، وقوم لوط تآمروا عليه لإخراجه، وقد نزلت هذه الآيات على سيدنا محمدٍ ﷺ وهو في مكة، وكانت قريشٌ تتآمَر عليه أيضًا لقتله أو إخراجه، وكان في هذا إنذارٌ لهم، وتسليةٌ مُطمئِنةٌ لنبيِّنا الكريم عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

الإيمان بالله سبحانه وتعالى

بعد هذه النماذج المتنوعة والنتائج المختلفة في مصير الدعوة والدعاة، يعود القرآن للتذكير بأصل القضية التي بعث الله بها الرسل، والتي انقسم فيها الناس، وأنتجَت كلَّ ذلك التاريخ المختلف أو المتنوِّع، إنها قضيَّةُ الإيمان، وفي هذه الآيات يعرِض القرآن أدلَّته في مناقشة المُنكِرين، وكما يأتي:

أولًا: يُوجِّه القرآن سؤالَه الكلِّيَّ الذي يهزُّ القلوب، ويحرِّك العقول ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهو سؤالٌ يدعو أولًا للبحث في مفهوم الألوهية، والصفات اللازمة لها، ثم النظر في هذا الكون وحاجته في كل جزئية من جزئياته إلى القدرة المطلقة، والعلم الشامل، والحكمة الدقيقة التي لا يُمكن أن يتَّصِف بها إلا إلهٌ واحدٌ.

تجدُرُ الإشارة هنا أن هذا السؤال الكبير قد جاء مُتصلًا بتزكية شاملة لأولئك النبيين الذين أفنَوا حياتهم في سبيل هذه القضية، وإقناع أقوامهم بالجواب الصحيح على هذا

السؤال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثانيًا: انتقل القرآن إلى شواهِدِ الإيمان في نشأة هذا الخلق وما فيه مِن عنايةٍ ورعايةٍ لهذا الإنسان ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

ثالثًا: تابَعَ القرآن حديثَه عن هذه الأرض، وكيف هيَّأها وأعدَّها لتكون مقرًّا صالحًا وممهَّدًا لهذه الحياة ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: في انعِطافةٍ وجدانيةٍ عاطفيَّةٍ خاطب القرآن هذا الإنسان من داخله، من ضميره ووجدانه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

خامسًا: عاد القرآن ليذكِّر بنعم الله وآلائه المبثوثة في نواحي هذا الكون، والتي تشهد كلها بتدبير الخالق الواحد ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

سادسًا: أكَّد القرآن النشأةَ الأولى للخلق، وقدرته سبحانه على إعادة الخلق كما هو مُشاهَد في دورة الماء والنبات مما لا يقدِر عليه إلا العليم الذي أحاطَ علمُه بالزمان والمكان، وأسباب الحياة وأسباب الموت تبارك ربُّنا وتعالى ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ﴾ هم النبيُّون السابِقُون، على نبيِّنا وعليهم الصلاة والتسليم.

﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يدعُوهم بهذا السؤال الكبير؛ للتفكُّر في حالهم وحال أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، كيف يجعلونها ندًّا لله تبارك وتعالى.

﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ صالحة لاستقرار الحياة فيها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا ثوابت.

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ فلا يختلِط أحدهما بالآخر.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ استفهام استنكاري، وقد تكرَّر بعد كل نعمة يعدُّها، كأنه يقول: هل من آلهتكم مَن كان مع الله في هذا الخلق وفي هذا الرزق الذي أنتم تعيشُون به وتتنعَّمُون؟

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والمُضطر هو الذي بلَغَ به الضرر أو الخوف منه مبلغًا مع عَجزه عن دَفعِه.

﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ يكشف الضر.

﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ بما أودع الله في هذا الكون من نجوم دالَّة في السماء، ومعالم شاخِصة في الأرض.

﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾ أي: تحمل لكم البشارة بقدوم المطر.

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ وهذا السؤال الذي يعصِف بكل الآلهة المزيَّفة؛ إذ لا يدَّعِي عاقِلٌ أنها كانت في لحظة الخلق الأول، أو قبله، بل هي مصنوعة وطارئة، فكيف تصحُّ أن تكون آلهةً لهذا الخلق؟

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في دورة الحياة المحسوسة في النبات وغيره، وفي الحياة الموعودة بالنسبة للإنسان.

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ تذكيرٌ بأن الذي يخلق هذا الخلق بكل من فيه وما فيه، لا بُدَّ أن يكون عالمًا بكلياته وجزئياته، بل هو عالمٌ به وبصورته وحقيقته قبل خلقِه، فكيف بالآلهة المزيفة التي لا علم لها ولا عقل، ولا تسمع ولا تبصر؟

المجلس السبعون بعد المائة

سُورَةُ النَّمْلِ

من الآية ﴿٦٦ - ٩٣﴾

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

الإيمان باليوم الآخر

الإيمانُ باليوم الآخر هو الرُّكنُ المُتمِّم للإيمان بالله؛ ولذلك يأتيان معًا في غالب آيات القرآن؛ حيث إنَّ الإيمان بالله من دون الإيمان بيوم الحساب، يجعل الإنسان كأنه في حِلٍّ من الالتزام العملي بمُقتضيات ذلك الإيمان، وقد جاءَت هذه الآيات لبَحث هذا الموضوع، وما يتعلَّق به من تصوُّرات وتساؤُلات، وكما يأتي:

أولًا: شخَّص القرآن حال المشركين وموقفهم من اليوم الآخر﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

فأصل المشكلة عندهم: الاستبعاد المبني على الجهل، وكأنهم يعلمون كيف بدأ خلقهم أول مرَّة، لكي يتوقفوا عند الخلق الثاني. إنه نوعٌ من الغرور وخِداع الذات، وكان مُنتهى حُجَّتهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

ثانيًا: أكَّد القرآن أن سبَبَ هذا الإنكار أو الاستبعاد إنما هو الجهل المتعمَّد بتعطيل الفكر وغلق منافذه، وتعطيل أدواته ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾، وهذا تصوير دقيق لحال المشركين عند سماعِهم كلمات الإيمان وأدلَّته وما تتضمَّنه من عِبر وعِظات.

ثالثًا: يؤكِّد القرآن أن الإيمان باليوم الآخر هو الحق المُنسجِم مع حقائق هذا الخلق، ومع الغاية من خلق هذا الإنسان، ومع ما في هذه الحياة من دروس وعبر ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾.

رابعًا: أنذر القرآن هؤلاء المكذِّبين بعاجل العذاب ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

خامسًا: ذكر القرآن علامةً من علامات اليوم الآخر تُنبِئُ عن قُرب وقوعه ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾، ثم لَمَّح بالعلامات الأخرى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

سادسًا: فصَّل القرآن حقيقةَ اليوم الآخر، وأنه الحساب القادم الذي يلقى فيه الناس جزاء أعمالهم ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

سابعًا: أكَّد القرآن مصدريَّته الموثوقة لبيان هذه الحقائق وغيرها، فهو رسالةُ الله الأخيرة لهذه الأرض، وفيها الخبرُ اليقينُ، والحكمُ الفصلُ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ وادَّارَك أصلها تدارَك، أي: تتابع ولحِقَ بعضُه بعضًا، والمقصود أن معلوماتهم عن الآخرة قد تتابعت من كل جيل، واختلط بعضها ببعض تعصُّبًا وتقليدًا، وهوًى مُتَّبَعًا بلا دليل ولا بيِّنة، فتشابَهَت أقوالُهم فيها؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: كالعُميان.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطَّره الأولون من قصص وحكايات بلا دليل ولا بيِّنة.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم ليدفعهم إلى النظر الجاد والتفكير الهادف.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تأكيدٌ لرحمته ﷺ بقومه وشفقته عليهم، ورغبته في هدايتهم.

﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لحِقَكم وقرب منكم.

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب، والإشارة هنا إلى يوم بدر، والله أعلم.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تُخفيه.

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ شبَّه المشرك المعانِد بالميت الذي لا يسمع.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ تشبيهٌ آخر بالأصم المُدبِر الذي لا يرى المتحدِّثَ، ولا يسمعه ولا يفهم منه شيئًا.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ تشبيهٌ ثالثٌ، والمقصود أن هؤلاء المشركين قد أغلَقُوا بعِنادهم وغرُورهم كل منافِذَ الاطلاع والمعرفة عندهم.

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ إذ كان التكذيب مبنيًّا على الحسد والكِبر، وليس على النظر والفكر.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حلَّ بهم وعيده سبحانه، والظاهر من السياق أنه الساعة.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ الدابَّة ما يدبُّ على الأرض، وخروجها علامةٌ من علامات الساعة، وهي من الأخبار الغيبيَّة الثابتة بالوحي، فينبغي الإيمان بها والوقوف على النص؛ لأن العلم بها وبكل السمعيَّات لا يأتي إلا عن طريق النص.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ والفَوج: الجماعة من الناس، والمقصود هنا: قادة الكفر في كل أمة.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُزجرون وينتظمون في وقفتهم وحركتهم بحسب ما يتلقونه من أمر.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ بحجة ولا باعتذار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ تذكير بنعم الله التي تستوجب

الشكر لا الكفر؛ فالليل جعله للسكن والراحة، والنهار للعمل، ونسب الإبصار إلى النهار مجازًا بمعنى أنه محل الإبصار بخلاف الليل.

وهنا إشارة دقيقة، وهي: أن الله قد أمهلهم كثيرًا، فتعاقب عليهم الليل والنهار، وكان لديهم فُسحة مديدة ومتنوعة للتفكير.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ البُوق الذي ينفخ فيه إسرافيل ﷺ مُعلنًا ساعة الفناء وانتهاء الحياة الدنيا، ثم ينفخ فيه مرة أخرى لإعلان ساعة البعث والقيام لرب العالمين، والصُّور من الأمور الغيبية التي لا نعرف عنها شيئًا، فينبغي الوقوف عند خبر الوحي، ثم الإمساك عن الكيفيَّة والتفصيل.

﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والفزع الخوف والذعر والنفرة.

﴿دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ ذهب المفسرون إلى أن هذا كائن حين تقوم الساعة، فجعلوها علامةً على خراب الأرض ونهاية الحياة، ثم تكلَّفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ ولم يكن العلم آنذاك قد أثبت دوران الأرض حول نفسها، ودورانها حول الشمس؛ لينتج عن الدوران الأول: الليل والنهار، وعن الدوران الثاني: الفصول الأربعة.

فالجبال التي نراها ثابتة راسخة جامدة إنما هي تدور بدوران الأرض، وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وليس من علامات الخراب والدمار، والتطرُّق إلى هذا الصنع في خِضَمِّ الحديث عن القيامة هو من باب الالتفات والتذكير المتكرر بنعم الله وآلائه، والله أعلم.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: من جاء بالعمل الصالح فله مزيد من ثواب الله وكرمه فوق ما يرجو ويستحق، والله يُضاعف لمن يشاء.

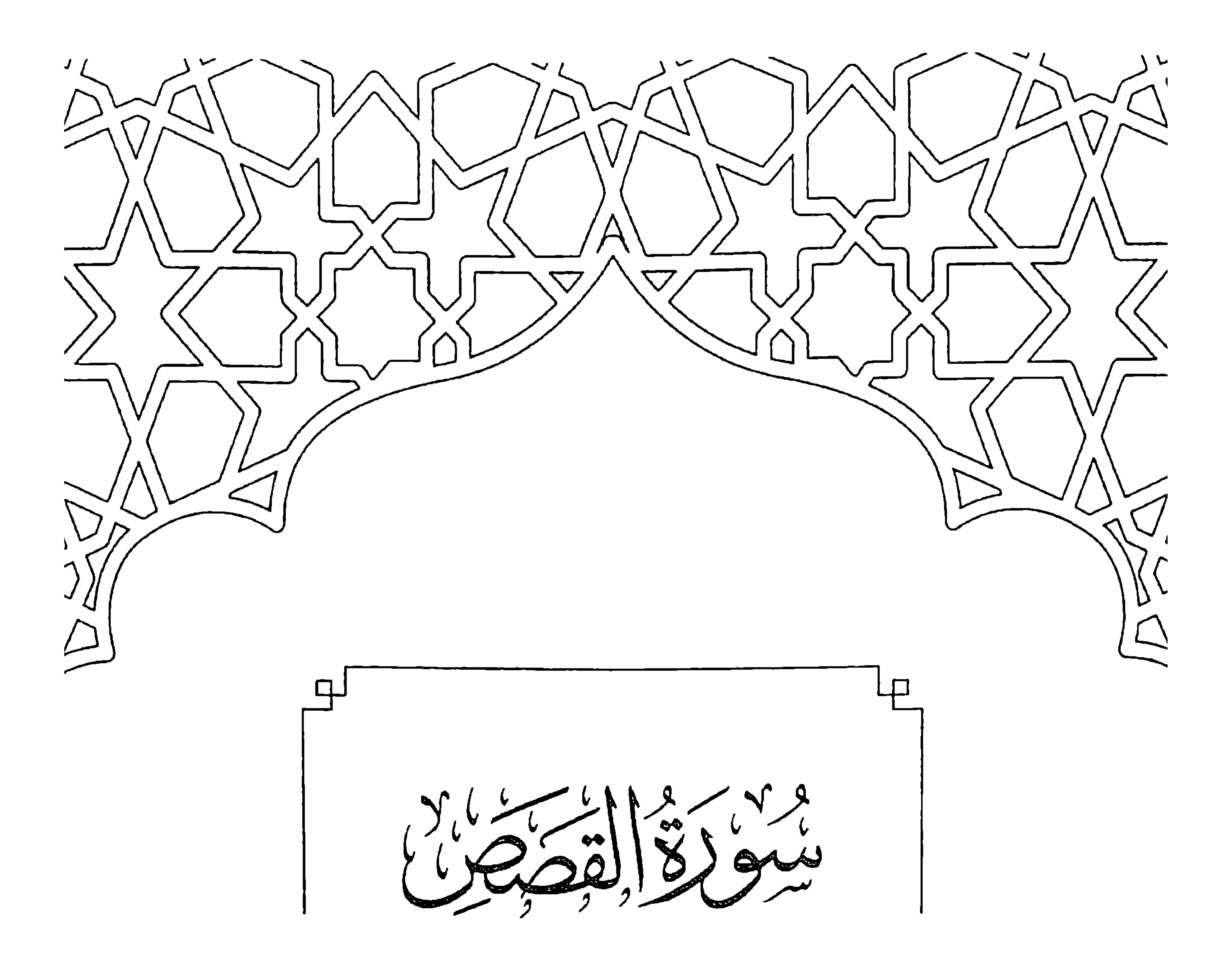
﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالله لا يظلم أحدًا، وإنما هي أوزارهم التي اقترَفَتْها أيديهم، وبمحض إرادتهم واختيارهم.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ مكة، وفي هذا التخصيص تشريفٌ لمكة، وتلطُّف لا يخفى بأهلها.

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ الذي جعلها حرمًا آمنًا.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أصلٌ في علاقة الداعي بالمدعو، فعلى الداعي البيان والإنذار، ثم المدعو يتحمل مسؤوليته التكليفية، وعاقبة اختياره وقراره.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل ألوهيته وصدق وعده ووعيده، وفي الآية إشارةٌ لما يكتشفه الإنسان من علوم كونية تشهد لهذا القرآن، كما مرَّ معنا آنفًا في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾.



سُورَةُ القَصَصِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

موسى عليه السلام الهدف الكبير والعناية الإلهية المبكرة

المحور الأساس لسورة القصص هو قصَّة موسى عليه السلام، وهي القصة الوحيدة التي تناولتها هذه السورة، ثم تنتقل السورة - وفي سياقٍ متصلٍ - إلى واقع الدعوة في مكة؛ لتؤكِّد الوشائج القويَّة بين الدعوتين المحمَّديَّة والموسويَّة، والتي مرَّت معنا في تدبُّر فواتح سورة النمل.

تتناول هذه الآيات المشهدَ الأوَّل من حياة موسى عليه السلام، وعناية الله تعالى به، من أيامه الأولى بما يتناسب مع الهدف الكبير الذي اختاره الله تعالى له، وكما يأتي:

أولًا: أكَّد القرآن أن هذه القصَّة من الوحي الإلهي الموجَّه إلى الرسول الخاتم ﷺ، في تأكيدٍ متكررٍ للربط بين الدعوتين المباركتين: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثانيًا: وصف القرآن واقع السياسة الفرعونيَّة، وأنها قائمة على التفرقة والتمييز العنصري أو الطائفي، وأن طائفةً واحدةً - وهم بنو إسرائيل - كانت تتحمَّل العبءَ الأكبرَ مِن ظلمه بذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ثالثًا: حدَّد القرآن الهدفَ الكبير الذي اختاره الله لينقذ هؤلاء المظلومين من نَيرِ الظُّلم والعبوديَّة والاستضعاف إلى أُفُقِ الحريَّة والسيادة والتمكين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

رابعًا: بدأت مظاهر العناية الإلهيَّة بهذا المولود الكريم بذلك الوحي الذي حمَلَ إلى أُمِّهِ أمرَين، ونهيَين، وبشارتَين: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ في إشارةٍ واضحةٍ أن هذا المولود الكريم قد أعدَّه الله لذلك الهدف الكبير.

خامسًا: نفَّذت أُمُّه ﷺ ما أمَرَها الله به، فألقَتْه في البحر بالطريقة التي تحفَظه مِن سطوة رجال فرعون، والذين كانوا يبحثون عن أبناء هذه الطائفة المُستضعَفة الذين وُلِدوا حديثًا ليذبحوهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ حيث وصل الرضيعُ المباركُ إلى قصر فرعون، ليحظى برعايتهم على عكس ما خطَّطوا له ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

سادسًا: كانت أمُّه تشعر ببرد الطمأنينة التي ربَطَها الله على قلبها، رغم رقَّة قلبها، ووهج عاطفتها وهي ترى رضيعها تتجهُ به أمواجُ النهر إلى يدِ عدوه.

وهنا يدخل عنصرٌ آخر في المشهد: أخت موسى التي ربما لا تقلُّ عاطفتها عن عاطفة أُمِّها، مع حزنٍ أعمق وقلقٍ أشدَّ، بحكم أنَّها الأصغر سنًّا، والأقل خبرة، ولأنها لم يُوحَ إليها بما يُبشِّرها ويُطمئِنُها كما أُوحِيَ إلى أُمِّها، فاندفعت - وبتوجيهٍ من أُمِّها - تتتبَّعُ أخاها الرضيعَ عن بُعدٍ، حتى بَصُرَت به بين أيديهم وهم لا يشعرون بها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

سابعًا: كانت رغبة آسية امرأة فرعون باتخاذه ولدًا سببًا في حمايته ورعايته، وكان من مقتضى ذلك: البحث له عن مُرضِعة، ولكنَّ الرضيع يمتنع عن كلِّ المرضعات بقدرٍ إلهيٍّ ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

وهنا تدخَّلَت أختُه لتُشير عليهم بأهل بيتٍ يَكفُلُونه لهم، والقرآن هنا لا يُفصِّل في كيفيَّة اقتِناعهم بهذا الرأي؛ لأنَّ ذلك لا يؤثِّر في النتيجة، فالمهم أنه رجع لأُمِّه، ليتحقق وعد الله تعالى لها، فكانت أُمُّه تُرضعه دون أن يعلموا أنَّها أُمُّه، ومِن ثَمَّ كانوا يُنفِقُون عليها وعلى رضيعها، وهذا من مقتضى كفالتها لموسى عنهم ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فسبحان الله! كيف ألقَتْه في اليمِّ منذ يومٍ أو بعض يوم خائفة عليه منه، ثُمَّ أعادوه هم إليها باهتمامٍ وعنايةٍ، ومزيدِ رزقٍ.

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ نقُصُّ عليك شيئًا مِن خبر موسى ﷺ مع فرعون.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هم المسلمون، في إشارةٍ إلى حاجة هذه الأُمَّة لذلك القصص ولتلك التجربة الثريَّة بعد أن اختارها الله بديلًا عن قوم موسى ﷺ في حمل الأمانة، وتبليغ الرسالة.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ قسَّمهم إلى طوائف، وأنشَبَ الفُرقة بينهم، وهذه سياسةٌ مُتَّبَعة لدى طواغيت الأرض، ووسيلتهم لإشغال الناس ببعضهم.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ هم بنو إسرائيل.

﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يستبقيهنَّ للخدمة.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ هم بنو إسرائيل، والمَنُّ: الإنعام، بمعنى أنَّ الله يُريد أن يُنعِم على بني إسرائيل بما سيأتي ذكره.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قادةً وملوكًا، وقد كان لهم ذلك أيام داود وسُليمان ﷺ.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ الذين يرِثُون المُلكَ بعد نجاتهم من قبضة فرعون وهلاكه.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ حيث كان الفراعنة يخشَون زوالَ مُلكهم على يدِ واحدٍ من بني إسرائيل، وأنَّ هؤلاء المستضعفين سيعلو شأنُهم، ويكونون قادةً وملوكًا، فكان كلّ ما كانوا يخشَونه ويحذَرونه.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الظاهر أنَّ هذا وحيٌ على الحقيقة، وهذا هو الأصل، وتأويله بالإلهام أو المنام تحرُّزًا عن القول بنبوة النساء لا يخلو من التكلُّف، ولا أعلم نصًّا صريحًا في المنع يقتضي هذا التأويل، خاصَّةً عند من يُفرِّق بين معنى النبي ومعنى الرسول، فيرى التبليغ لازمًا للرسالة دون النبوة، فهذا التفريق مُتنفَّسٌ قويٌّ لمن يقول بنبوة المرأة؛ إذ لم

يَرِد اختصاص الرجال إلا بالرسالة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾[1].

ثُمَّ إذا أمكَنَ تأويل الأمر بالإرضاع بالفِطرة، والأمر بإلقائه في اليمِّ بالغريزة، فكيف نتأوَّل النهيَين: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾، والبشارتَين: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

والذي يؤيِّد أنَّ هذه بِشارة وَحيٍ قوله تعالى الآتي: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

ثُمَّ إنَّ هذا التأويل يفتح البابَ لدُعاة الضلال والباطنيَّة للقول باستمرار مثل هذا الوحي على الأئمة مِن غير أن يكونوا أنبياء؛ وذلك لأنه لو قُلنا: إنَّ كلَّ هذا الذي تلَقَّتْه أمُّ موسى وكذلك أمُّ عيسى ﷺ ليس وحيًا، مع ما فيه مِن أوامر ونواهٍ، وبشاراتٍ وخطابٍ مُباشرٍ من الملائكة ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فما الذي يمنع أن ينزِل مثل هذا على الأئمة مِن بعد الرسل؟

﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ البحر، والمقصود به هنا: نهر النيل.

﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ اللام هنا لام العاقبة وليست للتعليل؛ لأنَّهم إنما التقَطوه ليكون لهم ولدًا، فكان لهم عدوًّا، والحَزن والحُزن بمعنًى.

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾أي: خاليًا من كلِّ همٍّ إلَّا مِن همِّ رضيعِها وهي تراه بين أمواج النيل أولًا، ثم بين أيدِي آل فرعون ثانيًا.

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ من شدَّة حزنها وقلقها عليه، كأن ترفع صوتَها بالبكاء والعَويل مثلًا.

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ بالتثبيت.

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم مرتَين في القرآن الكريم، في سورة يوسف/ ١٠٩، وسورة النحل/ ٤٣.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ اتَّبعيه وتقصّي خَبرَه.

﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ تحريمًا قدريًّا، بمعنى المنع وليس التحريم التكليفي، فكُلَّما تقدَّمَت إليه امرأةٌ لتُرضِعه أبى.

﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ يبدو أنَّهم بعد امتناعه عن الرضاعة صاروا يبحثون له عن مُرضعةٍ تُناسِبُه، فتوافد الناس تقرُّبًا لفرعون، فدخَلَت أختُه معهم وقالت كلِمتها دون أن تُثير الرِّيبة.

﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي: معرُوفون بالأمانة والنُّصح.

﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ والمقصود بوعد الله هنا: قوله تعالى المتقدِّم: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ وهو تأكيدٌ أنَّ ذلك الوعد إنَّما كان وَحيًا على الحقيقة، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

موسى عليه السلام بعد أن بلغ أشدّه

ينتقِلُ السياق القرآني ليعرِض لنا مرحلةً أخرى من حياة هذا النبيِّ الكريم؛ حيث بلغ أَشُدَّهُ وأَوْجَ قوَّته، وهو مُنجذِبٌ في حياته الاجتماعيَّة إلى جهتَين متنافرتَين: بيت فرعون الذي تولَّاه بالرعاية وأغدق عليه حتى بلغ أَشُدَّهُ، وبيت بني إسرائيل، وهم أهلُه الذين كانوا يعيشون تحت وطأة فرعون وظُلمه، وكان على موسى عليه السلام أن يختار موقفَه، وهنا يأتي الحدث الذي يُعجِّل بتحديد المسار، ثم لتكون له آثاره وتداعياته الكبيرة والخطيرة، وكما يأتي:

أولًا: تضع السورة إطارًا عامًّا لحياةِ موسى ﷺ؛ حيث بلغ أَشُدَّهُ، فآتاه الله حكمًا وعلمًا، وجعله من المحسنين ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثانيًا: في هذه المرحلة يحصلُ لموسى ﷺ حدثٌ مُهِمٌّ في حياته؛ حيث استغاثَه رجلٌ مِن قومه على رجلٍ مِن قوم فرعون في غفلةٍ من الناس، فضرَبَه موسى بعصاه فقتله دون أن يعلَمَ بذلك أحدٌ، والظاهرُ أنه لم يُرِد قتلَه، ثم ندِم موسى على فِعلته هذه، وعدَّها من عمل الشيطان: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والمقطوع به: أنَّ هذا كان قبل أن يُوحَى إليه؛ حيث كان تكليفُه بالرسالة بعد فِراره منهم، كما هو معلوم.

ثالثًا: رغم شعوره ﷺ بالندم على قتل الفرعونيِّ، إلَّا أنَّه وضع لنفسه قاعدةً صارمةً وحاسمةً أن لا يكون عونًا لمجرمٍ، جاعلًا هذا من تمام شكره لنعمة الله عليه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

وهنا إشارةٌ: أنَّ الفرعونيَّ كان ظالمًا، وأنَّ صاحبه الذي استغاثَ به كان مظلومًا؛ ولذلك لَمَّا استغاثه مرَّة أخرى نصَرَه وهمَّ بأن يبطِش بعدوِّهما، وقد مرَّ في فواتح هذه السورة أنَّ فرعون كان يُذبِّح أبناءهم، ويَستَحيِي نساءهم، فهذا أصلٌ في العلاقة بين الفئتَين، لكنَّ موسى لا يريد أن يستعجل المواجهة معهم، ومِن ثَمَّ جعل فعلتَه تلك خطأً من الشيطان، ثم لامَ صاحبَه على كثرة خصومته مع قوم فرعون - كما سيأتي -، والله أعلم.

رابعًا: أخذ موسى بعد أن قتل الرجل الفرعوني يترقَّب الأخبار، وهو خائفٌ مما سيحصُلُ له، ثم قدَّر الله أن يرَى صاحبَه الإسرائيليَّ في خصام مع فرعونيٍّ آخر، فاستغاثَ به الإسرائيليُّ مرة أخرى، فأنَّبَه موسى على كثرة خصوماته وإن كان من الفئة المظلومة:

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ لكنَّه لم يتخلَّ عن نُصرته، فهمَّ بقتل الفرعوني ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

خامسًا:عرف الفراعنة أنَّ موسى هو مَن قتَلَ صاحبَهم، فأْتمروا لقتله، غير أنَّ الله هيَّأ له من يُحذِّره ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فخرج موسى من أرض مصر فارًّا بنفسه على خوفٍ وترقُّبٍ مِن فرعون وملئِه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكانت وِجهَتُه: أرض مدين شمال جزيرة العرب ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

سادسًا: على ماء مدين كان له مشهدٌ آخر ،غيَّر كثيرًا من نمط حياته، حينما وجد الناس يسقون من الماء إلَّا امرأتين مُنعزلتين عن الناس ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

سابعًا: ذهب موسى إلى ظلٍّ قريبٍ من الماء ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾ لم يكن لموسى إلَّا أن يستجيبَ، فانطلق معها حتى وافَى أباها ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهنا يظهر أنَّ الله تعالى قد اختارَ لموسى ﷺ هذا البيتَ الصالحَ، وقد عرف موسى صلاحَ هذا البيت من حياء المرأتَين، وحِرْصِ أبيهما على مكافأته بالخير أن سقَى لهما، فاطمأنَّ وقصَّ قصَّتَه التي ألجَأَتْه إلى الخروج، فكان جوابُ الشيخ يُؤكِّدُ صلاحَه وكرمَه، وحُسنَ خُلُقه.

ثامنًا: عرَضَت إحدى المرأتين على أبيها أن يُبقِيه عندهم أجيرًا يرعَى لهم ماشِيَتَهم ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وكانت حاجتهم له قائمة، ولا يبعُد أيضًا أنَّ أباها فهِمَ منها أنَّها تُريده زوجًا، لكن تعريضًا يُناسِبُ أدبَها وحياءَها لا تصريحًا.

تاسعًا: توجَّه الشيخ الكبير إلى موسى بما فيه الحكمة والمصلحة المشتركة له ولابنته ولضيفه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

عاشرًا: قبِلَ موسى ﷺ عرضَ صاحب البيت، فتمَّ زواجُه بالتي اختارها، وإشارة السياق أنَّها التي اختارَتْه أيضًا، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: بلغ مبلغ الرجال وكملت قوَّته، وفيه أنَّ (استوى) تدلُّ على الكمال والقوة، كما تدل على العلوِّ.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: في وقت غفلتهم وراحتهم، بمعنى أنَّه لم يكن في طريقه أحدٌ إلا الاثنَين المتخاصمَين.

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ﴾ الأول من بني إسرائيل، والثاني من قوم فرعون.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ طلب منه الغوث والعون.

﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ طعَنَه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ مات بتلك الطعنة، ولم يكن مُتعمدًا قتله.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ لأنَّه أدرك أنَّ عاقبة هذا الفعل قد لا تكون خيرًا عليه وعلى قومه.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ لن أكون عونًا لهم.

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه ويطلب نجدته.

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بمعنى أنَّك تتسبَّب في الشرِّ بكثرة تعرُّضك للخصومة، وليس فيه حُكْمٌ لصالح الفرعونيِّ؛ إذ لو كان كذلك لما همَّ بالبطش به، ولأنَّه من غير المتوقع أن يعتدي الإسرائيلي - وهو من الفئة المستضعفة - على الفرعوني - وهو من الفِئة الحاكِمة -.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ مُحتملٌ أن يكون القائل هو الإسرائيلي؛ لما رأى من غضبه ولومه الشديد له، فظنَّ أنَّه يقصده، وهنا قرينةٌ: أنَّه لا أحد غيره يعلم بقتل الأول.

ولا يبعُد أن يكون القائل هو الفرعونيّ، بدلالة السياق، ويكون قوله على سبيل التهمة؛ لأنَّ حادثة القتل حصَلَت يقينًا، ولكنهم لم يعرفوا القاتل، فلما رأى هذا الفرعوني شدَّة موسى وجُرأته عليه حتى كاد أن يقتُلَه، عرف أنَّه هو القاتل؛ لأنه لم يعهد هذا في بني إسرائيل، وفي مثل هذه الحالات يكون مثل هذا الاتهام على سبيل الردع والتخويف، والله أعلم.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي: يُسرع في مشيه.

﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بشأن قتلك والانتقام منك.

﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ جهة مدين.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيل السويّ والمستقيم.

﴿تَذُودَانِ﴾ تكفَّان غنَمَهما عن زحمة الرعاة.

﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ حتى ينصرف الرعاة بأغنامهم عن الماء.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لم يُحدد القرآن هويَّته، لكنَّه ظاهر الصلاح والعدل، فلعلَّه كان نبيًّا أو تابعًا لنبيٍّ، وقد انصرَفَت أذهانُ بعض المفسرين إلى شُعيبٍ ﷺ؛ لأن مدين قومه الذين

بُعث فيهم، وليس هذا دليلًا كافيًا؛ إذ قد يكون الزمن مختلفًا، والله أعلم.

﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ استظلَّ بشجرةٍ قريبةٍ من الماء.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أي: فقير لمثل ما أنزلتَه عليَّ من الخير، مزَجَ بين شكره لله على نعمائه السابقة؛ إذ نجَّاه من فرعون، وأعطاه العلم والحكمة، وبين دعائه؛ إذ هو الآن بحاجة إلى المأوى والغذاء وأسباب المعيشة.

﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ قد تمكَّن منها الحياء، وقد ظهر هذا الخُلُقُ الجميلُ فيها من طريقةِ مشيها.

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنَّ فرعون لا سلطان له على مدين.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ أي: اتَّخِذه أجيرًا.

﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ قيمتان متكاملتان من قِيَم العمل: القوَّة، والأمانة، وكلُّ ما عداهما تبَعٌ لهما، ويدورُ في فلكهما.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ أي: تعمل عندي ثماني سنوات.

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ أي: إذا قضَيتَ الثماني أو العشر فقد أدَّيت ما عليَّ، فلا تطلب مني الزيادةَ عليها، وربما كانت الحكمة الإلهيَّة في بقائه في مدين وبجوار هذا الرجل الصالح كلّ هذه السنوات الثماني أو العشر؛ لإعداده إعدادًا يُناسِبُ مهمته الكبرى التي تنتظره، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾

موسى عليه السلام والمهمة الكبيرة

أتمّ موسى الأجلَ ووفَّى بالشرط، ثم سار بأهله لتبدأ في الطريق مرحلةٌ أخرى، هي المرحلة الفاصلةُ في تأريخه عليه السلام؛ حيث اختاره الله رسولًا إلى فرعون وملَئِه، وفيما يلي ومَضات من هذه المرحلة المباركة:

أولًا: في طريقه مع زوجته بعد أن أتمَّ لأبيها الأجل، شاهد نارًا على جانب الطور، فترك أهله واتَّجه نحو النار؛ لعلَّه يجد فيها مَن يدُلُّه على الطريق، أو يأخذ منها جذوةً لحاجته

وحاجة أهله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

ثانيًا: هناك على النار كانت اللحظة التاريخيَّة التي يقِفُ العقلُ أمامها عاجزًا عن إدراك كُنهها، مُنبهرًا بآثارها ونتائجها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثالثًا: وفي تلك اللحظة أيضًا أظهَرَ الله لنبيِّه آيتَين من آياته مقترنَتَين بتكليفٍ إلهيٍّ مُباشر مُؤذِنٍ ببداية الصراع الطويل والمرير مع جبهة الباطل التي كان يقودها فرعون وملؤه ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

رابعًا: عرض موسى ﷺ ضعفَه البشريَّ بتواضع العبد لخالقه، داعيًا منه سبحانه أن يُعضِّدَه بأخيه هارون ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

خامسًا: استجابَ الله لموسى سُؤلَه، وزاده طمأنةً وتثبيتًا: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

سادسًا: بلَّغ موسى ﷺ رسالةَ ربِّه، فردُّوه وكذَّبوه واتَّهمُوه بالسحر ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

سابعًا: تمادى فرعون في غيِّه، وراح يُسخِّر طاقات أُمَّته فيما لا طائل ولا فائدة منه، سوى إشباع غروره ونَهَمِه في الاستعلاء على قومه واستعبادهم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾.

ثامنًا: حَكَمَ الله عليهم كما حَكَمَ على المكذِّبين من قبلهم بالهلاك الدنيوي والعذاب الأخروي ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾.

تاسعًا: أكَّد الله اصطفاءَ موسى لتلك المرحلة الحرجة من التاريخ البشري، وتأييده له بالتوراة التي جعلها الله هدًى ورحمةً، كما اصطفى الأنبياء السابقين، في إشارةٍ إلى وحدة الرسالة السماويَّة لدى كلِّ المرسلين مهما اختلفت أسماؤهم وطبيعة أقوامهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ءَانَسَ﴾ أبصَرَ ووجدَ، وفي اللفظة معنى الأُنس والارتياح.

﴿جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ جهة الجبل الذي يقال له: الطور.

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ لعلِّي أجِدُ على النار مَن يُخبرني عن الطريق المؤدِّي إلى مصر.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قبسٌ من النَّار ينفعُكم في الدفءِ ونحوه.

﴿شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ طرف الوادي الذي على يمين موسى ﷺ.

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ من جهة الشجرة، وتجتمع هنا معالم تلك الأرض المباركة التي سمع فيها موسى نداء ربِّه؛ جبلٌ اسمه الطور، ووادٍ، وشجرة.

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذَكَرَ المفسِّرون هنا أنَّ العرب تطلق الجانَّ على ضَربٍ من الحيَّات معروف بسرعة الحركة، ولا يبعُد أنَّه أرادَ واحدَ الجنِّ؛ لما هو معهودٌ في أذهان الناس مِن خِفَّتِهم وسرعة حركتِهم، ويُعضِّدُ هذا أنَّ العصا قُلِبَت حقيقةً إلى حيَّة، فكان تشبيهُها بالجنِّ أقربَ من تشبيهِها بالحيَّة، والله أعلم.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ هرَبَ خائفًا مما حصل لعصاه ولم يرجع.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أدخِل يدك في جيبك.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عاهةٍ ومرضٍ.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أصلُ الجناح للطائر، واستُعِير هنا لليد؛ تشبيهًا بحال الطائر حينما يضم جناحه إلى نفسه.

﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ من الخوف، ومعناه أنَّك إن خِفتَ من منظر يدك ووهجها، فَضُمَّها إليك مرَّةً أخرى ترجع إلى طبيعتها.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد.

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ اعترف بفضل أخيه وتميُّزه عليه في الفصاحة والبيان، رغم فضل موسى المطلق وتقدُّمه عليه، وهذا من الإنصاف وجميل الخُلُق، وفيه أيضًا أهميَّة الفصاحة والبيان في الدعوة إلى الله.

﴿رِدْءًا﴾ مُعينًا ومُؤيِّدًا.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنُقوِّيك ونشدُّ عزمَك بأخيك، وفيه إشارةٌ أنَّ الداعية في مهمته الكبيرة بحاجةٍ إلى المُعين، والأخ العَضِيد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ بُرهانًا ومنعَةً.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ لا يمسُّونكما بسوء.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وعدٌ إلهيٌّ، وقد تحقَّقَ بهلاك فرعون وجُنده، ونجاة موسى وهارون ﷺ وقومهما.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سببٌ من أهمِّ أسباب الضلال والجمود، ذلك هو التمسُّك الأعمى بموروث الآباء والأجداد دون تفكيرٍ ولا تمييزٍ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ كلمة تهتزُّ لها الرواسي، وتشيب لها النواصي، فهذا المخلوق الذي لا يستغني عن لقمة الخبز، وشَربة الماء، ومُعاودة بيت الخلاء في الصباح والمساء، يقِف مُنتفِشًا ومُنتشِيًا بين ملَئِه وحاشيته بعد أن غطَّى عورَتَه بثوبٍ من صُنع الفقراء والبؤساء، ليُعلِنَ أنَّه الإله الأوحد!

ثم يُصدِّقُه الغَوغاء من كلِّ أعمى قلبٍ، ومطموس بصيرةٍ، يلهَثُون خلف فُتاته وما تجودُ به لهم يدُه، ولو أعملوا عقولهم لعلموا أنّه يتصدَّق عليهم مما سرقه منهم، ومن ثروات بلادهم.

إنَّها صورة مُكرَّرة تعكِس علاقةَ الحاكم بالمحكوم في المجتمعات المُتخلِّفة التي يُعشعِشُ فيها الجهل، فينهض فيها الفساد والاستبداد، ويكثُر فيها التزلُّف والنفاق.

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ حيث يتحوَّل الطين بالنار إلى حجارةٍ صلبةٍ، ويُسمَّى الآجُرّ أو الطين المفخور، فيكون أصلَحَ للبناء وأدوَمَ من اللَّبِن، وهامان كان وزيرًا لفرعون.

﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ بناءً عاليًا ومُشرفًا.

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وهذا من سخف عقله إن كان يعتقد أنَّه بطينه المفخور سيبلُغُ السماء، ولا يبعُد أنَّه إنَّما أراد إشغال الناس وإلهاءهم بهذا البناء عن حديث موسى ﷺ وما جاء به من الآيات الباهرات، ولأنَّ البناء يأخذ وقتًا طويلًا، وجهدًا كبيرًا، فهو أدعى لتحقيق الغرض.

وهذه طريقةٌ شائعةٌ عند الملوك لإشغال رعيتهم وإلهائهم، وليس هناك من معلومات

يمكن اعتمادها في حقيقة هذا الصرح، وهل تمَّ بناؤه بالفعل أو لا.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ فيه تأكيدٌ للربط بين التكبُّر والبغي بغير الحقِّ وبين نكران الآخرة والشكِّ بعقيدة الحساب والجزاء.

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ ألقيناهم في البحر.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ قادة يأخذون بأيدي من اتبعهم إلى النار.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خِزيًا ومهانةً وهلاكًا.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المنبوذين والمعذَّبين في نار جهنَّم.

﴿بَصَآئِرَ﴾ جمع بصيرة، بمعنى أنَّ التوراة كتابُ علمٍ يُبصِّرُ الناس بطريقهم، ويُرشِدُهم إلى ما فيه خيرُهم.

المجلس
الرابع والسبعون بعد المائة

سورة القصص

من الآية [illegible] - ٥٧

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

الدعوة المحمدية

بعد شَرحِ القرآن لقصَّة موسى ﷺ، التفَتَ إلى واقع الدعوة المُحمدية في مكة، وهي محل الخطاب، والمقصود بكلِّ تلك القصص وما فيها من دروسٍ وعبرٍ، مع تأكيد متواصل ومكرر لطبيعة الصلة بين الدعوتين المحمديَّة والموسويَّة وأهميَّتها وخصوصيَّتها، ويمكن استخلاص المعاني التي وردت في هذا السياق بالآتي:

أولًا: ذكَّر القرآن بمعالم من قصَّة موسى ﷺ، في سياق التأكيد أن القصَّة هذه من وحي الله، وأنَّ محمدًا ﷺ لم يكن يعلَمُ عنها شيئًا، وأنَّ الغايةَ مِن كلِّ هذا استمرار الرسالة الإلهيَّة بما تحمِلُه من بشارةٍ ونذارةٍ، وهدًى ورحمة ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا

كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

ثانيًا: أنذر القرآن المشركين بعد أن أقام عليهم الحُجَّة، حتى لم يَبقَ لهم عُذرٌ يعتذرون به ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

ثالثًا: أورد القرآن اعتراضًا للمشركين ليس له وَجهٌ، ولا ينمُّ عن علمٍ ولا نظر ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾، فردَّ القرآنُ عليهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾.

وواقع المشركين يشهدُ بأنَّهم مُخالِفون لرسالة موسى، مع مخالفتهم لرسالة محمد ﷺ؛ إذ نقضوا أصلَ الرسالتين باتخاذهم الأصنام آلهةً من دون الله، وكفرهم باليوم الآخر.

رابعًا: أثبت القرآن بطلان اعتراض المشركين، وأنهم غير صادقين في دعواهم، وإنما هو الضلال الناتج عن نزعة الهوى ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

خامسًا: أثنَى الله على طائفة من أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب السابق والكتاب اللاحق، فأسلموا لله مرَّتين: مرَّةً باتباعهم للنبيين السابقين، ومرَّةً باتباعهم للنبيِّ الخاتم عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ

وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

سادسًا: أكَّد القرآنُ أنَّ الهدايةَ بيدِ الله وحده على وفق سُننه في الابتلاء والاختبار، وليست بالأمانيِّ؛ فمَن اختارَ طريقَ الهداية هُدِيَ، ومَن اختارَ طريق الضلالة ضَلَّ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

سابعًا: أورَدَ القرآن اعتراضًا ثانيًا للمشركين: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ ﴾ وهو اعتراضٌ سياسيٌّ ربما اعتذر به نفرٌ منهم ممن لم يتجرَّأ على المجاهرة بالتكذيب، فهم يُعربون عن خوفهم من محاربة العرب لهم إن خالفوهم فيما يعتقدون؛ إذ كانت قريش سيِّدة العرب بموقعها الديني، وسيطرتها على شعائر الحج، ورعايتها للحَجيج.

وقد ردَّ القرآن هذا الاعتراض أو الاعتذار: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بمعنى أنهم عندهم من الأمن ومن الرزق ما يُطمئِنُهم، ويدفع عنهم هذا الخوف، وقد أثبتَت الوقائع فيما بعد أنَّ العرب كانت تنظر في تديُّنها إلى قريش، فلما أسلَمَت أسلَمُوا ودخلوا في دين الله أفواجًا.

دقائق التفسير

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: لم تكن يا محمد في الجانب الغربي من الجبل، والمقصود أنك لم تكن في تلك البقعة، وها أنت تَروِي لقومك تفصيلَ قصَّة موسى مما لا عِلم لهم به، وهذا دليلٌ على نبوَّتك وصدق رسالتك.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وما كنت مِن الحاضِرين.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي: وما كنت يا محمد مُقيمًا مع أهل مدين، وها أنت تقصُّ على قومك قصَّة موسى مع أهل مدين، وزواجه منهم، ومُكُوثه سنين بين

ظهرانيهم، وما دارَ بينه وبين ذلك الشيخ الصالح، فكلُ هذا دلائل مُستفيضةٌ على صدق رسالتك ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تأكيدٌ لما مضى، وبيانٌ لمصدر هذه المعلومات، وهو الوحي والنبوَّة، وأنَّ الغاية من كلِّ هذا إنذار الخلق بصوت الحقِّ، وما فيه من بيانٍ لطريق النجاة، وتحقيق الرحمة والسعادة الأبدية.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (لولا) الأولى حرف امتناع لوجود، و(لولا) الثانية أداة طلب، والمعنى أنَّه لولا أن يعتذروا حين يقع عليهم العذاب بعدم مجيء الرسول إليهم، لما أرسلنا إليهم رسولًا؛ لعِلْمِنا السابق بعنادهم وكفرهم، ولكن الله أرادَ أن يُقيمَ عليهم الحُجَّة ولا يترك لهم عذرًا.

﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ هو قول المشركين، يعتذرون به عن اتِّباع الهَدي المُحمَّدي، كأنَّهم يقولون: لو كان مثل ما جاء به موسى لاتَّبعناه، وقد كذبوا في هذا؛ لأنهم كفروا بما جاء به موسى أيضًا من التوحيد؛ حيث عبَدُوا أصنامهم من دون الله؛ ولذلك قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ سِحْرَانِ تعاوَنَا وصدَّق أحدُهما الآخر، ويقصِدون به: التوراة والقرآن، وهذا تأكيدٌ لكفرِهم بالرسالتَين؛ ولذلك قال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي: من التوراة والقرآن، وهذا دفعٌ لما اعتذروا به، وتبيينٌ لكذبهم فيه؛ ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى﴾ بيانٌ لأكبر أسباب الغواية والضلال، إنَّه الهوى الذي يُعمِي ويُصم، ويُبعد عن مقتضى العقل والعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالظالم أبعَدُ ما يكون عن الهداية.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أرسلنا لهم الرسول الذي يُبلغهم قولنا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ قصد به: الذين أسلموا مِن أهل الكتاب وصدَّقوا برسالة محمد ﷺ، فكانوا حجَّةً على غيرهم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُؤمنين بمحمدٍ ﷺ قبل أن نراه؛ لأنَّه موصوفٌ عندنا في كُتبنا، وكنَّا ننتظِرُ مجيئَه.

﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ لأنَّهم آمنوا بالرسالتين: رسالة أنبيائهم السابقين، ورسالة محمدٍ عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم، ولأنَّهم آمنوا بأنفسهم وكانوا حُجَّةً على غيرهم، وهذا يتطلَّبُ قدرًا كبيرًا من الصبر والتضحية بالجاه والمكانة الدينية في أقوامهم؛ ولذلك قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ وهو درسٌ لكلِّ صاحب علمٍ أن لا يبيع ما عنده من الحقِّ والعلم بغرضٍ ومتاعٍ زائلٍ.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهذا نموذجٌ لحلمهم وصبرهم، فكلُّ صاحبِ علمٍ يخالف قومه وما وَرِثُوه من عاداتٍ وخرافاتٍ فإنَّه سيتعرَّض للسوء، وهو هنا مُطالَبٌ بالحلم والعفو؛ لأنَّه في مقام المُصلِح والداعِي إلى الخير.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ صفةٌ أخرى تُبيِّن صِدق هؤلاء في إسلامهم وتديُّنهم، والحديثُ لا زال عن علماء أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمَّد ﷺ.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وهذه من صفات العلماء أيضًا، حتى لا يختَلِطَ العلمُ باللغوِ، فيحصل ما نراه اليوم مما يمكن تسميته بفوضى المعرفة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم ولا نُنازِعُهم فيما هم فيه، بل هم أهلٌ للشفقة مهما بدَوا فيه من التَّرَف والنعيم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ هداية التوفيق وتغيير القلوب، أما هداية التعليم والإرشاد فهذه مضمون الرسالة وغايتها.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ وفقًا لسننه العادلة، فكلُّ مَن طلب الهداية هُدِي، وحاشا لله أن يجبر أحدًا على الضلال.

﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ أي: تأخذنا العرب إذا خالفناهم في دينهم، وينهون سلطاننا ووجودنا في مكة.

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لأنه بوادٍ غير ذي زرعٍ، فسخَّر الله من يأتِيه بالثمار والطعام من خارِجه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وعد المؤمنين ووعيد المكذّبين

عقيدةُ الجزاء هي العقيدة التي تدفع باتجاه التفكير الجادِّ بالمنهج الذي يُحقِّقُ الغايةَ المنشودة في تحقيقِ السعادة الدائمة، ودرء العذاب والشقاء، ومِن ثَمَّ نرى هذا التركيز والتأكيد في عرض هذه العقيدة في أغلب سور القرآن، وفي حوارات القرآن مع المُكذِّبين والمُعانِدين بشكلٍ خاص، وهنا نموذجٌ لمنهجيَّة القرآن هذه:

أولًا: ذكَّر القرآنُ المشركينَ بعاقبة القرى المكذِّبة، والتي دفعها البطر والترف إلى هذا التكذيب، فعجّل الله بهلاكها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ

تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

ثانيًا: أكَّد القرآن عقيدةَ العدل الإلهي، وأنه سبحانه لا يُعذِّب أمَّةً إلا بعد بيان الحق لها، وإقامة الحجة عليها ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾.

وفي هذا ردٌّ على كل التصوُّرات الخاطئة عن عقيدة القَدَر، والتعذُّر بها عن كل انحراف وخطيئة وكفر، فالإنسان هو الذي يُسعِد نفسه أو يظلِمها، وهو الذي يختارُ طريقَ الحق أو طريقَ الضلال.

ثالثًا: قارَنَ القرآن بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وبين أهل الوعد وأهل الوعيد ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾.

رابعًا: نقل القرآن لنا مشهدًا من مشاهد المشركين في الآخرة؛ حيث يُنادِيهم الحقُّ سبحانه على سبيل التهكُّم واللَّوم والتقريع، ويسألهم عن أصنامهم وآلهتهم المزيَّفة، فيُقرُّون بخَيبَتِهم وخسارتهم، وضلال عقولهم: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾.

خامسًا: ثم ينقل القرآن مشهدًا آخر يُنادَى فيه على كافَّة الخلق بنداء واحد، وسؤال واحد: ماذا أجَبتُم المرسلين؟ وهذا السؤال هو الفيصلُ بين أهل الحق وأهل الضلال، بين السعداء الناجين بإيمانهم واستجابتهم، وبين الهالكين بتكذيبهم وعنادهم ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾.

سادسًا: يُذكِّر القرآن هنا بمعاني التوحيد الكليَّة: توحيده في الخلق، وتوحيده في الحكم،

وتوحيده في أسمائه وصفاته؛ إذ التوحيد هو عنوان الصراط المستقيم الذي يُفرِّق بين أصحاب الجنَّة، وأصحاب الجحيم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سابعًا: يقيم القرآن الحجَّةَ البالغة على وحدانيَّته سبحانه، وأنه هو وحده الذي يخلُق هذا الكون ويُسيِّره، ويُحكِم نظامه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ثامنًا: يعود القرآن إلى أصل الموضوع ليُذكِّر بذلك اليوم المشهود، والنداء الذي يخطِف الأبصار ويذهب بالألباب؛ حيث تنكشف الحقيقة كما هي، ويُقرُّ الجميع بالحق الذي لا يملكون سبيلًا لإنكاره أو الصدود عنه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ كفَرَت بنعمة الله وطغَت فيها.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ عاد مُلكُهم لنا بانقطاعهم عن آخرهم، فلم يبق لهم وارث.

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ في أعظمها أو أهمِّها.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، ودفع لأيِّ شُبهة أو توهُّم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الآخرة

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مما هو عندكم في الدنيا.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ هو وعدُ الجنَّة ونعيمها.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، بمعنى: هل يستوي ذلك الموعود بالجنَّة والسعادة الدائمة بهذا الذي تمتَّع بالدنيا وزينتها، ثم أحضَرناه للحساب؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ والمنادي هو الله الجليل تعالى، ونداؤه هناك بالصفة التي تَلِيقُ به، وحسبُنا أن نصمت ونتدبَّر في مدلول ذلك النداء الذي يخلع القلوب.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: الوعيد بالعذاب.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ اعتِرافٌ وندمٌ ما بعده ندم، وحسرةٌ ما بعدها حسرة، فهؤلاء قادةُ الغواية والضلال يعترفون أنهم قد ارتكبوا الغواية مرَّتين: مرَّة بغواية أنفسهم، والأخرى بإغواء أتباعهم.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، فلم يعُد بيننا حبلٌ من الصلة والود.

﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ لأنهم إنما كانوا يتقرَّبون منا ويستجيبون لنا ابتغاءَ الجاه والمتاع، فهم بذلك إنما عبدوا أهواءهم.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ جوابه محذوف ومفهوم من السياق، ومعناه أنهم لو كانوا يهتدون ويطلبون الهداية لما وصلوا إلى هذه الحال.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ بُهِتوا ولم يُحِيروا جوابًا، ولم يجدوا قولًا أو خبرًا يُجيبون به، ولا

يعلَمون ماذا ينتظرهم بعد هذا السؤال: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ ولا يستطيع أحدُهم أن يسأل الآخر أو يُعينه بجوابٍ ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ بمعنى أن هؤلاء هم الذي أجابوا الرسل في حياتهم الدنيا، فهم يعرفون الجواب لهم في الآخرة.

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ فيه إشارةٌ لسببٍ من أسباب صدود المشركين عن الرسل ﷺ؛ إذ تمنَّوا على الله أن يُرسِل غيرهم، فكان هذا سببًا في ضلالهم وكِبرهم وحسدهم.

﴿سَرۡمَدًا﴾ دائمًا.

﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ﴾ بنهار تَسعَون فيه لشؤونكم وأسباب رزقكم.

﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: في الليل.

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: في النهار.

﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أخرجنا من كل أمة شاهدًا يشهَد عليهم.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تأكيد أن ما كانوا عليه من الضلال لم يكن عن نظر وفكر، وإنما كانوا يكذِبُون على أنفسهم، ويعلَمُون أنهم يكذِبُون.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

دروس من قصة قارون وتوجيهات ختامية

في الآيات الأخيرة من هذه السورة يعرض القرآن صورة مركبة، تجمع بين تاريخ الدعوة وواقعها، فتأخذ قطعةً من تاريخ الدعوة الموسويَّة لتدمجه مع الواقع الذي تعيشه الدعوة المحمديَّة في مكة، مع ومَضات جليَّة من التوجيهات الربانيَّة، وبسياق يُؤكِّد أننا في مدرسةٍ واحدةٍ مهما تباعَدَت أيامها، واختَلَفَت أماكنها:

أولًا: يعرض القرآن هنا قصة قارون؛ ذلك الرجل المليء، الذي أنعَمَ الله عليه بالمال حتى غدَا مضرِبَ المثل الذي لا يُنافِسه أحد، وكان من قوم موسى، فأغراه مالُه بالخروج عنهم،

واختيار طريق الغواية والباطل ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

ثانيًا: يذكر القرآن أن قومه كانوا يدعونه إلى الخير، ويُحاولون نُصحَه وإنقاذه من هاوية الضلال التي أوقع نفسه فيها ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثالثًا: يرُدُّ عليهم قارونُ بلغة المُتغطرِس المغرور الذي ينسِبُ النعمةَ إلى نفسه، ولا ينسبها إلى المُنعِم تبارك وتعالى ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

رابعًا: كان الناس يتفاوتون في نظرتهم إليه؛ فأما أهلُ الدنيا فكانوا يتمنَّون أن يكونوا مثلَه، وأما أهلُ العلم فكانوا يُحذِّرون مِن طريقته وأسلوبه في الحياة، وعاقبته التي تنتظره وتنتظر أمثالَه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾.

خامسًا: لقِيَ قارونُ جزاءَه في الدنيا قبل الآخرة؛ ليكون عبرةً لكل مُعتبِر ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

سادسًا: نبَّهَ القرآن الكريم إلى الحقيقة التي ينبغي أن يقِف عندها الإنسان طويلًا، والعبرة التي ينبغي أن يتدبَّرَها كلُّ عاقلٍ من قصة قارون وعاقبته البائِسة، فالدنيا زائِلةٌ بزينتها

وبهرجها ومتاعها وأموالها، وإنما العاقبة للتقوى وعمل الخير ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

سابعًا: يؤكِّد القرآن مبدأ العدل الإلهي، فللمُحسِن الحسنى ومزيد فضل، وليس للمُسيء إلا جزاء سيئته ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثامنًا: يؤكِّد القرآن للنبيِّ الخاتم سيدنا محمد ﷺ أنه مهما طالَت مُعاناته مع قومه وهم في كِبْرهم وعنادهم ومكرهم، فإن يوم المعاد بانتظاره وانتظارهم، ذلك اليوم الذي سيرفعه الله فيه مقامًا محمودًا، وسيسعَد به أصحابه ومُحِبُّوه وأتباعه، وسيشقَى فيه مَن كذَّبه وعاداه وعانَده، وهو خطابٌ كذلك لكلِّ داعٍ للحق إلى يوم الدين ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

تاسعًا: يؤكِّد القرآن الاصطفاء الإلهي لهذا النبيِّ الكريم ﷺ، وأن الله خصَّه بهذا القرآن على غير تطلُّع منه ولا تشوُّف ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

عاشرًا: يُوصِي القرآن كلَّ مؤمن مُوحِّد بثلاث وصايا - وإن جاءت صيغةُ الخطاب لرسول الله ﷺ خاصَّة -، وهي:

- التمايُز عن أهل الكفر والضلال، وعدم مُعاونتهم في كفرهم وضلالهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

- الدعوة إلى الحق، وعدم الاكتفاء بالعزلة عن الباطل؛ إذ بين الحق والباطل صراعُ وجود لا صراعَ حدود ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾.

- الثبات على عقيدة الحق، عقيدة التوحيد الخالص ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ خرج عليهم بظُلمه لهم، وتكذيبه لنبيِّهم، ومُمالأته لعدوِّهم.

﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمع مِفتاح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: إن حَملَ مفاتيحه كان يُثقِل الجماعةَ القويَّةَ من الرجال، فكيف بخزائنه!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هو الفرح بالبغي والتعالِي على الحق، أما أصلُ الفرح فمشروعٌ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ التوازن والاعتدال، فهذا المالُ نعمة، والأجدَرُ بصاحبها أن يستعمِلَها فيما يُحقِّقُ سعادتَه في الدنيا والآخرة، وجاء التوجيهُ بقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، مع أن الإنسان ليس من شأنه أن ينسَى هذا؛ ولكن لأنه سُبِق بذكر الآخرة، فقد يتوهَّم السامع أن العمل للآخرة يستدعي إهمالَ الدنيا.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ إشارةٌ لخطورة المال إذا استُعمِل في طرُق الفساد.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ أي: بقوَّتي وخبرتي وبما أستحقُّه من فضلي ومكانتي.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وصفٌ ليوم من أيام الآخرة لا يملك فيه المجرمون سؤالًا ولا جوابًا، فهم يعرفون مصيرَهم، والله أعلَمُ بحالهم، فلا يسألهم سؤالَ المُستفهِم، وإنما يسألهم سؤالَ التقريع واللوم والإذلال، وسيُجيبُونه - كما ورد آنفًا - بما يؤكِّد ندمَهم وإقرارهم بجريمتهم، وذلك في وقتٍ مخصوصٍ للحساب، وفي غير هذا، فإنَّ الله لا يُكلِّمهم ولا يتقبَّلُ منهم قولًا ولا جوابًا.

﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ هذا هو مِعيارُ أهل الدنيا الغافلين عن الله واليوم الآخر؛ فصاحِبُ الحظِّ العظيم هو من يملِك هذا المتاع وهذه الزينة، وإن كان سيُغادِرُها مُجرَّدًا منها ومن كل شيء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ فالعلماء ينظُرون أبعَدَ مما ينظر أهلُ الجهل وأهلُ الغفلة، فمعاييرُ السعادة عندهم لا تحكمها الشهوة الزائلة، ولا اللحظة العابرة.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ إشارة إلى أن مقاومة هذا الإغراء والإغواء بحاجةٍ إلى صبرٍ مُتأصِّلٍ في النفوس، لا تُطيحُ به التصوُّرات القاصرة، ولا المنافسات الباطلة.

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ليكون عبرةً إلى يوم الدين، وجاء الخسف مناسبًا لتطاوله وتعاليه على قومه وعلى النبوَّة والحق الذي كان معهم.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ رغم كثرة خدَمه وحشَمه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ بنفسه.

﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ﴾ أي: الذين تمنَّوا أن يكونوا بمكانه ومكانته من المال والجاه، وهم الذين تقدَّم قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾.

﴿وَيۡكَأَنَّ﴾ كلمة مركبة لإرادة التعجُّب، وأصلها: (ويْ) وهي اسم فعل للتعجب، وقد أُضيف إليها كاف الخطاب للتنبيهِ إليها، ودمجت مع (أنَّ) التي تُفيد التوكيد.

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يُوسِّع على من يشاء، ويُضيِّق على من يشاء؛ لحكمةٍ لا تخفَى، من تسخير بعض الناس لبعض، ولو كانوا على مستوى واحد لضاعَت الأعمال والمِهَن، وهم في كل ذلك مُبتلَون ومُمتَحَنون؛ فالغنيُّ مُبتلًى بالفقير، والفقير مُبتلًى بالغنيِّ، والسعيدُ من عرَفَ واجبه وأدَّى حقَّه أينما كان، وكيفما كان.

﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بمعنى أنَّ الله منَّ عليهم فلم يستجِب لدعائهم أو تمنِّيهم الأول بأن يكونوا مثل قارون، وهذه إشارةٌ أنَّ الإنسان لا يعلم الغيب، فلا ينبغي أن

يستعجِل في دعائه، ولا أن يشعر بالغَبن أو اليأس وهو يرى أُمنياته بعيدة، فالخيرُ لا يعلمه إلا الله، وكم من غِنًى افتَتَنَ به صاحبه فأورَدَه المهالك، وكم من فقرٍ صبَرَ عليه صاحبه فكان سببًا لعزته ورفعته.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ بمعنى أن الدنيا فيها هذا التفاوت في الرزق، وليس فيه دليل على محبة الله لهذا ولا بُغضه لذاك، أما الآخرة فتكون خالصةً للصالحين الذين نجحوا في دار الاختبار، فلم يطلبوا علوًّا ولا فسادًا.

والعلوُّ هنا: التكبُّر المُقترِن بالفساد، أما العلوُّ بالإيمان، وطلب السموِّ والعزَّة والهمَّة العالية فهذا مِن شأن المؤمن الموصول بالله ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذلك فضلُ الله وكرَمُه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ذلك عدلُ الله تبارك وتعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى ذلك اليوم الموعود، وهو يوم الحوض، والمقام المحمود، والشفاعة العُظمى، فصلَّى الله عليك وسلَّم يا رسول الله، وحشَرَنا تحت لوائك، وفي زُمرتك وبين إخوانك وصحبك.

هذا الذي نراه أرجح في السياق، فالحديث عن الآخرة وكونها خالصةً للمؤمنين، وفيه تسلِيةٌ له ﷺ وللصحابة المعذَّبين تحت سِياط المُترَفين والمتكبِّرين والمُفسِدين، كما أن السورة مكيَّة، فيبعُد أن يكون المراد إخباره بالرجوع إلى مكة بعد الهجرة، والله أعلم.

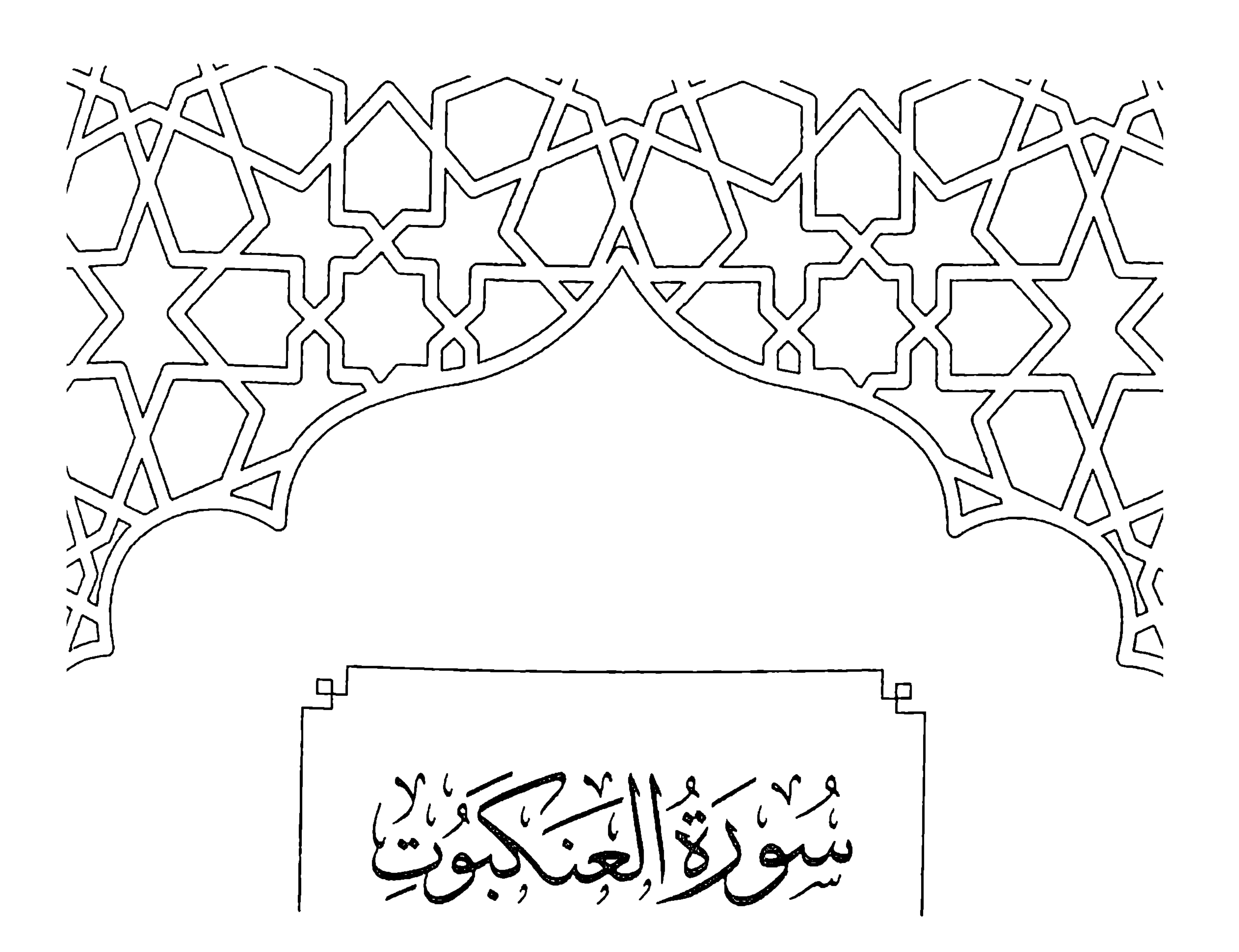
﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: مُعِينًا لهم، والخطابُ للأمة في شخصِه ﷺ فهو المُبلِّغ، وهو القُدوة، كما قال في موضع آخر: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ورسولُ الله مُنزَّهٌ عن كل ذلك.

وهنا لطيفةٌ دقيقةٌ: أنَّ هذا التوجيهَ جاء بعد قصَّة موسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وقد جاء فيها قول موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ في تأكيدٍ مُستمر على وحدة الرسالات السماوية بصورةٍ عامَّةٍ، وصلةُ هذه الدعوة المحمديَّة بالدعوة الموسويَّة بصورةٍ خاصَّةٍ.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لا يصرفنَّك عنها، والقول فيها كالقول في سابقتها.

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ أمر بالدعوة، في حقِّه ﷺ وفي حقِّ أمته من بعده إلى يوم الدين.

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ فلا ينبغي للمؤمن أن يتعلَّق قلبُه بغيره سبحانه، فكل ما عداه هالكٌ وفانٍ.



سورة العنكبوت

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣﴾

فتنة الاختبار والتمحيص

الاختبار مقصدٌ من مقاصِد خلق الإنسان، يتناسَبُ مع وظيفته وطبيعة تكوينه، وغاية الاختبار: التمحيص والتمييز بين الصالح والطالح ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢].

وفي هذه السورة تأكيدٌ لهذا المقصد في حقِّ الناس أجمعين، وفي حقِّ المُنتسِبين منهم للإيمان أيضًا، وهذه معالم هذا المقصد العظيم كما بيَّنَته فواتحُ هذه السورة:

أولًا: دَفَعَ القرآنُ توهُّم بعض المُنتسِبين للإيمان أنَّ دعواهم هذه تُخرِجُهم من دائرة الابتلاء والاختبار ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فهذه سنَّةٌ إلهيَّةٌ ثابتةٌ في الناس كافَّة لا تستثني أحدًا، ولا يفلِت منها أحد.

ثانيًا: أكَّدَ القرآن أنَّ الإنسان مجزِيٌّ بعمله، وأنَّ الذين يقترِفُون السيئات سينالُون عقابهم ولن يجدوا لهم مَهرَبًا أو مَخرَجًا ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ثالثًا: أكَّد القرآنُ أنَّ العامل إنَّما يعمل لنفسه، فما يزرعه يحصده، والله غنيٌّ عن العالمين، فلا ينتفع مِن صلاحهم، ولا يتضرَّر مِن فسادهم ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

رابعًا: أكَّد القرآن سعة رحمة الله، وعظيم عفوه لِمَن أقبل عليه تائبًا، واستقام على الطريق الذي يُرضي الله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

خامسًا: بيَّن القرآن أنَّ موضوعَ الاختبار لا ينحصر في الشعائر التعبُّدية؛ من صلاةٍ وصيامٍ ونحوهما، بل هو مساحةٌ أوسع تشمل كلَّ حياة الإنسان ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

وجاء تخصيصُ الوالدَين؛ لأنَّهما الأقربُ والأَولَى بالبِرِّ، فمَن قصَّرَ معهما كان مع غيرهما أجرَأ على التقصير.

سادسًا: بيَّن القرآن طبائِعَ بعض النفوس الضعيفة التي تتَّجه قلوبها نحو المصالح الآنيَّة، فهم مُتردِّدُون بين طاعة الله وطاعة البشر، وبين الخوف من الله والخوف من البشر، وهذا يعني أنَّ عقيدتهم في الله مرتبكة ومهزوزة؛ ولذلك فهم يدورون مع شهواتهم ورغباتهم أين ما تكون، في طريق الرحمن أو في طريق الشيطان ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

سابعًا: أكَّد القرآن أنَّ علم الله الشامل والكامل مُحيطٌ بسلوك الإنسان وخَلَجات نفسه، فلا يختلط عليه سبحانه إيمانُ المؤمنين بدعاوى المنافقين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

ثامنًا: نبَّه القرآن إلى سببٍ من أسباب السقوط في هذا الاختبار؛ حيث يتصدَّى دُعاةُ الباطل للغافلين من الناس، يُرغِّبونهم بالباطل، ويُطمئِنونهم أنَّهم يتحمَّلون عنهم كلَّ شيءٍ، كما يفعل اليوم من يُسمُّون أنفسهم برجال الدين والمراجع الدينيّة، وكثيرٍ من المُفتِين الذين يدعون الناس لاتِّباعهم من غير تفكيرٍ، ولا سؤالٍ، ولا استدلالٍ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ تأتي الفتنة لمعانٍ مختلفة، منها: الرِدَّة عن الدين كلِّه أو بعضه، ومنها: الفساد والاضطراب العام، لكنها هنا جاءت بمعنى الاختبار، وهو من أجلى مقاصِد الخلق.

وفي الآية دفعُ توهُّم من يتوهَّم أن المؤمن مُعافًى من الابتلاء؛ إذ المؤمن يعيش في هذه الحياة وهو مُعرَّض لعوارضها، ويُبتلَى في نفسه وأهله وماله كما الناس يُبتلَون، لكنه إنما يتميَّز عنهم بالصبر على المصيبة، والشكر على النعمة، فهما جناحَا النجاح، ومبعث السعادة والفلاح.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تأكيد أنَّها سنَّة ماضية لا تستثني أحدًا ولا تُحابيه.

﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لندخلنَّهم الجنَّة في زُمرة الصالحين.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ يعني أنّه يخشى من عذاب الناس كما يخشى من عذاب

الله، وهذا دليلُ جهلِه أو ضعفِ إيمانِه، ولا شكَّ أنَّ هذا التصوُّر الخاطئ سيُنتِج نفوسًا مُتردِّدةً تسقُط في أوَّل اختبار.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ طلبًا للغنيمة المادية أو المعنوية، وهو ديدَنُ المنافقين والمُتردِّدين واللاهِثين خلف مآربهم أينما اتَّجَهت.

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ وَعِلمُ الله سابقٌ على كلِّ ذلك، فلا يحدُّه مكان، ولا يمنعه زمان، وإنَّما المقصود تجلِّي علمه تعالى في واقع الناس وسلوكهم بما يُقيم الحجة عليهم، ولا يدَعُ عُذرًا لُمعتذِرٍ.

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ فكلُّ إنسان مجزِيٌّ بعمله، ومسؤولٌ عن نيته واختياره.

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ لأنَّهم كانوا سببًا في ضلال الآخرين، فتحمَّلُوا وِزرَ الضلال ووِزرَ الإضلال.

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ سؤالُ تقريعٍ وتوبيخٍ، وفيه: أنَّ ضلالَهم وإضلالَهم لم يكن عن نظرٍ وفكرٍ، بل كان عن كذبٍ وافتراءٍ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

بعد بيان مقصِد الخلق في الابتلاء والاختبار، والتمييز والتمحيص، انتقل القرآنُ إلى النماذج العمليَّة التي قسَّمَت الناس بالفعل إلى ناجِحِين وخاسِرِين، والتي أفرزَتها دعوةُ الأنبياء ﷺ في تلك الأجيال المُتعاقِبة من مسيرة البشر:

أولًا: بدأ القرآن بقصَّة نوح ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهكذا تكون نتيجة الدعوة التي استمرَّت قرابة الألف سنة، أنَّها أفرزَت موقفَين مُختلفَين ومُتمايزَين لأولئك القوم: مُؤمنين ناجِين، وكافرين هالِكِين.

ثانيًا: ثنَّى القرآن بقصَّة إبراهيم ﷺ ومُجادلاته لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ الأصنام والأوثان التي يصنَعونها بأيديهم ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم ذكَّرهم بمصير الأمم السابقة ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وحثَّهم على التفكير في الأرض التي يعيشون عليها وما فيها من دلائل وشواهد ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم أنذَرهم العاقبة والمصير الذي ينتظرهم، وقوَّة الله عليهم، وإحاطته بهم ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لكنَّهم بعد كلِّ هذا ردُّوه وكذَّبوه، وأضرَموا عليه النار لحَرقه، فأنجاه الله منهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سلَّط القرآنُ الضوءَ هنا على سبب هذا العناد وهذه المُكابرة ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ إنَّه الولاء الأعمى للقرابة والصداقة، والبيئة المحيطة ولو كانت على الباطل، على قول القائل:

وهَـل أنَـا إلا مِـن غَزِيَّـةَ إنْ غَـوَتْ ... غَوَيـتُ وإنْ تَرشُـدْ غَزِيَّـةَ أرشُـدِ[1]

واليوم يَتخذ هذا السببُ أشكالًا جديدة، منها: الولاء للأحزاب والجماعات، ومنها: الولاء للأوطان والقوميَّات؛ حيث يُعطى للحقِّ والباطل تصنيفًا بعيدًا عن ذات الموضوع وفكرته وأدلته، وإنما بحسب هذه الولاءات المُنحازة، فيكون مقياس الحقِّ عند هذا غيره عند ذاك، وقد يختَصِمان ويقتَتِلان، وكلاهما مُقتنع تمامًا أنَّ الحقَّ معه.

لقد حذَّر القرآن من عاقبة هذه الولاءات العمياء الصمَّاء في الآية نفسها: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

ذكَّر القرآن بهجرة إبراهيم واستعلائه على كلِّ تلك الولاءات، مُذكِّرًا بصحبةِ لوطٍ له ﷺ؛ حيث هاجَرَا معًا تاركين الأقوام والأوطان، ومرابع الصبا وذكريات الشباب، وكلّ

---

(١) هذا البيتُ لدُرَيد بن الصِّمَّة ضمن قصيدةٍ مطلَعُها:

أَرَثَّ جَديـدُ الحَبـلِ مِـن أمِّ معبَـدِ ... لعاقِبَـةٍ، أم أخلَفَـت كـلَّ موعِـدِ

يُنظر: «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ص ٤٦٨/ دار نهضة مصر، ط سنة ١٩٨١م، تح علي محمد البجاوي)، و«العقد الفريد» لأحمد بن محمد بن عبد ربِّه الأندلسي (٦/ ٣٣/ دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤٠٤-١٩٨٣م، تح عبد المجيد الترحيني).

ذلك التاريخ من الصلات والعلاقات ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وبينما كانت عاقبة تلك الأقوام الكافرة المُكذِّبة الخسران والعذاب، كان إبراهيم ﷺ في ظلِّ عناية الله التي جعلت غُربته أُنسًا، وكُربته نبوَّةً وعزًّا ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

ثالثًا: بسياق مُتصل مع قصَّة إبراهيم، عرَّج القرآن على قصَّة لوط، وقد تقدَّمت الإشارة آنفًا إلى معيَّته وصحبته له ﷺ.

كانت رسالة لوط ﷺ رسالة أخلاقيَّة، تسعى لمعالجة الشذوذ والانتكاسة التي وقع فيها قومه، وهذا شاهدٌ آخر على أنَّ مساحة الاختبار تتناول الحياةَ بكلِّ جوانبها وأبعادها، ولا تختص بالجانب الروحي أو التعبُّدي ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ردَّ قومُه دعوته بالعناد والتحدِّي الفارغ الجاهل ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وهنا لجأ لوطٌ إلى ربِّه يرجو نصرته ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

استجابَ الله دعاءه، فبعث عليهم ملائكته، وفي تذكيرٍ متصلٍ بقصة إبراهيم وصحبة لوطٍ له ﷺ يذكُرُ القرآن أنَّ الملائكة هؤلاء قد مرُّوا بإبراهيم، فكان له معهم هذا الحوار: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ لقد بشَّروه بالغلام على كِبَر سنِّه، ثم أخبَرُوه أنَّ الله أرسلَهم ليُهلِكوا قوم لوط، وهنا لم تُنسِه البُشرى الكريمة أخاه في الله، وصاحِبَه في محنته وهجرته ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾.

ثم وصل الملائكة بعد إبراهيم إلى لوطٍ، فضاق بهم ذرعًا؛ لأنَّه يعلم أنَّ قومه لا يُكرِمون الضِّيفان، ولا يُراعُون حقًّا لقريبٍ أو بعيدٍ، فكانت عاقبتهم الخزي والهلاك ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

رابعًا: ذكَر القرآن أيضًا بقصَّة شُعيبٍ ﷺ مع أهل مديَن؛ حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن الفساد في الأرض؛ إذ كانوا يُطفِّفُون في الكيل والميزان، ليأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، فردُّوه وكذَّبوه، فأهلَكَهم الله كما أهلَكَ أمثالهم ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

خامسًا: ذكَر القرآن تذكيرًا سريعًا بقصتَي عاد وثمود، وهما من قبائل الجزيرة العربية، وقد جمَعَهما؛ لما بينهما من تشابُه وتقارُب في الأحوال والصفات، والأسباب والنتائج ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾.

سادسًا: عرض القرآن نموذجًا مُختصرًا من قصة موسى ﷺ مع فرعون وهامان وقارون، مُؤكِّدًا أنَّ صفة الاستكبار كانت السببَ في ضلالهم وهلاكهم ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾.

سابعًا: في خِتام هذه النماذج لخَّصَ القرآنُ أنواعَ العذاب الذي أصابَ تلك الأقوام، مُنبِّهًا ومُؤكِّدًا لعقيدة العدل الإلهي، وأنَّ كلَّ هذا الذي حصَلَ لهم إنَّما كان باختِيارهم وظُلمهم لأنفسهم ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ

وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ الظاهرُ أنَّ هذه مُدَّة رسالته فيهم، أما عُمره ﷺ قبل البِعثة فلم يتعرَّض له القرآن، والأَولَى السكوتُ عنه؛ لأنَّ البحث فيه بحثٌ بغير دليل، ولغير فائدة؛ إذ العبرة بصبره الطويل هذا، وما فيه من دروسٍ بليغةٍ في علاقة الداعِي إلى الحقِّ بنفسِه وبربِّه، ثم علاقته بأهله ومجتمعه، وحِرصه على هدايتهم، وإنقاذهم على عِنادهم ومُكابرتهم، والسَّنَة والعام بمعنًى، وجاء بهما معًا؛ تجنُّبًا لتكرار اللفظ، والله أعلم.

﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عبرةً لهم، وعلامةً تُرشدهم وتُبصِّرهم.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة أنَّ العلم سببٌ للإيمان، وأنَّ الإيمان سببٌ لكلِّ خيرٍ.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ﴾ تأكيدٌ أنَّ عبادة الأوثان ليست نظرًا وفكرًا، بل هي الإفك والبهتان؛ إذ الآلهة الصمَّاء العمياء غالبًا ما يُرسِّخُها في أذهان العامَّة مَن له مصلحة في ذلك سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو ماديَّة، وقد جاءت الإشارة السريعة إلى هذه الغاية الهابطة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ﴾ هذا مُشاهَد ومحسوس في دورة النبات، من حياةٍ إلى موت ومن موتٍ إلى حياة، والنظر الصحيح يقود إلى الإيمان بإعادة الإنسان أيضًا وبعثه بعد موته، والآية التالية تؤكِّد هذا المعنى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله وحكمته سبحانه.

﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ برحمته وسعة عفوه.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ بمعنى أنَّكم لا تجِدون لكم مخرجًا أو مهربًا من عذاب الله وقُدرته عليكم، لا في الأرض ولا في السماء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: ييأَسُون من رحمته يوم القيامة؛ حيث لا تُقبل التوبة، ولا ينفع الندم، وأتَى بالفعل الماضي؛ لتأكيد وقوعه.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ ﴾ حيث كانت عليه بردًا وسلامًا بقدرة الله ولطفه ورحمته.

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ إشارة إلى دور العصبيَّة والمصالح الدنيويَّة في تشبُّث الناس بأعرافهم وتقاليدهم ولو كانت باطلًا.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾ حيث كان مع إبراهيم ثم هاجر معه ﷺ.

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ فإبراهيم أبو الأنبياء، والكتاب اسم جنسٍ يشمل الكتب السماويَّة كلَّها.

﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ تأكيدٌ لمستوى الانتكاس والشذوذ عن الفطرة الآدميَّة.

﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾ بإخافة المارَّة ونهب أموالهم وإجبارهم على المنكر.

﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ ﴾ ظاهرٌ في أنَّهم قد غرقوا في هذا الخبث حتى في مُنتدياتهم ومجالسهم العامَّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ جاءته الملائكة يبشرونه بغلامٍ يولد له.

﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ أي: من الباقِين في العذاب.

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ أصابه الغمُّ والهمُّ.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كناية عن حَيرته وانسداد الأفق أمامه؛ وما ذاك إلَّا لخَوفه على ضيوفه من قومه الذين خبَرَهم وعرف خُبثَهم وسفاهَتَهم.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا من السماء؛ حيث أُمطِروا مطَر السوء، حتى هلَكوا جميعًا.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: بقِي من القرية آثارها المدمَّرة، وخرائبها الشاهدة على ذلك العذاب.

﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ اعمَلوا لليوم الآخر واطلبوا ثوابه.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ ولا تُفسِدوا.

﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة.

﴿جَٰثِمِينَ﴾ خامدين مكبوبين على وجوههم لا حراك بهم.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ من آثار منازلهم.

﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: كانوا أهلَ عقول وبصائر، لكنهم عطَّلُوها بكِبرهم وعِنادهم، فليس لهم عذرٌ ولا حُجَّةٌ عند الله.

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ قادرين على الخروج والهرب من قدر الله وحكمه فيهم.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوطٍ؛ حيث أُمْطِرُوا بالحصباء والحجارة.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، وقد أهلكهم الله بالصوت، وهو طريقة من طُرق التدمير لم يتوصَّل لها العلمُ إلا حديثًا.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قارون.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ فرعون وجنده، ومن قبلهم قوم نوح.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فالله هو المَلِك الحقُّ، وحاشَا أن يصدُرَ عنه الظلم، وإنما هو ظلمُ الإنسان لنفسه بتكبُّره وعِناده وحسَدِه، وتغليب شهوة الدنيا وبريقها الزائِل على ما عند الله من خيرٍ وفضلٍ.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

حوار مع المخالفين والمُكذِّبين

بعد عرض كلِّ تلك النماذج وما فيها من دروس وعبر تُلجئ العقول إلى التفكير الجاد بمصائرها وما ينتظرها، أخذ القرآن بمحاورة هذه العقول، وفتح آفاق التفكير أمامها، لعلَّها تتغلَّب على نوازع الشر وأسباب العناد، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: يُقرِّرُ القرآن قبل البدء بالحوار حقيقة أنَّ الإشراك بالله واتخاذ آلهة من دونه دعوى باطلة مُتهافتة لا تقوم على عِلم، ولا يُسنِدُها برهان، ومن ثَمَّ فالمشرك إنما يتمسَّك بالوهم الذي لا يدفع عنه ضرًّا، ولا يجلب له خيرًا ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ

يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

ثانيًا: يُقرِّرُ القرآن صفاتِ الداعي الذي يحملُ هذا الدين، ويُرغِّبُ الناس فيه ويجادلُ عنه، وهي صفات تمزج بين العلم وبيانه، وبين العبادة الصادقة وآثارها في النفس والسلوك، وبين الاستشعار الدائم لمراقبة الله والخشية منه ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

ثالثًا: يُقرِّرُ القرآن قواعدَ للتحاور مع أهل الكتاب: المجادلة بالتي هي أحسن، وتمييز المحسن منهم عن الظالم، والتذكير بالمشتركات الإيمانيَّة الجامِعة ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

رابعًا: يُقدِّم القرآن دليلًا قاطعًا على أنَّ هذه الرسالة إنما هي وحيٌ من الله، وليس للهوى البشريِّ فيها نصيب، وهذا الدليل يستند إلى أمِّيَّته ﷺ وأنَّه لم يكن يقرأ من كتابٍ، ولا يعلم الخط والكتابة ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

خامسًا: يردُّ القرآن شُبهةً أثارها المشركون تتلخَّص في أنَّهم يُريدون آيةً خارقةً، وهذا مع ما فيه من مُماحكةٍ ومُجادلةٍ باطلةٍ دليلٌ على انتِكاسة عقولهم، فإنَّهم لم ينظروا في مضمُون الرسالة وما جاءت به من أخبارٍ وأحكام، والتي تحمل في ذاتها دليل صدقها، وتضمن السعادة والطمأنينة لمن يتبعها ويسير عليها، وتُحقِّق العدلَ بين الناس على عِلمٍ وبصيرةٍ، فهذا كلُّه كأنَّه لا يَعنيهم، ولا يستحِقُّ النظر والتفكير فيه ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي

وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ مثَلٌ ضرَبَه الله لحال المشركين وهم مُتشبِّثون بأصنامهم وأوثانهم، فبيتُ العنكبوت لا يستقرُّ ولا يَثبُت على أساس، وهو مُفكَّكٌ مُخترَقٌ تلعبُ به الريح، ولا يَقِي من قطرة ماءٍ ولا ذرَّة غبارٍ، وهكذا حال العقائد الوثنيَّة التي لا تستند على دليلٍ، ولا تُبنى على منطقٍ، ولا تصمُد أمام التفكير، وليس لها جواب على سؤال، ولا قدرة على حوار.

ثم إنَّ المشركين يستنصِرونها ويسترزِقونها، وهي أضعَفُ منهم وأفقرُ منهم، وأما في الآخرة فسيكتَشِفون أنَّهم ما استظَلُّوا بشيءٍ، ولا احتَمُوا بشيءٍ، وهكذا هي العنكبوت حينما ترى بيتَها يتهاوَى بأدنى هبَّةٍ، وأقصَر نفخةٍ.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهذه الأصنام التي هي كبيت العنكبوت ليست شيئًا، بل هي وهمٌ في وهمٍ، وسرابٌ في سرابٍ.

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ لأنَّ العالِمَ ينظر في موضوع المَثَل ومغزاه، أما العابِث الهازِل فإنَّه يتعامَلُ مع المَثَل بنفسٍ مريضةٍ، وعقلٍ غافلٍ.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ تلك هي الصلاة التي يُريدها الله، إنَّها صِلةٌ بين الإنسان وربِّه، وصِلةٌ بين الإنسان وأخِيه، إنَّها العبادة الممزوجة بالأخلاق ومعاني الخير والنُّبل والفضيلة، أما حينما تنعَزِل الصلاة عن كلِّ هذه المعاني؛ حيث تقتَرِن بالظلم والنفاق والمنكر فهذه صلاةٌ مغشوشةٌ، تُشوِّهُ الدين، وتضرُّ العالمين.

وقوله: ﴿تَنْهَىٰ﴾ أي: تزرَعُ في صاحبها الوازع والرادع، فقامت في نفسه مقام الناهي، والله أعلم.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وصفٌ لأهميّة تلك الصلاة وعظمتها، تلك التي تنهى عن الفحشاء والمنكر بدلالة السياق، والصلاة ذِكرٌ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ عقيدةٌ تبعثُ في نفس المؤمن حسَّ الرقابة الذاتيَّة، واستِصحاب الخوف من الذنب والخطيئة، وتلك هي التقوَى.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ خُلُقٌ إسلاميٌّ رفيعٌ، ومبدأٌ عزيزٌ من مبادئ التحاوُر والتفاهُم مع الآخر، وهو مُتضمِّنٌ لحُسن المعاملة بشكلٍ عام، وضمان حقوقهم الكاملة دون بَخسٍ ولا ظلمٍ، وإذا كان هذا في حقِّ أهل الكتاب، فهو الأَولَى بين المختلِفين داخل المنظومة الإسلاميَّة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بعدوان وخيانة ونحوهما.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ توجيهٌ ربَّانيٌّ بإعلان المشتركات العقديَّة والفكريَّة مع أهل الكتاب، وهذه حقيقةٌ معرفيَّةٌ، وفيها غايةٌ دعويَّةٌ إصلاحيَّةٌ لا تخفَى على لَبيبٍ، وليس في هذا ما يَخدِشُ عقيدة الولاء والبراء، بل هو من فقهِ العلاقات الذي يغيبُ في زحمة الصراع، وردود الأفعال المرتبكة وغير المُتوازِنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إبرازٌ للذين أسلَمُوا من أهل الكتاب، أو الذين كان بعِلمِ الله أنَّهم سيُسلِمون، وهو إبرازٌ مقصودٌ لتوسيع دائرة المشتركات، مع ما فيه من إقامة الحجة على المُعانِدين والمُكذِّبين.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: من أهل مكة، وأتَى بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ إشارةً وبشارةً باستمرار دخولهم في الإسلام.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيدٌ لأُمِّيَّته ﷺ، والأُمِّيَّة نقصٌ في حقِّ كلِّ إنسان إلَّا في حقِّه ﷺ فهي شرفٌ؛ لأنَّها تُثبِتُ صِدقَ الوحي، ونزاهته ﷺ في رسالته وما يُبلِّغُه عن ربِّه؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فكانت أُمِّيَّته قاطعةً لهذا الارتياب.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بمعنى أنَّ القرآن أبعَد ما يكون عن الرَّيب؛ إذ هو يحمِلُ بنفسه آيات صِدقِه ودلائل وَحيِه.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ الذين يُدرِكون هذه الآيات وهذه الدلائل إنَّما هم أهلُ العلم، بخلاف الجاهلين والغافلين.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تأكيدٌ أنَّ الإنسان العاقل السوِيَّ لا يُمكنه إذا اطَّلع اطِّلاعًا صحيحًا على هذه الآيات إلا أن يفتح لها عقله وقلبه، وعليه فالجحودُ ليس اجتهادًا ولا رأيًا صادرًا عن نظرٍ وفكرٍ، وإنما هو العناد والظلم، ومُجانبة العدل في القول والحكم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا قولُ الظالمين الجاحِدين، وليس الباحِثين عن الحقِّ، ولو كانوا صادِقين في دعواهم لتفكَّروا أولًا في معاني آيات القرآن وما فيها من هَديٍ وعدلٍ ونورٍ قبل أن يطلُبُوا خوارقَ العادات؛ ولذلك ردَّ القرآن عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

العاقبة والمصير المحتوم

بعد هذا الحوار وما تضمَّنه من قواعد ومبادئ، شَرَعَ القرآن بتذكير هؤلاء الناس بالمصير المحتوم الذي ينتظر الجميع، والذي سيلقَى فيه كلُّ الناس نتيجة أعمالهم، وحصاد حياتهم ومسيرتهم على هذه الأرض:

أولًا: يذكُرُ القرآن استعجال المشركين بالعذاب، وهو استعجالٌ مُتضمِّنٌ للجهل والعناد والمكابرة، غير أنَّهم إنما يُهلكون أنفسهم، فالعذاب محيطٌ بهم، وسيُواجهونه في أجَلِه المحتوم ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن

تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

ثانيًا: يُخاطب الله عباده المؤمنين أن يتوجهوا إليه وحده، وأن لا يتشبَّثوا بحدود الطين والتراب إذا كان ذلك على حساب عقيدتهم ودينهم، وقد تقدَّم نموذج إبراهيم ﷺ الذي ترك أرضه ومربع صباه، وهاجر بدينه إلى الله، وكأنَّ هذا التوجيه جاء ليُمهِّد الطريق ويُهيِّئ النفوس للهجرة المباركة ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

ثالثًا: يُؤكِّد القرآن حقيقة هذه الدنيا وأنَّها ذاهبة إلى الفناء بكلِّ مَن فيها وما فيها، وأنَّ كلَّ نفسٍ مهما كانت كبيرةً أو صغيرةً، شريفةً أو وضيعةً، حاكمةً أو محكومةً، ستذوق كأسَ الموت، ولا يُستثنى من هذا القرار أحد ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾.

فالحياة التي يحكمها الموت ليست بحياةٍ على الحقيقة طالَت أم قصُرت، وإنما الحياة الحقَّة هي تلك الحياة الخالدة الباقِية التي لا يعقُبُها موت، ولا يقطعها فناء.

رابعًا: يُبيِّن القرآنُ طريقَ النجاة في تلك الحياة الخالدة الباقية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

إنَّه الإيمان والعمل الصالح، والصبرُ على لَأْواء الطريق ومشاقِّه وابتلاءاتِه، مع التوكُّل على الله، فهو المَولى وهو النصير، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

خامسًا: يُحذِّر القرآن من الانزلاق في مهاوِي الغواية والضلالة، كما هو شأنُ أولئك الذين أغلَقوا منافِذَ المعرفة فلم يسمعوا النذير، ولم يُبصروا الطريق، ولم يُفكِّروا في هذا الكون الذي يعيشون فيه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

ثم يذكرُ القرآن هنا حالةً من التقلُّب ونكُوث العهد على طريقةِ العابِثِين واللاهِثِين وراء شهواتهم وأهوائهم ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

سادسًا: يُذكِّر القرآنُ المشركين من أهلِ مكة بما أنعَمَ الله عليهم مِن نعمةِ الأمن؛ حيث الحرم الشريف الذي جعلَه الله واحةً للأمن، بينما القبائل العربية حول مكة وفي صحراء الجزيرة يغزو بعضُها بعضًا، وينهَبُ بعضُها بعضًا، وهذه نعمةٌ تستوجِبُ الشكرَ والتفكيرَ العميق ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

سابعًا: يعودُ القرآن للتحذير من أسباب الغواية والفتنة، فيذكر اثنَين منها: الكذب على الله، والتكذيب بالحقِّ.

والكذب على الله شأنُ الدعاة الضالِّين المُضلِّين الذين يصنَعون دينَهم من وحي خيالهم، ونوازع شهواتهم ومصالحهم، وهؤلاء هم السَّدنَة والكهَنَة وطبقات رجال الدين الذين يُزيِّنون للناس الباطل، ويُفتُونَهم بغير ما أنزل الله.

والتكذيب بالحقِّ الصورة المكمِّلة للتي قبلها؛ إذ التصديق بالحقِّ ينفي الباطل ويدحَضه، فكانت الديانات الباطلة والمزيَّفة تسعَى لتشويه الحقِّ وطَمسه وتكذيبه؛ لتُحافِظَ على وجودها ومصالح سدَنَتها وكهَنَتها، ومن ثَمَّ كان التكذيب بالحقِّ مُتمِّمًا لصناعة الباطل والكذبِ على الله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

ثامنًا: يختِمُ القرآن هذه السورة ببيان صفة الذين يستحقون الهداية والنجاح، والنجاة من مهاوِي الفتنة والضلال ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

والمقصود بالجهاد هنا: بذل غاية الجهد والاجتهاد لمعرفة الحقِّ والالتِزام به، والثبات عليه مهما كلَّف من جهد وتضحيات، وهذا يعني أن هؤلاء جادُّون مع أنفسهم، صادقون في توجُّههم، لا يُلهِيهم المتاع، ولا يستخِفُّهم الرعاع، وهؤلاء هم المُحسِنون حقًّا، وإن كانوا ضعفاء أو فقراء، مُحسِنون لأنَّهم أحسَنوا لأنفسهم أولًا، فأوردوها موارد الخير والهدى، ومُحسِنون لغيرهم ببذل الجهد في سبيل إنقاذهم ونُصحهم، وتقديم الخير لهم، ومُحسِنون إلى الحقيقة والعلم والمعرفة بطول البحث الهادِف، والنظر الجادِّ بصدقٍ وأمانةٍ، هؤلاء هم الناجِحُون في هذا الاختبار الكبير مهما نالَهم من وصَبٍ وتعَبٍ.

دقائق التفسير

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ﴾ على سبيل الاستِهزاء أو التحدِّي، وإمعانًا في التكذيب والمُعانَدة.

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في علم الله وتقديره.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ إشارة للخروج والهجرة عن الأرض التي لا يتمكَّن المؤمنُ فيها من المُحافظَة على دينه.

﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ تأكيدٌ لحتميَّة الموت بتنزيله منزلة المحسوس من المطعُومات، والتعميم على كلِّ الخلق مؤمنهم وكافرهم، إلا أنَّ تذوُّقهم له مختلفٌ باختلاف رضا الله عنهم، أو سخطه عليهم.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ أي: لنُنزلنَّهم.

﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ تأكيدٌ لقيمة العمل، وهو هنا: العمل الصالح، وأنَّ الإنسان مجزِيٌّ بعمله لا بنَسَبه ولا بجاهِه.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ يعني أنَّ كثيرًا من الدوابِّ التي تعيش على

هذه الأرض لا تَقدِر على كسب رزقها بنفسها، ولكنَّ الله ﷻ يرزقها ويرعاها.

﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وكذلك يرزقكم أنتم، وفيه إشارةٌ لدفع التخوُّف من الفقر بعد أن رغَّبَهم بالهجرة من مكَّة في الآية السابقة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هذه مناقشة عميقة لعقيدة المشركين، فهم لا يعتَقِدون في أصنامهم أنَّها هي التي خلَقَت السماوات والأرض، وسخَّرَت الشمس والقمر، بل هذا لله وحده، لكنَّهم بعباداتهم وشعائرهم ونذورهم ينصرفون إلى أصنامهم، فكانت المُقدِّمة شيئًا والنتيجة شيئًا آخر.

وهذه من غرائب المعتقدات، ونموذج صارخ من انتكاسة العقل البشري، إذ إنَّ منطِق العقل السليم أنَّ الذي يستحِقُّ العبادة والدعاء، وتتوجَّه إليه القلوبُ بالتوكُّل والطمأنينة إنَّما هو الذي بيده الخلق، وله القدرة على النفع والضر، والرزق والمنع، والإحياء والإماتة ﷻ والآيتان التاليتان تؤكِّدان هذا المعنى وتُعمِّقانه بشواهد التوحيد المبثُوثة في هذا الكون.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ يعني أنَّ هذه الدنيا إذا قُطِعَت عن الآخرة وعقيدة البعث والحساب والجزاء لم يَبقَ فيها سوى اللهو واللعب، والمتاع الزائل.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: هي الحياة الجديرة بوصف الحياة؛ لأنَّها حياة دائمة لا يقطعها موت أو فناء.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عودٌ على بدءٍ في مناقشة المشركين، فبعد استِنطاق عقولهم واعترافهم بأنَّ آلهتهم لا تخلُقُ السماوات والأرض، ولا تُسخِّر الشمس والقمر، عاد هنا لاستِنطاق فِطرتهم، فهم إذا كانوا في البحر واستشعروا خطر الموت من الغرق، تراهم يلجَؤون إلى الله وحده، لكنَّهم بعد نجاتهم يتذكَّرون آلهتهم المزيَّفة تلك!

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديدٌ ووعيدٌ بصيغة الأمر.

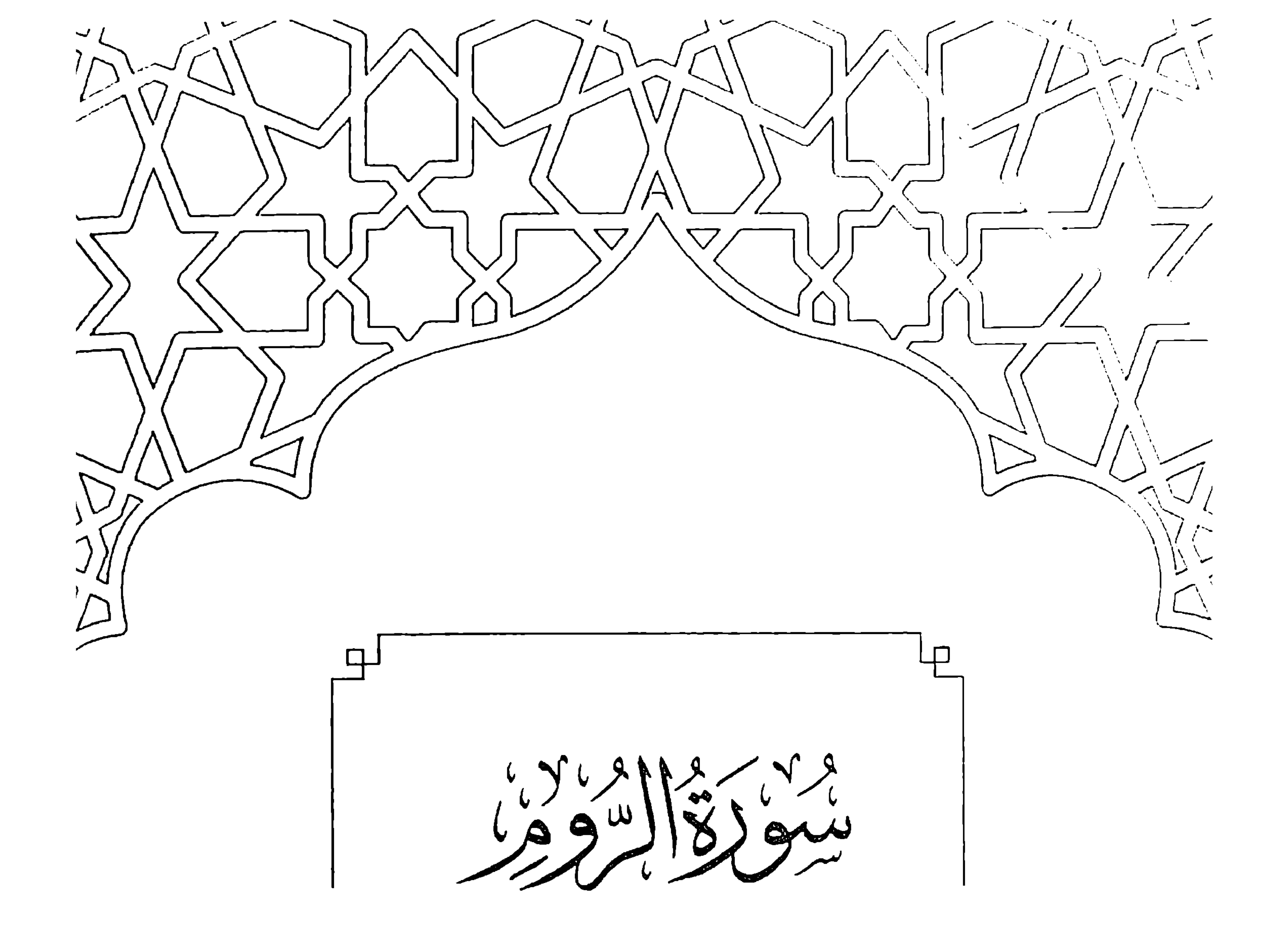
﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ بالغزو واعتداء بعضهم على بعض.

﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ مقامٌ ومنزلٌ لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ بطلب الحقِّ، والسعي له، والتمسُّك به، والصبر عليه.

ومعلومٌ أنَّ هذه السورة مكيَّة، بمعنى أنَّها نزلت قبل الإذن بالقتال، ومن جعَلَ القتالَ طريقًا للعلم والهداية بهذه الآية، فالآيةُ لا تُسعِفُه، وإنما القتال في وقته داخِلٌ في مضمُون الجهاد العام المُوصِل إلى طريق الهداية، والله أعلم.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ جاء بصيغة الجمع - مع أنَّ سبيلَ الله واحد - إشارة إلى كثرة طرق الخير وتنوُّعها، وكلٌّ مُيسَّرٌ لما يُناسبه ويُناسب إمكانيَّاته واستعداداته، والله أعلم وأحكم وأرحم.



سورة الروم

المجلس الحادي والثمانون بعد المائة: صراع الحق والباطل

المجلس الثاني والثمانون بعد المائة: آيات الله في الكون والإنسان

المجلس الثالث والثمانون بعد المائة: المنظومة القِيميَّة لبناء الإنسان والمجتمع المسلم

المجلس الرابع والثمانون بعد المائة: قصة الإنسان في حياته وعاقبة أمره

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

صراع الحق والباطل

تستهل سورة الروم بالتعليق على حَدَثٍ كبيرٍ كان يجري على الحدود الشماليَّة لجزيرة العرب، لتجعل منه مدخلًا أيضًا للحديث عن الصراع المديد والعميق في تاريخ هذا الإنسان بين الحقِّ والباطل، وبين الإيمان والكفر، وبين الحسنة والسيئة، ثم العاقبة والنتيجة المحتومة لهذا الصراع، وكما يأتي:

أولًا: كانت الأرض شمال الجزيرة العربية ما بين الشام والعراق تشهد صراعَ نفوذ وهيمنة بين الإمبراطوريتين العظيمتين: فارس والروم، وكانت فارس مجوسيَّة وثنيَّة، وكانت الروم كتابيَّة نصرانيَّة، وكان الصراع بين المؤمنين والمشركين في مكَّة يتأثَّر بما يجري هناك؛ حيث كان المؤمنون يشعرون أنَّ الروم أقربُ لهم، على خلافِ المشركين الذين كانوا يشعرون أنَّ الفُرس أقربُ لهم.

وقد نزلَت فواتحُ هذه السورة للتعليق على خسارة الروم في معركتهم الأخيرة قبل نزول السورة؛ حيث انتابَ المسلمين شعور بالغم والحزن، غيرَ أنَّ السورة حمَلَت البشارةَ الأكيدةَ لهم بقُرْبِ انتصار الروم وهزيمة الفرس ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ثانيًا: بيَّن القرآن سببَين رئيسَين لتمسُّك أهل الباطل بباطلهم؛ أوَّلها: الجهل، وثانيهما: الغفلة عن الآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

ثالثًا: يدعُو القرآن هؤلاء الناس إلى التفكُّر في أنفسهم وفي هذا الكون من حولهم، التفكُّر في سرِّ الحياة، وأصل الوجود، والحكمة من وجود الإنسان على هذه الأرض وتمكينه من طاقاتها ومواردها ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾.

رابعًا: يدعوهم أيضًا للسَّير في هذه الأرض وأخذ العبرة من الأقوام السابقة، وما جرى لهم بعد تكبُّرهم وطَيشهم وغُرورهم ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

خامسًا: يُؤكِّد القرآن حقيقةَ الآخرة، وأنَّها امتِدادٌ لهذه الحياة الدنيا، فالله الذي بدأ الخلق هنا سيُعيده هناك، وإذا كانت البداية من أجل الامتحان والاختبار، فالإعادة ستكون

للحساب والجزاء ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

سادسًا: يؤكد القرآن أيضا أنّ الناس هناك في الآخرة سينقسمون إلى فريقين بحسب ما قدّموه لأنفسهم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿الٓمٓ﴾ من الحروف المُقطَّعة، وقد تقدَّم الحديث عنها في سورة البقرة.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ في أقرب مكانٍ لأرض الجزيرة؛ حيث كانت المعارك بينهما تدنو وتبعد، لكن المعركة الأخيرة التي نزلت بسببها السورة كانت الأدنى، والله أعلم.

﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ وعدٌ إلهيٌّ واضحٌ ومحددٌ بانتصار الروم وكرَّتهم على الفرس، وقد حصل هذا بالفعل، فكانت معجزةً من معجزات النبوَّة، ودليلًا مُضافًا من أدلة الوحي.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ الروم كانوا على ديانةٍ سماويَّةٍ، وكانوا على آخر دينٍ نزل، فكانوا أهل حقٍّ مع ما شابَهم من شوائب البدعة والانحراف والتحريف؛ إذ إنَّ الدعوة الإسلاميَّة المحمديَّة لم تخرج بعدُ من مكة، فبقاء النصارى على ما هم فيه قبل بلوغهم الدعوة الصحيحة مُتوقَّع، وقد يكون لكثيرٍ منهم العذر، فإذا واجهوا دعوةً وثنيَّةً واضحةً ليس لها صِلة بدينٍ ولا كتابٍ كدعوة المجوس، فإنَّ المؤمن يجدُ نفسَه مُنحازًا لهم، يفرحُ لفرحهم، ويحزنُ لحزنهم.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ تأكيدٌ آخر لقُربِ تحقُّق النصر، أي: نصر الروم على الفرس، فهذا هو السياق، أما محاولة صرف هذا الوعد إلى وعد المسلمين بالنصر على المشركين، فهذا بعيدٌ عن السياق، لكن لا يبعُد أن يكون بطريق الإشارة واللزوم، بمعنى أنَّ الله الذي ينصُر الروم لما معهم من بقايا العقيدة السماويَّة، سينصر هؤلاء المؤمنين الموحِّدين أيضًا، بل هم أولَى بنصره وتأييده سبحانه، والله أعلم.

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يعلمون الظواهر الدنيويَّة؛ من أسباب الرزق والمتاع، والزينة والراحة، ولا يفكرون في دلائل هذه الموجودات، وسرِّ هذا التنسيق والتكامل فيما بينها، فإنَّهم لو فكَّرُوا في هذا لوَصَلوا إلى الإيمان.

وهذا الذي عابَه القرآن على مُشرِكي العرب يُعَدُّ اليوم ظاهرة طاغية في السلوك البشري؛ حيث الاهتمام الزائد والمُبالَغ به في أسباب النعيم والراحة، والبهرَج والخيلاء، والإعراض عن التفكير في سرِّ هذه الحياة وما وراءها، وحتى المؤسسات العلميَّة والتعليميَّة غَدَا فيها التركيز واضحًا ومُنحازًا بشكلٍ كبيرٍ للعلوم الماديَّة، والابتِعاد عن العلوم العقليَّة والفلسفيَّة، وهذا كلُّه مؤشِّر على جنوح البشريَّة نحو المادَّة، والتعامُل الظاهر مع مفردات الكون بما يحقِّق المتعة والشهوة لا بما يُقرِّب إلى الحقيقة الكامنة في هذا الوجود.

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ ﴾ وهذا سؤالٌ فيه تأنيبٌ شديدٌ، فالإنسان الذي يُسخِّر عقله للتلذُّذ والتمتُّع بما هو موجود، ولا يسأل نفسَه لماذا هو موجودٌ أصلًا، وما الغاية من وجوده، ولماذا وُجِدت له هذه الأشياء، هو إنسانٌ منكوسٌ ومقلوبٌ في تفكيره واهتمامه، وهو أقربُ للسلوك الحيواني الذي يبحث عمَّا يملأُ بطنَه، ويسدُّ شهوتَه، ولا يدرِي مُبتدأه من خبَره.

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ تأكيد أن هناك غاية لهذا الخلق، فلا يعقل أنَّ كلّ هذا الذي نراه إنَّما هو للتمتُّع المجرَّد، والمنافسة في جمع الحطام والتباهي بالمظاهر والشهوات.

﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ هذا تأكيدٌ متصلٌ أنَّ غايةَ الخلق ليست العمران المجرَّد، فالعمران بلا إيمانٍ وبلا أخلاقٍ ستكون عاقبته الدمار والخراب، بل قد يكون الدمار والخراب في ثقافة العمران هذه نفسها؛ إذ هي ثقافةٌ قائمةٌ على التنافُسِ والتباهي والاستعلاء الباطل، مما يجعل البشريَّةَ كلها تعيش في حالة صراعٍ دائمٍ، فما يُشيِّده هؤلاء يهدِمُه غيرهم، وهذا هو المُشاهَد والملموس في تاريخ البشر، وواقعهم المتجدِّد والمتكرِّر.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ فالسوء من العذاب جزاء السوء من العمل، ولا يظلِمُ ربُّك أحدًا.

﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ تفسيرٌ للسوء الذي أثبَتَه لهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: ييأَسُون مِن رحمة الله.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ ﴾ أي: من أصنامهم وأوثانهم، بل سيكفرون بهم.

﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ بعد أن رفعت عنهم غشاوة جهلهم وعنادهم، وأيقنوا أنَّ ما كانوا عليه إنَّما هو الوهم والباطل.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ إلى فرقٍ مختلفةٍ؛ فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم الشقيُّ، ومنهم السعيدُ.

﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ في جنَّةٍ يُسعدَون ويُسرُّون، وأصلُ الروضة: الأرض المخضرَّة بالماء والعشب.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

آيات الله في الكون والإنسان

في ثنايا الحديث عن صراع الحقِّ والباطل والذي تقدَّم في المجلس السابق، كان القرآن قد دعا المشركين إلى النظر في أنفسهم وفي هذا الكون مِن حولهم لعلهم يهتدون ويرشدون.

وفي هذه الآيات يتناول القرآن صورًا ونماذج متعددة ومتنوعة من آيات الله المبثوثة في هذا العالم المنظور، والتي تستفزُّ العقلَ ليصحُو من غفلته، ويهبّ من رقدته:

أولًا: نبّه القرآن إلى تنوُّع الأوقات في اليوم والليلة، والتي هي مجالٌ واسعٌ للتأمل والتفكُّر ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

ثم قرَنَ هذا التنوُّع بخلق السماوات والأرض، إشارة إلى السبب الفلكي في تكوين هذه الأوقات، وهو الذي يُعرف علميًّا بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ثم نبَّه إلى الدور الوظيفي لتقسيم اليوم إلى ليلٍ ونهارٍ، فالليل للسكن والنَّوم والراحة، والنهار للعمل وابتغاء الرزق ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

ثانيًا: نبَّه القرآن إلى سنَّة الله في الإحياء والإماتة، وما يُسمَّى بدورة الحياة، والتي نراها ونلمسها كلَّ يومٍ في النبات وغيره ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ فهذه دلائل على حكمة الخالق؛ إذ لولا هذا لما استمرَّ الخلق. وفيه أيضًا دليل الحياة الأخرى بالنسبة للإنسان ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم نبَّه القرآن إلى ظاهرةٍ كونيَّةٍ تستدعي التأمل والتفكر؛ وهي دورةُ المياه على هذه الأرض، والتي تنتُجُ عنها دورةُ الحياة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ثم أكَّد أنَّ الذي تقوم كلُّ هذه الحياة بأمره قادرٌ على أن يبثَّ فينا الحياة مرَّةً أُخرى، بل هذه هي سنَّة الله في ما نراه ونلمسه في حياتنا الدنيا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

ثالثًا: نبَّه القرآنُ إلى خَلْقِ الإنسان ثم انتشاره في هذه الأرض ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

رابعًا: نبَّه القرآن إلى العلاقة الزوجيَّة بين الرجل والمرأة، والتي هي أساسُ استِمرار الحياة الآدميَّة وتكاثرها، وما ينبغي أن تُؤسَّس عليه الأسرة لاستِقرارها وعطائِها ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ

﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

خامسًا: نبَّه القرآن إلى اختلاف الناس في لُغاتهم وألوان بشرتهم، وأنَّ هذا جُزءٌ من النظام الكوني العام، فالذي خلق الإنسان وكثَّره ونوَّعه هو نفسه الذي خلق السماوات والأرض، ومن ثَمَّ نَجِدُ هذا التنسيقَ بين الإنسان وما حوله بما يضمن حاجاته واستمرار حياته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

سادسًا: بعد هذه التنبيهات والآيات الباهِرات، أخذ القرآن بمناقشة هذه العقول واستِنطاقها، وضرَبَ المثَلَ لها من واقعها الذي تعيشه ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالله الذي خلق كلَّ هذا الخلق وكثَّره ونوَّعه، وأقامَه على سنَّةٍ واحدةٍ ونظامٍ واحدٍ كيف يأتي من يُنازعه في خَلقِه أو مُلكِه ﷻ؟ والإنسان بِفطرته وطبيعته لا يرضى أن يُشاركه عبدُه فيما يملِك، أو أن يُنازِعه في تدبير ماله وشؤونه مُنازعة الشريك لشريكه؛ بحيث يخشى منه ويحسب له حسابه.

سابعًا: في ثنايا هذه التنبيهات، جاء التأكيدُ المتكرِّر لأهميَّة فتح منافذ المعرفة، والتحرُّر من رِبْقة الغفلة والجمود والبلادة التي تغلق الآفاق الرحبة أمام الإنسان:

فجاء التنويه بأهميَّة التفكير: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ثم بأهميَّة العلم، والذي هو نِتاج التفكير السليم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾، ثم نبَّه إلى وظيفة السمع وما تتضمَّنه من الإصغاء ومحاولة التدبُّر والفَهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، ثم كرَّر التنويهَ بالعقل، والذي هو أساس الفهم والعلم، والتفكُّر والتدبُّر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم حذَّر من أصل الضلال وسببه الأول، ألا وهو الجهل وتنكُّبُ طريق العلم ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾.

فاعجَبْ بعد هذا لِمَن يعرِضُ الوحيَ بعيدًا عن مقتضى العلم والعقل والفكر، ويدَّعي التنازُع والتضادَّ بين آيات الوحي ومُسلَّمات العقل!

دقائق التفسير

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني أنَّ الله تعالى مُستحِقٌّ للتنزيه والتقديس دائمًا وأبدًا، صباحًا ومساءً.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يعني أنَّ الله تعالى مُستحِقٌّ للحمد من أهل السماوات والأرض، وفي كلِّ وقتٍ وحينٍ، وهذه الآية والتي قبلها تُشيران إلى أهمية الذكر ليلًا ونهارًا، ومع الذكر التأمُّل والتفكُّر اللذان يقودان إلى معرفة الله وتنزيهه سبحانه عن كلِّ شريكٍ، وعن كلِّ صفةٍ وحالةٍ لا تليقُ به، وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: وقت الظهيرة.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ إذ أصل الخلق كان من التراب الذي ليس فيه روح، ثم يكون من النطفة والحبة والنوى، وهي أشياء جامدةٌ وإن كانت فيها مقوِّمات الحياة الأولى، لكنها أشبَه بالميت في جمودها وسكونها وعدم قدرتها على الحركة.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ في دورة الحياة المألوفة؛ حيث تخرج البذرة الجامدة من الشجرة النامية، وتخرج البيضة الساكنة من الطائر المتحرِّك.

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ بعد جدبها وقحطها.

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تشبيهٌ لبعث الناس وإعادة خلقهم بما يرَونه في الدنيا مِن إحياء الأرض بعد موتها، ومِن إخراج الميِّت من الحي، وإخراج الحي من الميِّت.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ حيث خلق الله أبانا آدم من التراب، ثم جعل أجسادنا تتغذَّى بالنبات الذي يتكوَّن وينمُو من الماء والتراب.

﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ خلق حواء من آدم، ثم خلق كلَّ ذكرٍ وأنثى من سُلالة البشر أنفسهم؛ من نُطفة، ثم من علقة، ثم من مُضغة، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ بيان لوظيفة المرأة الأساس، وهي أن تكون المأوى المستقِر الذي يملأ البيت بالسكينة والطمأنينة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بيان للقيمة المحوريَّة التي تحكم العلاقة بين الزوجَين، وهي قيمةٌ مركَّبةٌ من الحبِّ والرحمة، وهي المعيار الحقُّ الذي يقيس نجاحَ هذه العلاقة من فشلها، وكلُّ قيمةٍ أخرى أو حقٍّ آخر ينبغي أن يدور حول هذه القيمة؛ فالبيت الذي ليس فيه مودَّة ولا رحمة لا تنفعه وفرة مالٍ، ولا كثرة عيالٍ، ولا زينة ظاهرة، أو كسوة فاخرة.

وإنَّ مما يجدُرُ التنبيهُ إليه هنا: ظهورُ ثقافة المنافسة والمناكفة بين الزوجين تحت عناوين مختلفة؛ كإثبات قوَّة الشخصية، وعدم التنازل عن الحقِّ، وكأنَّهما يعيشان في قاعة المحكمة - وهي ثقافةٌ غريبةٌ عن أصولنا وعاداتنا -، مما كان له الأثر البالغ في زيادة معدَّلات الطلاق، والنُّفرة عن الزواج؛ إذ حقوق الزوجين أكبر وأدق من أن تحدَّها أحكام قضائيَّة، بل هذه الأحكام إنَّما وُجِدَت لدفع الظلم، ورفع الضرر، وليست لإقامة الحياة السعيدة، فالسعادة أسمى وأرفع من ذلك، وما يطلبه الزوجان من حقوقٍ ينالانه وزيادة في أجواء المحبَّة والرحمة أكثر بكثير مما ينالانه تحت حكم القاضي، أو فتوى المفتي.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ ذِكْرُ هذا الاختلاف في سياق التنبيه إلى آيات الله في الخلق مُشعِرٌ بالامتِنان، وعليه فإنَّ هذا الاختلاف هو اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تميز ومُفاضلة، وفيه تأكيدٌ لعالميَّة الإسلام ونظرته العادلة للإنسان، خاصَّةً أنه جاء بعد الحديث عن الأصل الواحد، والنشأة الواحدة.

﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ عملكم لطلب الرزق.

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق.

﴿وَطَمَعًا﴾ بالغيث والمطر.

﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أن تستقر على هذا النظام الكامل المُتناسِق، والذي أودَعَه الله فيهما بإرادته وحكمته سبحانه.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ بمعنى أنَّ الله كما أقام السماوات والأرض بأمره، فهو القادر أيضًا أن يأمركم بالخروج للحياة الثانية، فليس بوسعكم حينئذٍ إلا الاستجابة، وهي استجابة قدريَّة تكوينيَّة ليس للإنسان فيها خيار.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ طائعون مُستجيبون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ تقريبٌ لأذهان المشركين والمشكِّكين؛ إذ إعادة الصانع لصنعته أهوَنُ عليه من اختِراعها أول مرة، أما بالنسبة للخالق العظيم فكلاهما سيَّان؛ البدء والإعادة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من حالكم وواقع حياتكم.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي: من عبيدكم، ومِن هنا للتبعيض.

﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ مِن هنا بيانيَّة، وليست للتبعيض.

﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فيما تملِكُون من مالٍ ومتاعٍ.

﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أنتم وعبيدُكم مُتساوُون في هذا الملك الذي هو لكم؟

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتعاملون مع هؤلاء العبيد، وتحسبون حسابهم وكأنهم مثلكم من حيث حقُّهم في التصرُّف بهذا الملك.

والمعنى الإجمالي لهذا المثل: أنه هل لكم من العبيد مَن يُشارِكُكم في أموالكم حتى يكون مثلكم سواءً بسواء، حتى إنَّكم لا تتصرَّفون في هذا المال إلا بحضورهم وموافقتهم كما يفعل الشريك مع شريكه؟

وغاية المثل: أنَّ الله تعالى هو خالِقُ هذا الخلق، وبالتالي فهو الذي يملِكُه ويتصرَّف فيه بما يشاء، أما الادِّعاء بوجود آلهةٍ من هذه المخلوقات تُشارِكُ الله في مُلكه وحُكمه، فهذا مِن أبطل الباطل.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا
فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ
ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم
مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ
بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا
رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ
ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

بعد هذه التنبيهات وما تضمَّنَته من الإشارة إلى التناسق الكوني في منظومة الخلق، جاءت هذه الآيات لتُنبِّه إلى المنظومة القيميَّة التي يقوم عليها التشريع الإسلامي لبناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، والتي يمكن استخلاصها في النقاط الآتية:

أولًا: الاستقامة على دين الله، الذي هو دين التوحيد والفطرة والإنابة والتقوى وإقامة الصلاة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

وهنا تنبيهٌ إلى التلازُم والتكامُل بين الدين والفطرة؛ إذ الفطرة صورة الإنسان المعنويَّة التي خلقه الله عليها كما هي صورته الماديَّة التي جاءت بأحسن تقويم، ففِطرة الإنسان تحمل في ذاتها البراءة من الغش والظلم والكراهية، والإسلام دين الفطرة؛ لأنَّه من وحي الله الذي خلق هذه الفطرة.

ثانيًا: الوحدة القائمة على أساسٍ متينٍ من العقيدة الصحيحة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

ثالثًا: الثبات على الحقِّ مهما تغيَّرت الظروف والأحوال ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

رابعًا: الاتِّزان النفسي في الرخاء والشدَّة ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ

كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾.

خامسًا: التكافل الاجتماعي، وصلة الرحم، ورعاية المسكين والمحتاج، ومن انقطعت به السبيل ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

سادسًا: الامتناع عن الربا واستغلال الناس بالباطل ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ فالربا يمحق البركة، ويقطع أواصر الرحمة والمودة في المجتمع، بخلاف الزكاة التي تطهِّر المال وتُنمِّيه، وتُوطِّد العلاقةَ بين الغني والفقير، وتُطهِّر المجتمع من أسباب التحاسُد والتباغُض والتدابُر ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾.

سابعًا: التوحيدُ الحقُّ لله الذي خلقنا وبيده رزقنا، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، والتوحيدُ هو الأساس الذي تلتقي عليه المنظومتان العقديَّة والقِيَميَّة، وهو الأساسُ الذي يقومُ عليه الدين كله.

ثامنًا: التربية على تحمُّل المسؤوليَّة، فإنَّما يَجني العامِلُ ما عمِلَ، ويحصد الحاصد ما زرع، على مُستوى الأفراد والدول والمجتمعات ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾.

تاسعًا: الاعتبار بأحوال الأمم السابقة، وما جرى لهم بعد ظُلمِهم وكفرِهم وتكذيبهم للحقِّ الذي جاءهم به أنبياؤهم ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ

أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

عاشرًا: التشوُّف إلى رحمة الله، والبحث في هذه الأرض وما فيها من آياتٍ ومن موارد للخير والرزق ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

إنَّها الحركة الدائبة المستمرَّة بين مجال النظر ومجال العمل، وبين مجال اكتساب الرزق وأداء واجب الشكر، وكلُّ ذلك مُستند على عقيدةٍ صحيحةٍ وثابتةٍ أساسها الإيمان بالله الواحد الأحد، والاستعداد ليوم الحساب.

حادي عشر: فتح منافذ المعرفة، والبُعد عن الانغلاق والتعصُّب وكلِّ ما مِن شأنِه أن يُعطِّل أدوات التفكُّر والتعلُّم ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ أي: أقبِل على الدين واستَقِم عليه، ولا تلتفت عنه يمينًا أو شمالًا.

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ الفطرة صورة الخلق الأصليَّة في هذا الإنسان في جانبها النفسي أو المعنوي، فكما أنَّ للإنسان صورة ماديَّة جسديَّة، فكذلك له طبائعه التي فطره الله عليها والتي هي صورته المعنويَّة، وعلاماتها في الإنسان أنَّها تظهر فيه من غير تكلُّف ولا تعلُّم.

وذلك مثل حنان الأم؛ فالأم تمتلك هذه الصفة الظاهرة مهما اختلفت درجات التعلُّم والتثقُّف، ومهما تباينت الأزمِنة والأمكِنة، ومثل هذا ظاهرة التديُّن التي لم يَخلُ منها شعبٌ

من الشعوب، أو مجتمعٌ من المجتمعات، وكذلك التنزُّه عن كشف العورات في اللقاءات العامة مهما كان دين الشخص ومستواه الثقافي أو المعيشي، وبالتالي فهناك ما يمكن أن نُسمِّيه: سلوكًا مُنسجِمًا مع الفطرة، وسلوكًا شاذًّا عنها.

وهكذا في الأديان والمعتقدات والأفكار، فحينما نقول: الإسلام دين الفطرة؛ فإننا نقصد أنَّه الدين المُنسجِم مع الفطرة، والذي يحقِّق في الإنسان خصوصيَّته الإنسانيَّة.

ولا ينبغي أن تُفهم الفطرة على أنَّها الإسلام نفسه؛ إذ الطفل يولد ولا يعرِف عن الإسلام شيئًا ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وعليه فقوله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُوْدٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1]، إنما يعني أنَّ فطرته الأصليَّة مُنسجمة مع عقيدة التوحيد ومبادئ الإسلام، فلو تُرك له الخيار قبل أن تتلوَّث فِطرته لما اختار غير الإسلام، وليس معناه أنَّه يُولد وهو يُؤمن بالقرآن وبنبوَّة محمد ﷺ، فهذا لا دليل عليه، ولا يصدِّقه الواقع.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ نهيٌ بصيغة الخبر، أي: لا تُبدِّلُوا فِطرةَ الله التي فطر عليها هذا الإنسان.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ العدل المستقيم الذي لا عِوَج فيه، والمُنسجِم مع مُقتضيات الفطرة السليمة.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راغبين إليه بالتوبة والاستقامة، وقد جاء بصيغة الجمع؛ للدلالة على أنَّ قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ إنما قصد به كلّ المؤمنين وإن كانت صورة الخطاب لمحمدٍ ﷺ.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة ﷺ، واللفظُ للبخاري، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٤٦٥/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٨/ ٥٢/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ ﴾ أي: فِرَقًا مُختلفةً مُتناحرةً، وهذه نتيجةٌ لتفريق الدين؛ فالأمة التي تنقسِم في تصوُّراتها عن الدين ستنقسِم في ولاءاتها، وتفريق الدين لا يكون إلا ببُعد الناس عن أصول الدين ومُحكَماته، ومصادره الصحيحة.

وقد رأينا اليوم من المنتسبين للإسلام مَن يُعرض عن القرآن والسنَّة، بل ينتقص منهما وممَّن نقلَهما وحمَلَهما إلينا، ثم يستمدُّ تصورُّاته عن الدين من الروايات التاريخيَّة، ومما تقوله له مرجعيَّاته الدينيَّة وإن كان بلا حُجَّةٍ ولا دليلٍ، فهذا السلوكُ مِن شأنه أن يُفرِّق الدينَ الواحدَ إلى اثنَين أو أكثر، وسيتبع هذا انقسام الناس أيضًا.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ حيث يتحول التديُّن من بحثٍ عن الدين الحقِّ والتمسُّك به طريقًا للخلاص إلى ولاءٍ حزبيٍّ يتقرَّب فيه المتديِّن إلى مَن يوالونه ويواليهم، بغض النظر عن قُربِهم أو بُعدِهم بالنسبة للدين نفسه.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ ﴾ تهديدٌ بصيغة الأمر، وكذلك قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفيه إشارةٌ أنَّ سَعَةَ الرزق قد تكون سببًا في الفتنة والكفر إذا لم يُؤدِّ الإنسان حقَّها وشُكرَها.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أي: كتابًا سماويًّا يُظهر حُجَّتهم.

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ أي: يُؤيِّدهم في دعواهم، ونسبةُ الكلام إلى الكتاب نسبةٌ مجازيَّةٌ، فكأنَّ الكتاب كائِنٌ حيٌّ ينطِقُ بحُجَّتهم، وغايةُ التشبيه هذا فيه تنبيهٌ إلى شدَّة تمسُّكهم بما معهم من الباطل، وكأنَّ لديهم حُجَّة ناطِقة لا تحتَمِل الشكَّ.

﴿يَقْنَطُونَ ﴾ ييأسون من رحمة الله.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ ﴾ يُوسِّعُه.

﴿وَيَقْدِرُۚ ﴾ يُضيِّق.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ أمر بصِلةِ الأرحام وأداء حقوقِهم.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ من انقطعت به السبيل فحِيلَ بينه وبين ما يملِك، فهذا أهلٌ للمعونة وإن كان غنيًّا حتى يصِلَ إلى أهله وماله.

﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ ليزيد مالكم مما تأخذونه من أموال الناس.

﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ بمعنى أنَّه وإن رأيتُمُوه يزداد بسبب الحرام والرِّبا، فهو عند الله مُحتقَرٌ لا خيرَ فيه؛ لأنه سُحتٌ ومصيرُه النار.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: تتضاعَف حسناتُهم، وهذا هو الأصل؛ إذ الزكاة عبادةٌ، وهي ركنٌ من أركان الإسلام، ولا يمنع أيضًا أن تكون المُضاعَفة بزيادة الرزق؛ لأنَّ الزكاة تُنمِّي المال وتدفع صاحبه للعمل به، وكذلك المُزكِّي بحقٍّ يكون محبوبًا ومؤتمنًا ومحل ثقة التُّجار، وهذه من أسباب زيادة الرزق، والله أعلم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ مُحاججةٌ للمشركين الذين يؤمنون أنَّ الله هو خالقهم، وهو رازقهم، ثم يتوجَّهون بالعبادة إلى أصنامٍ عاجزةٍ ليس بيدها من أمر حياتهم أو مماتهم شيء.

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ الفساد ضدُّ الصلاح، وظهوره في البرِّ والبحرِ، بمعنى أنه فسادٌ عام في العقائد والأفكار، والتربية والأخلاق، والبيئة وموارد الرزق، والعلاقات المختلفة بين الأفراد والدول والمجتمعات.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ يشمل كلَّ سلوكٍ بشريٍّ يخرجُ بهم عن الهَدْي المستقيم، وعن مُقتضى الفطرة الآدميَّة والقيم الإنسانيَّة، وفي مثل هذا السلوك تعُمُّ الفوضى والأثَرَة المحرَّمة، وينقلب الذكاء والخبرة والتقدُّم العلمي والقدرة الماديَّة إلى وسائل للتدمير والتخريب، وسفك الدماء، وصناعة الشقاء لهذا الإنسان، وهذا هو الذي نراه اليوم بعد انتكاسة الفطرة، وضياع الموازين الصحيحة والحاكمة لسلوك الناس.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ بمعنى أنَّ هذا الذي أصابهم هو بعضُ جزائِهم الذي يستحِقُّون، وفيه تهديدٌ ضمنيٌّ لا يخفى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بمعنى أنَّ هذا الذي أصابَهم يكفِيهم للتفكُّر في حالهم وفي طريق خلاصِهم، والرجوع مقصِدٌ مِن مقاصد الابتلاء، فإن رجعوا كان هذا ابتلاءً محمودًا، وهو بمعنى التأديب، وإن لم يرجعوا كان انتقامًا - والعياذ بالله -، فهذه دالَّةٌ للتفريق بين مُسمَّى الابتلاءَين: ابتلاء الله لعباده الذين يُحِبُّهم ويُحبُّونه حتى يرجعوا إليه بكليَّتهم مهما انتابَتْهم الغفلات والسهوات، وبين ابتلائِهِ سبحانه للطاغِين والظالمين، وهو ابتلاءُ النقمة والعذاب.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أمر بالحركة والبحث والتأمل والاعتبار، وفيه إشارةٌ لأهميَّة علم التاريخ، وكونه أحد روافد المعرفة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرَّقون هناك في الآخرة بحسب ما كانوا عليه من افتراق هنا في هذه الدار، فأهل الكفر إلى النار والشقاء، وأهل الإيمان إلى الجنَّة والرضوان.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ أي: عليه وبالُ كفره.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُمهِّدون بعملهم هذا طريقَهم إلى الجنَّة والسعادة الأبديَّة.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ فجزاؤهم كلُّه من فضل الله؛ لأنه غنيٌّ عن أعمالنا، وفيه إيحاءٌ لطيفٌ بسعة هذا العطاء؛ لأنه نسَبَه لفضله وليس لفضلِ الله حدٌّ.

﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بهُطُولِ المطر والماء الذي تحيَا به الأرض.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: مِن رزقه الذي أودَعَه في البرِّ والبحرِ، وفيه ترغيبٌ بالسعي وترك القعُود والتواكُل والكسل.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترغيبٌ بالشُّكر، والشُّكر أن تَنسبَ النعمةَ إلى المُنعِم سبحانه، وتستعين بها على طاعته لا على معصيته.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على وفق سنن الله الثابتة وليس هو وعدًا مطلقًا؛ إذ قد نرى النصرَ المُقتَرِنَ بالتمكين، وقد نرى النصرَ المُقتَرِنَ بالنجاة فقط، وقد نرى الغَلَبَة على المؤمنين لابتعادهم عن سنن الله في هذه الحياة، وهذا كلُّه واقعٌ ملمُوسٌ، وعليه شواهده من قصص القرآن، والقرآن يُفسِّر بعضُه بعضًا، أما النصر بمعناه الأخروي فهو الثابتُ بإطلاق، والله أعلم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ دليلٌ على أنَّ السماء هنا ليست السماء التي تُقابِل الأرض، وإنما هي العلوُّ القريبُ الذي تُؤثِّرُ فيه الرياح.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قِطَعًا من الغيوم.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ حبَّات المطر.

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من بين السحاب.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: كانوا قبل نزول المطر آيِسِين مُحبَطين.

﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، وتشبيه عودة الناس مرة أخرى بعد موتهم بحياة الأرض بالمطر بعد موتِها وجدبِها.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أخرى لا تحمل السحاب وإنما فيها إعصارٌ يهلك الزرع.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: رأوا زرعَهم يصفرُّ بعد الخُضرة.

﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ وهذا من غرائب فعل المشركين، فهم يعبُدون الأصنام، ويسترزقون بها، فإن جاءهم البلاء سبُّوا اللهَ ولم يسُبُّوا آلهتهم!

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُشبِّهُ الكافر المُعاند الذي أغلق كلَّ منافذ المعرفة بالميت الذي لا يسمع.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ تشبيهٌ آخر لهم بحالِ الأصمِّ المُدبِر، فهو لا يسمعُ ولا يرى الشفاه وهي تتحرَّك بالكلام، ولا يرى تقاسيمَ الوجه، بمعنى أنه غير قادرٍ على التقاط أيّة معلومة، وهكذا حال المُعانِدين.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ تشبيهٌ ثالثٌ بحال الأعمى الذي لا يعرِف الطريق، ولا يُميِّز معالِمَه، وهكذا حال الغافِلِين.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ سماع المُطيع المُنفِّذ لأمر خالقه.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قصة الإنسان في حياته وعاقبة أمره

يُلخِّصُ القرآنُ في خواتيم هذه السورة قصَّةَ الإنسان من مراحل تكوينه وتطوُّر حياته حتى قيام الساعة، وما يعقُبُها من حسابٍ وجزاء، مع الإشارة إلى طريق الفوز والنجاة، إنه عرضٌ لخلاصة التجربة الإنسانيَّة بمنظور الحقيقة الكبرى والقِيَم المُنبثِقَة عنها:

أولًا: ذكر القرآن مراحل خلق الإنسان من أيامه الأولى التي لم يكن يَقوَى فيها على شيء، ولا يستقِلُّ بنفسه في مطعمٍ أو مشربٍ أو قضاء حاجةٍ، ولا يعرف ما حوله ولا مَن حوله، ولا ما يضره ولا ما ينفعه، حتى بلغ أشدَّه مع الأيام، ثم ما لبِثَ أن عاد إلى ضعفه مع تغيُّرٍ في الصورة والشكل، فهناك كان طفلًا مُقبلًا على الدنيا، وهنا أصبح شيخًا مدبرًا عنها، هناك ينتظر القوَّة والأشُدَّ، وهنا ينتظر الموت والقبر: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾.

ثانيًا: ذكَرَ القرآن بذلك الأجل المحتوم والمصير الذي ينتظر الحياة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

في ذلك اليوم سينظر الناس إلى ما تركوه وراءهم من ذكريات دنيويَّة، فلا يراها الغافلون إلَّا ساعة عابرة ليست لها قيمة؛ لأنها كانت بالنسبة لهم ساعة لهوٍ ومتاعٍ، أما المؤمنون الذين

آتاهم الله الإيمان والعلم والحكمة فإنهم يعرفون ما الدنيا وما موقعها بالنسبة للآخرة، وما المسؤوليَّة التي كانت مُلقاة على عاتقهم فيها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثالثًا: آنذاك يصدر الحكم العدل بحقّ هؤلاء الذين ظلموا وتكبّروا وأفسدوا في الأرض ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

رابعًا: للخلاص من تلك العاقبة البائسة، يبيِّن القرآن طريق النجاة بالأدلة الواضحة، والأساليب المقنعة التي لا تُبقِي عُذرًا لُمعتذِر ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فمشكلة هؤلاء أبدًا لم تكن من جهة الفكر والنظر، بل من جهة العناد والمكابرة، فلقد طُبِعت قلوبُهم على الكفر حتى لم تعُد تصغي لموعظةٍ، ولا تنتفع بدليلٍ.

خامسًا: يُوصِي الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ وكلَّ مَن آمن به بوصيَّة الثبات والصبر على طريق الحقّ مهما بلغت محاولات المُبطِلين في المكر والعداوة والاستفزاز ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هي مرحلة طويلة تبدأ من النطفة فالعلقة فالمضغة، حتى الولادة ثم الطفولة التي لا يستقلّ فيها الطفل بشؤونه من غير رعايةٍ وحمايةٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهي مرحلة الشباب والعمل والعطاء، وهي مرحلة طويلة كذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ وهذه هي دورة الحياة، والتنبيه إلى هذه المراحل المختلفة يُذكِّر الإنسان بطبيعة خَلقِه حتى لا يغترَّ بقوَّته، ولا ينسى مُستقبله وما ينتظره.

وفيه أيضًا إشارة إلى أنَّ هذا الإنسان قد مرَّ بحياةٍ طويلةٍ ومُتنوعةٍ، وكانت تكفِيه أن يعتبر ويتَّعِظ، ويُفكِّر بما يصلُح له في دنياه وأخراه.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ هو من الجِناس؛ إذ الساعة التي يقصدونها هي الوحدة القياسيَّة لأجزاء اليوم، والتي كانوا يعرفونها في الدنيا، وهي غيرُ ساعة القيامة، وقسَمُهم هذا ناتجٌ من شدَّةِ جهلِهم، وتسرُّعِهم وقلَّةِ رويَّتِهم، وهو تعبيرٌ أيضًا عن دهشَتِهم وهولِ صدمتِهم.

والأظهرُ أنَّهم يَعنُون أنهم ما لبِثُوا في الدنيا إلا ساعةً، وكأنَّهم يُومِئُون إلى أنَّهم لم يأخُذوا وقتًا كافيًا للتفكُّر، وسياقُ القرآن بذكر مراحل الخلق مِن ضعفٍ إلى قوَّةٍ إلى ضعفٍ يُعزِّزُ هذا المعنى، والله أعلم.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق بعنادهم وتكبُّرهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بإشارة تربط بين العلم والإيمان، فالعلم يقود للإيمان، والإيمان يُزكي العلم، ويُوجه صاحبه نحو الخير والصدق، وشهادة الحقِّ.

﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ أي: لقد لبِثتم طويلًا قبل أن تُواجِهوا هذا المصير البائس، وقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في عِلْمِ الله وتقديره.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ أي: اعتِذارهم بجهلهم وضيق وقتهم، ونحو هذا.

﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ أي: ولا هُم يُستجاب لهم بإزالة اللَّوم والعتب الذي يستحقونه على جرائمهم، وما يتبعه من عذاب وعقاب.

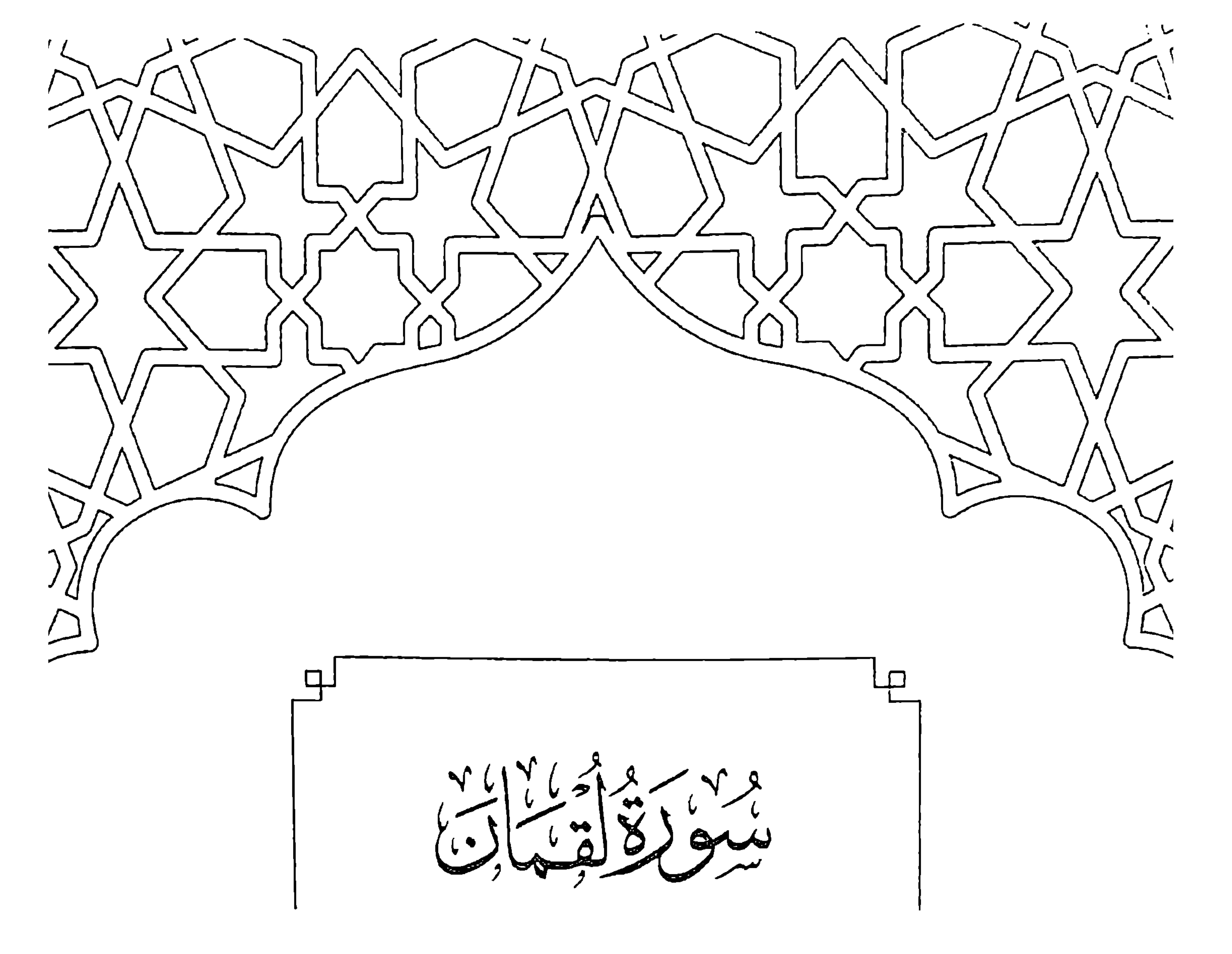
﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي: بيَّنَّا لهم الحقَّ بكلِّ الطرق، وضرَبنا لهم الأمثالَ، وذكَّرناهم بحالِ الأقوام السابقين، إشارة لبُطلان حُجَّتهم وما يُقدِّمونه من معذرةٍ واستِعتابٍ.

﴿مُبْطِلُونَ﴾ أصحاب باطلٍ.

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ممن تقدَّمت أوصافهم، وهم أهلُ العناد والمكابرة الذين عطَّلوا عقولهم، وأغلقوا عيونهم، وصمُّوا آذانهم، وولَّوا مُدبِرين، أما الذين لا يعلَمُون لعدم تمكُّنهم من العلم وأدواته، أو أنّ الدعوة لم تبلُغهم، فهذا الجهلُ الذي يُرجَى معه قبولُ العُذر، والله أعلم.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فطريق الحقِّ يستلزم الصبر، وذكر الوعد الحقّ يحدو بقلوب المؤمنين ويشدّها إلى الصراط المستقيم، فيُهوِّن عليهم المصائب، ويخفِّف عنهم المكائد.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ الاستخفاف مِن الخفَّة التي هي مدعاة التردُّد والتذبذب، والتوجيه هنا لكلِّ مؤمنٍ ألا يستجِيب لمزالق الظالمين، وألا يَحِيد عن الطريق وراء كلِّ شهوةٍ أو شُبهةٍ.



سورة لقمان

المجلس الخامس والثمانون بعد المائة: المنظومة القِيميَّة والتربويَّة

المجلس السادس والثمانون بعد المائة: أهل الهداية وأهل الضلال

المجلس الخامس والثمانون بعد المائة

سورة لقمان

من الآية ﴿١ - ١٩﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

المنظومة القيميَّة والتربويَّة

الموضوع الأساس لسورة لقمان موضوعٌ تربويٌّ جاء بمقدِّماتٍ إيمانيَّةٍ مؤسِّسة للقيم التربويَّة، ثم تجسَّدت هذه القيم بوصايا أبٍ حكيمٍ حريصٍ على ابنه وهو يقدِّمُ له خلاصة حكمته وتجربته، واختيار الأب في هذا المجال له أكثر من مغزى ومعنى، ثم يأتي نصف السورة الآخر ليرسم المعالم المميِّزة لطريق الحقّ عن طريق الباطل، بتسلسُلٍ يُوحِي أن نقطة الافتراق كانت نقطة تربويّة، فالتربية السليمة تبني الإنسانَ السليمَ القادرَ على اختيار الطريق

الأفضل له ولمستقبله، بعكس ذلك البعيد الذي تشوَّه عقله وتلوثت فطرته فتخبط في مهاوي الضلال والظلام.

أما منهجُ هذه السورة في بناء المنظومة القيميَّة التربويَّة - وهو لا شك جزءٌ من منهج القرآن الشامل - فيُمكن استخلاصه في النقاط الآتية:

أولًا: بيان مصدر هذه القيم والذي هو مصدر الإسلام كلّه ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فهذه القيم والأحكام والتوجيهات ليست اجتهادًا بشريًّا، ولا تصورات تُمليها البيئة والظروف المحيطة في زمانٍ ما أو مكانٍ ما، إنّه الوحي المُنزَّه عن النقصِ والخطأِ والانحيازِ والمُحاباة.

ثانيًا: ذكر القرآن قيمَتَين مُتلازمَتَين، وهما من القواعد الكبرى في المنظومة القِيميَّة: الهدى؛ وهو العلم النافِع، والرحمة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ ثم ذكر القيمة الثالثة؛ وهي العبادة المبنيَّة على الاعتقاد الصحيح والمُنسجِمة مع الهُدى والرحمة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم كرّر الإشارة إلى الهُدى ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

وهذه القيم هي نفسها القيم التي أكّدَتها سورة الفاتحة: الرحمة، والعبادة، والهداية، مما يُدلِّلُ على أننا نقرأ منظومةً مُترابطةً يُقوِّي بعضُها بعضًا، ويُؤكِّد بعضُها بعضًا، وكما أكّدت سورة الفاتحة أنّ المتمسكين بهذه القيم هم الذين أنعم الله عليهم واختارهم من بين خلقه لنعمته ومرضاته، جاء التأكيد هنا بتميُّزِهم وإحسانِهم وفلاحِهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والإحسان قيمة أيضًا.

ثالثًا: في مقابل هذه القيم الكبرى يذكرُ القرآن أضدادها من القيم المقلوبة والمعايير المنكوسة التي تُدمِّر المجتمعات وتهوي بها في مهاوي الردى والضلال والهلاك، فيذكر الضلال الذي يُقابل الهُدى، والجهل الذي يُقابل العلم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ

لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ثم يذكرُ الاستكبار وهو أُسُّ الضلال، وقرينُ الجهل ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

رابعًا: يعود القرآن إلى التذكير بفيصل التفرقة بين الحقّ والباطل، ألا وهو الإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ثم يُقيمُ الحجة القاطعة، والشواهد الملموسة والناطقة بهذه الحقيقة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

خامسًا: بدأ القرآن بقصة لقمان وأسلوبه في تربية ابنه وتأديبه وتهذيبه مستهلًّا بتزكيةٍ شاملةٍ وعامةٍ لهذه التجربة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهذا بمثابة التهيئة لقبولها والاقتداء بها، والحكمة تعني: العلم، وتعني: الهُدى، وتعني: وضع الشيء في مكانه المناسب، وتعني: التخطيط السليم وترتيب الأولويات، فهي القيمة الجامعة للخِلال الحميدة، والفِعال المجيدة.

ثم ثنّى بالشكر ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ وهي قيمة أخرى تعني: تجرُّد الإنسان من هواه حتى لا يرى ما معه من العلم والحكمة إلا نعمةً ربانيَّةً تستوجِبُ الشكر لا الكفر، والتواضع لا التكبّر، والرحمة بالخلق لا التعالي عليهم.

سادسًا: وكانت الوصيَّة الأولى من لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فالشركُ أساس الظلم، ومنبع الخطايا والرزايا، فمن تجرَّأَ على الله كان على غيره أجرَأ، ومن تسبَّب في ضلال نفسه وأهله كان بضلال غيره أحرى وأَولَى.

سابعًا: في جملة معترضة يُعرِّجُ القرآن على علاقة الولد بوالدَيه، ووجوب طاعته لهما، ومصاحبتهما بالمعروف حتى لو كانا على دينٍ آخر ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا

عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وبرُّ الوالدين قيمة يقرنها القرآن بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة، وقد مرَّ معنا قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفائدةُ التذكير بحقوق الأبوَين في هذا السياق لا تخفى، إلا أنّه لا يبعُد أن يكون المُراد - مع هذه الفائدة - أنّ لقمان أعادَ على ابنه هذا التوجيه الربَّانيَّ؛ لأنّ الوصيّة بالوالدَين من ثوابت الشرائع السماويَّة كلّها، وتذكير الأب ابنه بحقوق الأبوّة ليس فيه مثلبة، بل هو من تمام التربية المطلوبة.

ثامنًا: بعد الإيمان بالله وبرّ الوالدين شرَعَ لقمانُ في بناء الرقابة الذاتيّة التي تجعل في الإنسان رقيبًا عليه من داخله، لا يُفارِقُه في خلوةٍ أو جلوةٍ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وهذه الرقابة والحسّ المُرهَف هي التي نُسمّيها التقوى، فليست التقوى سِوى المُراقبة والخشية والحذر.

تاسعًا: بعد الرقابة الذاتيّة جاء التذكير بالصلاة؛ لأنّها عنوان لصلاح العلاقة بالخالق العظيم تبارك وتعالى ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامة الصلاة تعني المداومة عليها وأداءها على الوجه الأمثل والأكمل.

عاشرًا: بعد إقامة العلاقة الصحيحة مع الله تأتي العلاقة مع الخلق بالنصح، وتبيان الخير من الشر، والمعروف من المنكر ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فهذه علاقةٌ نافعةٌ، وفيها استِشعار المسؤولية العامة لإصلاح المجتمع وسدّ ثغراته، ولأنّ هذه المسؤوليّة تواجه في

العادة صدودًا وفتنًا من أهل الشهوات والنزوات، لم يَنسَ لقمان أن يُذكِّر ابنه بالصبر ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

حادي عشر: ولترسيخِ هذه العلاقة يُنبِّهُ لقمانُ ابنَه إلى التحلِّي بالتواضُع ولِين الجانب ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾.

ثاني عشر: يختِمُ لقمانُ وصاياه لابنه بمسائِل ذوقيَّة وجماليَّة، وهذا بابٌ واسِعٌ من دقائق الآداب التي تُضفِي على الحياة بكلِّ جوانبها وعلاقاتها طابعًا من الأُنس والسكينة والمحبّة ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾.

دقائق التفسير

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وَصْفُ القرآن هنا بالحكمة جاء مناسبًا لموضوع السورة الأساس؛ حيث سُمِّيت السورة باسم لقمان الذي وصفه الله بالحكمة ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهذه إشارة على نبوَّته، لاسيَّما أنّ الله تعالى أمره أمرًا مُباشرًا بالشكر: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾.

وقد وردَت رواياتٌ تنفِي عنه النبوَّة، لكنّها لا ترقَى إلى درجة الاحتجاج، والله أعلم. والخلاف في هذا لا يضُرُّ؛ لأنّ لقمان ليست له شريعة إلا ما أورده القرآن عنه هنا في هذه السورة، والأخذ به مُتحتِّمٌ سواء كان نبيًّا، أم كان حكيمًا من غير نبوَّة.

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ تفسيرٌ للمحسنين الذين يستحقون أن يكون القرآن لهم هُدًى ورحمة، فهم قد أحسنوا علاقتهم بالله وعلامة ذلك الصلاة، وأحسنوا علاقتهم بالخلق وعلامة ذلك الزكاة، وكان كلّ ذلك ابتغاء لوجه الله وطلبًا لمرضاته وثوابه ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الذي ليس له سنَد ولا تُرجَى منه فائدة.

ويشتريه بمعنى يأنس به ويهتم به حتى يبذل فيه وقته فكان كالْمُشتري له، وهناك من يشتريه بماله إن كان يباع محفوظًا في كتاب ونحوه، أما اليوم فإنّ أموال الأمّة تنفق على هذا اللهو أكثر بكثيرٍ مما تنفق على العلوم الصحيحة والبحوث النافعة.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فذلك اللَّهو لم يكن لقضاء الوقت والتسلية فحسب، بل للصدّ عن سبيل الله، وإشغال الناس عن تدبُّر هذا القرآن، والتفكُّر فيما هم أحوَج إليه لصلاح حالهم ومآلهم.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ أي: يتخذ سبيل الله وآياته استهزاءً وسخريةً.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ ثِقلًا يمنعهما من السماع.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ على خلاف ما اعتادَه البشر مِن وضع الأعمدة التي يقوم عليها كلّ سقفٍ مرتفع، وهذه آيةٌ ظاهرةٌ يراها الإنسان بلا تكلُّف ولا تشوُّف.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي: جعل في الأرض الجبالَ لتحفظَ توازُنها فلا تضطرب ولا تتحرَّك إلا في مسارها الُمحدَّد، واستقرار الأرض وكونها مُمَهَّدة لحياة الناس آية أخرى كذلك.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ﴾ ربط بين استقرار الأرض وبثّ الحياة فيها، فلولا استقرارها وتمهيدها لما غدت صالحة لحياة الناس والأنعام، وكلّ كائن حيّ يتحرك عليها.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ بعد أن ذكر صلاحية الأرض لحياة الإنسان والحيوان نبّه إلى صلاحيتها أيضًا للإنبات وإخراج الزرع والشجر، وبهذا تكتمل صورة الحياة، وقد جاء التنبيه إلى كلّ هذه الآيات المتناسقة لدحض ما يسعى إليه المبطلون من إشغال الناس بلهو الحديث عن هذه الحقائق الصافية والدلائل الهادية، ووصف النبات بأنه كريمٌ دليلٌ على رفع الحرج عن تسمية المخلوق بما يشبه صفات الخالق من حيث اللفظ لا من حيث حقيقة المعنى.

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ سؤالٌ تعجيزيٌّ لأولئك المشركين الذين اتخذوا لهو الحديث بديلًا عن آيات الله، وحرموا أنفسهم من الاطلاع على أسرار هذا الكون وما فيه من دلائل وشواهد، وهو سؤالٌ يُحفِّزُ العقل وينتشله من وهدة اللهو والعبث.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ تقدّم القول في لقمان ﷺ في صدر السورة، ووصفه بالحكمة هنا تزكية له، وليُمهِّد العقول والقلوب لتدبُّر وصاياه الآتية والأخذ بها.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّ فائدة الشُّكر تعود على الشاكر ولا تعود على الله، فهو الغنيُّ الحميدُ سبحانه.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنّما يكفرُ على نفسه أيضًا.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ ينصَحُه ويُذكِّرُه.

﴿ يَٰبُنَيَّ﴾ نداء اللطف والمودَّة والرحمة، وهذا خُلُقٌ من أخلاق الدعوة الناجحة.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ضعفًا على ضعف، فالحمل يُضعِف الأم ويُرهِقها، ثم الطَّلْق والولادة كذلك، ثم الإرضاع وما تتطلَّبه رعاية الطفل من سهرٍ وحذرٍ ومتابعةٍ، فكلّ ذلك تعبٌ على تعب، ووهَنٌ على وهَن.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ الفصال الفطام، والسياق جاء لتأكيد الوهن الذي تُعاني منه الأم بسبب وليدها، وفيه أنّ مُدَّة الرضاعة الشرعيّة حولان فما دون، بدلالة قوله: ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ و﴿فِي﴾ تحتمل النقص ولا تحتمل الزيادة، وقد ورد هذا الحكم صراحة في سورة البقرة ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ إعلاء من شأن الوالدين والبرّ بهما؛ حيث قرَنَهما بطاعة الله، وسمّى هذه الطاعة وذلك البرّ شكرًا؛ لأنّه جاء بعد التذكير بنِعَم الله أولًا، ثم بما يتحمَّله الوالدان والأمّ خاصة من جهدٍ ومشقةٍ.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ يُعالِجُ القرآن هنا مسألةً معقَّدةً وشائكةً، فالأصل أنّ طاعة الوالدين من طاعة الله، وشكرهما من شكره، لكن ماذا لو كان الوالدان في الطرف المضاد لمنهج الله؟ هنا يأتي التوجيه الربّاني الذي يوازن بين القيمتين؛ فطاعة الله مقدَّمة على طاعة الوالدين قطعًا، فعلى الولد أن لا يستجيب لضغوطهما مهما بلغت في هذا الاتجاه، أما حقوقهما الدنيويّة من الرعاية والنفقة والاحترام فهذه محفوظة لهما مهما بلغا مِن الشرك ومِن الحماس له والدعوة إليه، وفي قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا ﴾ على ما هما عليه من الشرك والمجاهدة؛ فيه دليلٌ أنَّ مُصاحبةَ المؤمن للمُشرك لا تخدش الإيمان، ولا تنقُضُ عقيدةَ الولاء والبراء.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ﴾ أي: من أقبل عليّ بالطاعة، وفيه ترغيب بصحبة الصالحين والاقتداء بهم.

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ ﴾ أراد أنّ الله لا يخفى عليه شيء مهما كان صغيرًا أو دقيقًا، والخردل نباتٌ معروف، وحباته مضرب المثل في الصغر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ صفتان لله تفيدان إحاطة علم الله بالكائنات دقيقها وجليلها، وأسبابها ونتائجها، واللطيف من اللطف المُوحِي بمعرفة الخفايا والدقائق التي لا تُرى في العادة، والخبير تُوحِي بالعمق، ومعرفة الجذور والأصول، والمُقدِّمات والنتائج.

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ ﴾ من الأذى، في إشارةٍ أنّ الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من شأنه أن يتعرَّض للأذى بمختلف الطرق والأساليب.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ بمعنى أنّ الصبر على هذا دليلٌ على العزيمة والقوة وصدق التوجّه، ويحتمل أيضًا أن تلك الوصايا كلّها مطلوبة على وجه الإلزام والعزيمة ولا تحتمل التهاون والرخصة.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لا تُعرِض عنهم بجانب وجهك تكبُّرًا وتعاليًا عليهم.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ جَذلًا مغرُورًا بما عندك من مالٍ أو متاعٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ المُختال هو المُعجَب بنفسه والذي يمشي مِشيةَ الخُيَلاء، والفخور يمتنُّ على الناس ويُفاخِرُهم بما عنده.

﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ الاقتصاد معناه الاعتدال، كأنّه يقول له: لا تدبّ دبيبًا ولا تهرول هرولة، فالدبيب علامة التكبّر، والهرولة علامة الخفّة.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ اخفض من صوتك، فلا ترفعه إلَّا على قدر الحاجة.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ ﴾ أقبحها.

﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وهنا مسألةٌ دقيقةٌ؛ إذ الحمار خَلْقٌ من خلق الله، وصوتُه مخلوقٌ لله كذلك، والحمار ليس مُكلَّفًا، وليس قادرًا على تبديل صوته، فلا بُدَّ أن يتَّجِه الإنكار إلى محلٍّ غير محلِّ الخِلقة.

والأظهرُ في هذا أن نقول: إنّ صوتَ الحمار يُناسِب خِلقَته ووظيفته، لكنّه بالنسبة للإنسان مصدر إزعاجٍ وعدم ارتياح، ومن هنا جاء تشبيهُ صوت الإنسان المُزعِج المُتجاوِز للحدِّ بصوت الحمار، ومن هنا كان الإنكار، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

أهل الهداية وأهل الضلال

بعد بيان القرآن لمنظومته القيميَّة والتربويَّة، شرَعَ في بيان حال الناس وانقسامهم وفق هذه المنظومة؛ فمنهم من تربَّى عليها واستمسك بها فكانت له العروة الوثقى وحبله المتين وطريقه المستقيم، ومنهم من شطَّ عنها فتاه في غياهب الضلال، واتَّبَعَ وساوسَ الشيطان فأوردَه موارد الجحيم، وقد جاءت هذه الآيات لتُبيِّن حال الفريقَين، ومعالم الطريقَين:

أولًا: بدأ القرآن بالتنبيه على نقطة الافتراق الأولى، وهي قضية الإيمان، وراح يُخاطب العقل البشري ويدعوه للنظر في هذا الكون الفسيح، فالنظر قيمة عظيمة، وهي كذلك

المؤشِّر الأقوى على شعور الإنسان بجدِّيَّة الأمر وصدقه في طلبه، وبحثِه عن الحقيقة ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ثانيًا: أما أولئك المؤمنون بوجوده سبحانه وبأنه خالق السماوات والأرض، لكنَّهم يُفسدون هذا الإيمان بخرافة الأوثان والأصنام، فيقول القرآن فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يتعجَّب القرآن من صنيعهم ومناقضتهم لأنفسهم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ثالثًا: يبيِّن القرآن أسبابَ هذا الضلال والانحراف؛ فيبدأ بالجهل الذي هو أساس المفاسد والبلايا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

والقرآن هنا يُشيرُ إلى ما يسمِّيه العلماء بالجهل المركَّب، وهو الجهل الذي يظنُّ معه صاحبه أنَّه من أُولِي العلم ومن جهابذته وفلاسفته؛ ولذلك فهو لا يسأل، ولا يُصغِي، ولا يستَفتِي، بل يجادل ويجادل حتى في أخطر القضايا وأعلاها شأنًا، وأوسعها أثرًا.

رابعًا: ثمّ يُثنّي القرآن بالتعصُّب الأعمَى للآباء والأجداد، وما تركوه من موروثٍ دينيٍّ وفكريٍّ وسلوكيٍّ حتى لو كان خاليًا من الدليل، وبعيدًا عن المنطق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

خامسًا: ثم يُثلِّث القرآن بسوء الخلق كالتكبُّر الفارغ، والتعالِي على الخلق، والغرور بالدنيا ومتاعها ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

﴿ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾.

سادسًا: وفي مُقابل هذا الفريق البائس، يُشيدُ القرآن بأهل الحقّ المتمسكين به، والداعين إليه ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾.

وقد ربَطَ القرآن هنا بين قيمةِ الإحسان وبين هذا الاستِمساك بالعُروة الوثقى، فالإنسان المُحسِن مع نفسه، والمُحسِن في علاقاته، والمُحسِن في عمله لا بُدَّ أن يهتَدِي إلى الطريق الحقِّ.

وبعد هذه القيمة العظيمة، يذكُرُ القرآن قيمتَين عظيمتَين أُخرَيَين من شأنهما تثبيت هذا الإنسان على طريق الهداية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ فالصبر لتثبيت المبتلى، والشكر لتثبيت المعافى، فلولا الصبر لزلَّ الأول في مهاوي الحسد والكراهية، واليأس والبؤس، ولولا الشكر لضلَّ الثاني في مهاوي الغرور والكبر والبطر.

سابعًا: يُذكِّرُ القرآن بالحقيقة الكبرى التي تنتظر هؤلاء وهؤلاء، تنتظر الإنسان أينما كان وكيفما كان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾.

ثامنًا: يُحذِّر القرآن - في ثنايا هذه المُقارَنات - أولئك الضالين مما ينتظرهم في ذلك اليوم العصيب ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾.

تاسعًا: في هذه الآيات تكرَّر التنبيهُ إلى عظمة الخالق، وأنّه الغنيُّ الحميد الذي لا ينقُصُه شيءٌ، ولا يحتاج إلى شيءٍ، وأنّه القادر على كلِّ شيء فلا يُعجزه شيء، ولا يشغله شيء عن شيء، وأنّه العليم الحكيم الذي لا نهاية لعلمه، ولا حدود لحكمته، وأنّه الحقُّ المطلق الذي لا

يُخالفه إلا الباطل ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مما تقدَّمت الإشارة إليه قبل الدخول في قصَّة لقمان مع ابنه، فمن السماء ماؤها الذي تحيا به الأرض، ومن الأرض أشجارها وأنهارها وأنعامها ومواردها في برِّها وبحرِها، فكلُّ هذا مُسخَّرٌ للإنسان، وهذا التسخيرُ مُرتبطٌ بوظيفة الإنسان على هذه الأرض، وهي الاستِخلاف، والذي يحمل في أحد معانِيه إدارة الأرض بعدالةٍ وأمانةٍ.

﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ أكملها وأتمّها وظلَّلكم بها.

﴿ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ فمِن نِعَمِهِ الظاهرة: المال والجمال والعيال، ومِن نِعَمِهِ الباطنة: الحكمة والسكينة والطمأنينة.

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يُخلِصُ دينَه وتوجُّهَه لله.

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ أي: استعصَمَ بالحقِّ، فكان بمنأى عن الانحراف والتيهان.

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ نُمهِلُهم في دنياهم مُدَّة آجالهم.

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ نأخذهم رغمًا عنهم.

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ إلى عذابٍ شديدٍ وثقيلٍ.

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ الذي يستحقُّ الحمد دائمًا وأبدًا.

﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ أي: لو تحوَّلَت كلُّ أشجار الأرض إلى أقلامٍ.

﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ أي: ولو تحوَّل ماءُ البحر إلى مِدادٍ ومعه سبعةُ أَبْحُرٍ.

﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ما انتهَت كلماتُه سبحانه، فعِلمُ الله لا يُحدُّ بأقلامٍ ومِدادٍ، وهو أوسعُ وأشملُ وأبقَى من الدنيا وما فيها.

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ فالكثرة والقلة لا تعني لله شيئًا، فقدرة الله على الخلائق كلِّها كقدرته على واحدٍ منها، وهذا ردٌّ على مَن يُنكرُ البعث على سبيل الاستبعاد، كأنَّه يستثقل أن يُعيدَ الله كلَّ هؤلاء الناس على اختلاف أجيالهم في ساعةٍ واحدةٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ كثيرُ الصبرِ، كثيرُ الشكرِ.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالسُّحُب المُتراكِمة.

﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ عدل، يُوفي بعهده فلا ينكُث، ومِن هنا تبعيضيَّة تُشعِر بالقِلَّة، فالمعهودُ عن المشركين غير هذا؛ إذ هم ينقَلِبُون بعد نجاتهم جاحِدِين وكافرين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ والختَّارُ: الغادِرُ الناكِثُ للعهد.

﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ ترسيخٌ لقيمة المسؤوليَّة، وتأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، وقد جاء التذكيرُ بها في خواتيم سورة لقمان؛ لأن قصَّتَها تدور حول علاقة الوالد بولده.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أي: لا يغُرَّنَّكم الغَرور بعيدًا عن دين الله وطريقه المستقيم، ويَصِحُّ إطلاقُ الغَرور على كلِّ من يكون سببًا في هذا؛ كهوَى نفسٍ، ووسوسةِ شيطانٍ، وكيد عدوٍّ، وغوايةِ صديقٍ.

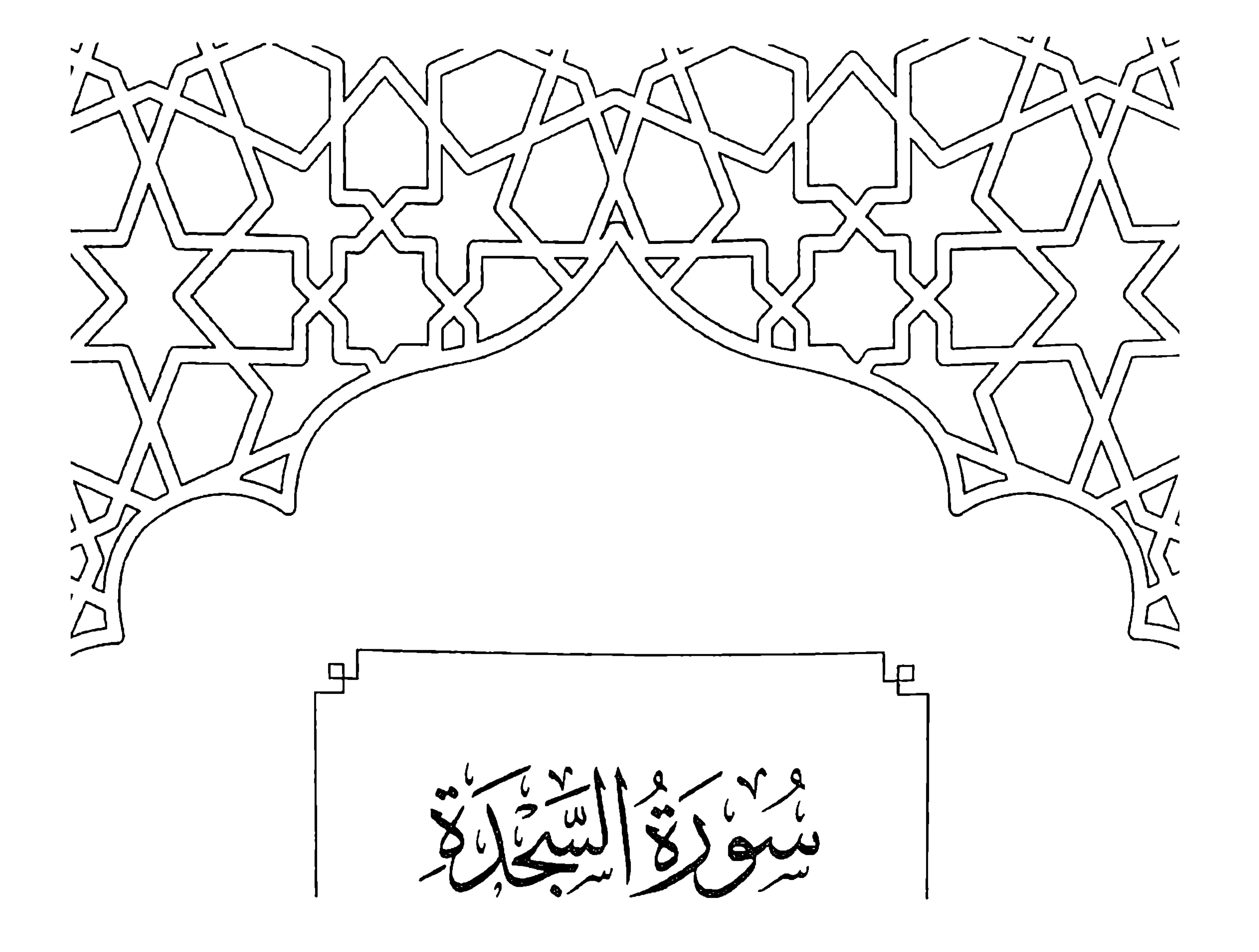
﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فلا يعلمها غيره.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يُنزِّل الغيثَ في موعده ومكانه غيره.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ هو علمُ الله الشامِلُ لكلِّ ما يكون في الأرحام من تلقيحٍ، وتخليقٍ، ونفخِ روحٍ، وصفاتٍ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: ماذا يكون لها من عوارض وطوارئ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عطَفَ الخاصَّ على العام؛ للتنبيه عليه والتذكير به، فمكان موت الإنسان داخِلٌ في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، والله أعلم.



سُورَةُ السَّجْدَةِ

المجلس السابع والثمانون بعد المائة: حوار في مسائل العقيدة



﴿الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾

تُعالِجُ سورةُ السجدة في كلِّ آياتها موضوعًا واحدًا، وقضيَّةً واحدةً هي قضيةُ الإيمان، وتدخل مع المشركين في حوارٍ مُعمَّقٍ حول الأُسس الإيمانيَّة والمسائل العقديَّة التي يُنازِعون فيها، والتي تحُولُ بينهم وبين الدخول في مظلَّة الإيمان، مع أنَّهم يشتركون مع المؤمنين في أصل الإيمان بالله، فهم يُؤمِنون بوجود الله، ويُؤمِنون أنه تعالى هو الذي خلقهم وخلق الخلق كلَّه بسماواته وأرضيه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

ولديهم أيضًا بقايا من الإبراهيمية؛ كتعظيم المسجد الحرام، ومشاعر الحج، أما تلك المسائل التي يُنازعون فيها - والتي تنقض هذه المشتركات - فقد تناولتها هذه السورة المباركة كالآتي:

أولًا: استهلَّت السورة بموضوع القرآن ورفض المشركين الإيمان به ﴿الم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقد اكتفى القرآن هنا بتأكيد بطلان قولهم؛ لأنَّ القرآن يحمِلُ دلائل صدقه في نفسه، لكن موقفهم هذا المُسبَق هو الذي يحُول بينهم وبين هذه الدلائل.

ثانيًا: يربط القرآن بين مسألة الإيمان بالقرآن ومسألة التوحيد، وهي المسألة الأساس التي تعدُّ نقطة الافتراق بين طريق المؤمنين وطريق المشركين، وقد أخذ القرآن يُذَكِّرُهم بما هو موجودٌ في أعماق فطرتهم من اعترافٍ بوحدانيَّته تعالى في الخلق، وهذا من شأنه أن يقودهم إلى توحيده تعالى في العبادة والطاعة؛ إذ لا معنى لِأن يؤمن الإنسان بوجود خالقٍ واحدٍ لهذا الكون ثم يذهب ليسجد ويعبد آلهة متعددة، فهذا تناقضٌ لا يقبله عقل، ولا تستسيغه فطرة.

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في القرآن الكريم مرتين: سورة لقمان / ٢٥، وسورة الزمر / ٣٨.

يقول القرآن: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ليصل من هذه الحقيقة إلى الحقيقة الأخرى التي ينازعون فيها: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

فالولي الذي بيده كلُّ شيء إنّما هو الخالق الذي خلق كلَّ شيء، أمّا هذه الأصنام المخلوقة بأيديكم فأنَّى لها أن تفعل لكم شيئًا أو تشفع لكم في شيء؟

ثالثًا: يُقرِّرُ القرآنُ هنا حقيقةً منطقيَّةً لا ينبغي أن يختلف فيها عاقلان، وهي أنَّ الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما هو وحده الذي يُدبِّرُ الأمر فيهما ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

والقرآن يُشيرُ هنا إلى أن تدبير الأمر يقتضي بيان الحقِّ من الباطل، وطريق السعادة من طريق الشقاء، وهذه هي رسالةُ القرآن الذي يُنكِرُه المشركون.

رابعًا: يُذكِّرُ القرآن بصفات الله التي لا ينبغي أن تنفَصِل عن ربوبيَّته لهذا الكون، فمَن آمن بخالقٍ لهذا الكون لا بُدَّ أن يُؤمن أيضًا بصفات الكمال له ﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

والإشارة هنا أنّ خالق هذا الخلق هو الأعلم به وبما يُصلحه، ومِن ثَمَّ كانت رسالة الله هي الحقُّ، وهي الأصلح لهذا الكون؛ ولذلك عقَّبَ القرآن بما يُعزِّز هذه الصفات الجليلة، وبما يدحَض دعوى المشركين في وجود شريكٍ مع الله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

فالذي خلق الخلق بهذا الإتقان، وخلق الإنسان على هذه الصورة وجعل له السمع والبصر والفؤاد لا يمكن أن يترك الخلق لغيره، فمِن أين استمدَّت هذه الأصنام سُلطتَها على هؤلاء المشركين؟ ومَن الذي منحها هذه القوَّة التي يتوهَّمُها المشركون فيها، حتى إنَّهم

يُقدِّمون لها النذورَ والقرابينَ تقرُّبًا إليها، وخشيةً من غضَبِها، وهي الصمّاء البكماء التي لا تخلُقُ شيئًا، ولا تعلم شيئًا؟

خامسًا: ينتقل القرآن في حواره هذا إلى مسألةٍ مفصليَّةٍ ينازع فيها المشركون أيضًا، وهي من أعقد المسائل عندهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

إنّهم يستبعِدُون قدرةَ الله على بَعثهم وإعادة خلقهم بعد موتهم، مع أنهم يُؤمنون أنَّ الله هو الذي خلَقَهم أول مرَّة! وفي التفكير المنطقي البسيط أنَّ صانع الشيء أول مرَّة أقدَر على إعادة صنعه؛ ولذلك يتَّجه القرآن إلى مخاطبتهم بما من شأنه أن يُحفِّزَ فيهم الرغبةَ في التفكُّر والنظر الجادِّ، فالمسألة ليست مسألة نظريَّة فلسفيَّة مُجرَّدة، إنَّها مصيرهم، ومصير آبائهم وأبنائهم، إنَّها سعادةٌ دائمةٌ، أو شقاءٌ دائمٌ، إنَّها لا تحتمل اللعب والعبث، ولا المغامرة والمجازفة: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

وبعد هذا الرجوع المؤكَّد والمحتَّم، يعرِضُ القرآن صورةً بائسةً وذليلةً لهؤلاء المُنكِرين والمُشكِّكين ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وهي صورةٌ كفيلةٌ بالعاقل أن يُعيدَ النظر في موقفه، وأن يُفكِّر مليًّا في ما الذي يُمكن أن ينتَظِرُه.

سادسًا: ثم يتناول القرآن موضوع الهداية والضلال، وأنّها مسؤوليَّة المكلَّف نفسه، فمَن شاء اهتدى، ومن شاء ضلَّ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ ولا يكون هذا إلا برفع الاختيار الذي هو مناط التكليف والتمايُز وتحمُّل المسؤوليَّة، ثم نبَّه القرآن إلى سببٍ من أسباب الضلال ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ﴾.

إنَّه الإهمالُ الذي يُعبِّرُ عن قلَّة الاكتِراث والانغِماس في اللَّهو والعَبَث، والذي عبَّرَ القرآن عنه فيما بعد بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ

مُنتَقِمُونَ﴾ ثم نبَّهَ إلى سببٍ من أسباب الهداية ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

فهناك شعورٌ بخُطورة الأمر، وهناك عملٌ ومثابرةٌ، وهناك قلوبٌ صافيةٌ، ونفوسٌ متواضعةٌ لا يحُول الاستكبار بينها وبين طريق الخير.

سابعًا: ثم يعرِضُ القرآن نتيجةَ الفريقَين ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثامنًا: يذكُرُ القرآن هنا سنَّةً مِن سُننِ الله في تذكير القلوب الغافلة والنفوس اللاهِية ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فالابتلاء بالمصائب والمِحَن يُشعِرُ الإنسان بضعفه، فيرفع عنه غشاوة الغرور والاستكبار، فإذا ارتفعت هذه الغشاوة كان أقربَ للرجوع إلى نفسه والتفكير في حاله ومآله، أمَّا الذي لا ترتفع غشاوته حتى في حالة الضعف والابتلاء فذلك هو الظالم لنفسه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ﴾.

تاسعًا: ثم يُذكِّرُ القرآن هنا بقصَّة موسى ﷺ، في إشارةٍ إلى البُعد التاريخي لهذه الدعوة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وفي السياق التاريخي أيضًا، يدعو القرآن إلى الاعتبار بحال الأمم السابقة وما حلَّ بها نتيجةً لاستكبارها وإعراضها عن دعوة أنبيائها ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

عاشرًا: ثم يعود بهم القرآن من النظر في التاريخ إلى النظر في الأرض وما فيها من آياتٍ ودلائل تُقرِّبُ صورةَ الحياة الآخرة، وكيفيَّة البعث والنشور ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

حادي عشر: يطرَحُ القرآن تساؤل المشركين عن موعد الآخرة، وهو تساؤلٌ لا ينمُّ إلَّا عن استخفافٍ بالأمر واستهزاء مريضٍ وعابثٍ؛ ولذلك كان الجواب يَحمِلُ لهم الوعيد والتهديد، وهو المناسب لطريقتهم هذه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

ثاني عشر: تختتم السورة بتوجيهٍ ربَّانيٍّ للنبيِّ الكريم ﷺ - ثم لكلِّ الدعاة من بعده - ألَّا ينشغل بهؤلاء المُعاندين والمستهزئين؛ لأن الانشغال بهم يضرُّ بالدعوة ويحُول بينها وبين العالمين ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لأنَّه يحمل دلائل صدقِه في ذاته.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ هم قومُه ﷺ الذين كانوا في جاهلية فليس عندهم كتاب، ولم يبعث الله إليهم نبيًّا.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ مَن مات منهم قبل البعثة فالأصل فيه براءة الذمَّة؛ لأنَّه غير مُكلَّف ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وهنا أيضًا ملحوظة؛ فإنذار الرسول ﷺ لقومه لا يعني أنَّ رسالته خاصة بهم، فهذا منقوضٌ بمثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأنَّ يومَنا هو حصيلةُ دَوَران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكلِّ كوكبٍ يومه، فكيف

باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلَمُه إلا الله، والمقصودُ بالإخبار عن تلك الأيام إنَّما هو التقديرُ على مراحل، كما هي سُنَّةُ الخالق كلِّه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليقُ بعظمةِ الله وجلالِه وعلوِّه وغِناه عن جميع خلقه؛ العرش وما سِوَى العرش، وهذه من الأخبار الغيبيَّة التي نؤمن بها كما وردت، ونُحجم عن الدخول في كيفيَّاتها وصورتها؛ لأنَّ العقل لا يملك الأدوات القادرة على ذلك، ثم نتدبَّر المقصود مِن إخبارنا بها، وهو مقصودٌ يسيرٌ على مَن يسَّرهُ الله عليه؛ فالنصُّ يوحي بكمال المُلك والسلطان والعظمة والعلو المُطلق، وهذا يكفي ويُريح عقولنا وقلوبنا من الجدل الذي لا نتيجة له.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو سبحانه الذي يُدبِّرُ أمرَ السماوات والأرض، وهو الذي يُنزِّلُ وحيَه وأمرَه على أنبيائه من السماء إلى الأرض.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ عمل الناس وأخبارهم وأحوالهم بما تُدوِّنه الملائكة، وهذه سنَّةٌ من سُننِ الله في تدبير الملك، أما علمُه سبحانه فهو عِلمٌ شاملٌ ومحيطٌ بكلِّ شيءٍ، ولا يحتاج إلى أداة أو واسطة.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ دليلٌ مُضافٌ على ما تقدَّمَ أنَّ اليومَ وِحدةٌ زمنيَّةٌ نسبيَّةٌ، فيوم الأرض غير يوم المريخ أو زحل، وأيام الله في هذا الكون الفَسِيح لا حصرَ لها، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أتقنَه وأحكمَه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تنبيهٌ إلى عظيم قُدرة الله؛ حيث خلق هذا الإنسان المُتكامِل الخلق، والحَسَن الصورة والقَوَام من ماءٍ مهينٍ يُستقذَرُ منه، وهو ماءُ الرجل.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ نفَخَ فيه الروحَ التي خلقها الله له، وإضافةُ الروح إلى الله إضافةَ ملكٍ واختصاصٍ لا إضافة أبعاضٍ وصفاتٍ، كما نقول: سماءُ الله، وأرضُ الله،

وبيتُ الله، وخَلْقُ الله.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ تنبيهٌ إلى أدوات المعرفة التي هي شرط التكليف وتحمُّل المسؤوليَّة، وقوله عقِبَها: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ من يُعطِّل هذه الأدوات لا يهتدي إلى الحقِّ، ولا يَقدِر على الشكر.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ يسألُ المشركون سؤالَ المُستهزِئِ المُستكبِرِ عن كيفيَّة عودتهم بعد أن يُدفنوا في الأرض، ويضِيعوا في تُرابها.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وُكِّلَ بقبض أرواحكم، وفيه دليلٌ أنَّ الملائكة لهم وظائف مختلفة تتعلَّق بالخلق وإدارته وفق سُنن الله والنظام الذي اختارَه لهذا الكون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ خَجَلًا وندامةً.

﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمَعُ ونُبصِر لا كما كنَّا في الدنيا.

﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذلك قوله تعالى الذي توعَّدَ به إبليسُ وجُنده: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٥].

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمصاحبة، بمعنى أنَّهم يُسبِّحون الله ويحمدونه معًا.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ينهَضُون من نومهم لأداء الصلاة والعبادة والدعاء.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ من الخلق حقيقة النعيم الذي أعدَّه الله لهؤلاء المؤمنين، وهذا أسلوبٌ معروفٌ في تعظيم الأمر والمبالغة فيه، وذلك فضلُ الله وكرمُه الذي ليس له حدٌّ.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ تأكيدٌ لمبدأ العدل الإلهي؛ فكلُّ إنسانٍ مجزِيٌّ بعمله، والعمل معيارُ التفاضل، أمّا الأشياء المكتوبة قدرًا على الإنسان كجنسه ونسبه ولون بشرته، فهذه لا اعتبار لها في ميزان الله.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ التي يأوي إليها المؤمنون، وفيه معنى السكينة والاستقرار.

﴿نُزُلًۢا﴾ أي: إكرامًا لهم، وأصل النُّزُل ما يُقدَّم للضيف.

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: كلَّما طلبوا الخروج منها تجدَّدَ الأمر بمُكُوثهم فيها، فلا يخرجون منها أبدًا.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ أي: من مصائب الدنيا؛ كالفقر، والمرض، والقتل، والمِحَن.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قبل عذاب الآخرة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يتَّعِظُون فيستغفِرُون ويتوبُون.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ الظاهر من السياق أنّه لقاء الآخرة، وفائدةُ تأكيد لقاء نبيِّنا محمدٍ بأخيه موسى ﷺ في ذلك اليوم - مع ما فيه من تأكيد الحياة الأخرى - أنَّ موسى صاحب رسالة، وقد دعا قومه كسائر الأنبياء والرسل إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، فانقسم الناس على فريقَين كما انقسم الناس في رسالة محمدٍ ﷺ.

وقد تقدَّم أنَّ الكافرين المُكذِّبين سيَرَون هناك الحقيقة التي كذَّبُوا بها وسيندمون، فناسَبَ أن يُؤكِّد القرآنُ لمحمدٍ ﷺ ولأُمَّته من بعده أنّهم سيلتَقون بمن سبَقَهم من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم وأحبابهم، وسيكون ذلك اللقاء مُتمِّمًا لسعادتهم، فما قرَأناه في آيات القرآن من أخبارٍ وقصصٍ عن أولئك الصفوة الأخيار سنراه عيانًا، وفي ذلك أيضًا مزيد حسرةٍ للكافرين والمُكذِّبين، ثم إنَّ رسالة موسى بالتحديد هي الأقرب إلى رسالة محمدٍ ﷺ؛ ولذلك كان الاستشهادُ بها أكثر، ووُرُودها في القرآن أطول، والله أعلم.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ فهو بمعنى أنّه أمرٌ يقين، وليس معناه نهي النبيِّ ﷺ عن الشكِّ، إلا إذا حُمِلَ على أنّ النهي مُوجَّهٌ إلى غيره، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والله أعلم.

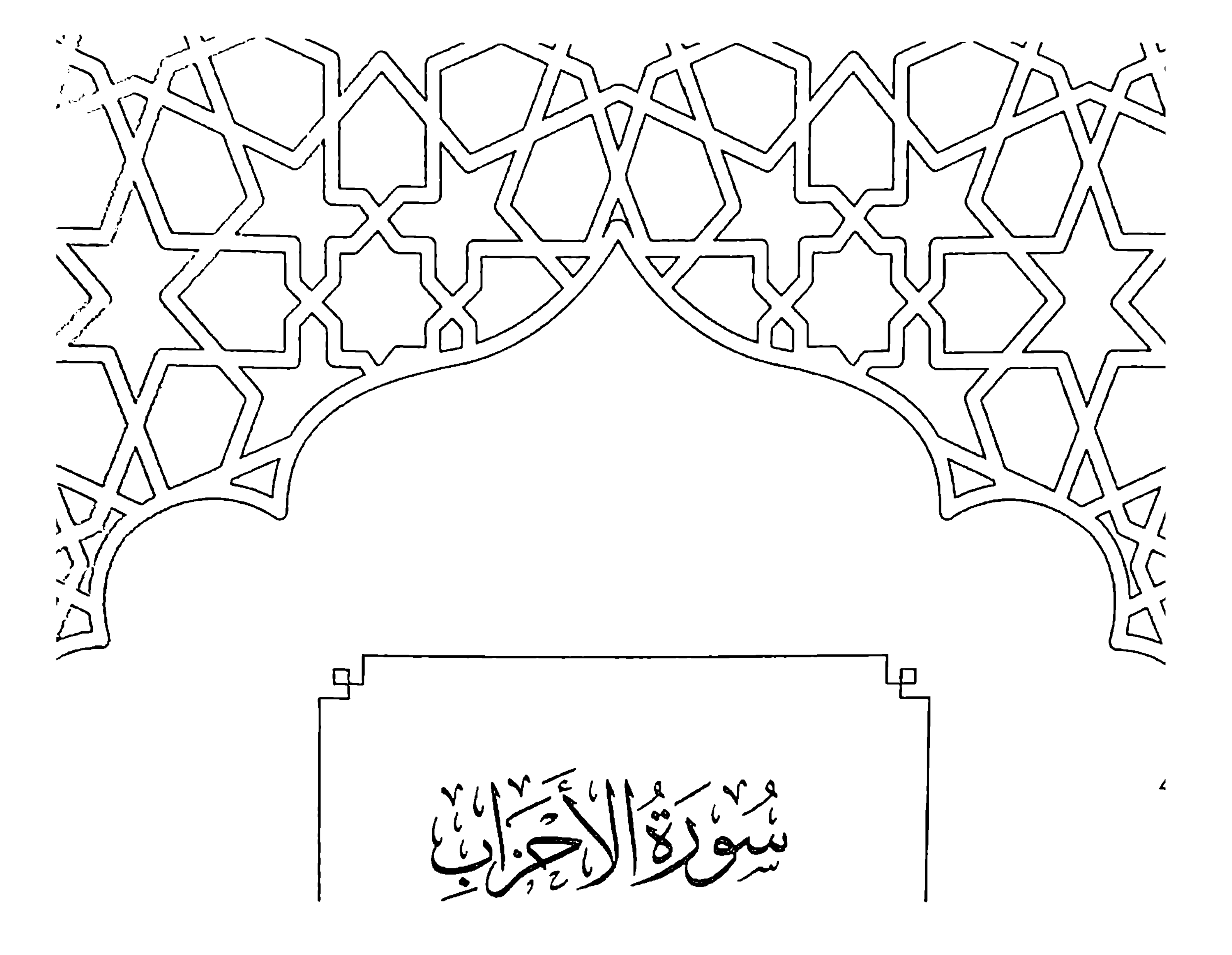
﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي: بين الفريقَين على امتداد التاريخ؛ ففي كلِّ حلقةٍ من حلقات الدعوة هنالك مُصدِّقٌ، وهنالك مُكذِّبٌ، وهنالك صالحٌ، وهنالك طالحٌ، فغدًا سيتمايز الناس على فريقَين: فريق الأنبياء ومن صدَّق بهم واتبع هديَهم، وفريق المحرومين الأشقياء مِن المكذِّبين والمعانِدين.

﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ الأرض القاحِلة الميتة التي ليس فيها نبات.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ أي: متى يوم اللقاء هذا والحساب والجزاء والفصل بين الخلائق؟

وهو سؤالٌ يُورِدُه المكذِّبون على سبيل السُّخرية والاستهزاء، ويبعُد في السياق أن يكون الفتح بمعنى النصر في بدرٍ أو غيرها؛ إذ السياق عن البعث والحساب، ثم إنَّ قوله تعالى في تتمَّة الآية: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنّه يوم القيامة، والله أعلم.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي: مُنتظِرون لعذابهم؛ لأنّه واقعٌ بهم لا محالة وإن كانوا غافلين عنه، كما تقول للماشِي في طريق الهلاك أنّه ينتظر هلاكَه، وإن كان هو لا يترقَّبه ولا يتشوَّف له.



سورة الأحزاب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم

لسورة الأحزاب خصوصيَّة عن باقي السور؛ لأنها تناولَت حياةَ نبيِّنا الكريم ﷺ في أدقِّ خصوصيَّاته، وقد أشارت السورة نفسها إلى الغاية من هذا التناول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

فمن أجل هذه الغاية الجليلة، بسطت هذه السورة حياةَ رسول الله ﷺ العامة والخاصة؛ في علاقاته الاجتماعيَّة مع زوجاته وأهل بيته، وفي حياته الدعويَّة والتربويَّة مع أصحابه وأحبابه وكلِّ الناس الذين يعيشون معه في المدينة أو في محيطها، ثم تصدِّيه لأحزاب الكفر والضلالة، والخيانة يهود لما بينهم وبينه من مواثيق وعهود، وكذلك معاناته الطويلة - بأبي هو وأمّي - من الدور المُؤذي الذي تبنَّته الفئة المنافقة ومن يقف خلفها.

وربما كان من توفيق الله تعالى أن تُكتب هذه الكلمات في تدبُّر هذه السورة العزيزة أمام الروضة المشرَّفة في رحاب المسجد النبويِّ الشريف، فكنتُ أقرأُ الآيات وأُعيدُها وأتدبَّر

معانيها وأنظر في سياقها وتسلسلها، ثم أنظرُ أمامي فأمتَلِئُ بالرهبة، وكأنّها الآن تنزِل، وها هو رسولُ الله ﷺ يتلُوها على أصحابه، ويؤمّهم بها في مِحرابه، وينشرها بين الناس كلِّ الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، ينشرها بينهم كما أُنْزلت عليه، وفيها خلَجَات نفسه، وفيها أسرار بيته، فيها ما كان يَستَحيِي أن يُظهره ويبُوح به ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، و﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

فعليك يا أيها الحبيب صلواتُ الله وسلامُه دائمًا وأبدًا، عسى الله أن يغفر لنا، ويرزقنا شفاعتك ومُصاحبتَك على الحوض، وفي أعلى جِنان الخُلد.

في فواتح هذه السورة كان الحديث عن رسول الله ﷺ مُرتبطًا بوظيفته الكبرى في تبليغ الرسالة، وموقعه ﷺ بين المؤمنين، وبعض الأحكام والتوجيهات المناسبة لهذا السياق:

أولًا: استهلّت السورة بوصيَّة التقوَى، وإخلاص الطاعة لله وحده، واتِّباع شريعته ووحيِه، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وهي وصيةٌ للأُمَّة كلّها في شخص نبيِّها ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثانيًا: ولأنَّ هذه الوصيَّة تستدعي العداء من طرف الكافرين وأحزابهم ومُنافقيهم، جاء التوجيهُ بأهميَّة التوكُّل على الله وحده، فهو سبحانه مُقدِّر الأقدار، ومُيسِّر الأسباب ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ثالثًا: ثم شرَعَ القرآن بإعلانه إبطال الموروث الجاهلي، لتستَبِينَ سبيلُ الحقِّ عن سبيل الباطل، فلا يبقى في هذا عذرٌ لمعتذر، ولا تأويلٌ لمتأوِّل ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾.

وفي هذا تمهيدٌ وتهيئةٌ لاستقبال الأحكام الإلهيَّة الناقضة للعادات الجاهلية ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ

يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فمِن عادات الجاهلية: الظهار، وهو أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمّي، وقد جاء ذكر أحكامه مفصَّلةً في سورة المجادلة، ومن عاداتهم الشائعة: التبنّي، وقد خصّه القرآن هنا بالتفصيل، وجعل من فعل الرسول ﷺ المثل الأول؛ حيث كان ﷺ قد تبنّى زيدَ بن حارثة ﷺ، فلما أراد الله أن يُبطِل هذه العادة بدأ بنبيِّه، وفي هذا ترسيخٌ لمعنى القدوة والأُسوة الحسنة التي تدور السورةُ حولَها.

رابعًا: بعد ذلك انتقل القرآن لبيان مكانة الرسول ﷺ في هذه الأمّة: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذه هي القيمة المحوريَّة التي تُنظِّم علاقة المسلمين بنبيِّهم، فهو ﷺ ليس مُبلِّغًا لرسالة فحسب كما يتوهَّم المتوهِّمون، بل هو المحور الإنسانيُّ الذي تدور حوله الأُمَّة في وجودها وحركتها، فهو نقطة البداية في نشأتها وتكوُّنها، وهو القدوة الأولى في تطلُّعها وسيرها إلى الله، وتقديم أيِّ شخص عليه في الاهتمام والمحبَّة والاتِّباع يعدُّ خَرقًا كبيرًا لعقيدة الأمة وهويَّتها الجامعة.

ومعنى أنّه المحور الإنساني في هويَّتنا: أننا لا نُقدِّمُ أيَّ إنسانٍ عليه كائنًا من كان، كما أننا لا نُقدِّمُ على القرآن كتابًا، ولا نُقدِّمُ على الكعبة مكانًا، فهذه محاور تلتقي عليها الأُمة، فمن أحدث فيها وابتدع وقدَّم وأخَّر، فقد ارتكب جناية عظيمة بحقِّ الأُمَّة، وأقلُّ آثار هذه الجناية ما نراه اليوم من اضطرابٍ في هويَّة الأمة، واختلافٍ في أولويَّاتها ومصادر دينها وشريعتها.

خامسًا: يُؤصِّلُ القرآن لمكانة أهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ومع ما في هذا الحكم الربَّاني القاطع من تزكيتهنَّ وإعلاء شأنهنَّ، وفرض احترامهنَّ وتبجيلهنَّ، ففيه أيضًا مغزى مرتبط بصورة التأسِّي والاقتداء، والتي هي محور هذه السورة؛

إذ إنَّ حياته ﷺ اليوميَّة مع أهل بيته تُشكِّل جانبًا كبيرًا من النموذج الذي ينبغي أن يُحتذى في تكوين البيت المسلم، وعلاقاته الداخلية، وطبيعة حياته واهتماماته وسلوكه اليومي، ومن ثَمَّ جاء التذكير بهذه المعاني في هذه السورة نفسها بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

وعليه فإنَّ الانتقاص منهنَّ هو انتقاصٌ وتشكيكٌ في هذا الذكر الذي كلَّفهُنَّ الله بحمله إلى الناس، إضافةً إلى عقوقٍ مفضوحٍ بحقهنَّ وهنَّ أمهاتنا بنصِّ القرآن، بل إنَّ الرافض لهذه العلاقة إنَّما يُعلِنُ عن نزعه لصفةِ الإيمان عن نفسه، والعياذ بالله.

سادسًا: يُؤصِّلُ القرآن أنَّ محور العلاقات الاجتماعيَّة فيما بين المسلمين كافَّة إنَّما هو الرَّحِم، فصلة الأرحام أساس البناء الاجتماعي ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وهذا المحور تنبني عليه حقوقٌ وواجباتٌ والتزاماتٌ منها: الإرث، والنفقة، ومن سوء فقه الرجل - وربَّما سوء تديُّنه - أن يُقدِّمَ على رَحِمه مَن يرتبط معهم بروابط المصلحة الماديَّة أو الحزبيَّة.

سابعًا: يُؤكِّدُ القرآن أنَّ رسالة محمدٍ ﷺ ليست بِدعًا من الرسالات، بل كلُّها يرجِع إلى مصدرٍ واحدٍ، وميثاقٍ واحدٍ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

ثم يُشير إلى انقسام الخلق تجاه هذه الرسالة، وذاك الميثاق إلى مؤمنين وكافرين، وصادقين وكاذبين ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وبهذه الآية يُمهِّدُ القرآنُ للحديثِ عن معركةٍ من معارك الإيمان الخالدة، وهي معركةُ الأحزاب.

دقائق التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ خطابٌ للأُمَّة في شخص نبيِّها؛ إذ ليس من المُتصوَّر أن يُطيع الرسولُ ﷺ الكافرين والمنافقين في معصية الله.

وفي الآية معنًى لطيفٌ يُشعر المؤمن بالطمأنينة التامَّة على عصمة الوحي، وصدق التبليغ، فالله بجلاله وعظمته لم يترك التبليغ للجهد البشري للأنبياء ﷺ، بل هو معهم بتأييده وتسديده ﷺ.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ ﴾ تنبيهٌ إلى قيمة الإخلاص في التوجُّه والعمل، وتحذيرٌ من الشتات والضياع والتردُّد، فلا يمكن للإنسان السوِيِّ أن يؤمن بالشيء وضدِّه، أو أن يُطيع الله ويُطيع الشيطان، وهذا التنبيهُ مُناسِبٌ لما قبله، ومُمهِّدٌ لما بعده لإبطال العادات الجاهلية المخالفة للوحي؛ كالظِّهار، والتبنِّي.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ ﴾ بمعنى أنَّ قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي كذِبٌ وباطلٌ، فالزوجةُ لا تكون أُمًّا.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ﴾ فالمُتبنَّى من الأولاد لا يكون ابنًا، بل هو انتسابٌ باطلٌ كذلك.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ ﴾ كلامٌ مُجرَّدٌ ليس له سندٌ من الشرع، ولا سنَدٌ من الواقع.

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: انسِبوهم لآبائهم ولا تنسِبوهم لأنفسكم، فهذا هو حكمُ الله الحقِّ والعدل.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ ﴾ بمعنى أنَّ هذا الذي أبطل القرآن بُنوَّتَه ولم يُعرف له أبٌ يُؤوِيه وينتسِبُ إليه، فواجِبُ المجتمع أن يحتضِنَه في ظلال الأخوَّة والموالاة الإيمانيَّة التي لا تُفرِّق بين بعيدٍ وقريبٍ.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ ﴾ وهذه مسألةٌ دقيقةٌ؛ فاللسان قد اعتاد على نسبة هذا الابن لأبيه من التبنِّي، وبعد تحريم التبنِّي أصلًا، أصبحت هذه النسبة ولو بالمناداة ونحوها مُحرَّمَة كذلك، ولكن اللسان قد يزلُّ عن غير عمدٍ، فهذا لا حرج فيه ولا إثم، والله أعلم.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فلا يتقدّمنّ على رسول الله في ولايته على المؤمنين أحدٌ من الخلق، وولايته ﷺ ولاية رحمةٍ عامةٍ، ونصحٍ شاملٍ؛ لأنَّه موصوفٌ بنص الكتاب: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ من حيث تعظيمهنَّ، وتقديرهنَّ، والاعتراف بفضلهنَّ، وحُرمة الزواج بهنَّ بعده ﷺ، بخلاف الأحكام الفقهيَّة العمليَّة، كالإرثِ والخلوة، فهذه لأمِّ النَّسَب خاصَّة.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ أصلٌ في تقديم الأرحام على غيرهم في العلاقات الاجتماعيَّة وما ينبَنِي على ذلك من توارُث.

أما عامة المؤمنين والمهاجرين خاصة، فلهم مكانتهم في ضمير الأُمَّة، لكن صلة الأرحام والتوارُث بينهم له فقهه، فلا يصح الخلط بين الدائرتين، فبرُّ الوالدَين والأعمام والعمَّات شيءٌ، وتعظيمُ الأنصار والمهاجرين وكذلك أهل العلم والفضل شيءٌ آخرٌ، وقد جاءت هذه الآية لإبطال التوارُث بين المهاجرين والأنصار، والذي كان مُتَّبعًا عقب الهجرة والمؤاخاة حتى نزول هذه الآية.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ من غير الإرث، كالصلة والوصيَّة والصدقة، فهذا كلُّه جائزٌ ومفتوحٌ لعامة المسلمين ولِمَن بينهم تناصُر وتواصُل من باب أَولَى.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ عهدهم في تبليغ الرسالة كما أنزلها الله عليهم من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، ولا انحيازٍ ولا محاباةٍ.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ خصَّهم بالذكرِ، وهؤلاء هُم أولو العزم أفضل الرسل ﵈.

﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ ليسأل الأنبياء عن أمانتهم التي بلَّغُوها - وهو سبحانه أعلم بهم -، لكن لتبكيت المُكذِّبين والمُعانِدين وإلزامهم الحُجَّة؛ ولذلك عقَّبَ بعدها: ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

ولما رأى المؤمنون الأحزاب

حمَلت هذه السورة اسمَ الأحزاب مِن اسمِ المعركة التي تناولَتْها هذه الآيات، وهي معركة لها خصوصيَّتها من بين المعارِك كما للسورة خصوصيَّتها من بين السور؛ حيث إنَّها المعركة التي ردَّ الله فيها العدوَّ دون قتال، وهي كذلك آخر معركة تقترِب فيها قريش من

حدود المدينة، بل هي التي حسَمَت الصراع المُسلَّح مع قريش.

وقد تناوَلَت هذه الآيات تلك المعركة من زوايا مختلفة، وبحسب المواقف المختلفة أيضًا:

أولًا: بدأ القرآن بعرض نتيجة المعركة؛ حيث إنَّها لم تكن مُتوقَّعة لأحدٍ، لما بين الفريقَين من تفاوُتٍ شاسعٍ في العُدَّة والعدد، وشبكة التحالفات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

ولا شكَّ أنَّ البدء بهذه النتيجة يُوحِي بأهميَّتها وما سيترتَّب عليها من آثار، إضافةً لما فيها من تأييدٍ إلهيٍّ مُباشِر، بما يُعزِّزُ الحالة الإيمانيَّة لدى المؤمنين، وثِقَتهم بوعد الله الأكيد بإتمام النعمة وإكمال الدين.

وتجدُرُ الإشارة إلى أنَّ القرآن عاد ليؤكِّد هذه النتيجة بعد عددٍ من الآيات: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾.

ثانيًا: وصف القرآن المشهد الخطير للمعركة والمأزق الخانق الذي وجد المسلمون أنفسهم فيه: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾.

ثالثًا: شخَّصَ القرآن الدور الخطير الذي لعَبَته المجموعة المنافقة في ذلك الظرف العصيب، فانطلقوا يُشكِّكُون في دين الناس والوعد الذي سمِعَه المسلمون عن نبيِّهم ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾.

ومنهم من راحَ يُثبِّط العزائِمَ، ويبُثُّ الخوفَ والقلقَ والاضطرابَ ﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾.

ومنهم مَن ولَّى هاربًا بذرائع واهِية، ولا شكَّ أنَّ الفِرار في تلك اللحظة يُزلزِلُ القلوب،

ويُخلخلُ الصفوف ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

وقد بيّن القرآن أنَّ هؤلاء الفارّين كانوا قد عاهدوا الله على الثبات وعدم الفِرار ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾؛ ولذلك بدأ القرآن بمُحاجَجَتهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

ثم عرَض القرآن صورًا أخرى لهذا التخذيل والمواقف الخيانيّة، والتي تؤكِّد أنَّ هؤلاء لم يكونوا من المؤمنين وإن ادَّعوا ذلك ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

رابعًا: بعد تشخيصِه لحال المنافقين ودورهم الخياني الخطير، راحَ القرآن يُبرِزُ حالَ الصفِّ المؤمن من المهاجرين والأنصار، وعامة المؤمنين ممن صدَقوا الله فصدَقَهم الله، ولا شكَّ أنَّ وجود الرسول ﷺ معهم وبين صفوفهم - وهو الأسوة والمثل الأعلى في السرَّاء والضرَّاء - كان له الأثر الأبلغ في تثبيتهم وتشجيعهم على الصبر والمرابطة، حتى جاء وعد الله ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا

﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

خامسًا: أخيرًا عرض القرآن لصفحةٍ أخرى من صفحات الخيانة والغدر، جاءت على يد إحدى القبائل اليهوديَّة التي كان بينها وبين رسول الله ﷺ أحلاف ومواثيق، فنقَضُوا عهدهم وتحالفوا مع قريش، فأمكن الله منهم بعد فِرار قريش ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ قريش ومن تحالف معها من قبائل العرب، وذلك يوم الأحزاب.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الظاهر أنَّهم الملائكة، وما يعلم جنودَ ربِّك إلَّا هو.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مِن أعالي المدينة ومِن الجهة المُقابلة لها، ورُبَّما يكون الأحزاب قد وصلوا المدينة من طريقَين مختلفَين، أو أنَّه أراد بني قريظة؛ حيث كانوا في الجهة الثانية المقابلة للخندق، وقد غدَرُوا بالمسلمين، ونقَضُوا عهدَهم معهم.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ مِن شدَّة الخوف والفزع، والحناجر جمع حنجرة، فكأنَّ القلوب قد انخلعت من أماكنها، وصعدت إلى مستوى الحناجر؛ لما رأته من هولٍ وشِدَّةٍ.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: الظنون المختلفة تبعًا لاختلاف مستوى الإيمان ودرجة اليقين؛ فالمؤمنون الصادقون لا يظنُّون بالله إلَّا الخير، وأمَّا المنافقون وضِعاف الإيمان فيظنُّون بالله ظنًّا آخر.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ تأكيدٌ لحالة الفزع والقلق التي أصابت المؤمنين في ذلك اليوم، وهي حالةٌ بشريَّةٌ طبيعيَّةٌ في مثل هذه الظروف؛ حيث الخوف على النساء والذراري، والخوف من المصير المجهول، والخوف على مستقبل الدعوة أيضًا، وهم قطعًا لا يعلمون الغيب، ولا يعلمون ما الله مُبتَلِيهم به، أمَّا عقيدتهم في الله وتوكلّهم عليه، والتفافهم حول نبيّهم ﷺ، واستعدادهم للتضحية فكل هذا ثابتٌ لا يتزعزع ولا يتزلزل، فرضي الله عنهم وأرضاهم على ما صبروا وأخلصوا، وقدَّموا وبذلوا.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ عَطَفَ الذين في قلوبهم مرض على المنافقين للتمييز بين المنافق الخالص الذي يُبطِنُ الكفر ويُظهِرُ الإيمان، والآخر الضعيف والمُتردِّد والذي لم يستقر الإيمان في قلبه، واشتراكهم في هذا القول دليلٌ على تأثير المنافقين في دائرة أوسع من دائرتهم، وهذا القول مع ما فيه من سوء ظنٍّ بالله وبرسول الله، فيه أيضًا تثبيطٌ للمسلمين، وإضعافٌ لروح المقاومة عندهم.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: من المنافقين.

﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ أي: لا جدوَى في مقامكم ورباطكم، فارجعوا إلى مساكنكم.

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي: مكشوفة للعدو، وليس بينها وبينه حائل.

﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ تكذيبٌ صريحٌ من القرآن لدعواهم تلك، وفضحٌ لنواياهم.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ أي: لو اقتحم المشركون المدينة من كلِّ جهاتها.

﴿ ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي: طلب منهم المشركون الارتداد عن محمدٍ ودينه.

﴿لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ أي: لسارَعوا إلى إجابتهم والدخول في دينهم، وهذا تأكيدٌ أنَّ هؤلاء المنافقين لم يكونوا مؤمنين أصلًا، وإنّما هم كاذبون وخائنون.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ هذه طبيعة المنافقين، فهم مع القوي، ومع من يظنُّون فيه مصلحتهم، فإذا كان غير ذلك انقَلَبوا عليه ونكثوا عهودهم.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بالأجل المكتوب عنده سبحانه والذي يحول بينكم وبين الموت.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يحميكم من قدَر الله، ومن الموت الذي كتبه الله عليكم.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ وهم الذين يصدُّون الناس عن الجهاد، ويُرغِّبُونهم في القعود، وهذا معنى قولهم: ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ﴾ أي: تعالوا معنا واتركوا الجهاد.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ والبأس هنا: القتال.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ يبخلون عليكم بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّهم لا يريدون الخير لكم، ثم أكَّد هذا المعنى بقوله الآتي: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾.

﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ وَصْفٌ لحال المنافقين حينما تكون المواجهة مع العدو وتلتحم الصفوف، فلا شيء يفضح المنافقين كالقتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: ألقَوا عليكم من مفاخرهم ومآثر شجاعتهم الكاذبة ما ينتقِصُون به من شجاعة المؤمنين وصبرهم وثباتهم، وهذا دَيدَنُ المنافقين والمُنتَفِعين بعد كلِّ معركة، فهم قبل المعركة وأثناءها خائِفون وجِلُون، فإذا انقَشَعَت راحُوا يتغنَّون ببُطولاتهم، وينتَقِصُون من المجاهدين الصادقين.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ﴾ بيانٌ لحقيقتهم وللدافع الأساس الذي ينتج كلَّ هذه المواقف السيئة، فهم كافرون حقيقةً وإن تظاهروا بالإسلام.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ يظنُّ المنافقون أنَّ الأحزاب لا زالوا قريبين من المدينة وأنَّهم لم يرحلوا.

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ كرَّةً ثانية.

﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي: يودُّ المنافقون لو أنّهم كانوا خارج المدينة في البادية مع الأعراب.

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ بمعنى أنّهم يكتفُون بالسؤال عنكم عن بُعد، وعن أخبار مُواجهتكم مع المشركين.

﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لأنّهم لا يقاتلون عن إيمان، وإنّما إن حضروا القتال قاتلوا بما يظنُّون أنّه يدفع عنهم تهمة الكفر والخيانة.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وهذه قاعدةٌ من أعظم قواعد الدين؛ فالرسول ﷺ هو المثل الأعلى الذي تجسَّد الإسلام كلُّه في سلوكه، فهو النموذج التطبيقي للوحي، ولا يمكن فهم الوحي أو تطبيقه من غير سنَّته وسيرته الطاهرة ﷺ.

وقد أشارت الآية إلى هذا المعنى فربطت بين التأسِّي به وبين ذكر الله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ وما عَرْض هذا الجانب من سيرته ﷺ في هذه السورة العزيزة إلا لتحقيق هذه الغاية.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ هذا هو الموقف اللائق بأولئك الصفوة رضي الله عنهم وأرضاهم؛ وفي هذا تفسير لقوله تعالى المتقدِّم: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ فحاشا لهؤلاء الأصفياء الأوفياء أن يظنُّوا غير ظنِّ الحقِّ بالله ثم برسوله ﷺ، وهؤلاء هم الذين امتَدَحهم الله وامتَدَحَ مواقفهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ وليس بعد هذه التزكية من تزكية.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تذكيرٌ بعقيدة الجزاء التي تنتظر الفريقَين: المؤمن وغير المؤمن، مع الإشارة اللطيفة إلى سعة رحمة الله حتى بأولئك المنافقين الذين خانوا الله ورسوله؛ ترغيبًا لهم بالتوبة والأوبة إلى الطريق المستقيم، وفي هذه إشارةٌ تربويّة لكلِّ مؤمنٍ أن يحرص على هداية الناس ما وجد إلى ذلك سبيلًا، فإسلامنا دين الرحمة، وليس دين النقمة.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ﴾ لم ينالوا بُغيتَهم بالظفر على المؤمنين.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ ذِكْرُ هذا في مقام الامتنان دليلٌ على أنَّ القتال ليس مطلبًا دينيًّا بحد ذاته، بل الرحمة والدعوة إلى الخير هي الأصلُ، والقتال استثناء، وفي هذا الاستثناء استثناء آخر؛ ففي هجوم المشركين على المسلمين في مدينتهم تحقَّقَ الاستثناء ووجب القتال، لكن لمّا كان عدد المسلمين أقل، وعدَّتهم أضعف تحقَّقَ الاستثناء الثاني، فأصبح تجنُّب القتال مطلبًا بما يحفظ بيضَةَ الإسلام، ويدفع عن المسلمين.

ولذلك عمل رسول الله ﷺ على حفر الخندق، وهمَّ بأن يُعطي ثُلُث ثمار المدينة لبعض القبائل المتحالفة مع قريش؛ لكي يكفُّوا عن القتال[1]. وهذا فقهٌ عظيمٌ ودقيقٌ.

---

(١) قال ابنُ هشام في «السيرة النبوية»: (فلما اشتدَّ على الناس البلاء، بعَثَ رسولُ الله ﷺ إلى عُيَينة بن حِصن بن حُذيفَة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرِّيّ، وهما قائِدَا غطَفَان، فأعطاهما ثُلُثَ ثمار المدينة على أن يرجِعَا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجَرَى بينه وبينهما الصلح). ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٣/ مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط. ٢، ١٣٧٥- ١٩٥٥م، تح مجموعة من المحققين)، وقد رُوِيَت هذه الحادثة في أغلب كتب السير والتواريخ، وحتى بعض كتب الرواية، ينظر: «دلائل النبوة» (٣/ ٤٣٠/ دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤٠٥)، و«معرفة السنن والآثار» كلاهما للإمام أحمد بن الحسين البيهقي (١٣/ ٤١٢/ مجموعة ناشرين، ط. ١، ١٤١٢- ١٩٩١م، تح عبد المعطي أمين قلعجي)، و«جوامع السيرة» للإمام أبي محمد علي بن حزم الظاهري (ص ١٤٩/ دار الكتب العلمية)، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» للإمام أبي عُمر يوسف بن عبد البر النَّميري القُرطبي (ص ١٧٣/ دار المعارف، ط. ٢، ١٤٠٣، تح شوقي ضيف)، و«البداية والنهاية» للإمام أبي الفِداء إسماعيل بن كثير (٤/ ١٢٠/ دار إحياء التراث العربي، ط. ١، ١٤٠٨- ١٩٨٨م، تح علي شيري)، وغيرها.

أمَّا ما نراه اليوم من تدميرٍ لحواضر الإسلام، وتشريدٍ لملايين المسلمين تحت اسم الجهاد، وجَعل الأحياء السكنيَّة ساحةً للحرب، ولردود الأفعال الانتقاميَّة، فهذا أبعدُ ما يكون عن الجهاد الحقّ، وليس في هذا تبرئة لساحة الأعداء مهما كانوا، فهم أعداء، وهذا هو المُتوقَّع والمُنتظَر منهم، لكن الجاهل قد يضُرُّ بنفسه أكثر مما يطلُبُه منه عدوُّهُ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ اختيارُ هاتَين الصفتَين الكريمتَين لله تعالى في التذييل على هذا الموقف، يُشير إشارةً قويَّةً إلى أنَّ القوَّة والعزَّة قد تقتَرِنان بكفِّ العدوِّ ومنعه من القتال، وليس شرطًا أن تقتَرِن بالقتال المباشر.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ هم بنو قريظة الذين نقَضُوا عهدَهم مع رسول الله، وظاهَرُوا المشركين يوم الأحزاب وتحالَفُوا معهم، فلما صَرَفَ الله المشركين، تحرَّكَ الرسولُ ﷺ لتأديب هؤلاء، فنزَلُوا على حُكمه، وتَركوا صياصِيهم، أي: حصونهم التي كانوا يتحصَّنُون بها، فقتل المسلمون مُقاتِلَتهم، وأسَرُوا الباقِين ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ حيث أصبَحَت غنيمةً للمسلمين، وهذه لا شكَّ إحدى أهم ثمار هذه المعركة؛ حيث تخلَّص المسلمون من جيبٍ خطيرٍ كان يُهدِّد أمنَ المدينة من داخلها.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بشارة للمسلمين أنَّهم سيفتحون أرضًا جديدة، وأنَّ دينهم سينتشر في هذه الأرض، وقد كان ذلك بعد غزوة الأحزاب؛ حيث فُتِحَت خيبر ثُمّ مكَّة، والإشارة إلى خيبر أقرب للسياق، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

بيت النبوّة هو النموذج الذي ينبغي أن تكون عليه بيوت المسلمين، وهذا من تمام التأسّي برسولِ الله ﷺ.

وقد جاءت هذه الآيات لتبسط القول في حياته ﷺ مع أهل بيته، ومن جوانب وزوايا مختلفة تلتقي كلّها لتكوين الصورة المتكاملة:

أولًا: يبدأ القرآن بالتنبيه إلى الأساس الذي قام عليه بيت النبوّة، وطبيعة العقد القائم بينه ﷺ وبين كلِّ زوجة من زوجاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فمن كانت ترجو الدنيا بزواجها من رسول الله، فإنّها لا تليق أن تكون زوجةً له، ولا أُمًّا للمؤمنين، وطلب الدنيا بحدِّ ذاته ليس إثمًا، لكن الزواج له غايةٌ أسمى من المتاع الزائل، وله رسالة كبرى في تأسيس البيت المسلم الذي يكون مدرسة تربويَّة للأجيال، ولبِنَة صالحة في بناء المجتمع، فكيف بالبيت الذي هو المثل الأعلى في كلِّ ذلك.

وهنا ملحوظةٌ دقيقة، وهي أنَّ أُمّهات المؤمنين كلّهنَّ مِمَّن اختار اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة؛ إذ لو كانت واحدة منهنَّ ترجو الدنيا وزينتها، لفارَقَها رسولُ الله ﷺ وسرَّحَها سراحًا جميلًا.

ثانيًا: يُؤكِّد القرآن عقيدةَ العدل الإلهي في تحمُّل المسؤولية وتبِعَاتها لكلِّ مُكلَّفٍ، ولو كانت أُمًّا للمؤمنين، وزوجةً لسيِّد المُرسَلين، بل هذه مسؤوليَّتها مضاعفة؛ لأنّها القدوة لكلِّ زوجة مسلمة، ولأنّها عاشَت مع الوحي ووَعَت نزوله وتطبيقه في بيتها ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

وليس معنى الآية تجويز وقوع الفاحشة منهنَّ، بل هو للتنبيهِ الصارِمِ على العدل الإلهي، وحدود الشرع التي لا تُحابي أحدًا، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله في صدر هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

ثالثًا: ثم يُصدرُ القرآن توجيهاته التربويَّة والاحترازيَّة لأمهات المؤمنين؛ فينبِّه أولًا على الاحتياط في القول؛ لأنّه الأداة الأولى والأقرب للتواصُل، وبه تنكشف الملامح الأولى لشخصيَّة الإنسان: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

ثم يُعرِّج لتأكيد أهمية الاحتشام والسّتر، والنهي عن عادات الجاهلية في التبرُّج ومخالطة الرجال الأجانب: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.

ثم يُوصيهنَّ بأداء الواجبات من صلاةٍ وزكاةٍ، وكلِّ أمرٍ مفروضٍ في كتاب الله أو في سنَّة رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ثم يُذكِّرهنَّ بوظيفتهنَّ الخاصة من بين كلِّ العالمين، وهي وظيفة التبليغ لسنَّة النبي الكريم ﷺ في حياته معهنَّ، ولا شكَّ أنّ هذا الجانب لا يعلَمُه غيرهنَّ، وهو من صَميم الدين الحنيف وشرعه الشريف ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ وهذه تزكيةٌ من الله لهنَّ دون استثناء، وتأكيدٌ لعدالتهنَّ، وأنّهنَّ أهلٌ لِأَن يُؤخذ الدِّين عنهنَّ رضي الله تعالى عنهنَّ وأرضاهنَّ.

رابعًا: في ثنايا هذه التوجيهات الربّانيَّة، يذكُرُ القرآن الغاية الكليَّة لهذه التوجيهات: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ولا شكَّ أنّ المقصود بهذا الخطاب أُمّهات المؤمنين بعبارة النص القاطعة، وبدلالة

السياق؛ حيث تكرَّر الخطابُ الصريحُ لهنَّ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾، وتكرَّر الأمر والنهي لهنَّ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ .. الخ.

ثُمّ إنّ لفظة: ﴿أَهۡلَ﴾ أطلقها القرآن على الزوجة، فقد مرَّ معنا قولُ موسى ﷺ: ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ [طه: ١٠]، ولم تكن معه إلّا زوجته، وأطلَقَ: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ على الزوجة أيضًا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود: ٧٣].

ويُلاحظ هنا أنّ الخطاب جاء بصيغة الجمع المُذكَّر مع أنَّه مُوجَّهٌ إلى امرأةٍ واحدةٍ؛ وهذا لاحتماله دخول كلّ مَن في البيت مِن ذكورٍ وإناثٍ؛ ولذلك قال نوحٌ ﷺ في ابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥].

أمّا إخراجُ الزوجة من مُسمَّى أهل البيت فلا تحتمِلُه اللغة، ولا يحتمِلُه السياق.

خامسًا: يذكر القرآن الصفات الحميدة التي ينبغي أن يتحلَّى بها كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وهي جملةٌ من القيم، منها: قيَم إيمانيَّة وتعبُّديَّة؛ كالقُنُوت، والخشوع، والصوم، والصدقة، ومنها: قيَم أخلاقيَّة؛ كالصدق، والصبر، والعفَّة ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

ثم بعد سلسلة الصفات هذه، يُركِّز القرآن القولَ في صفةٍ أخرى تعدُّ الفيصل العملي بين الإيمان الصادق، والادّعاء الكاذب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾.

ويلاحظ في الآيتين: التنصيص على المرأة مع الرجل، في إشارةٍ أنَّ هذه من الصفات اللازمة لتكوين البيت المسلم.

سادسًا: يعرض القرآن نموذجًا عمليًا لما بدأ به في فواتح السورة من إعلانه لإبطال

العادات الجاهلية، وقد اختار القرآن هذا النموذج من بيت النبوَّة، وفي هذا أكثر من دلالة، من بينها أن الموروث الاجتماعي يحتاج إلى قوّةٍ كبيرةٍ لتغييره؛ فاقتضى الأمرُ أن يبدأ رسولُ الله ﷺ بنفسه ليكون قُدوةً للناس، وليسقُط حاجزُ الهَيبة عن كلّ موروثٍ باطلٍ.

ويتلخَّص النموذج النبويُّ في أنّه ﷺ كان قد تبنَّى قبل البعثة زيد بن حارثة، فكان يُنادى: زيد بن محمد، وكان ﷺ يحبُّه حبًّا شديدًا، وكان زيدٌ قد تزوَّج بامرأةٍ شريفةٍ تُسمَّى زينب، فلما أراد الله أن يُبطِل عادة التبنِّي وآثارها النفسيَّة والاجتماعيَّة، أمَرَ نبيَّه أن يتزوَّج من زينب بعد طلاقها من زوجها زيد، وكان هذا ثقيلًا على رسول الله - بأبي هو وأمِّي -، فكان يُوصِي زيدًا بالتمسُّك بزوجته، مع أنَّه يعلَمُ أنه سيُطلِّقُها، وأنّها ستكون زوجةً له ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

وقد أبانَت الآيةُ عن حكمة هذا الأمر: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾.

ثم أكَّد القرآن انتِفاء الحرج عن رسول الله ﷺ في تنفيذه لأمره سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

سابعًا: يبني القرآن على هذه القصَّة قاعدة كليَّة في الدعوة إلى الله، وقد جاءت في مقام المدح لأنبياء الله ﷺ، وتحفيزًا لكلِّ عالِمٍ ومبلِّغٍ وداعيةٍ أن يحذو حذوهم، ويقتدي بهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

فهؤلاء الصفوةُ وفي مقدمتهم نبيُّنا الأكرمُ محمدٌ صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين قد بلَّغُوا رسالات الله كاملة كما أنزلَها الله عليهم، ولو كان في ذلك مُفاصَلَة أقوامهم، أو تحمُّل الأذى والمشقَّة من قِبَلهم، فهم لا يخشَون ذا سلطانٍ، ولا ذا جاهٍ، ولا ذا قرابةٍ، أو صداقةٍ، لا

سطوة الحاكم بقوَّته وحديده، ولا سطوة المجتمع بأعرافه وتقاليده، وكلّ هذا إنّما يكون بالمنهج الربَّاني الذي يُراعي الحكمة في الدعوة، وترتيب الأولويات، وتقدير النتائج والمآلات، كما عُرِف ذلك في سُنَّته وسيرته ﷺ.

ثامنًا: ثم ينطلِق القرآن من خصوصيَّةٍ دقيقةٍ لرسول الله ﷺ تتعلق بموضوع القصَّة إلى خصوصيَّةٍ كبرى تتعلَّق بالدين كلّه، وبالوحي كلّه، وبالرسالات السماويَّة كلّها: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

فهذا إعلانٌ قاطعٌ بتوقُّف سلسلة النبوَّات والرسالات عند رسول الله ﷺ، فلا نبيَّ بعده، ولا رسول بعده، ولا وحي بعده، فهو النبيُّ الخاتم، والرسولُ الخاتم، ورسالتُه رسالةُ الله الأخيرة إلى الأرض، وهذا يقتضي أنّها الرسالة الصالحة والمناسبة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لئلّا تنقطع الغاية الكليَّة التي من أجلها خلق الله الإنسان ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلو لم تكن هذه الرسالة الخاتمة صالحةً لكلِّ زمانٍ، لانقطع الناس عن الله بالكليَّة، وحاشا لله أن يخلق الخلق ثم يتركهم أو يهملهم.

تاسعًا: يتوجَّه القرآن بعد هذا في خطابه إلى المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ ليؤكِّد لهم أنّ الله معهم، وأنّ نور الوحي باقٍ بينهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فليكونوا هم مع الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾.

عاشرًا: ثم يعود القرآن إلى بيان صفاته ﷺ ووظيفته تجاه هذه الرسالة الخاتمة، وتجاه الناس كل الناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾.

ثم يؤكِّد ما استهل به السورة وما تكرَّر في ثنايا الآيات السابقة من ضرورة التمسُّك بالوحي، وعدم الالتفات إلى الكافرين والمنافقين ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

حادي عشر: ثم يتطرَّق القرآن إلى مسألةٍ دقيقةٍ من مسائل البيت المسلم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

ثاني عشر: ثم يعود القرآن إلى بيت النبوَّة لبيان ما أحلَّه الله لنبيِّه ﷺ وبتفاصيل دقيقةٍ، حتى لا يبقى هناك التباسٌ أو غموضٌ ولو كان في أخصِّ خصوصيَّاته ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾.

ثم يلتفت القرآن إلى ما شرَّعه الله للمؤمنين عامَّة في هذا المجال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليعود ثانية في الآيتين التاليتَين إلى ما بدأ به في هذه الآية: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.


دقائق التفسير

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أعطيكنَّ حقوقكنَّ وأطلقكنَّ طلاقًا حسنًا.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لأنّهنّ أمّهات المؤمنين، والمثل الأعلى لنسائهم.

﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ بمعنى أنّ لين القول عند مخاطبة الرجال الأجانب ليس من صفات النساء المتّقيات.

﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ بمعنى أنّه سيطمع باستمالتها فيكون أجرأ عليها.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بمعنى: السكون والاستقرار، فالمرأة محل السكينة والاستقرار والأُنس في البيت، وهي المعنيَّة برعاية الأطفال وتنشئتهم على الأخلاق والقيَم السليمة، وليس فيه منعٌ لها من الخروج لشؤونها؛ كالتعلُّم، والتطبُّب، والصلاة في المسجد، وصِلَة الرَّحِم.

﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ حيث كانت المرأة لا تتورَّع عن إظهار مفاتنها للرجال الأجانب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ ليُبعِد عنكم كلَّ ما ينبغي التنزُّه عنه.

﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ من الرِّجس، وفيه تأكيدٌ لا يخفى.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ حيث كان الوحي يتنزَّل في بيوتهنَّ، وكان ﷺ يعيش معهنَّ بهَديه وسنَّته، وفي هذا امتِنانٌ من الله عليهنَّ، وتكليفهنَّ واجِب التبليغ ونقل ما تعلَّمنَه من رسول الله بالقول والعمل.

﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ المخلصين العبادة لله والمخلصات.

﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ ذَكَرَ الخشوع ولم يذكر الصلاة؛ لأنَّ الخشوعَ روح الصلاة، فاكتفى به، والله أعلم.

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيار.

﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ﴾ بالإسلام والصحبة، وهو سيدنا زيد بن حارثة ﷺ، والذي كان يُدعى زيد بن محمد؛ حيث تبنَّاه قبل البِعثة وقبل ورود النهي.

﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بالرعاية والمحبَّة والعتق.

﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ حيث إنّ الله أخبره أن سيدتنا زينب زوجة زيد ستكون زوجةً له بعد أن يُطلِّقها زيد، فلما جاءه زيدٌ يشكُوها إليه ولم يكن يعلَم بما قدَّره الله بشأن زوجته، أخَذَ رسولُ الله ﷺ يُوصِيه بالتمسُّك بها، ويقول له: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي: فيها.

﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ﴾ حيث كان ﷺ يستَحِيي أن يُبدي ذلك، ويخاف من تقوُّلات أعدائه من كافرين ومنافقين، فتكون في ذلك فتنةٌ للناس، وتشويهٌ للدعوة.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا ﴾ أي: طلَّقها وأنهى العلاقةَ بها، ولم يذكر القرآن اسمَ صحابيٍّ غيره.

﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ نصّ على أنَّ الله هو الذي اختارَها لنبيِّه، وهو الذي زوَّجَه بها.

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ ﴾ بيان للحكمة من هذا الاختِيار القدري، فكأنَّ الله أرادَ أن يُبطِل عادة التبنِّي ويحسِمها عمليًّا حسمًا نهائيًّا.

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ ﴾ بمعنى أنّه لا ينبغي أن يجتمع الحرج مع ما شرَّعَه الله له، فليس في شرع الله ما يُستَحيَى منه.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ ﴾ أي: في الرسالات السابقة، وليس هذا التوجيه خاصًّا بالرسول الخاتم ﷺ.

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ إشارة أنّ هذا الذي حصل في بيت النبوَّة وزواجه ﷺ من سيدتنا زينب كان قدرًا إلهيًّا لا خيارَ لأحدٍ به.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي: ما كان ينبغي ذلك، وفيه تأكيدٌ لإبطال عادة التبنِّي.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فأصلُ العلاقة بينه وبين المؤمنين هي رسالتُهُ التي ختَمَ الله بها الرسالات، والتي هي طريقهم إلى عزة الدنيا وسعادة الآخرة.

وكونه ﷺ خاتمًا للنبيين يقتضي انقطاع الوحي، فمن ادَّعى نزولَ وحي الله على أحدٍ من خلقه بعد النبيِّ، فهو مُخالفٌ لصريح هذه الآية؛ إذ النبوَّة الوحي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[2].

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ سبِّحوه بداية النهار ونهايته؛ أمّا البداية فاستعدادًا للعمل، وأمّا النهاية فاستغفارًا لما قد يكون فيه من زلَّة وتقصير.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ الصلاةُ من الله: الرحمةُ والعفوُ والمغفرةُ.

﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ وصلاةُ الملائكة: الدعاءُ بالمغفرة.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ في ذلك اليوم الذي تنتفض فيه الخلائق كلُّها للحساب، يبشِّرُ الله هؤلاء المؤمنين بالنجاة والفوز، وأنّه سبحانه يُحيِيهم بالسلام، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ لله بالوحدانيَّة، ولأنبياء الله جميعًا بالصدق وتبليغ الأمانة، وشاهدًا على الناس مَن آمَنَ بالله، ومَن كفر، ومَن أطاع، ومَن عصى.

﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ بالجنَّة وسعادة الدارين.

﴿وَنَـذِيرًا ﴾ من النار وشقاء الدنيا والآخرة.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ وصفٌ لرسول الله ﷺ، فهو السراجُ الذي يُنيرُ الحياة كلّها بنور هَديه وسنَّته كما تنيرها الشمس.

---

(٢) تكرَّر هذا النصُّ الكريم مرتَين في القرآن الكريم: في سورة الكهف/ ١١٠، وسورة فصلت/ ٦.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ لا تلتفِت إليه ولا تنشغِل به عن تبليغِ ما أنزَلَه الله إليك.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ مِن قبل أن تدخُلوا بهنَّ.

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ هذا حكمُ الله في المرأة التي يُطلِّقُها زوجُها قبل الدخول بها، فإنَّها لا تعتدُّ عدَّةَ الطلاق، بل لها الحقُّ في الزواج بعد الطلاق مُباشرةً.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهنَّ حقوقهنَّ كاملةً.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فارِقوهنَّ فراقًا جميلًا من غير أذًى ولا انتقاصٍ من قدرهنَّ وقدر أهلهنَّ؛ إذ الطلاق غالبًا ما ينتُجُ عن سوءٍ في العلاقة، وقلَّة انسجامٍ واحترامٍ، فجاء التنبيهُ القرآنيُّ للتحرُّز والوقاية عن الظلم والإثم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ، وقد ورد تسمية المهر أجرًا في زواج موسى ﷺ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ ورد في هذه المسألة ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون هناك امرأة مؤمنة متَّصِفة بالإيمان، وأن تهَبَ هذه المرأةُ نفسَها لرسول الله ﷺ، راغبةً فيه من غير صداقٍ، وأن يرغبَ النبيُّ ﷺ بنِكاحِها، وقد ورَدَت في سبب النزول رواياتٌ كثيرةٌ، إلا أنّ الذي في «الصحيحين»: أنَّ امرأةً عرَضَت نفسَها على رسول الله، لكنَّه ﷺ لم يُرِد نكاحَها، فلم تكن له فيها حاجة، فلم يتزوَّج بها أصلًا، وهذا نصُّ الحديث:

عن سهل بن مُعاذٍ قال: جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنِّي وهَبتُ منك نفسي، فقامَت طويلًا، فقال رجلٌ: زوِّجْنيها إن لم تكن لك بها حاجة، قال: «**هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصْدِقُهَا؟**»، قال: ما عندي إلا إزارِي، فقال: «**إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِيَّاهُ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمِسْ**

شَيْئًا»، فقال: ما أجِدُ شيئًا، فقال: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيْدٍ»، فلم يجِد، فقال: «أَمَعَكَ مِنَ القُرْآنِ شَيْءٌ؟»، قال: نَعَم، سُورةُ كذا، سُورةُ كذا، لسورٍ سمَّاها، فقال: «زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»[٣].

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ الصداقَ واجبٌ في كلِّ تزويجٍ، فكانت إباحةُ الزواجِ للنبيِّ ﷺ من غير صداقٍ خصوصيَّة له، والله أعلم.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الإرجاء معناه: التأخير، والمعنى أنّه ﷺ له أن يَرُدَّ مَن يجوز له نكاحها حتى لو عرَضَت هي نفسها عليه، كما تقدَّم في حديث «الصحيحين».

﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: التي تختارَها زوجة لك.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: لك أن ترجِع إلى المرأة التي تركتَها.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلى رضاهنَّ.

﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ غاية رحيمة كريمة تُبيِّن قَدرَ زوجات النبيِّ ﷺ عند الله، فكلُّ واحدةٍ منهنَّ دون استِثناء ينبغي أن تكون قريرة العين سعيدة وراضية تمام الرضا.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ هذه الآية حسَمَت مَن يكون لها الحقّ أن تكون أُمًّا للمؤمنين؛ حيث اختارَهنَّ رسولُ الله، وأدناهنَّ، واحتفظ بعلاقَتِه معهنَّ، بعد أن خيرهنَّ فاختَرْنَه واختَرنَ اللهَ والدارَ الآخرة، فهؤلاء هنَّ أمهات المؤمنين؛ لم يزِدنَ بزوجةٍ جديدةٍ، ولم ينقُصن بفَسخٍ أو طلاقٍ.

---

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري، انظر: صحيح البخاري (٥/ ٦٨/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٤/ ١٤٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا
طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا
سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن
تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا
﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ
وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ
وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا
ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ
ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ
لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ
مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ
ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

في الرُّبع المُتبقِّي من هذه السورة يتناول القرآن مسائل وقضايا مختلفة، لكنها تنتظم كلّها تقريبًا في مواجهة الأذى الذي كان يتعرَّض له رسول الله ﷺ وأهل بيته والمؤمنون والمؤمنات عامَّةً؛ حيث تكرَّر الفعل: ﴿يُؤْذِي﴾ وما اشتق من جذره في هذه الآيات ستّ مرات، هذا عدا الألفاظ الأخرى التي تدخل في معناه؛ كالبُهتان والإرجاف والظلم، وقد شخَّصت هذه الآيات مصادر هذا الأذى ومستوياته، ثم شرحت منهجيَّة التعامل معه والأحكام المناسبة له، وكما يأتي:

أولًا: بدأ القرآن بتنبيه المؤمنين أنفسهم إلى ما قد يقع منهم عن غير قصدٍ، مما يُسبِّب أذًى لرسولِ الله ﷺ ولأهل بيته رضي الله عنهم وأرضاهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾.

ثم يشرع القرآن في وضع الأحكام العمليَّة المُلزِمة للجميع في حياته ﷺ وبعد انتقاله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

ثانيًا: استثنَى القرآنُ الكريمُ من أحكام الدخول والمكوث والسؤال والاختلاط التي ورَدَت آنِفًا عددًا من الرجال والنساء الذين تربطهم بزوجات النبيِّ ﷺ صِلات خاصَّة، وفي مُقدِّمتهم المحارِم ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

ثالثًا: يدعو القرآن الكريم المؤمنين إلى معرفة رسول الله ﷺ ومكانته عند الله تبارك وتعالى وعند ملائكته، ثم يأمرهم بها من شأنه أن يُعمِّق فيهم هذه المعرفة، ويُذكِّرُهم دائمًا بهذه المكانة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، ولا شكَّ أنّ هذه تربية عمليَّة يحتاجها المؤمنون في علاقتهم مع رسول الله ﷺ أكثر من حاجَتِه إليها بأبي هو وأمِّي.

رابعًا: يُحذِّرُ القرآن الكريم أولئك الذين يُؤذُون رسولَ الله ﷺ ويُؤذُون المؤمنين والمؤمنات عن قصدٍ وسوء نيَّةٍ - والإشارة هنا للمنافقين -، مُبيِّنًا لهم أنَّ هذا الإيذاء كأنَّه إيذاءٌ لله، والله سبحانه لا يلحقُه أذًى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾.

خامسًا: يُوجِّه القرآن الكريم أهلَ بيت النبيِّ ﷺ وسائرَ نساء المؤمنين بالستر، والالتِزام بالحجاب الشرعي؛ ففيه الوقاية والحماية لهنَّ من أذى المنافقين وضِعاف الإيمان والنفوس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

سادسًا: يُصدرُ القرآن تهديدَه الشديد للمنافقين الذين هم مصدرُ الإرجاف والأذى والشائعات الباطلة ﴿۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

ومعلومٌ أنّ المنافقين يعيشون مع المؤمنين في دولةٍ واحدة، وفي مجتمعٍ واحدٍ، وقد ضمِنَ لهم الإسلام حقوقَهم المدنيَّة في الأمن والعمل، وحريَّة التنقُّل على أنّهم جزءٌ من المسلمين بحسب حكمهم الظاهر، لكن المنافقين استغلُّوا هذا الغطاء لتمرير مكائدهم، ثم بلغ بهم

الصَّلَف أن يُجاهِروا بعداوتهم للمؤمنين في كلِّ نائبةٍ أو مناسبةٍ، مِن هنا كان هذا التهديد بمثابة الإنذار قبل أن يتعامل معهم النبيُّ ﷺ كما يتعامل مع الأعداء الظاهرين، والمعلوم أنَّ هذا التهديد بقِيَ في إطار التهديد والتخويف ولم يتحوَّل إلى حربٍ مفتوحةٍ معهم، وبقِيَ المنافقون يعيشون بأمنٍ وأمانٍ في ظلِّ دولة العدل مع كلِّ ما اقترفوه.

سابعًا: يذكِّرُ القرآن الكريم بذلك اليوم الذي تنتهي فيه هذه الحياة؛ ليتهيَّأ الجميعُ لمُلاقاة ما عملوا وما قدَّموا، وفي هذا تهديدٌ آخر للمنافقين ومن يقِف خلفهم ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

ثامنًا: يُذكِّرُ القرآن أيضًا بالدور الذي يقوم به القادة وكُبَراء القوم في إضلال الناس ودفعهم لمحاربة الحقِّ وأهله ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

تاسعًا: يربِطُ القرآن بين ما يحصل للنبيِّ الكريم ﷺ من الأذى المقصود وغير المقصود، وبين الأذى الذي كان يتعرَّض له موسى ﵇، في إشارةٍ إلى شدَّة الترابُط والتشابُه بين الرسالتَين، وحاجة الأُمَّة المحمديَّة، وهي الأُمَّة البديلة عن قوم موسى لاستِلهام التجربة السابقة، والاتِّعاظ بها والتعلُّم منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

عاشرًا: يختِمُ القرآن الكريم هذه السورة العزيزة بقضية الإنسان الكبرى: قضية استخلافه في الأرض وتحمُّله لأمانتها، والمصير المحتوم الذي سيَلقَى كلُّ إنسان فيه حسابه وجزاءه، وما قدَّمه على هذه الأرض من خيرٍ أو شرٍّ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

دقائق التفسير

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾

هذه الآية أصلٌ في آداب الدخول على البيوت، وقد نهى القرآن المسلمين أن يدخلوا على بيت رسول الله من غير إذنٍ، ثم نبَّه إلى مسألةٍ دقيقةٍ، وهي أنّ بعضهم كان يدخل من دون استئذانٍ منتظرًا نُضجَ الطعام، وقد يمكُث طويلًا حتى ينضج، فيُثقِل على أهل البيت، ومنهم من يطُولُ بهم الحديث حتى بعد الطعام.

و﴿نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: مُنتظِرين نُضجَه، و﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ﴾ أي: تمكُثون طويلًا بسبب أُنسِكم في الكلام مع بعضكم، ثم أرشدَهم إلى السلوك الأقوَم فقال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ ومجموع الكلام يتركَّز في أدَبين: أدب الدخول، وأدب المكوث.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: الدخول من دون استئذان، وطول المكوث من غير حاجة.

﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ﴾ فكان رسولُ الله ﷺ يتحمَّل هذا الأذى، ولا يُنبِّهُهم إليه؛ لشدَّة حيائه، بأبي هو وأمّي.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ من بيوتهنَّ.

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ أي: لا تدخلوا عليهنَّ، والظاهر أنّ الحجاب هنا ما يستُر البيت، أما ستر الجسد فليس له صلةٌ بسؤال المتاع، فالمرأة إن كانت خارج بيتها فالخطاب بالستر والاحتجاب يُوجَّه إليها، والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بهذه الأشياء، التي تنمُّ عن قلَّةٍ في النباهة، وعدم مُراعاة الحال.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فأُمَّهات المؤمنين حرامٌ على المؤمنين حُرمةً مُؤبَّدةً، لا تنقضي بعدَّةٍ ولا بغيرها.

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: من يثِقن بهنَّ من النساء المسلمات، فلا يحتَجِبن عنهنَّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ الصلاة والسلام على رسول الله من الأذكار العظيمة والعبادات الجليلة التي تُبتغَى بها القُربى، وقد وردَت بإطلاقٍ دون تقييدٍ بعددٍ، ولا كيفيَّةٍ، ولا صيغةٍ مُحدَّدة، ليَسْبَحَ المؤمنُ في هذا الفضاء الجميل في أي زمانٍ ومكانٍ وحالٍ، ومن فوائد هذا الذكر: استِذكار صفاته ﷺ وحقوقه على أُمَّته، ليكون المحورَ الذي يلتقي عليه المسلمون، والرايةَ التي يلتفُّون حولها، والحقَّ الذي يحتكمون إليه، إنَّها ليست ذِكْرًا مُجرَّدًا، بل هي وسيلةٌ لربط هذه القلوب بأُسوَتها الحسنة، وعنوان وحدتها، وطريق استقامتها، فعليك صلاةُ الله وسلامُه سيِّدي رسول الله ما دامَت السماواتُ والأرضُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء هم الذين يؤذُون رسول الله عن عداوةٍ له، بخلاف أولئك الذين مرَّ ذِكرهم من المسلمين الذين قد يؤذونه ﷺ عن غير قصدٍ، وإنّما لقلَّة النباهة والاحتياط.

﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ بغير ذنبٍ وقعوا فيه يستوجِبُ هذا الإيذاء، بمعنى أنّ المنافقين يؤذون المؤمنين لإيمانهم لا لشيءٍ آخر.

﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قدَّم نساءَ النبي وبناتِه؛ لأنّهنَّ القدوةُ والمثلُ الأعلى للنساء المُسلِمات.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ والجِلباب: الثوب الذي يستر جسد المرأة، فيُدنِينَه بمعنى: يُسدِلْنه من فوق رؤوسهنَّ، وهذا لا يكون في الثوب الضيِّق؛ لأنّه لا يُسدَل، ولا في الشَّفَّاف؛

لأنه لا يستر. أمّا مسألة الوجه والكفين فلا تتناولها الآية، والأَوْلى عدم تحميل النصّ أكثر مما يحتمل، ومَن أراد بحث هذه المسألة فلينظر في كُتب السنَّة وتطبيقات الصحابة رضوان الله عليهم، وفي كتب الفقه.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ بمعنى أنّ هذا الستر أقرب إلى أن يعرفَ الناس أنّهنَّ حرائر مُحتشِمات، فلا يتعرَّض بالأذيَّة لهنَّ أحدٌ، والأذى الذي هو مناط الحكم هو الأذى الذي يقع على المرأة من جرأةٍ في الكلام معها بغير ما ينبغي، إلى الأذى بالاعتداء المباشر، أمّا أن يُحدِّثَ المرء نفسه بحديث سوءٍ فإنّما إثمه عليه، وليس هذا هو الأذى؛ لأنّ هذا لا يمكن التستُّر عنه، وعليه فإن كانت المرأة في بيئةٍ غير آمنة، وليس هناك من يحميها، فإنّ خروجها لا يجوز حتى لو كانت بكامل حجابها وسترها، والله أعلم.

﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هم الذين يُروِّجُون الأخبار الكاذِبة التي تُثيرُ الفتَنَ والاضطرابَ في صفُوف المُسلمين.

﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ أي: لنُسلِّطنَّك عليهم، ولنُرغبنَّك بقتالهم.

﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أي: في حالةِ تسليط الله المسلمين عليهم، وإذنِهِ بقتالهم، وهي صورةٌ قصد بها ردع المنافقين وتخويفهم، ولم يرِد أنّه ﷺ قاتلهم أو أذِنَ بقتالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ لم يذكر القرآن في هذه الآية نوعَ الأذى الذي تعرَّض له موسى ﷺ، فكأنَّ المقصود التذكير بجنس الأذى لا بنوعه، فهذا يكفي للاعتبار، وقد أورد القرآن في غير هذا الموضع أنواعًا من الأذى من قِبَل قومه ومن قِبَل أعدائه، وفي السُنَّة كذلك، وليس هنا محل التفصيل.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ ذا جاهٍ ومنزلةٍ.

﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ أي: صوابًا ليس فيه ظلمٌ ولا حَيفٌ، وفيه تذكيرٌ وتأكيدٌ لأهميَّة

القولِ ومسؤوليَّة الكلمة.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ مسؤوليَّة التكليف وإعمار الأرض وإدارتها بمنهج الله، وتلك هي الخلافة عن الله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

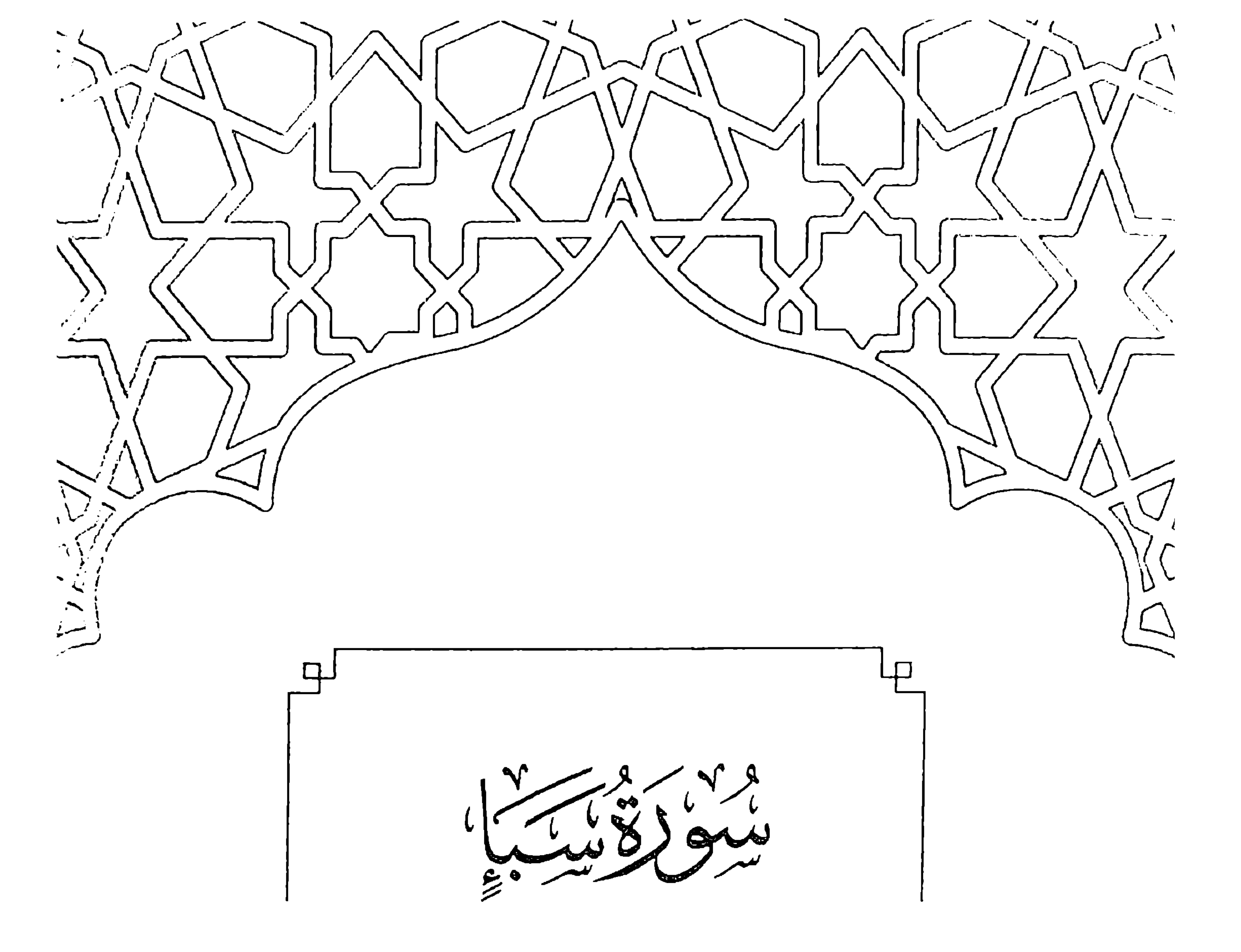
﴿عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ لأنّ هذه المخلوقات لا عقل لها، ولا خيار لديها، ومن ثَمَّ فهي لا تَقوَى على حمل هذه الأمانة التكليفيَّة.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ بما أودَعَه الله فيه من عقلٍ مُميِّزٍ، وإرادةٍ حرَّةٍ قادرةٍ على الدخول في ميدان الاختبار، مع استعدادٍ فطريٍّ للتعلُّم والاستفادة من التجارب؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ليس لأنّه حمل الأمانة، فحَمْلُ الأمانة شَرَفٌ لآدم وذريته على سائر الخلق ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وإنّما الظُّلم والجهل يلحق من كرَّمَه الله بهذه الأمانة ثم نكس عنها، وقرَّبَه الله وكرَّمَه وأسجَدَ له ملائكتَه، ثم راح يعبد الشيطان ويعبد الحجارة! وحاشا لله أن تلحق هذه الصفات كلَّ بني آدم وفيهم صفوة الخلق من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين.

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ فهؤلاء هم أهل الظلم والجهل، ممن خانوا الأمانة، واختاروا النكوس والمهانة، وقد قدَّم المنافقين؛ لأنَّ السياقَ كان يتحدَّث عنهم وعن أذاهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فهؤلاء هم أهل الولاية والكرامة، وهم المُقرَّبون عند الله؛ لثباتهم على الحقِّ، ونجاحهم في ميدان الاختبار.



سُورَةُ سَبَإٍ

المجلس الثاني والتسعون بعد المائة: عمارة الأرض وخرابها بمنظورٍ إيمانيٍّ وبُعدٍ تاريخيٍّ

المجلس الثالث والتسعون بعد المائة: فقه الحوار

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

عمارة الأرض وخرابها بمنظور إيماني وبعد تاريخي

تتناول سورة سبأ قضية الإيمان وتأثيرها المباشر في صورة المجتمع وقوَّته، ونمط حياته وتطوره، وقد جاء شطر السورة الأول - والذي هو موضوعُ هذا المجلس - مُتضمِّنًا لمقدمةٍ

تُلخِّصُ المفاهيم الإيمانيَّة واختلاف الناس فيها الاختلاف المعروف بين مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ، ثم تعرض لنموذجَين مختلفَين من الدول والحضارات التي قامَت في التاريخ، ومدى تأثير الإيمان من عدمه في اختلاف هذَين النموذجَين:

أولًا: يعرض القرآن في مقدمة هذه السورة جملة من المفاهيم الإيمانيّة المؤثرة في حياة الناس وواقعهم، وكما يأتي:

- يؤكِّد القرآن أنّ الذي له ملك السماوات والأرض إنّما هو الله وحده ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهذا الاستِهلال كأنّه يُمهِّد لموضوع السورة؛ حيث يتنازع الناس ويختلفون في من يملك الأرض ومن يحكمها، وما الأساس الذي ينبغي أن تدار عليه هذه الأرض.

- يؤكِّد القرآن أيضًا أنّ الله وحده هو الذي يعلم حقيقة هذا الخلق من مُبتداه إلى مُنتهاه، وأنّه سبحانه الرحيم بهذا الخلق ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وهنا إشارةٌ: أنّ منهج الله هو الأصلح لهذه الأرض؛ لأنّه مبنيٌّ على علمٍ شاملٍ، ورحمةٍ واسعةٍ، وهاتان الصفتان هما الأساس في بناء المجتمع السليم، والدولة الرشيدة؛ إذ إنَّ إرادة الخير لوحدها والقصد لتحقيق المصلحة لا يكفِيَان من دون علمٍ بحقائق الأمور والأحوال ومآلاتها، كما أنّ العلم لوحده لا يكفي من غير القصد الصادق لتحقيق الرحمة والغايات النبيلة والعادلة في الحكم.

- يُشير القرآن في هذا السياق إلى دور أهل العلم في إدراك هذه الحقيقة وتبيينها للناس: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

- ثم يعرض القرآن لموقف أهل الجهل والضلال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾

وهذا الجزم غاية السفاهة والجهل، فهم لا يعلمون الغيب، ولا يعلمون كيف خُلِقوا أصلًا، ثم يتمادون في السخرية والاستهزاء ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾.

وهنا يُبيِّن القرآن حقيقةَ حالهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾، ثم يردُّ عليهم بما يكشف جهلهم وضعفهم: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

فهم لا يملِكون لأنفسهم حياةً ولا موتًا، ولا يعلَمُون كيف بدأ هذا الخلق، ولا كيف سينتَهي، وليست لديهم القُدرة على تغيير نوامِيسه أو التنبُّؤ بأحداثِهِ، ومع هذا يجزِمُون بنفي ما لا يعلمون، ويقولون في هذا الخلق وكأنّهم أعلم به من خالقه وأقدر عليه منه.

– في ثنايا هذا العرض يُؤكِّد القرآن النتيجةَ المحتومةَ التي تنتظر الفريقَين: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾، ولا شكَّ أنَّ التذكير بعقيدة الجزاء في هذا السياق له دلالته الخاصَّة في بيان أثر هذه العقيدة في نمط المجتمع والدولة المُنبثِقة منه، والسلوك العام لكلِّ صاحب مسؤوليَّةٍ صغُرت أو كبُرت.

ثانيًا: يعرض القرآن نموذج الحكم الرشيد الذي يستفيد من كلِّ الطاقات المتاحة في أرضه، ويُسخِّرُها في البناء والعمران وتحقيق مستوى أعلى من الترفُّه والتنعُّم، وهذا النموذج تمثَّل في المُلك الذي أعطاه الله لنبيِّه داود، ثم لابنه النبيِّ سليمان ﷺ، وقد حمل هذا النموذج المعاني والدلالات الآتية:

– يشير القرآن إلى أنّ الحكم الرشيد المنبثق من الإيمان بوحدانيّة الخالق يحقق الانسجام المطلوب بين الإنسان وبين البيئة المحيطة به ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ

وَٱلطَّيْرَ﴾، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

صحيحٌ أنّ هذه الصور من الانسِجام تدخل في باب المعجزات وخوارِقِ العادات ممَّا لا مجال لتقليده، أو محاولة تكراره، لكن هذا ليس مطلوبًا أيضًا، وإنّما المطلوب الاقتداء المنهجي الذي يُشير إليه القرآن، فالذي خلق هذا الخلق كلّه واحد، والذي شرَّع الدين وعلَّمنا الإيمان هو نفسه الذي خلقنا وخلق هذا الكون، وبالتالي فالانسجام متحققٌ بين شرع الله وخلق الله، أما كيف يظهر هذا الانسجام، فلكلِّ زمانٍ ما يناسبه، ولكلِّ حالةٍ ما يُناسبها.

- يؤكِّد القرآن أنّ هذا الحكم يستند إلى رقابةٍ إيمانيَّةٍ ذاتيَّةٍ لا تُنتِج بطبيعتها إلا العمل الصالح ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

والشكر - كما مرَّ معنا -: استِعمال النعمة في الطاعة، وهذه من أُسُس الحكم الرشيد، بخلاف أولئك الذين يُبدِّدون ثروات بلادهم في غير ما منفعة.

- يشيرُ القرآن إلى القوة في هذا الحكم، وذلك من خلال قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ والسابغات: هي الدروع، ذكر الصفة وحذف الموصوف؛ تنبيهًا على أهمية الصفة بأن تكون الدروع سابغة وكافية لحماية الجند.

- يشير القرآن أيضًا إلى الصناعة، وقد تقدَّم قوله في صناعة الدروع: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، ثم قال أيضًا: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ والقِطْر: معدنٌ من المعادن المستخدمة في أنواعٍ مختلفةٍ من الصناعات.

- يشير القرآن أيضًا إلى حركة البناء والعمران: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ وأصلُ المحراب: الحِصن العالي، ثم استُعمل في القصور المحصَّنة، والأماكن المُخصَّصة للعبادة، ثم شاع استعمالها في مكان صلاة الإمام مِن المساجِد، ولا يمنع من إرادة كلِّ ذلك؛ فالحصون

والقصور والمساجد كلُّها من مظاهر الحُكم السُليمانيّ الرشيد.

- ثم يشير القرآن إلى حركة النقل بما تحمله من تحرُّك المسافرين والتجار، ونقل البضائع: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ وتسخير الريح هنا لتيسير حركة السفن ذهابًا وإيابًا.

- ثم يشير القرآن إلى حالة الرخاء والنعيم الواسع في هذا المُلك ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ والجِفَانُ: جمع جَفنة، وهي قَصعَةُ الطعام، والقُدُور الراسيات: الثابِتات التي لا تتحرَّك لعِظَمها، وفي هذا إشارة لوفرة الطعام، وهو مقصدٌ من مقاصد الحُكم الرشيد.

وقد مرَّ معنا في قصّة يوسف ﷺ كيف أنّه سخَّر جهده من أجل توفير الطعام لشعب مصر، وفي هذا تصحيحٌ لمفهوم الحُكم الرشيد الذي اقترَن لدى كثيرٍ من الوعَّاظ بالزهد والتقشُّف وحِرمان النفس من النعم، وهي الصورة المأخوذة من حياة الخلفاء الراشدين ﷺ دون النظر إلى أسبابها الموضوعيَّة، ومنها: الحالة الاجتماعيَّة العامة، ومستوى الحياة الاقتصاديَّة، ومنها: التوجه الشخصي نحو الإقلال من الترف، وهذا حقٌّ، لكنه ليس شرعًا مُلزِمًا لكلِّ الناس فضلًا عن ملوكهم وأمرائهم إذا خافُوا اللهَ في رعيّتهم، والله أعلم.

- وقد مرَّ في ثنايا هذه الملامح ذِكر التماثيل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ والتمثال: صورةٌ مجسَّمةٌ لمخلوقٍ ما، ومعلومٌ أنَّ هذا مُحرَّم في ديننا إذا كان لذي روح، وهو الغالب في التماثيل والمتبادر للذهن.

وهنا مسألتان:

الأولى: أنّ صناعة التماثيل بحدِّ ذاتها ليست من مسائل العقيدة، وإنَّما هي من مسائل الفقه؛ لأنّه من المقطوع به أنَّ عقائد الأنبياء لا تختلف، وإنَّما تختلف الأحكام الفقهيَّة تبَعًا للحاجة وتطوُّر الحياة.

والثانية: أنّ ذِكْرَ التماثيل هنا في مقام المدح والامتنان يعني أنّ القيم الجماليَّة مطلوبة، وإن

كانت طريقة التعبير عنها تختلف مِن شريعةٍ إلى شريعةٍ، ومِن زمانٍ إلى زمانٍ.

- أخيرًا يُصحِّحُ القرآن من خلال هذا النموذج تصوُّرًا خاطِئًا لدى كثيرٍ من الناس عن طبيعة الجن وقُدراتهم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ فالجنُّ لا يعلمون الغَيبَ، ولا يستطيعون أن يُميِّزوا بين الجسَد الذي فيه رُوح والجسَد الذي سُلِبت منه الروح إذا كان في صورة الأول وهيئته، فكيف ينسب لهم العلم بمقادير الكون والتحكم بحياة الناس وإراداتهم؟

ثالثًا: بعد هذا النموذج يعرض القرآن نموذجًا مُختلفًا، فيه دلالات وإشارات مختلفة، إنّه نموذج مملكة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ﴾:

- يُخبرنا القرآن أنّ مملكة سبأ كانت عامرةً بالخير والنعيم حينما كانت طيِّبة بالإيمان والعمل الصالح: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وربما كانت هذه المرحلة أيام بلقيس؛ حيث أسلَمَت وقومها مع سُليمان لله ربِّ العالمين، وهذا رابطٌ نفيسٌ بين النموذجَين؛ فمملكة سبأ الطيِّبة والمؤمنة والمتنعِّمة إنَّما كانت امتدادًا لمملكة سُليمان ﷺ.

- يُخبِرُنا القرآن أن هناك انقلابًا حصل في عقيدة الناس، فتنكَّروا لإيمانهم، وكفَرُوا بربِّهم، فتغيَّرَت أحوالهم، وتمزَّقَت دولتهم ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، وهنا إشارةٌ أيضًا للفساد المُستشرِي في مؤسسة الحكم؛ فكان الإهمال في صيانة السدود والمحافظة عليها، وأخذ الاحتياط لكلِّ طارئٍ محتملٍ، فتدمير مملكتهم بالسَّيل العَرِم قد لا يكون تدميرًا قدريًّا بحتًا كما حصل لقوم نوح، بل هو تدميرٌ ناتجٌ عن فسادهم، وهذه من سُنن الله في العقوبة أيضًا، أن يعاقب الفاسد بفساده، والله أعلم.

- يذكُر القرآن من مظاهر النعيم الذي حبَاهم الله به: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فكانت القرى مُتواصِلةً على طريق سفرهم وتجارتهم، فالمسافر كلَّما قطع قريةً ظهرت له قرية، يقِيلُ في واحدةٍ، ويبِيتُ في أخرى، وهذا مظهرٌ للعمران وإحياء الأرض، لكنّهم تنكَّروا لهذه النعمة وكفَروا بها ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ كأنّهم يسألونه أن يمحُو هذه القرى، ولم يذكر القرآن بُغيَتَهم في هذا؛ فقد يكون حسدًا لأهل هذه القرى، وما يسترزِقُون به من مواقعهم هذه، وهذا وارِدٌ، وفيه مظهرٌ من مظاهر الفساد الأخلاقي والمجتمعي.

ويُحتمل أنّهم قالوا ذلك تحدِّيًا لله، وردًّا على من كان يُذكِّرُهم بشُكر هذه النعمة، وهذا سلوكٌ أشنَعُ من الأول، وعلى الاحتمالَين فقد ظلَموا أنفسهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فكان ذلك سببًا في عقوبتهم، وزوال ملكهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

- يُنبِّهُ القرآن في ختام هذه القصَّة إلى أنّ السبب في كلّ هذا الذي حصل لهم ولأمثالهم ممن يُنعم الله عليهم بالملك والقوَّة والأمن والرزق الوفير، ثم تتغيَّر أحوالهم ويعمّهم الخراب والدمار إنّما هو باتباع الهوى ومسالك الشيطان ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يُبيِّن أنّ إبليس لم يجعل الله له سلطانًا عليهم؛ إذ لو كان له سلطان عليهم لسُلب التكليف والاختيار منهم، وإنّما هي الوسوسة التي تستجيب لها أهواؤهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ يعلَمُ ﷻ الأرض وما فيها، وما يدبُّ عليها، وما يدخلُ فيها، وما ينبُت منها.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يغيب عن علمه شيءٌ مهما كان دقيقًا أو صغيرًا، ومثقال ذرةٍ يعني: وزن هباءَة لا قيمةَ لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ربط بين الرجوع إلى الله والتمسُّك بدينه وبين سعة الرزق، كما قال في سورة نوح: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أي: كذَّبوا بها، وسعَوا في إبطالها؛ ظنًّا منهم أنَّهم يُعجِزُون الله سبحانه في طلبهم ومُعاقبتهم.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: يعلمون ذلك علمَ اليقين كأنَّهم يرونه رأي العين.

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ إذا تمزَّقت أجسادكم، وتفتَّت في قبورها.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ يدعوهم للتفكُّر في كلِّ ما حولهم، فالتفكُّر بدايةُ الطريق إلى الهداية.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ كما كانت عاقبة من قبلهم، والقصد من تذكيرهم بهذا أن يدفعهم للتفكير الجاد الذي دعاهم إليه.

﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ تائب مُقبل على الله.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ ﴾ أي: ردِّدِي معه تسبيحَه لربِّه، وقد ورَدَ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والظاهرُ أنَّ داود ﵇

كان يسمَعُ هذا التسبيح، أو أنّه ينتَفِع به بوجهٍ ما؛ لأنَّه اقترَنَ بالتسخير، أمّا مُجرَّد تسبيح الجبال والطير بمعناه العام وهو التسبيحُ الذي تُسبِّحه كلُّ الخلائق ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، فلا يختصُّ به داود ﷺ.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جعلناه ليِّنًا طوع يده، وفيه إشارةٌ إلى أهميّة الحديد في الصناعات.

﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروع كاسية.

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ في ربط حِلَق الحديد بعضها ببعض، وضبط المسافة بين كلِّ واحدةٍ والتي تَلِيها، وفيه توجيهٌ لِإتقان الصَّنعَة.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ معجزةٌ له ﷺ لتسيِير السفن المُحمَّلَة بالناس أو البضائع، فتتَّجِه شهرًا مع حركة السفن وهي ذاهبة من موانِئِه، ثم ترجع شهرًا آخر مع عودة السفن.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ معدنٌ يخرج من باطن الأرض - كالنفط ونحوه - يُستعمل في الصناعات، ولأغراضٍ مختلفة.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾ ينحرِف عن طاعته.

﴿مَحَٰرِيبَ﴾ أبنية عالية مثل: الحصون والقصور العالية، والمساجد، ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جَفنة، وهي: قَصْعة الطعام، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحِياض الكبيرة.

﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ الظاهر أنَّ سُليمان ﷺ توفَّاه الله وهو مُتَّكِئٌ على عصاه، فبَقِيَ على هذه الحال حتى أكَلَت الأرضة عصاه، فخرَّ على الأرض، هنالك تبيَّنَت الجنُّ أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سُليمان، والظاهر من الآية أيضًا أنه لبِثَ طويلًا على هذه الحال، فقد عقَّبَ بعد هذا بقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ

---

(١) تكرَّر هذا النص الكريم في مطالع سورتي الجمعة والتغابن.

﴿كَانُوا۟ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

والقصة أبرَزَت الجانبَ المقصودَ في إبطال خُرافة أنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، أمَّا مُلابسات القصة الجانبيَّة من مثل: كيف بقي الجسد الطاهر كلّ هذه المُدَّة، وهل علِمَ به أهلُه أو لم يعلموا، وكيف لم يستغرِب الجنُّ مُكوثَ الجسَد على حالٍ واحدةٍ - وهذا خلاف المُعتاد قطعًا -، فالأقربُ أنّ القصَّة كلها مُنسَجِمة مع طبيعة مُلك سُليمان ﷺ في خُروجها عن السُّنن الكونيَّة المعروفة، من مثل: قصة الهُدهد، وعرش بلقيس .. إلخ، فهذه أخبارٌ غيبِيَّةٌ ليس لنا إلا الإيمان بها، وأخذ العبرة العمليَّة من دلالاتها، دون الخوض في كيفيَّاتها ولوازمها، ولا ينبغي أن نحكم على إرادة الله المُطلقة بمقاييسنا الأرضيَّة الضيِّقة.

كما أنّه لا يصِحُّ أن نجِدَ لها التأويلات العلميَّة المُتكلَّفة؛ لأنّ هذا أيضًا معناه أننا ننظر إلى هذه المعجزات الإلهيَّة على أنّها أمورٌ عاديةٌ يمكن أن تخضع لنواميس الأرض، ولنتذكَّر دائمًا أنّ عنوان الإيمان الحقِّ إنّما هو الإيمان بالغيب، فهناك غيبٌ أوسعُ وأكبرُ من عالم الشهادة، وإقحامُ الغيب في نواميس الشهادة تضليلٌ للعقل والعلم، وتضييعٌ لحقيقة الإيمان، والله أعلم.

﴿فَأَعۡرَضُوا۟ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ لم يذكُر القرآن وقت الإعراض هذا ولا في أي عهدٍ، لكن الظاهر أنّه بعد عهد بلقيس، وربما بمدَّة ليست قليلة، وأمّا سيلُ العَرِم فهو من العرامَةِ، وهي الشدَّة الطاغية.

﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ وَأَثۡلٍ وَشَىۡءٍ مِّن سِدۡرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: أنّه لم يبق فيها من أطايب الشجر شيء، فالخَمْطُ: الثمرُ المرُّ، ويقال: إنّه الأراك، والأَثْلُ: شجرٌ معروفٌ لا ثمر له، والسِّدْرُ معروفٌ كذلك، وثمرته النَّبْق.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ لم يُسمِّ القرآن هذه القرى المباركة، ولا يبعُد أن تكون الشام؛ لمحل الصلة بين اليمن والشام في النموذجَين من عهد بلقيس التي أسلَمَت مع سُليمان، والله أعلم.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ بارزة للعيان على الطريق بين سبأ والشام، كلما قطع المسافر قريةً بدَت له أخرى.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بمعنى أنّ هذه القرى التي على الطريق كانت مُقدَّرة على مراحل؛ بحيث لا يمضي المسافر نهارًا كاملًا أو ليلةً كاملةً إلا ومرَّ بواحدةٍ منها؛ ولذلك قال: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ كأنّهم يطلبون أن تُمحَى هذه القرى، وقد تقدَّم تأويله.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ قصصًا لمن بعدهم يتحدَّثون بها في مجالسهم وأماكن سمرهم.

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرَّقناهم في البلاد، وشتَّتنا مُلكَهم.

وهنا مُناسبةٌ لطيفةٌ: أنّ مُنكِري الآخرة كانوا يستهزِئُون بالنبيِّ ﷺ ويقولون: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، ثم استعمل القرآن هذا اللفظ في الذين تنكَّروا للإيمان، وأورده مورد الاتِّعاظ والاعتبار، كأنّه يقول: إن التمزيقَ كلَّ التمزيقِ آتيكم قبل موتكم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ حينما توعَّد بإغواء بني آدم فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: لم يكن لإبليس سلطة عليهم تسلب إرادتَهم منهم.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ فسلطانُ إبليس على بني آدم منفيٌّ بالكليَّة، والمُستثنى إنّما هو وسوسة الشيطان وإغواؤه، وتزيينه للباطل، فهذا كلّه كائن، وهو جزءٌ من سنَّة الاختبار والتمايز، والله أعلم.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

يفتح القرآن في هذه السورة بابًا واسعًا للحوار مع المشركين يتناول فيه أصول معتقداتهم، ويُجيب عن تساؤلاتهم وشُبهاتهم بصورٍ مختلفةٍ، ومستوياتٍ متنوعة، وبانتقالاتٍ مُؤثِّرة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، مع تأكيد مستمر لآداب الحوار حتى مع القوم الذين يخالفوننا في أصول ديننا وعقيدتنا:

أولًا: يضع القرآن في هذه الآيات أساسَين كبيرَين لفهم طبيعة هذه الرسالة، ورؤيتها لبني آدم والميدان الذي تفتحه أمامهم للتنافس والتميُّز.

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ثم يقول: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾.

فأصلُ الحوار ينطلق إذن من المفهوم العالمي لهذه الرسالة، ومن الفرص المتساوية التي تكفُلها هذه الرسالة لبني آدم على السواء لحمل هذه الرسالة وتبليغها والسموِّ بها، ومِن ثَمَّ فليس هناك أغراض جهويَّة أو قبليَّة أو عنصريَّة، وإنّما الميزان ميزان العمل، فمن تقدَّم به عمله تقدَّم، ومن تأخَّر به عمله تأخَّر، مهما كان نسبه وأصله وفصله، ولا شكَّ أنّ هذه الأسس تبعث روح الطمأنينة في نفوس المخاطَبين؛ لأنّ الإنسان لا يرضَى أن يُخاطَب بالدين من ناحية، ثم يُخاطَب بالاستعلاء والنظرة الفوقيَّة من ناحية أخرى.

ثانيًا: يبدأ القرآن بطرح سؤالٍ يسهِّل فيه للعقل البشري أن يُدرك أنّ هذه الأصنام لا تنفع ولا تضرُّ، وأنّ الخالق الوحيد لهذا الكون إنّما هو الله ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾، ثُمّ يطرق على هذه العقول مرة أخرى: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

ولأنّه كان بعض عقلاء المشركين لا يُنكرون هذه الحقيقة، وأنّ أصنامهم لا تملك شيئًا في هذا الوجود، لكنّهم يتبرَّكُون بها استشفاعًا وتقرُّبًا إلى الله، ردَّ القرآن عليهم: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

وهذا هو منطق العقل والفطرة؛ فالشفيع إنّما نستشفع به إذا كُنَّا على يقينٍ أنّه مُقرَّب ممن ندعوه، أما استِشفاع المشركين بأصنامهم إلى الله مع انعدام الدليل على قُرب هذه الأصنام من الله ورِضا الله عنها، فهذا تضليلٌ للنفس، وكذِبٌ على الله.

ثالثًا: وعلى صِلة بالسؤال الأول، يطرح القرآن سؤالًا يمسُّ واقعَ الناس وحياتهم، وأسباب رزقهم: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ وهذا الجوابُ الذي لا يملك المشركون محيصًا عنه، فالله هو الذي خلق الأرض وما فيها، وشقَّ فيها الأنهار، وأودع فيها المعادن، وليس لأصنامهم في كلّ هذا شأن ولا نصيب، ثم يُضيف القرآن أنّ الله الذي خلق هذه الأرزاق هو الذي يُقدِّرها أيضًا بين الناس ضمن نظامٍ محسوبٍ لضبط توازن الحياة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: يعرض القرآن قول المشركين في الرسول ﷺ وفي الرسالة كما هو: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم يبيِّن حالهم وأنّهم كانوا في جاهليَّة لم تَرَ نورَ الوحي، ولم ينزل فيها كتاب: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

خامسًا: يضع القرآن قاعدةً في التحاوُر مع المخالفين تعتمد العدل، وتنزل بالداعية إلى مستوى خصمه؛ تمهيدًا لانطلاقٍ متكافئٍ للحوار، وهذا من الخُلُق القرآنيّ الفريد ﴿وَإِنَّآ أَوْ

إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بما أننا نختلف معكم في أصول الدين، وفي التصوُّرات الكبرى للكون والحياة، فإنّه لا بُدَّ أن يكون أحدُنا على الحقِّ والثاني على الباطل، فتعالَوا نتحاور لنكشف أنفسَنا، ونتعرَّف على مواقعنا.

ثم ينزِل في مستوى الخطاب أكثر من هذا، فيقول: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وكلُّ هذا تشجيع لهم للجلوس على بساط الحوار، وتطمينٌ لهم أنّ الحوار إنّما هو لمصلحتهم، وليس تمييزًا لأحدٍ عليهم، أو لسلبهم شيئًا مما عندهم من جاهٍ أو مالٍ.

سادسًا: يوجِّهُ القرآن الرسولَ ﷺ أن يدعو أولئك المخالفين للتفكير مثنى وفرادى، أي: بعيدًا عن ضغط الجمهور، والمُناكفات والمُزايدات التي تعجُّ بها المُجادلات الجماهيريَّة؛ حيث تختلط الغايات، فيكون البحث عن الانتصار للنفس، أو الحزب، أو القبيلة، أمَّا أن يُفكِّر الإنسانُ مع نفسه، أو يجلس إلى جانب مَن يثق به، ويتحاور معه بهدوءٍ بعيدًا عن ذاك الصخب، فلا شكَّ أنّ هذا علامةٌ على صدق التوجُّه والرغبة في الوصول إلى الحقِّ ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

سابعًا: يُؤكِّد القرآن أهميةَ نزاهة الداعية المُبلِّغ عن الله عن كلِّ غرضٍ دنيويٍّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثامنًا: يذكر القرآن بعد كلِّ هذا حوارًا سيجري بين هؤلاء المشركين أنفسهم، ولكنّه في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه حوار، وكأنّه يقول لهم: لقد كان بوسعكم أن تتحاوروا بهذا وتفكّروا في مضمونه وأنتم هناك في دار العمل، فما الذي أشغَلكم وعطَّل عقولكم؟ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

تاسعًا: وفي ثنايا ما تقدَّم يلتفِت السياق إلى مشهدٍ آخر، ليعرض حوارًا آخر غايته إبطال عقائد المشركين، وبراءة الملائكة مما ينسبه المشركون إليهم، وبيان مدى جهلهم وتخبُّطهم في ذلك: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ تأكيدٌ لتوحيد الله في المُلك، والذي هو تفريعٌ عن توحيد الله في الخلق، فالذي خلق الأشياء هو الذي يملكها.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ﴾ نفيٌ لدعوى المشركين في تقرُّبهم إلى الله بأصنامهم، وما يرجونه من شفاعتها يوم القيامة، فالشفاعة حقٌّ، لكنَّها لا تكون إلَّا لمن أذِنَ الله له.

ثم يسترسِلُ السياق ليرسُمَ صورةً من صور الشفاعة هناك؛ فالناس بعد توجُّهِهم لطلب الشفاعة يمكثُون ما الله أعلم به في كربٍ وضيقٍ، حتى يكشِفَ الله ما بهم، ويأذَن بالشفاعة فيُعلِي بها شأنَ الشافع، ويُنفِّس كربَ المشفوع له، فيستبشِرُون جميعًا برحمة الله وعفوه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى إن كنَّا نحن قد أجرَمنا - كما تزعمون - فلن تتحمَّلوا وِزرَنا، وكذلك نحن لا نُحاسَبُ على أعمالكم، فكلُّ عاملٍ مسؤولٌ عن عمله، وفيه دعوةٌ للتفكير بالمصير المحتوم الذي ينتظر الجميع، بعيدًا عن صخَبِ المجادلة والمماحكة.

﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ﴾ أي: يوم القيامة؛ حيث تجتمع الخلائق كلّها.

﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يقضِي بيننا وبينكم بحُكمه الحقّ ﷻ.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾ أي: لن يؤمنوا بالقرآن، ولا بالتوراة والإنجيل.

﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ أي: محبوسون ينتظِرون جزاءَهم.

﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ أي: يتجادَلون ويتلاوَمون.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ وهذا دَيدَنُ المستكبرين وقادة الضلالة في الأرض؛ حيث كانوا يُسخِّرون كلَّ جهدهم ومكرهم لإضلال الناس وصدِّهم عن طريق الحقِّ، كما نراه اليوم من إنفاقٍ لا حدود له، وتبذيرٍ لموارد الأرض من أجل التضليل السياسي والإعلامي، وخداع الجماهير، ودفعها باتجاه الانحراف، وإخضاعها لمشاريع بعيدة عن فطرة الإنسان وتطلُّعاته، وطبيعة تكوينه.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الطبقة المُترَفَة في كلِّ مجتمعٍ هي التي تخشى التغيير حتى لو كان هذا التغيير باتجاه الأفضل.

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هذا هو ميزانهم، فهم يرَون أنفسهم الأفضل من غيرهم، ولا يرَون النعم التي هم فيها إلَّا أنَّها حقٌّ لهم بحكم تميُّزهم في أصل تكوينهم، وفيما يفاخرون به من أحسابٍ وأنسابٍ، ومِن ثَمَّ فهم يرَون أنه حتى لو كانت هناك آخرة وحساب فلن يكونوا هناك من المُعذَّبين، فهم أعلى وأرقى من أن يُحاسَبوا أو يُعذَّبوا!

وقد ردَّ القرآن تصوُّرهم الخاطئ هذا: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ لحكمةٍ يعلمها سبحانه، وليس في هذا تفضيلٌ للغني على الفقير، بل الميزان الحقُّ ميزان الإيمان والعمل: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾ والمقصود: إظهار براءة الملائكة من هذا القول، وبيان جهل المشركين وشدّة غفلتهم وضلالهم.

﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ ﴾ فقد كان المشركون يخلطون بين الملائكة والجن، فجعلوا الملائكة بنات الله، ثم جعلوا بين الله وبين الجنِّ نسبًا! ومِن معاني عبادتهم للجنِّ اتباعهم لإبليس وغوايته، واستسلامهم لوساوسه، وهذه صفةٌ عامة في كلِّ المشركين.

﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴾ بمعنى أنّ مشركي مكة لم يبلغوا من القوّة عُشرَ الأقوام السابقين الذين أخذهم الله بعد تكذيبهم للرسل، والمقصود بهذا الإخبار التهديد.

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ ﴾ أي: بنصيحةٍ واحدةٍ.

﴿مَثۡنَىٰ ﴾ اثنَين اثنَين، يتحاوران ويفكّران معًا.

﴿وَفُرَٰدَىٰ ﴾ كلّ فردٍ يُفكّرُ مع نفسه.

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ أي: من جنونٍ، وكانت العرب تنسب الجنون إلى مسِّ الجنِّ، والله أعلم.

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ ﴾ النبيُّ ﷺ لم يسألهم أجرًا أصلًا، وإنّما المقصود التهكُّم، كأنّه يقول لهم: ما أخذته منكم مِن أجرٍ ونحوه فخذوه.

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ بمعنى أنّ الباطل لا يفعل شيئًا إذا جاءه الحقّ، فلا يُقدِّم ولا يُؤخِّر، ولا يُنشئُ شيئًا ولا يُعيد، وهذه أمارةُ اضمِحلالِه وزوالِه.

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ عند البعث.

﴿فَلَا فَوۡتَ ﴾ فلا مهرب.

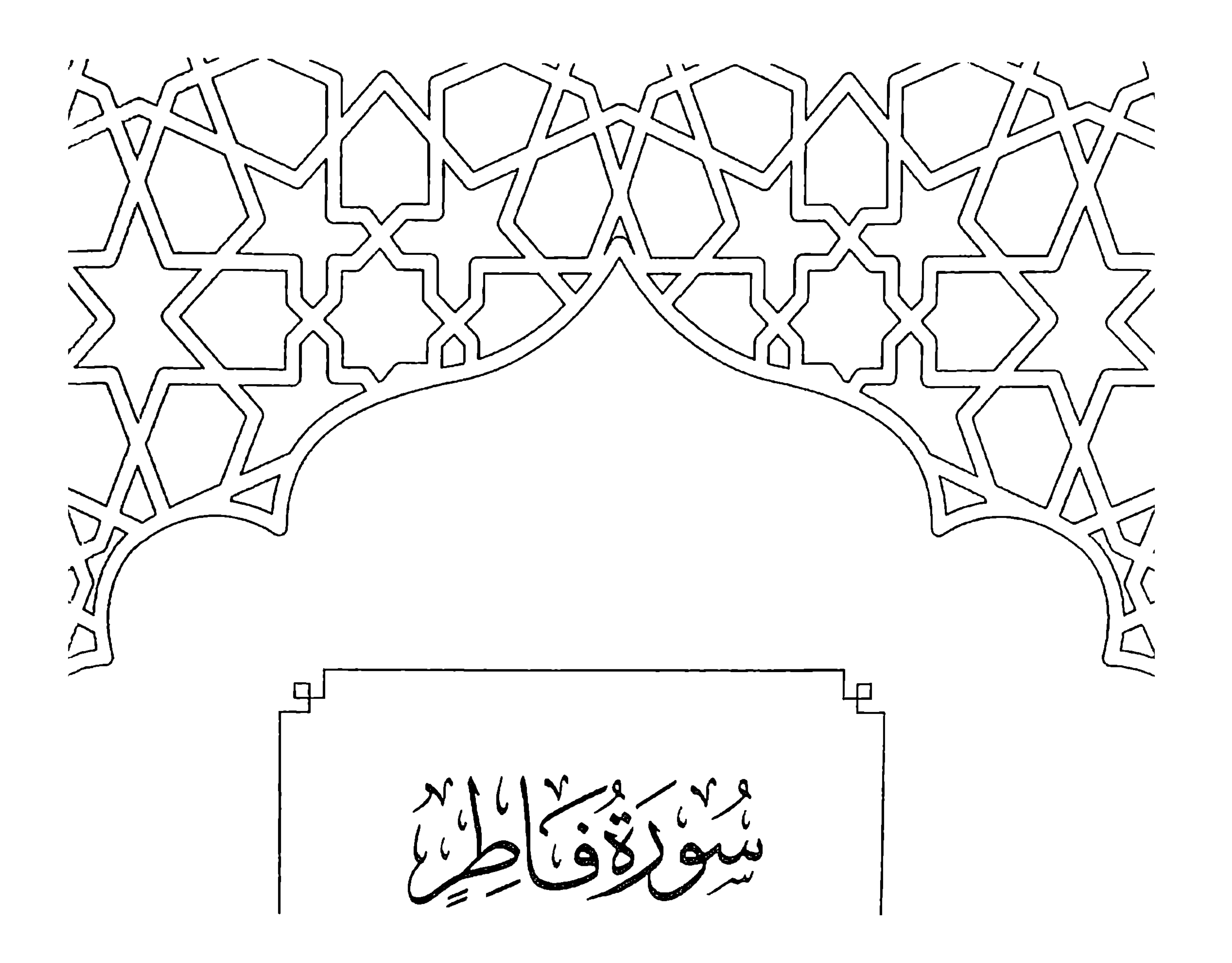
﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ أُخِذُوا من المكان الذي هم فيه، وهو أرض المحشر.

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ أي: كيف لهم أن ينالوا مُبتغاهم وقد غدَا بعيدًا عنهم، فالآخرة ليست دار استدراك وتوبة، فقد أعطاهم الله في الدنيا من الأعمار ما يُمكنهم فيه التراجع والاستغفار، وكان ذلك قريبًا منهم وبين أيديهم.

﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ أي: كانوا يتكلَّمُون بالغيب كلامًا باطلًا، كمن يرمي هدفًا بعيدًا عنه؛ بحيث إنّه لا يراه، ولا يعلم مكانَه.

﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ ﴾ حيث هم الآن يتمنَّون الرجوع إلى الدنيا لكي يؤمنوا ويتوبوا، ولكن الله جعل بينهم وبين ما يتمنَّون حائلًا.

﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ ﴾ بأشباههم من الأُمم السابقة، فلم يرجِع منهم أحدٌ إلى الدنيا، وهذه سُنَّة ثابتة من سُنن الله في هذا الخلق.



سورة فاطر

المجلس الرابع والتسعون بعد المائة: طريق الإيمان

المجلس الخامس والتسعون بعد المائة: معايير التمايز والتفاضل بين الناس

المجلس الرابع والتسعون بعد المائة

سورة فاطر

من الآية ﴿١ - ١٧﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

طريق الإيمان

تستهلّ سورة فاطر بالتذكير بمعاني الإيمان الكليَّة، وما ينبني عليها من كلِم طيبٍ، وعملٍ صالحٍ، وحياةٍ كريمةٍ عزيزةٍ، بخلاف أولئك الذين اتّبعوا سبيلَ الشيطان فزيَّن لهم أعمالهم، وأضلَّهم وأعمَى أبصارَهم، والقرآن يعرض كلّ هذا ويدعمه بكلِّ ما من شأنه أن يأخذ بقلوب الصادقين مع الله، والصادقين مع أنفسهم إلى طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة، وأمَّا المكابرون والمعاندون فقد قامَت عليهم الحجة:

أولًا: تأكيد أنّ الله وحده هو خالقُ السماوات والأرض وموجِدهما من العدم على غير مثالٍ سابقٍ، وخالقُ كلّ مَن فيهما وما فيهما بلا شريكٍ ولا مُنازع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإذا كان الله هو وحده الخالق، فهو إذن وحده الرازق الذي يُقدِّر الرزق، ويُقدِّر أسبابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

ثانيًا: تأكيد أنّ الله وحده هو خالق هذا الإنسان، وهو الذي أمدَّه بأسباب الحياة، وسخَّر له البرَّ والبحر ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

ومِن ثَمَّ فهذا الإنسان مُفتقرٌ إلى الله في أصل وجوده، وفي أسباب حياته، ووسائل عيشه ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

ثالثًا: بيان بطلان دعوى المشركين فيما ينسبونه إلى الله من شِرْكٍ ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ

﴿سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

رابعًا: بيان أنّ الذين يُصِرُّون على شِركهم إنّما يتَّبعون سبيلَ الشيطان الذي يُغرِّر بهم، ويزيِّن لهم الباطل، ويدفعهم إلى غضب الله وعذابه الشديد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

خامسًا: وإذا كانت تلك نهاية طريق الباطل، فإنّ نهاية طريق الإيمان سعادة في الدنيا، وسعادة في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

سادسًا: وقد جاء في ثنايا هذه الآيات بيانٌ لخُلُق النبيِّ الكريم ﷺ وسعة رحمته حتى بالمخالفين والمعاندين ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابقٍ.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ لتبليغ وحيه إلى أنبيائه.

﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ وصفٌ لخلق الملائكة، والمقصود به إظهار عظمة الخالق، وأنّ الله أعلم بملائكته، وفيه ردٌّ على تخرُّصات المشركين وقولهم في الملائكة بغير علم.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما يعطي الله مِن النِّعم فلا مانع له.

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: ما يمنعُهُ الله ويحرمهُ فلا مُعطي له.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرَفون عن هذا الحقِّ.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ بعد تكذيب قومه له.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: لا يغرنَّكم الشيطان بالله، فيُزيِّن لكم الشرك والمعصية.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فاحذَرُوه كما يحذَر العدوُّ من عدوِّه.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ أتباعه وأنصاره.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ هذه من أخطر أسباب الغواية، وتثبيت أهل الباطل على باطلهم؛ إذ يرَونَه الحقَّ الذي لا ينبغي الرجوع عنه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يضل من يستحق الضلالة، ويهدي من يستحق الهداية، فمَن طلب الضلالة وأخذ بأسبابها ضلَّ، ومن طلب الهداية وأخذ بأسبابها هُدِيَ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أي: لا تهلك نفسك بالتحسُّر والحزن عليهم.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ لأنَّ الرياح هي التي تحمل السحاب وتتحرك به إلى حيث يشاء الله.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيا بماء السحاب الأرضَ فجعلها مخضرَّة بعد أن كانت يابِسَة.

﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ مثل هذا الذي ترونه من إعادة الحياة إلى الأرض سيكون بعثكم وإعادة الحياة لكم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ بمعنى أنَّ مَن كان يطلب العزة في مناهج الكفر والضلال فهو واهِم؛ لأن العزَّة لله وحده، وفيه بيانٌ لسببٍ من أسباب الضلال؛ حيث ينبهر الناس بالباطل في حال نشوته فيلهثون وراءه طلبًا للشهرة والمجد، والمتاع الزائل.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بمعنى أنّ سبب العزَّة والرفعة عند الله إنّما هو الكلم الطيب والعمل الصالح، وليس بهذا البهرَج والخُيَلاء الباطل الذي يتمسَّك

به المشركون؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

فيتحصَّل أنّ عمل الناس على صنفَين: مقبولٌ مرفوعٌ عند الله، وهو الكلم الطيب والعمل الصالح، ومرفوضٌ مردودٌ على أصحابه بالخيبة والهلاك، وهو العمل السيىء.

وقد فرَّق بين الكلم الطيب والعمل الصالح؛ لأنَّ العمل تابعٌ للقول؛ إذ إنَّ الكلِم هنا إنَّما هو النطقُ بالشهادتَين، فهو الذي يصعَدُ أولًا ثم يتبعه العمل، وقد جاء بالصعود للكلِم الطيب، وبالرفع للعمل الصالح؛ لتنوع الأساليب مع أنَّ المعنى واحد.

وفيه إشارةٌ أنَّ صعود الإيمان أسبق وأسرع؛ إذ جعل الإيمان يَصعَدُ بنفسه، والعمل الصالح كأنَّه بحاجةٍ إلى من يرفعه، والله أعلم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ خلق أباكم آدم من ترابٍ، ثم أنبتَ أجسادَكم من هذا التراب الذي فيه مصدر غذائكم بعد أن صوَّركم ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾ أي: يطول به العمر.

﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ الفُرات: العَذْب، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنَّه شديد العذوبة.

﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ والأُجَاج: المالح، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنَّه شديد الملوحة.

﴿وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ أي: من الماء العذب ومن الماء المالح تأكلون اللحم الطري، وهو السمك.

﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ كاللؤلؤ والمرجان، وفيه إشارةٌ إلى قيمة التزيُّن والتجمُّل؛ إذ سِيقَت مساق الامتنان والتفضُّل.

﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخُرُ الماء ذهابًا وإيابًا.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ يدخُلُ الليل على النهار بانسِحاب ضوء

الشمس حتى يختلط فيه بعض الوقت، ثم يدخل النهار على الليل بشُرُوقها فيختلط فيه أيضًا بعض الوقت، في حركةٍ متواصلةٍ ومستمرةٍ لتؤدِّي وظيفة لا يُتصوَّر استمرار الحياة بدونها، والإنسان يُشاهِدُ هذا كلَّ يومٍ، ويحسب به أيامه وأسابيعه وشهوره وسنِيَّه وعقوده وقرونه، ألا يدعوه هذا ليتفكَّر ما سرُّ هذه الدورة الفلكيَّة اليوميَّة؟ وما مُناسبتها لحياة الإنسان، ومَن الذي سخَّرَها بهذا النظام الدقيق؟

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ والقِطمِير: القشرة الرقيقة الملتفة على نواة التمر، والمقصود أنَّ هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لا تملِك من هذا الخلق شيئًا ولو كان بمقدار قِشر النواة.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: الأصنام.

﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَّها جمادات لا تسمع ولا تعقِل.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنهم عاجِزُون عن الحركة والنجدة، وفائدةُ الافتراض هذا إثبات صفة العجز، ولأنَّ المُشرِك قد ينسب لها السمع؛ ولذلك يُخاطِبُها ويسألُها! فكان الردُّ أنّه حتى لو كانت تَسمَعُك كما تدَّعِي، فإنَّها لن تستجيب لك بشيء.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

بعد بيانه لطريق الإيمان ومعالمه وآثاره في الكون والحياة، شرَعَ القرآن في وضع المعايير التي ينبغي أن يتمايز بها الناس، خاصَّةً أنّ فلسفة الخلق الكليَّة في الإسلام تقوم على أساس الاختبار والتمايز ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وبكلِّ تأكيدٍ فإن ميدان الاختبار هذا وما ينتج عنه إنّما هو ميدان العمل، وهو الميدان الذي يسَع جميع الناس أن يتباروا فيه ويتنافسوا، ويمكن تلخيص ما أورَدَته هذه الآيات في هذا المجال بالنقاط الآتية:

أولًا: يؤكِّدُ القرآن أنَّ كلَّ إنسان يتحمل مسؤوليَّة عمله خيرًا كان أو شرًّا ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

إنَّ كلَّ هذه التأكيدات في سورةٍ واحدةٍ وفي مقطعٍ واحدٍ من آياتها دليلٌ على خطورة هذه القاعدة، ومدى حرص القرآن الكريم على ترسيخها في عقول الناس ونفوسهم، فهي مع ما فيها من تأكيدٍ لمبدأ العدل الإلهي، فيها أيضًا تحفيزُ الإنسان للمُبادرة إلى العمل، والمنافسة في الخيرات، وتشجيع روح المراجعة والتوبة والإنابة، واستشعار جدّية الأمر وخطورته.

ثانيًا: يضع القرآن صورًا مُتقابِلة يفرز من خلالها صورةَ الخيرِ والحقِّ والهُدى عن صورة الشرِّ والباطل والضلالة؛ ليكون الناسُ كلُّ الناس على بيِّنةٍ مِن ذلك ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

وهذا هو الفرز الأول: فرز بين الجاهل الذي يتخبَّط في جهله تخبُّط الأعمى، وبين اليقِظ المُتنبِّه الذي يمشي بوعي وبصيرةٍ، ويلزَم من هذا إلزام الإنسان بالنظر والتفكُّر والتبصُّر، فالجهل بالنسبة للمكلَّف القادر على التعلُّم ليس عذرًا.

ثم يفرز القرآن الطرق والمناهج ذاتها: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ فهناك الديانات المحرَّفة البيِّنة التحريف، وهناك الخرافات الباطلة البيِّنة البطلان، وهناك المبادئ الهدَّامة التي تهدم العقل والسلوك، وتدعو إلى اتِّباع الشهوات والمُنكَرات، ويُقابل هذا كلّه منهج الحقِّ والعدل والنور، ومن مهام المُكلَّف أيضًا: أن يُميِّز هذا عن تلك، وأن لا يخلِط بين الحقِّ والباطل، ولا بين النور والظلمة.

ثم يفرز القرآن بين واقع الناس الذين يعيشون في حمأة الجاهليَّة وجَورها وظلمها، وبين المؤمنين الذين يتفيَّؤون ظلال الإسلام وأمنه وعدله ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ ثم يعود إلى الإنسان نفسه ليفرز بين الإنسان الحيِّ القادر على التمييز بين هذه الأشياء، وبين ذلك الآخر الذي عطَّلَ في نفسه كلَّ أدوات الاستبصار والتفكُّر، فأصبحَ كالميِّت الذي لا يَعِي، ولا يسمع، ولا يرى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

ثالثًا: يُبيِّن القرآن أنّ هذا التفاوُت والاختلاف بين الناس إنَّما هو سنةٌ مِن سُنن الله في هذا الخلق ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ ولكن هذا التفاوُت ليس سواء؛ فهناك التفاوُت القَدَري الذي لا يملك الإنسان فيه تغييرًا؛ كاختِلاف الناس في أجناسهم وأنسابهم وألوانهم، وهناك التفاوُت التكليفي الذي يتحمَّل فيه الإنسان مسؤوليَّة خياره وموقفه وعمله، وهذا هو أساس الاختبار والتمايز.

رابعًا: يؤكِّد القرآن أنّ الله لا يُحاسِب الناس إلَّا بعد بيان الحقِّ لهم وإقامة الحجة عليهم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

خامسًا: يُنبِّه القرآن إلى أنَّ العلم هو طريق الإيمان والخشية والتواضع والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾.

كما أن التكبُّر هو طريق الضلالة والتِّيه والعَمَى ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

سادسًا: يُبيِّن القرآن تفاوُت المؤمنين أنفسهم في قوَّة إيمانهم، ومستوى التزامهم بطاعة ربِّهم ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وهذا ميدانٌ آخر، وفرزٌ آخر، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

سابعًا: يُبيِّن القرآن أنَّ نتيجة الإيمان والهدى والعمل الصالح ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾.

أما أولئك الأشقياء التُّعساء ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ

صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾.

ثامنًا: يُؤكِّد القرآن أنَّ علمَ الله شاملٌ ومحيطٌ بالناس وأعمالهم، وما تُكِنُّه ضمائرهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وتأكيدُ هذه الصفة الجليلة للمَولَى الجليل ﷻ في هذا المقام له دلالته وأثره البالغ في تكوين الرقابة الذاتية للمؤمن، والاطمِئنان بأنَّ كلَّ ما يُقدِّمه الإنسان مجزِيٌّ به صغيرًا كان أو كبيرًا، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

تاسعًا: يختتم القرآن الكريم هذه السورة مُذكِّرًا بالأمَد المُتاح للإنسان؛ كي يُفكِّر ويُحاسِب نفسَه ويُراجِعَها، ويرى موقِعَه بين هذه السُّبُل، ووزنه في هذه المعايير، فالله لا يُعجِّلُ بالعقوبة، وإنَّما يُمهِلُ ليتذكَّر من يتذكَّر، ويرجِع من يرجع ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾.

دقائق التفسير

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ أي: لا تحمِلُ نفسٌ حِملَ غيرها.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ ذَكَرَ الصفة وحذف الموصوف، أي: نفس مُثقَلة ومُحمَّلة بالذنوب.

﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ تطلب من يُعِينها ويحمل شيئًا من ذنوبها.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ أي: ولو كان من استَنجدت به قريبًا لها.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ تشبيه للفارق بين حالَتَي النعمة والشقاء.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ شبَّهَ المشركين المُعانِدين بالموتى الذين لا يسمعون.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ليس هناك أُمّة في البشر إلا جاءها رسولٌ من الله، وإن لم يذكر القرآن لنا أسماءهم وأخبارهم، وفي هذا ردٌّ على من يظُنُّ أنّ الرُّسُل كلّهم كانوا في منطقتنا هذه.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ المقصود بكلِّ هذا الكتب السماوية السابقة؛ التوراة والزبور والإنجيل والصحف، فهي البيِّنات والزُّبُر والكتاب المنير، فهذه صفاتٌ مشتركةٌ لموصوف متعدِّد، وفيها من تكرار المعنى وتأكيده ما لا يخفى.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عذابي لهم، وقد ذكر النَّكِير بمعنى إنكاره تعالى لشِركهم وظُلمهم، وأراد اللازم له وهو العذاب، والله أعلم.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ذكر ما يُميِّز الجبال بعضها عن بعض في لون صخورها وعلاماتها وطرقها، فمنها الأبيض والأحمر والأسود، والغرابيب: هي الطرق السود، وأصلها من الغراب، ثم أكدَّها بقوله: ﴿سُودٌ﴾، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: إنّ العلماء أكثر خشية من غيرهم؛ لمعرفتهم بمقام ربِّهم، فالعلم الحقُّ يُوصِل إلى الإيمان الحقِّ، ويُورِث التقوى والخشية من الله.

وهنا إشارة مأخوذة من السياق: أن النظر في الكون وما فيه من تنوُّع واختلاف هو علمٌ يُوصِل إلى هذا الإيمان، ويُورِث تلك التقوى.

﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ تجارة رابِحة لن تخسر.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ كما وعدهم.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وليس لفضل الله حدٌّ، ولا لكرمه نهاية.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بمعنى أنَّ القرآن جاء مُصدِّقًا للكتب السابقة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هم أمَّة محمد ﷺ الذين اصطفاهم الله لحمل هذا القرآن.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: من المؤمنين الذين آمنوا بالقرآن من يظلم نفسه بارتكاب المعاصي، فالمؤمنون ليسوا كلُّهم سواء، هكذا هي طبيعة البشر، وميدان التنافس والسبق مفتوحٌ للجميع.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مُقِلٌّ مِن المعاصي واقِفٌ عند حدود الله، وهذه مرتبةٌ أعلى مما قبلها.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهذه هي المرتبة العليا، وهؤلاء هم السابِقُون السابِقُون، والمُقَرَّبُون عند الله.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾الواو هنا واو جمع، وقد جمعت الأوصاف الثلاثة الماضية بأنَّ لهم الجنَّة، مع تفاوُت في الدرجات، ومِن ثَمَّ قِيل بأنَّ هذه الواو هي أغلى واو جمع في القرآن الكريم .

﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ دار الخلود، وهي الجنَّة.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعَب.

﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ مشقَّة.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي: يستغيثون ويطلبون النجدة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أجيالًا تعقب أجيالًا.

﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ إلا بُغضًا واحتِقارًا.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: يتحمل عاقبة كفره.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: هل لهم شراكة مع الله في خلقها أو ملكها وحقّ التصرف فيها؟

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ حيث وضَعَ لهما هذا النظام والناموس الكوني الذي لا يخرجان عنه.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ إِنْ هنا نافية بمعنى: ما، أي: لو زالتا لما أمسَكَهما أحدٌ غير الله.

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: بأيمانهم المُغلَّظة والمُؤكَّدة.

﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ هذا قولُ المشركين؛ حيث كانوا يُقسِمون بالأيمان المُشدَّدة أنّه لو بعَثَ الله فيهم رسولًا لتمسَّكُوا به، ولكانوا أهدَى من اليهود الذين كانوا يتعالَون على العرب بما معهم مِن علمٍ وكتابٍ.

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمعنى أنّ الذي صدَّهم عن الوفاء بما تعاهَدُوا عليه وأقسَمُوا به إنَّما هو الكِبر ومكر السوء.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ أي: لا ينزل ولا يُحِيط إلَّا بهم.

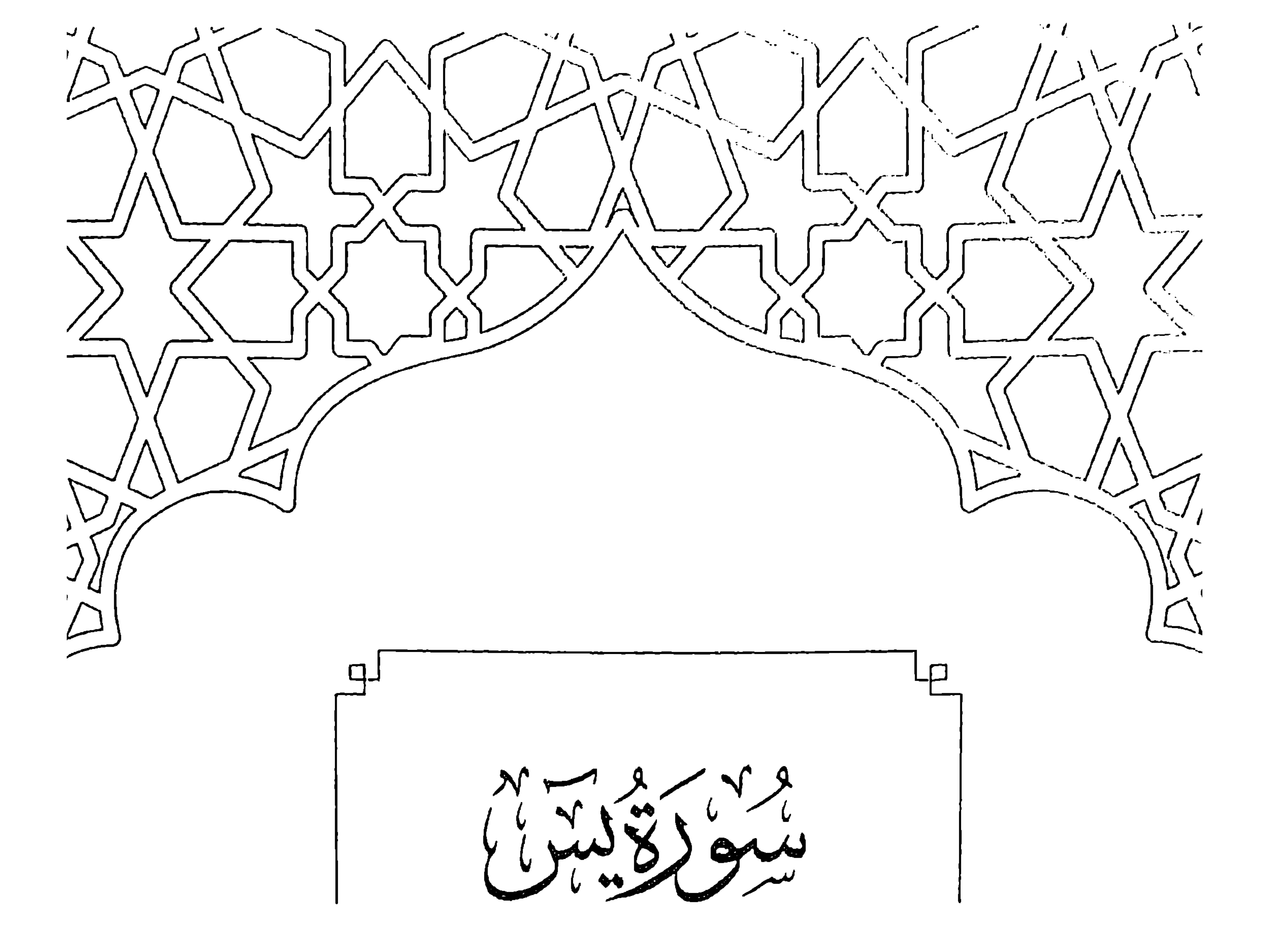
﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ أي: العذاب والهلاك كما أهلَكَ الله الأُمَم السابقة.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ بأن يُغيِّر فيها فيجعلها بحقِّهم نعمةً بدل النقمة، بعد أن استحقوا النقمة.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بأن يُحوِّل العذابَ عنهم إلى غيرهم.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ فيه أنَّ القوَّة وحدها ليست سَبَبًا في الأفضليَّة، ولا ضامِنة للبقاء؛ فالأقوياء لما ظلموا أخذهم الله، هكذا كان فرعون، وكانت عاد، وكانت ثمود.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ فالله لا يُعجِّل بالعقوبة، وإنَّما يُمهِل إلى أجلٍ معلومٍ ومُقدَّرٍ لعلَّ تائبًا يتُوب، أو راجِعًا يرجع ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾.



سورة يس

سورة يس

يس ﴿١﴾ والقرآن الحكيم ﴿٢﴾ إنك لمن المرسلين ﴿٣﴾ على صراط مستقيم ﴿٤﴾ تنزيل العزيز الرحيم ﴿٥﴾ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم
فهم غافلون ﴿٦﴾ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿٧﴾ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴿٨﴾
وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴿٩﴾ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴿١٠﴾
إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴿١١﴾ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا
وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴿١٢﴾ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴿١٣﴾ إذ أرسلنا إليهم اثنين
فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴿١٤﴾ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون
﴿١٥﴾ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴿١٦﴾ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴿١٧﴾ قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم
وليمسنكم منا عذاب أليم ﴿١٨﴾ قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴿١٩﴾ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى
قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴿٢٠﴾ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴿٢١﴾ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون
﴿٢٢﴾ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ﴿٢٣﴾ إني إذا لفي ضلال مبين ﴿٢٤﴾
إني آمنت بربكم فاسمعون ﴿٢٥﴾ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ﴿٢٦﴾ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴿٢٧﴾
۞ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴿٢٨﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴿٢٩﴾ يا حسرة على
العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴿٣٠﴾ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴿٣١﴾ وإن كل لما
جميع لدينا محضرون ﴿٣٢﴾ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴿٣٣﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل
وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴿٣٤﴾ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴿٣٥﴾ سبحان الذي خلق الأزواج
كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴿٣٦﴾ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴿٣٧﴾ والشمس
تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴿٣٨﴾ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴿٣٩﴾ لا الشمس ينبغي لها أن
تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴿٤٠﴾ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴿٤١﴾ وخلقنا لهم من مثله ما
يركبون ﴿٤٢﴾ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ﴿٤٣﴾ إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ﴿٤٤﴾ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما
خلفكم لعلكم ترحمون ﴿٤٥﴾ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴿٤٦﴾ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين
كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴿٤٧﴾

تتناول هذه السورة الكريمة موضوعين أساسين: الدعوة إلى الله، والتذكير بعقيدة البعث والجزاء، وبين الموضوعَين وشائج لا تخفى، فالدعوة ليست سوى عملٍ دَؤوبٍ، ورغبةٍ صادقةٍ لإنقاذ الناس من دَركِ الشقاء وسوءِ الْمُنقلب، والأخذ بأيديهم إلى سعادة الدارَين.

فكأن الموضوع الأول مقدِّمات عمليَّة لتحقيق الفوز والنجاة وفق الشروط والمؤهِّلات التي يحدِّدها الموضوع الثاني، وكما يأتي:

أولًا: يُؤكِّد القرآن الغايةَ الكبرى لبعثته ﷺ: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

وهنا جملةٌ من الأمور:

أولها: أنَّ الرسالة المحمديَّة مُنبثِقة من ثلاث صفات ربَّانية: الحكمة، والعزَّة، والرحمة، وهذه صفاتٌ كامِلةٌ مُتكاملةٌ، عبَّرَت بشكلٍ واضِحٍ عن كمال هذه الرسالة، فهي رسالةُ العلم والحكمة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهي رسالة القوة والرحمة: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وثانيها: أنّ الرسالة إنّما تدعو الناس إلى الصراط المستقيم، وهو الصراط العدل الذي لا ظلمَ فيه ولا اعوِجَاج ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وثالثها: أنَّ القوم الذين نزَلَت فيهم هذه الرسالة لم يكونوا أهل كتابٍ ولا أهل علمٍ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

ثانيًا: يُبيِّن القرآن أنَّ هؤلاء المدعُوِّين قد انقَسَمُوا على صِنفَين: صِنفٍ عانَدُوا وكابَرُوا، وأغلَقوا منافِذَ الفكر والمعرفة عندهم، وصِنفٍ أصغَوا واستمَعُوا، وسألُوا وفكَّروا، فشرحَ الله قلوبَهم، وأنارَ سمعَهم وأبصارَهم.

أما الصنف الأوّل فيقول فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ

أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أما الصنف الثاني فيقول فيهم: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

وهكذا هو انقسام الناس أمام الدعوة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإنَّما الفارِق في النِّسب؛ فكلَّما اشتدَّت الدعوة وثبَتَ أصحابُها، دخل الناس فيها أفواجًا، ويبقى المُعانِد مُعانِدًا مهما كان حجمُه ووزنُه؛ ولذلك فقريش التي حارَبَت رسولَ الله ﷺ ومالَ أكثرُها للباطل في بداية الأمر، رجَعَت بأغلبيَّتها إلى دينِ الله بعد الفتح.

ثالثًا: ينقل القرآن لنا في هذه الآيات نموذجًا من الدعوات السابقة، فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وللمُؤمنين معه في مكة، وفيه عِظةٌ واعتِبارٌ ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾.

ولم يُسمِّ القرآن هذه القرية، ولم يُعرِّف بأولئك المرسلين؛ فالغاية هنا استِخلاص العبرة المجرَّدة لا غير، وكان الله قد أرسل إليها رسولَين اثنَين، فلمَّا كذَّبُوهما عزَّزَهما بثالثٍ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾، ردَّ أهل القرية على هؤلاء الرسل دعوتهم: ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

فعِلَّةُ التكذيب كونهم بشرًا، وهو تعليلٌ فاسِدٌ؛ إذ كان الواجب النظر في مضمون الرسالة وغايتها، وهكذا هم أهل الباطل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، تقصُر بهم همَّتُهم عن النظر في المناهج والأفكار والمعلومات، ليحبِسُوا أنفسَهم على شخصِ المُتحدِّث واسمه ونسَبه ولون بشرته!

ولذلك ردَّت عليهم رسُلُهم: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ

ٱلْمُبِينُ ﴾ بمعنى أننا نُبلِّغُكم رسالةَ من ربِّكم، فانظروا فيها، هنا لجأَ الباطلُ إلى أسلوبه المعهود؛ الاتِّهام والتهديد واستعمال القوَّة بدل النظر والتفكُّر والتحاوُر ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لم يتنازل الرسل عن دعوتهم، بل واجهوا قومهم بالحقيقة كما هي: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ مُّسۡرِفُونَ ﴾.

رابعًا: ينتقل القرآن إلى مشهدٍ آخر في القصَّة، مشهد رجلٍ لا يبدو أنَّه من المرسلين، لكن القرآن أعطاه مساحةً واسعةً تزيد على ما خصَّصه للمُرسلين الثلاثة، إنَّه رجلٌ من أهل القرية ناصحٌ لهم، مُشفقٌ عليهم، جاء يسعى ليقول كلمته: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ ويبدو أنَّه كان عارِفًا بطبيعة الرسالة، وبصفات هؤلاء المُرسلين.

ولعلَّ القرآن هنا قد اختصَرَ لنا المشهد، فلم يذكر لنا من أين استَقَى الرجلُ هذه المعلومات، وما إن كان قد التَقَى بهم سابقًا، أو أنَّه جاء يسعى فسمع كلامهم مع قومه فانشرَحَ له صدره، الله أعلم، إلَّا أنَّه بدأ يُحاوِرُ قومَه في أصل عقيدتهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾، ثُمَّ توجَّهَ بالخطاب إلى المُرسلين الثلاثة كأنَّه يُعاهِدُهم ويُشهِدُهم: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾، ثم كانت عاقبته عند الله هكذا بلا مُقدِّمات ولا مُمهِّدات: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ ليُجيب بحِسِّ الداعية المتعلِّق بدعوته، والحريص على هداية قومه حتى في اللحظة التي يتلقَّى فيها مثل هذه البشارة: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾.

خامسًا: يذكر القرآن عاقبة هذه القرية الظالمة الآثمة، مُذكِّرًا أيضًا بالقرون السابقة

والمصير البائس الذي لفَّ كلَّ أولئك المكذِّبين ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

سادسًا: ثم بدأ القرآن يأخذ بقلوب الناس وعقولهم إلى ما في هذا الكون من آياتٍ بيِّناتٍ شاهدةٍ على وحدانيَّته سبحانه، وناطِقة بقدرته وعظمته وحكمته ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

ثم ينتقل إلى هذا النظام المُوحَّد والمُتكامِل بما يضمن استقرار الحياة واستمرارها ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثم يصعَد بالأنظار والأفكار إلى ذلك الفلك العلوي وما فيه من دلائل ومظاهر وأسرار ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

ثم يلفِت أنظارهم إلى أسفارهم وتنقلاتهم، وكيف سخَّر لهم ما يحمِلهم وأمتعتهم في البحر والبر ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

سابعًا: وبعد كلِّ هذه الآيات والدلائل البيِّنات، يعرِض القرآن موقفَ هؤلاء المُعاندين المكذِّبين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾، ثم يربِط القرآن بين موقفهم هذا من الإيمان وموقفهم من

الأخلاق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنّه التكبُّر على الله، والتكبُّر على عيال الله، وقسوة القلب تجاه حقائِق الكون ودلائلها كقسوة القلب تجاه المحرومين والمُستضعَفين، وهذا الربط له في القرآن نظائر كثيرة؛ من مثل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ – ٣].

دقائق التفسير

﴿يسٓ﴾ من الحروف المقطَّعة، وقد مرَّ الحديث عنها في أوائل سورة البقرة، على خلاف ما يُشاع أنَّه اسمٌ من أسماء نبيِّنا محمد ﷺ؛ إذ هو قولٌ بلا دليلٍ، ونظيرُ هذا القول في ﴿طه﴾ [طه: ١].

وهنا وقفةٌ: فإن شيُوع هذَين الاسمَين عند عامة الناس على أنَّهما من أسمائه ﷺ؛ بحيث تنصَرِف أذهانهم عند الإطلاق إلى هذا فينبغي ملاحظته، واحترام هذَين الاسمَين وتبجِيلهما في النداء؛ لمحل انصرافهما في أذهان الناس، وهذا من حُسن التأدُّبِ معه ﷺ.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو علمُ الله السابق أنَّهم لن يؤمنوا استكبارًا وعنادًا من أنفسهم، وليس بسلب الإرادة عنهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ هذه صورةٌ مركبةٌ فيها تقريبٌ حالهم وهم ينأَون عن الحقِّ، وعن نور الوحي، فينطوُون على أنفسهم لشدَّةِ عِنادِهم، كما ينطوي المُكبَّل بالقيود.

وفيه أيضًا تقرير صورة عذابهم في الآخرة، والتي تُناسِب ما اختاروه لأنفسهم في الدنيا؛ حيث سيُقيَّدون بالسلاسل فعلًا، وتجمع أيديهم مع أعناقهم، والأذقان: جمع ذقن، وهو

مجمع اللحيَين، ومُقْمَحُون أي: شاخصةٌ أبصارهم، ومرتفعةٌ أذقانهم لغِلَظ السلاسل التي حول أعناقهم.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ طريق الحقِّ، وهذا الجَعل ليس على سبيل سَلب إرادتهم، بل هو نتيجة لما اختاروه لأنفسهم، وهذا من سُنَنه تعالى الثابتة في الاختبار والتكليف، فالله لا يظلِمُ أحدًا، ولا يُكرِهُ أحدًا على الضلالة، وإنَّما هم مَن أغلق منافذَ النظر في ملَكوت الله الواسع، وأغلقوا منافذَ النظر في أنفسهم وفي تاريخ أسلافهم، فسَدُّوا طريقَ المعرفة على أنفسهم، فكان لهم ما أرادوا.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لتكبُّرهم وعِنادهم، وهذا في فئةٍ مخصُوصةٍ من المشركين، وليس عامًّا فيهم؛ إذ قد أسلَمَ كثيرٌ منهم وحسُنَ إسلامهم، ولو كان هذا عامًّا في المشركين أو الكافرين لانقطع سبيلُ الدعوة إليهم.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ظاهِرُه قصر الإنذار على هؤلاء المؤمنين، والحقيقة أنَّه قصرٌ إضافيٌّ جاء لمدح المؤمنين وإعلاء شأنهم في مُقابل أولئك المُعاندين، أمّا الدعوة إلى الله بشارة ونذارة فمفتوحة للعالمين كلِّ العالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والتنويه بشأن هؤلاء الصفوة في هذا المقام يُفيد أنّهم إنّما اهتَدوا؛ لأنّهم طلَبُوا الهدايةَ بصدقٍ، وفتحوا عقولهم وقلوبهم لكلمة الحقِّ، فكلُّ مَن كان كذلك كان جديرًا بالهداية والانتفاع بالدعوة وإن لم يكن الآن مؤمنًا.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ من عملٍ صالحٍ أو طالحٍ، وفيه إشارةٌ إلى قدرة الله على إحياء قلب الكافر بالإيمان، وإحياء قلب العاصي بالتوبة.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ حيث لكلِّ عملٍ آثاره في نفوس الناس وحياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، فالسُّنَّة الحسنة لها آثارها، والسُّنَّة السيئة لها آثارها، وما يتركه المرءُ مِن علمٍ وسُمعةٍ، وصدقةٍ

جاريةٍ ووقفٍ يُنتفَعُ به، كلُّ ذلك من الآثار الباقية بعده.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ من أعمال بني آدم وآثارهم.

﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ في كتابٍ لا يَضلُّ ولا ينسى.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: فأيَّدناهما برسولٍ ثالث.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا بمجيئكم، والطِّيَرة: الشؤم.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم معكم بسبب كفركم وظلمكم.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ شرطٌ حُذِفَ جوابه؛ لأنَّه معلومٌ في السياق، ومعناه: أإِنْ ذكَّرناكم بالله تشاءَمتم مِنَّا؟

﴿مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوِزون للحد.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ من أطرافها.

﴿يَسْعَىٰ﴾ يمشي مُسرِعًا.

﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الذي خلقني من العدم.

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ فاشهدوا على إيماني، والمقصود أنَّه أعلن إيمانه ولم يُخْفِهِ عن قومِه وهو يعلم أنَّ هذا يسوؤهم.

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم، فالأمر أهون من ذلك.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أهلكهم بالصوت، وهو نوعٌ من أنواع العذاب الذي لم يكتشفه العلم إلا مؤخَّرًا.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ بمعنى أنَّ هؤلاء يستحقُّون التحسُّر على حالهم وما أوقعوا أنفسهم فيه، كأنَّه يقول: يا حسرةً احضري فهذا أوانُكِ.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ من الأُمَمِ السابقة في القرون الماضية.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ فماء العين يتدفَّق تدفُّقًا ولا يحتاج إلى واسطة لإخراجه، وهذا من معنى التفجير ولوازمه.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ليأكلوا من ثِمار النخيل والأعناب التي خلَقَها الله لهم ولم تعمَلها أيديهم؛ لأنَّ الثمار من خلق الله وليست من صُنعهم، فتكون (ما) نافِية، وهذا أوفق لسياق الامتِنان والشكر، ويجوز في اللغة أن تكون (ما) موصولة، بمعنى: ليأكلوا من هذه الثمار ومما صنَعَته أيديهم، ولكنَّه بعيدٌ عن السياق، والله أعلم.

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف المختلفة.

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث جعل الذكر والأنثى لاستقرار الحياة واستمرارها.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ إشارة إلى أنَّ الليل أصلٌ؛ لأنَّه لا سبب له، والنهار استثناء؛ لأنَّه مُرتبطٌ بطلوع الشمس، فإذا انسلخ النهار بغروب الشمس بقِيَ الليل.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ والمقصود حركة الشمس اليوميَّة التي يراها الناظر البسيط والبدوي في الصحراء دون تكلُّف، بغض النظر عن حركتها الذاتيَّة، فهذه خارج السياق، والمعنى أنَّ تعاقُبَ الليل والنهار مستمِرٌّ في هذه الأرض بشروق الشمس وغروبها، فإذا أذِنَ الله بإنهاء الحياة توقَّفَت حركة الشمس هذه كما تتوقَّف النجوم والكواكب كلّها، وذلك مستقرها، والله أعلم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ والمقصود هنا: تقدير الأهِلَّة في دورتها الشهريَّة المعروفة، والعُرجون: عِذْقُ الرُّطَب المُتقوِّس، وهي صورةٌ تمثيليَّةٌ للهلال في أوَّلِ الشهر وفي مُنتهاه.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ لأنهما في مدارَين مختلِفَين، وذلك من تقديره سبحانه ولطفه في خلقه.

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ لأنهما أثران ناتجان عن حركةٍ فلكيَّةٍ محسوبةٍ لا مجال فيها للإسراع أو البُطء، ولا مجال فيها للفوضى.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ أي: كلٌّ يجري في مداره وموقعه المخصص له.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: حملنا أولادهم - والمقصود هنا: أولاد بني آدم عامَّةً - في البحر على هذه السُّفن التي تمخُرُ البحر وتعومُ عليه بقُدرة الله، وهي مُحمَّلةٌ بالأثقال، ويبعُد في السياق أن يكون المقصود سفينة نوحٍ ﷺ؛ وذلك لقوله تعالى الآتي: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾، والله أعلم.

﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ من الإبل والخيول ونحوها.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ فلا مُغيثَ لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي: اتَّقُوا الله تقوى شاملة فيما تُقدِّمون، وفيما تُخلِّفُون، وجوابُ (إذا) محذوف؛ لأنَّه مفهومٌ من السياق، وتقديرُه: أعْرَضُوا، بدلالة قوله تعالى الآتي: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: على المساكين والفقراء.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ فيه استِكبارٌ وازدِراءٌ بالفقراء والمساكين، وفيه أيضًا سُخريةٌ بعقيدة المؤمنين أنَّ الله يرزُقُ مَن يشاء، وبهذا يجتمِعُ في المشركين سُوء الدين، وسُوء الخُلُق.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

عقيدة البعث والجزاء

في هذه الآيات تعرِض السورة جوانب ومَشاهد مختلفة من ذلك اليوم الذي سيبعَث الله فيه الناس للحساب والجزاء، وفيه عرضٌ كذلك لشُبهات المُنكِرين وتساؤلاتهم، وكما يأتي:

أولًا: يبدأ القرآن بعرض تساؤل لمنكري الآخرة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهو تساؤل قُصِد منه التهكُّم والاستهزاء، وليس طلبًا للجواب، أو بحثًا عن المعرفة، وقد ردَّ القرآنُ عليهم بما يُناسِب قصدَهم: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إنَّها لحظةُ الصدمة، والمُفاجأة التي ستنزِل بهم وهم في أشغالهم وخصوماتهم؛ فالساعة لا تأتيهم إلا بغتة، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين آمنوا بالساعة واستعدُّوا لها، وتنبَّهوا إلى علاماتها وأشراطها.

ثانيًا: بعد الساعة وانتهاء الحياة الأولى كلِّها، يعرِض القرآن صورةَ البعث والخروج للحياة الثانية ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وفي وسط هذا الذهول يتساءَل المشركون وكأنَّهم كانوا في رَقدةٍ: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾، فيأتيهم الجوابُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

ثالثًا: يُؤكِّد القرآن أنَّ ذلك اليوم هو يوم العدل الإلهي المطلق الذي يَلقَى فيه كلُّ عامل ما عَمِل ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

رابعًا: يقسِّم القرآن الناس هناك بحسب أعمالهم التي قدَّمُوها لأنفسهم ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ هؤلاء هم المؤمنون.

أمّا المجرمون فيُقال لهم: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يمتازون عن المؤمنين كما تميَّزوا عنهم في الدنيا، وناصَبُوهم العداء والبغضاء، يمتازون عنهم ليَلقَوا مصيرًا آخر يَلِيقُ بعنادهم وظلمهم واستكبارهم ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾.

خامسًا: يُوجِّهُ القرآن بعد كل هذا نداءَه لبني آدم، ذلك النداء الذي يخترِق حواجز الزمن، فيتلقَّاه مَن يسمَعه في هذه الدار ليتَّعِظ ويعتَبِر، ويتلقَّاه مَن في تلك الدار؛ ليزداد الطائِعُون سعادةً وحُبُورًا، ويزدادَ المجرمون شقاوةً وبُورًا: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾.

سادسًا: وعلى صلةٍ بهذا النداء الكريم، يرسُمُ القرآن لهؤلاء ولغَيرهم طريق النجاة الواضِحة البيِّنة التي هي فوق الشك والشبهة ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

سابعًا: ثم يأخذ بهذه العقول والقلوب مرة أخرى إلى دلائل الإيمان وشواهده المبثوثة في هذا الكون ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾.

ثامنًا: ثم يلتفِت إلى النبيِّ الكريم ﷺ مُسلِّيًا ومُواسِيًا على تكذيبهم له وهو الناصِحُ لهم، الحريصُ عليهم - بأبي هو وأمِّي - ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾.

تاسعًا: ثم يختم القرآن هذه السورة الكريمة بحوار مع مُنكِري البعث ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾.

فالذي خلق الإنسان من نطفةٍ كيف لا يقدر على خلقه مرة أخرى؟ والذي خلق آدم من لا شيء، وخلق السماوات والأرضين كلَّها بما فيها ومَن فيها، كيف يُعجزُهُ أن يُعِيدَ خلقهم؟ إنَّه نداء العقل والفطرة، لو كانوا يسمَعُون.

دقائق التفسير

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي نفخةُ الصُّور الأولى، والتي يُعلَن فيها نهاية الحياة ويموت فيها الناس.

﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يختصمون في شؤون حياتهم، بمعنى أنَّ الساعة تأتيهم بغتة وهم غافلون.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ كما هو شأن المحتضر الذي يُوصِي بما عنده، فهؤلاء الذين يحضرون النفخة يصعَقون صعقةً واحدةً، فلا تُتاح لهم توصية ولا غيرها.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي: النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والقيامة من القبور.

﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور.

﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرجون من قبورهم سراعًا.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: مِن مَنامِنا، يُشبِّهون موتهم الذي كانوا فيه بالنوم، وهذا دليلٌ أنَّهم في تلك المُدَّة التي تسبق البعث لم يكونوا يُعذَّبون، والجمع بين هذا وبين ما وَرَدَ من نعيم القبر وعذابه: أنَّ حياةَ البرزَخ حياةٌ طويلة، ولا مانع من اختلاف أحوالها، والله أعلم.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ هو شغل التنعُّم والتفكُّه، وليس شغل الجهد والمشقة.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهي السرير.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يطلبون.

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وهذا غايةُ المُنَى؛ حيث يُحَيِّي الله عبادَه المؤمنين بتحية السلام.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ميِّزوا أنفسكم عن أهل الجنَّة؛ فليس لكم معهم نصيب.

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ألم أُوصِكم وأُبيِّن لكم بما أَوحَيتُه في كُتُبي وعلى لسان رُسُلي.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ خلقًا كثيرًا.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فلا تتكلَّم، وليس هذا حالة دائمة عند أهل النار، بل هو وقت شهادة الجوارح كما يظهر من السياق، ولأنَّ كلام أهل النار بعد الحساب والشهادة ثابتٌ، وقد مرَّ بنا كثيرٌ منه.

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فالذي جعَلَ اللسانَ يتكلَّم وهو قطعةُ لحمٍ، قادرٌ على أن يجعل بقية الجوارح تتكلَّم، وليس بالضرورة أن يكون ذلك الكلام من جِنس كلامنا اليوم، والله أعلم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (لو) هذه - والتي هي حرف امتناع لامتناع - جاء بها لبيان قُدرة الله المُطلقة ومشيئته التي لا يَحُدُّها حدٌّ، ولبيان نعمةِ الله على هؤلاء؛ حيث منَحَهم البصَرَ والقُدرةَ على النظر، ولو شاء لطمَسَ على أعيُنهم فلا يُبصِرُون طريقَهم، ومنَحَهم القُدرةَ على الحركة والذهاب والمجيء، ولو شاء لأقعَدَهم في مكانهم، فالله قادرٌ على أن يُوقِعَ عليهم مُختلَفَ العقوبات، ولكنَّه أمهَلَهم لعلَّهم يرجِعُون، ولعلَّهم يتفكَّرُون، ولكنَّهم أبَوا إلا العِنادَ والمُكابَرة.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ بمعنى أنَّ الدنيا هذه ليست دار مقرٍّ، فحتى مَن طال

عمره فيها فإنَّه سيعيش حياةَ نكدٍ بأسقامٍ وأوجاعٍ، وانحناء ظهرٍ، وضعف سمعٍ وبصرٍ.

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: عاقلًا يسمع ويُبصِر ويُفكِّر، بخلاف الجاهل المُعانِد الذي هو كالميت، فلا يسمع، ولا يُبصِر، ولا يُفكِّر.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: يحلُّ بهم الوعيد الذي توعَّدَهم الله به.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا ﴾ فالله خلق الخلق بيده، كما قال في السماء: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال في آدم ﷺ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥].

﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ مُلْكًا مُؤَقَّتًا على سبيل الاختبار والاستخلاف، وإلا فالله هو مالك المُلك ولا يشرك في مُلكه أحدًا.

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ ﴾ سخَّرناها لهم.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي: منها ما يتَّخِذونه للركوب، ومنها ما يتَّخِذونه للأكل، ثم فصَّلَ هذا بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ والمنافع كالأوبار والأصواف المُستعمَلَة في الملابس ونحوها.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي: الأصنام لا تستطيع نصر المشركين، بينما المشركون يُجنِّدُون أنفسَهم لخدمة الأصنام وحمايتها.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي: فلا تحزن لتكذيب الكفَّار لك.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ مُخاصِمٌ مُعرِبٌ عن خصومته لله الذي خلَقَه.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ لأنَّه لو تذكَّر خَلْقَهُ لما ضرَبَ هذا المثل.

﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ إنه مُتعجِّبٌ كيف يقول محمدٌ ﷺ بأنَّ الله قادرٌ على إعادة الحياة لهذه العظام بعد أن تَبلَى وتفت وتختلط بالتراب، ولكن هذا السائل نسِيَ نفسَه المخلوقةَ من نطفةٍ من ماءٍ مَهِين.

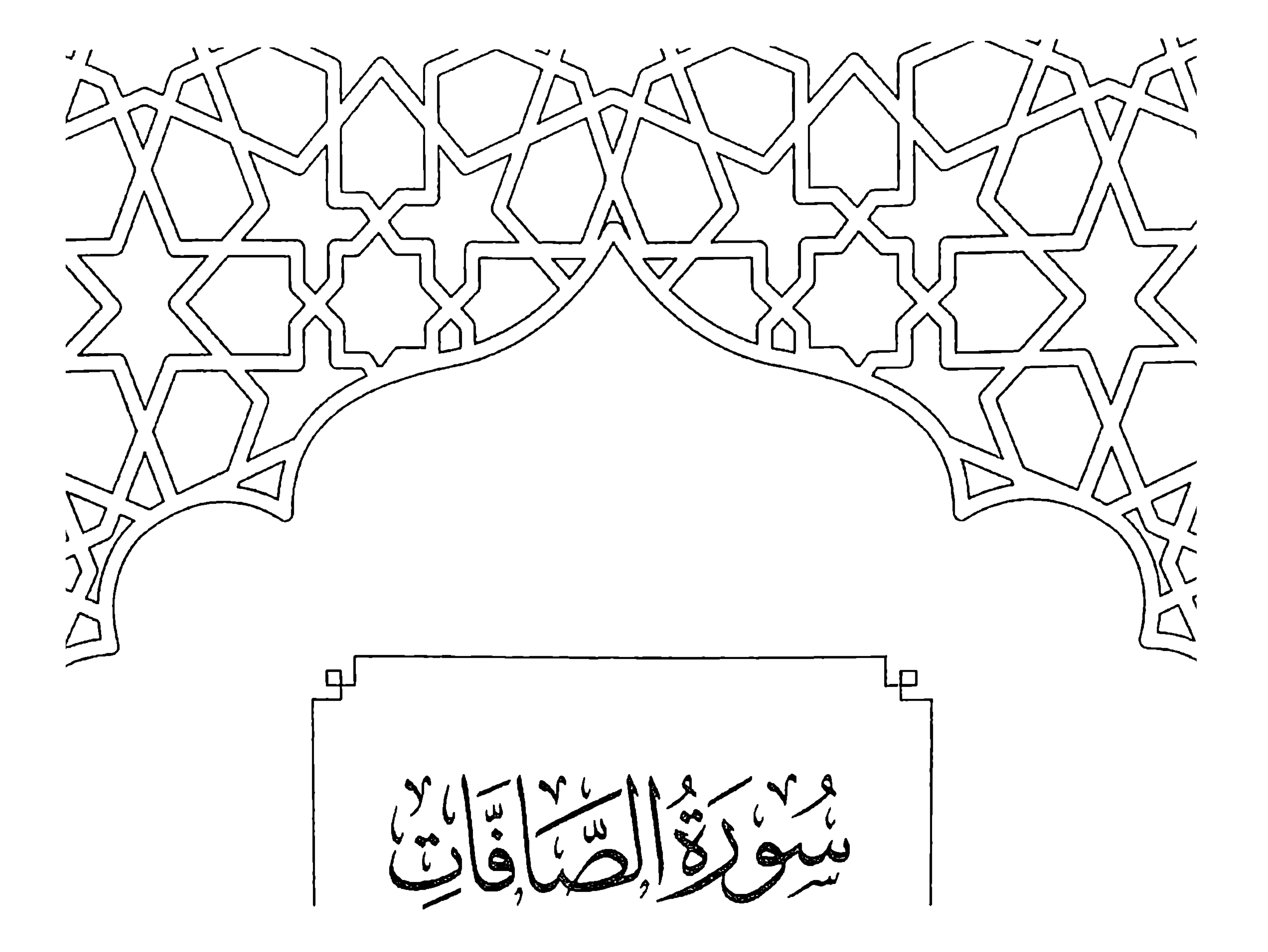
﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ إذ الخلق الثاني في عادة البشر أهوَنُ مِن الخلق الأول.

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴾ وهي ظاهرةٌ من ظواهر هذه الحياة؛ حيث تؤول الأشجار بعد أن كانت زاهِية الخُضرة إلى حطبٍ يابسٍ تستعمل في الوقود، ضمن دورة حياتيَّة يُشبِّهُها القرآن دائمًا بدورة الحياة الإنسانية من موتٍ إلى حياةٍ، ومن حياةٍ إلى موتٍ، ومن موتٍ إلى حياةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ [فصلت: ٣٩].

أمّا الحديث عن وجود شجرتَين يُؤخذ غصنٌ من هذه، وغصنٌ من هذه فتتَّقِدُ النارُ، فلا يتَّسِعُ له السياق؛ لأن السياق يتحدَّث في إطارٍ أوسع، وفي تسلسُلٍ مختلف، قصد منه الإشارة إلى بيان قانون الحياة والممات في هذا الخلق، والله أعلم.

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ بمعنى أنَّ الله لا يحتاج إلى الوسائل والوسائط، ولا إلى المعامل وهندسة الصناعات، وإنَّما أن تتوجَّه إرادتُه إلى تكوين الشيء الذي يريده فيكون، وهذا فيه دليلٌ آخر على البعث مستندٌ إلى معنى الربوبيَّة والألوهيَّة، فالله الخالق لكلِّ شيءٍ كيف يُعجِزُهُ شيء؟

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ أي: تقدَّسَ وتنزَّهَ الله الذي بيده مُلك كلِّ شيءٍ، وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه وعدٌ للمتقين، ووعيدٌ للكافرين، وهو خطابٌ لِمَن ذكَرَهم الله تعالى بهذَين الوصفَين في قوله: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾، وقوله: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾، والله أعلم.



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

المجلس الثامن والتسعون بعد المائة

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

من الآية ﴿١ - ٧١﴾

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾

سورة الصافَّات سورةٌ مكيَّةٌ تتناول طبيعة الصراع القائم آنذاك في مكة بين التوحيد والشرك، وكلّ آياتها إنّما تدور حول هذا الموضوع، وتعرضه بأساليب متنوعة، فيها المُحاورة المُباشرة سؤالًا وجوابًا، وأخذًا وردًّا، وفيها ضربُ الأمثلة من قصص النبيين وأقوامهم، وفيها كذلك انتقالات سريعة تعرِضُ لنا مشاهد من الآخرة مُتضمِّنة لحوارات التحسُّر والتندُّم، وسنتناول هذه المشاهد والمعاني بحسب تسلسُلِها في هذه الآيات، وكما يأتي:

أولًا: يؤكِّدُ القرآن في مُستهلِّ السورة وحدانيَّة الله تبارك وتعالى بجملةٍ من المؤكِّدات؛ منها: القسم، ومنها: حروف التوكيد وأدواته المعروفة في اللسان العربي ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾.

ثانيًا: يُشير القرآن إلى مصداقيَّة الوحي في كلِّ ما يُشرِّعُه أو يُخبِرُ به، وتفرُّده أيضًا بنقل الحقائق الغيبيَّة، وفي هذا تخليصٌ للعقل البشري من لَوَثِ الخرافة والأساطير، وأعمال السحر والتنجيم والشعوذة ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

ثالثًا: يدعو القرآن المشركين إلى النظر في هذا الخَلق العظيم وفي خَلق أنفسهم أيضًا، ففي هذا بُلغةٌ لمن أراد الهداية ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

رابعًا: يُبيِّنُ القرآن أنّ سبب ضلال هؤلاء إنّما هو الاستهزاء وأخذ الأمور بمأخذ السخرية واللهو والعبث ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم يربط القرآن بين هذه النظرة اللاهية العابثة وما فيها من سُخرية واستهزاء بأصل الداء

العُضال والذي هو التكبُّر البغيض الذي يُعمي ويُصم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ ثمّ التعصُّب لموروث الآباء والأجداد دون نظرٍ أو تمحيصٍ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

خامسًا: يعرض القرآن موقف المشركين من الآخرة، في إشارةٍ إلى أنّ هذا الموقف وما فيه من إنكارٍ ليوم الحساب هو الذي يقودهم إلى السخرية واللهو والعبث في حياتهم وفي القضايا المصيريَّة المطروحة أمامهم ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

سادسًا: يردُّ القرآن عليهم بأنّ يوم الحساب آتٍ لا محالة، وأنّهم هناك سيندمون وسيتلاومون ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

سابعًا: ينتقلُ السياق هنا لعرض صورةٍ من صور الآخرة فيها بيان لعاقبة الفريقين: الكافرين والمؤمنين، وهذا أسلوبٌ قرآنيٌّ مُتكررٌ لدفع القلوب ترغيبًا وترهيبًا للنظر الجاد، والتفكير الهادف قبل فوات الأوان ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾

بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾.

ثم يعود القرآن وفي مَعرِض المقارنة لينقل صورةً مختلفةً تمامًا عن صورة هذا النعيم: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾.

ثامنًا: وفي هذا السياق ينقل القرآن مشهدًا فريدًا، يتحاورُ فيه المؤمنون وهم في غَمرة السعادة والحُبُور، مشهد يتذكَّرون فيه دنياهم وما كان فيها مِن صراعٍ، فينهض أحدهم ليُطلِعَهم على قرينٍ له كان على الباطل، وكان يجهد نفسه لأخذ صاحبه معه لولا أن نجَّاه الله، فيراه في سواء الجحيم.

نَعَم لقد كانا قرينَين، لكن لكلِّ واحدٍ منهما مشربه ومذهبه، فافترقا هناك أيّما افتراق ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

تاسعًا: يدعو القرآن كافة الناس إلى هذا الفوز العظيم، وإلى العمل الجاد للحاق بركب الصالحين، وعباد الله المُخلَصين، وهي الغاية العمليَّة لتلك الصور وتلك المشاهد الغيبية التي ينقلها لنا القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ يُقسِمُ الله بالملائكة ويذكر بعض صفاتهم؛ فالصَّافَّات: جماعات الملائكة التي تقِف صفوفًا منتظمة، وهو مشهدٌ يُوحي بالجلال والروعة والنظام، وإنْ كنّا لا ندري عن حقيقة تلك الصفوف وهيئتها وغايتها، فليس ذلك مطلوبًا منّا، ولا يتصل بوظيفتنا نحن على هذه الأرض، فإيحاءات الصورة الكليَّة تكفي.

أما الزاجرات والتاليات، فالظاهرُ أنّها جماعات الملائكة التي تنزل بالذِّكر، وهو الوحي، وقد عطَفَ العام على الخاص؛ تنبيهًا على أهميَّة الخاص، فالوحي جاء لغاياتٍ كثيرةٍ، من أهمها: زجر الناس عن الشرك، والإثم، والظلم؛ ولذلك قدَّمه.

وقد يأتي الزجر بمعنًى آخر، وهو الصيحة لإماتة الناس جميعًا، ثم الصيحة لبعثهم؛ حيث سمّاها القرآن: زَجْرة، كما في الآية الآتية: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ ومعلومٌ أنَّ هذا من عمل الملائكة أيضًا.

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ المطالِعُ المختلفة للنجوم والكواكب، ومنها: حركةُ الشمس التي نراها بأعيننا كلَّ يوم، فلكلِّ يومٍ مشرِقه، كما أنَّ لكلِّ يومٍ مغرِبه، ونصَّ على المشارق دون المغارب؛ لدلالتها عليها باللزوم، وتنبيهًا على أهمية المشارق؛ لأنَّها بداية كلِّ يوم، وفيها الحياة والنشاط، والانبِعاث للعمل.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ تنبيهًا إلى قيمة الجمال والزينة، وفيه إشارة لمعنى المشارق أيضًا.

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ يخبر الله تعالى أنَّ النجوم والكواكب محروسة بنظام الله وناموسه الذي لا يسمح للشيطان أن يَرقَى فيها لاستراق السمع، أو التشويش على الوحي، والمقصود العملي

بهذا الإخبار أنَّ الشياطين لا يعلَمون الغيب، وأنَّ مصدر الغيب الوحيد إنَّما هو الوحي، والمارد: المُتمرِّد، والواصِب: الدائِم، والمقصود به هنا: العذاب الدائم في الآخرة.

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ صورة لما يحصل في الفلك العلوي؛ حيث تحاول الشياطين أن تطَّلع على شيءٍ من ذلك العالم الغيبي، فتردعها الشهب.

وليس للعقل البشري قدرة على تكييف هذا الشيء؛ إذ إنَّ إدراك الكيفيَّة كما هي ليس مطلوبًا، وقد لا يكون نافعًا أيضًا، وإنّما المقصود التيقُّن من أنَّ الشياطين ممنوعون من الغيب، وهذا يكفي، والثاقب: صفة للشهاب، وفيها معنى السرعة والتوهُّج.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي: سَلْ هؤلاء المشركين.

﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾ أي: من طِينٍ مُتماسِكٍ لَزِجٍ.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ أي: إنَّك تتعجَّب يا مُحمَّد من تكذيبِهم لك، وأنت الصادقُ الأمينُ.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي: يُبالِغُون بالسخرية والاستهزاء.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يسألون استنكارًا واستهزاءً بعودتهم إلى الحياة كرَّة ثانية بعد أن يُصبِحوا ترابًا وعظامًا، ثم يتساءلون عن آبائهم الأولين، لأن إعادتهم إلى الحياة - بمنطقهم - أكثر غرابة واستحالة؛ لطول العهد، وضياع قبورهم ورُفاتهم.

وكلمة (أَوَ) مركبة من: همزة استفهام، وواو عطف، كأنَّهم يقولون: أئِنَّا لمبعوثون وآباؤنا أيضًا، ثم قدَّم الهمزة؛ تجنُّبًا لثِقَل اللفظ، والله أعلم.

﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ صاغِرُون.

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ هي الصيحة الثانية؛ إيذانًا بالبعث وعودة الحياة من جديد.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ يوم القضاء والحكم بين الخلائق.

﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: وأشباهَهم ومَن كان يُناصِرُهم ويُشايِعُهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هذا قولُ الأتباع للمتبُوعين في ذلك الموقف العَصِيب، يقولون لهم: إنَّكم كنتم تُزيِّنُون لنا الباطل، وتأتونَنا من الجهة التي نأمَنُكم فيها ولا نشُكُّ بنُصحِكُم.

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾ هذا ردُّ المتبُوعِين على أتباعهم، يرُدُّون اللائِمةَ عليهم، ويقولون لهم: إنَّه لم يكن لنا عليكم حُجَّة نُلزِمُكم بها، ولكنَّنا دعَوناكم فاستَجبتُم لنا.

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ لأنَّكم كنتم مثلنا في الكفر والطغيان.

﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لمبدأ العدل الإلهي المطلق.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنَّهم لم يدخلوا أصلًا في الخطاب المُتقدِّم: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ وفائدة الاستثناء هنا: المقارنة بين الذين يستحِقُّون العذابَ الأليمَ، وبين عباد الله المُخلِصِين الذين هم في جنَّات النعيم.

﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾ من عينٍ جاريةٍ لا تنقَطِع، والمقصود بالكأس هنا: كأس الخمر، وهي خمر الجنَّة الآتي وصفُها.

﴿بَيۡضَآءَ﴾ وصفٌ للون الخمر التي في الكأس.

﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ لا تذهب بالعقل، ولا تضرُّ بالصحة.

﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: لا يُصرَفون عنها، بمعنى أنَّها موفورة لهم متى شاءوا.

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾ أي: الحُور العين، ووصفهنَّ بأنَّهنَّ قاصِرات الطرف بمعنى أنَّهنَّ حييَّات فلا يُحدِّقن بوجوه أزواجهنَّ، بل ينظُرن إليهم مِن طرفٍ حَيِيٍّ، مع أنَّهنَّ واسِعات العيون، وهذا معنى قوله: ﴿عِينٞ﴾، وهذا أَولَى مِن تفسير مَن فسَّرها بأنَّهنَّ

قاصِرات الطَّرف على أزواجهنَّ، فلا يتطلَّعنَ إلى غيرِهم؛ فالجنّةُ ليس فيها ما يستوجِبُ مثلَ هذا التحرُّز، والله أعلم.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ هذا تشبيهٌ معروفٌ عند العرب، يُشبِّهُون المرأة الحسناء ببيض النعام، فالنعامة تحفرُ لبيضها في الرمل، وتفرش له من ريشها الناعم، فتخرج شديدة اللَّمَعَان، ناصِعة البياض، مُصانة من الدَّرَن واللَّوَث، ومنهم من يُطلِق البيض المكنون على اللآلئ المكنونة في الصدف.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ هؤلاء هم أهل الجنَّة، يتسامَرون ويأنَس بعضهم ببعض.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾ كان لي صاحب في الدنيا.

﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالبعث، فصاحِبُه كان كافرًا، وكان يُجادِلُه في عقيدته.

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمحاسبون بعد الموت، يسألُ سؤالَ المُستنكِر لا المُستفهِم.

﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ هذا قول المؤمن لأصحابه المؤمنين، يدعوهم إلى الاطلاع على أهل النار، والظاهر من هذا أنَّ أهل الجنَّة بإمكانهم الاطِّلاع على النار ومَن فيها.

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: رأى قرينَه الذي كان يُجادله في الدنيا عن البعث، رآه وسط النار.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ يقول له: لقد قاربت أن تُهلِكَني معك.

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي: لولا الإيمان - وهو أعظم النعم - لكنتُ مُحضَرًا معك في النار.

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ الإشارة إلى نعيم الجنَّة، والنُّزُل ما يُقدَّم للضيف.

﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وهي شجرةٌ خبيثةٌ أُعِدَّت طعامًا لأهل النار.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴾ والفتنةُ هنا بمعنى: المِحنَة والعذاب، وفيه أيضًا أنَّها سببٌ لفتنتهم وإعراضهم في الدنيا؛ لأنَّهم قاسُوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، فكذَّبُوا القرآن، وأنكرُوا وجودَ الشجر في النار؛ لأنَّ النار ستُحرِقُه.

﴿ إِنَّهَا شَجَـرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: في قعر جهنَّم، أعاذَنا الله منها.

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ شبَّه الغائب بالغائب، فنحن نجهَل الشجرة وطلعها، ونجهَل الشياطين ورؤوسهم، إلّا أنّ المقصود واضِحٌ من هذا التشبيه، وهو حصول حالة الاشمئزاز، والنُّفرة عن جهنَّم وما فيها، وهذا يكفِي لِمَن كان له لُبٌّ، فمن صدَّقَ بالخبر كما هو، وعمِلَ بمقصوده فقد أبرَأَ الذمَّة، أما الذين يبحَثُون في كُنهِ الغيب وكيفيته فقد شطُّوا بعيدًا عن مقصد القرآن، وأشغَلُوا أنفسَهم فيما لا طائل منه.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي: هؤلاء الذين كذَّبوا بها وبالبعث عمومًا، سيأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي: يخلِطُون معها شيئًا من الماء الحار.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: بعد شُربهم من ماء الحميم، وكأنَّ الحميم في مكانٍ آخر، ويُؤكِّدُ هذا قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤]، والله أعلم.

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ أي: وجدوا آباءهم على الشرك.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يُسارِعُون في الشرك؛ تعصُّبًا لما ورِثُوه عن آبائهم دون تمييزٍ ولا وعيٍ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

في خِضَمِّ الصراع بين الحقِّ والباطل، وبين التوحيد والشرك، والذي كانت تشهَدُه مكة وأطرافُها، يعرِض القرآن لبُعدٍ آخر في هذا الصراع، إنَّه البُعد التاريخي الذي يُؤكِّد عُمقَ هذه الرسالة وعُمقَ حركتها الدعويَّة والإصلاحيَّة على يد الأنبياء ﷺ وأتباعهم، في مُقابل تشابه المواقف التي تجمع هؤلاء المُعانِدين على اختلاف أماكنهم، وتعاقُب أجيالهم، فهما طريقان لا يلتَقِيَان، وعلى العاقل أن يختار واحدًا منهما، وأن يتحمَّل نتيجةَ هذا الاختِيار:

أولًا: يعرض القرآن الصورة الكلِّيَّة لهذا البُعد التاريخي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بمعنى أنّ كلَّ النماذج الآتية إنّما هي نماذج تفصيليَّةٌ تُؤكِّدُ هذه الصورة الكلِّيَّة وتُرسِّخُها.

ثانيًا: يُلخِّصُ القرآن قصَّة نوحٍ ﷺ مع قومه: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

ثالثًا: ثم يعرِض القرآن قصَّة إبراهيم ﷺ مع تأكيد الصلة بين الرسالتَين ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: ممَّن مشَى على نهج نوحٍ واتَّبع أثَره، وفي هذا تأكيد وحدة الطريق لكلِّ الأنبياء ﷺ.

وتبدأ قصة إبراهيم بحواراته العميقة مع أبيه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلمّا لم يُجْدِ الحوار نفعًا، ذهب ليُقيمَ عليهم الحُجَّة، ويُريهم بأعينهم عجزَ آلهتهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وكان هذا كافيًا لتحريك عقولهم، ولكنَّهم أبَوا إلّا العناد والمكابرة واللجوء إلى منطق القوَّة والانتقام ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

هنا قرَّر ﷺ بعد أن نجَّاه الله من نارهم أن يُهاجر بعيدًا عنهم، وهناك في مهجره وهَبَ الله له على كِبَره غُلامًا حليمًا، لتبدأ قصة أخرى في التضحية وإخلاص العبوديَّة لله ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

رابعًا: ثم يلخِّص القرآن قصة موسى وهارون ﷺ، مُذكِّرًا بأهمية التوراة وأنها الكتاب المُستَبِين، وهذه خصوصيةٌ - لا شكَّ - في هذا النموذج الفريد ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

خامسًا: يلخِّص القرآن أيضًا قصة إلياس ﷺ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

سادسًا: ويُلخِّص أيضًا قصة لوطٍ ﷺ مُذكِّرًا بموقف امرأته، في إشارةٍ إلى أنَّ الأمر أمر عقيدةٍ ورسالة، وتمايُز بين الحقِّ والباطل، وليس هناك مجال لاختلاط الصفوف، أو تداخل الخنادق ولو كان في الطرف الآخر القريب أو النسيب ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

سابعًا: ثم يختم القرآن هذه السلسلة المباركة بقصَّة يونس ﷺ الذي أرسله الله إلى مائة ألفٍ أو يزيدون فآمنوا به، وهذا نموذجٌ مختلفٌ عن كلِّ النماذج السابقة، وهو النموذج الذي يفتح البابَ للأمل العريض، وربَّما كان هذا مقصودًا لختم هذه السلسلة به ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي: أرسلنا في الأولين رسلًا مُنذِرين.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي: عاقبة تلك الأقوام الذين كذَّبُوا هؤلاء الرسل، ثم شرَعَ بتفصيل هذه الأقوام.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ يُثني الله تبارك وتعالى على نفسه؛ إذ استجابَ لنوحٍ ﷺ دُعاءَه، ونجَّاه وأهلَه من ذلك الطوفان الذي أهلَكَ الله به قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ فلم يبق من بني آدم إلا ذرية نوحٍ؛ ولذلك يقال: إنّه أبو العالم الثاني، والظاهر أنّ المؤمنين الذين نجّاهم الله مع نوح لم يخلّفوا ذريّة، وليس معروفًا سبب ذلك، وليس معروفًا عددهم أيضًا سوى أنّهم قليل ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي: تركنا له ذِكرًا باقيًا في الأجيال المُتعاقِبة.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: ممن مضَوا على نَهجِه وسُنَّتِه في التوحيد وفي الدعوة إليه، وفيه تأكيد لوحدة الرسالات السماويّة.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: أقبل على ربّه بقلبٍ نقيٍّ خالٍ من الشرك والظلم.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ تأكيد أنَّ عبادة الأصنام ليست رأيًا ولا فكرةً أو نظرًا، وإنّما هي الكذب الذي سارَ الناس خلفه دون وعيٍ أو تفكيرٍ.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يسأل إبراهيم ﷺ قومَه عن ظنِّهم بربِّ العالمين؛ إذ لو كانوا يعرفونه حقَّ معرفته، ويقدرونه حقَّ قَدره ما اتخذوا من دونه أندادًا من حِجارة يصنعونها بأيديهم.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ بمعنى أنّه فكَّر مليًّا خاليًا بنفسه، كحالِ مَن يتأمَّل النجوم، والعرب تُشبِّهُ المُستغرِق بتفكيره بالناظر في النجوم؛ لأنَّ الذي ينظر فيها يستغرِقُ فيها وينسَى ما حولَه، ولا مانع أيضًا أنّه ﷺ كان يتأمَّل في النجوم وفي سعة هذا الكون العظيم، ثم ينظر إلى هذه الأصنام الصغيرة الحقيرة، فتهونُ عليه، ففكَّر بإهانَتِها في عيون أهلها، وهكذا بدأَت قصته في تحطيم الأصنام.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ تعلَّل بمرضه عن الخروج مع قومه في إحدى مناسباتهم، والظاهر أنّه لم يكن مريضًا، وإنّما هي حيلةٌ اتخذها ليخلو بأصنامهم، وكلمة سَقِيم تحتمل المرض وتحتمل الضعفَ والهمَّ ونحو ذلك، فورَّى بذلك توريةً.

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: خرجوا وتركوه وحيدًا.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ يطرح إبراهيم أسئلته هذه على الأصنام تهكمًا واستهزاءً بها وبأهلها الذين يعبدونها من دون الله، ويرجون منها ما لا يرجونه من الله.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: مالَ عليهم بيمينه حتى حطَّمَهم.

﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يُسرِعون.

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في النار التي أوقدوها لحرقه.

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ إذ ردَّ الله كيدهم ونجَّاه من نارهم.

﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ هو إسماعيل على أبيه وعليه السلام؛ حيث ساقَ القرآن هنا قصَّتَه وقصةَ فدائِه، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أي: شبَّ وأخذَ يمشي مع أبيه.

﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ ورؤيا الأنبياء وحيٌ، بدلالة قوله تعالى الآتي: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ولم يكن هذا الأمر الإلهي مقصودًا بذاته، وإنَّما لتقديم نموذجٍ للتضحية وإخلاص الطاعة لله، والاستسلام لأمره ﷻ؛ ولذلك بعد استسلامهما لهذا الأمر ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، جاء نداء الله الكريم الرحيم: ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ ابتلاءٌ كبيرٌ للأبِ في تغليب حبِّ الله على حُبِّه لولده، وابتِلاءٌ كبيرٌ للابن في تقديم نفسه قُربانًا لله وتنفيذًا لأمره.

﴿ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ لم يُبيِّن القرآن صفةَ هذا الفِداء، ولا يبعُد أنَّ الله أمَرَ إبراهيم ﷺ بأن يذبح كبشًا أو نحوه، ووصف الكبش بالعظيم ليس لذاته، وإنَّما لأنَّه كان فداء نبيٍّ كريم، والله أعلم.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي: تركنا له ذِكرًا باقِيًا في الأجيال المُتعاقِبة.

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾ هو الولد الثاني لإبراهيم بعد إسماعيل، ومعلومٌ أنّ إسحاق من سارة ابنة عمِّ إبراهيم، وأنّ إسماعيل من هاجر عليهم السلام أجمعين.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي: أنعمنا عليهما.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ مِن ظُلْمِ فرعون وتعذيبه لهم بتقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ الذي فيه البيان والهدى والنور، والمقصود به التوراة.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي: تركنا لهما ذكرًا باقيًا في الأجيال المُتعاقِبَة.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لم يَرِد في القرآن تفصيلٌ لقصته ولطبيعة قومه، والأَوْلَى الوقوف عند حدِّ النص، والبحث في مقصود الخبر وغايته العمليَّة والتربويَّة.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ وهو اسم وثنٍ أو صنمٍ كان قوم إلياس يعبدونه من دون الله؛ ولذلك قال: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي: لمجموعون للحساب يوم القيامة.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ هو استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنّ الذين كذَّبُوا إلياس ليس فيهم عبادٌ مُخلِصُون، وفائدةُ هذا الاستثناء: المقارنة بين حال المؤمنين وحال المُكذِّبين.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ هو إلياس نفسه بدلالة السياق، ولعلَّه اسم ثانٍ كان يُدعى به، أو أنّه أُتِيَ به جمعًا للدلالة عليه وعلى من اتبعه وناصَرَه.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ هي امرأةُ لوطٍ، واستُثْنِيَت من أهل لوطٍ الذين نجَّاهم الله مع لوط ﷺ؛ حيث كانت مُواليةً لقومها المشركين، فعمَّها العذاب، والتنصيص عليها في هذه الومضة من قصة لوطٍ؛ للدلالة على أنَّ النسب لا يُغني شيئًا مِن أمْرِ الله.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أنكم تمرُّون على مساكن قوم لوطٍ في ذهابكم وإيابكم، في ليلكم أو نهاركم، وكان عليكم أن تعتبروا بحالهم وما كان مِن شأنهم.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: هرب ولم يصبر على دعوة قومه، وسمَّاه إباقًا؛ لأنَّه خرج من غير إذنٍ، فكلُّ عبدٍ خرج من غير إذنِ سيده يقال عنه: أَبَق، والفلك المشحون: السفينة المملوءة بالناس أو البضائع.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ حيث أوشَكَت السفينة على الغرق، فألقَوا ما فيها مِن متاعٍ، ثم اقترعوا لإلقاء واحدٍ من الركَّاب لينجو الآخرون، فظهرت القرعة باسم يونس ﷺ، فكان من المُدحضين أي: الخاسرين في القرعة، وكان لله في هذا حكمةٌ عظيمةٌ؛ حيث أرجعه الله إلى قومه فآمنوا به.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مُستحقٌّ للملامَة على خروجه عن غير إذنٍ مِن ربِّه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لبقِيَ في بطن الحوت ولم يخرج منه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التسبيح منجاة من الضيق، وقد كان دعاؤه ﷺ والذي خلَّده القرآن الكريم: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وهو دعاءٌ جمع بين التوحيد الخالص، وتسبيحه لله تعالى بمعنى: تنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به، واعترافه بتقصيره في جناب ربِّه سبحانه؛ حيث اجتهد فخرج من قومه من غير أمرٍ ولا إذنٍ مِن ربِّه.

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: فألقاه الحوت بتقديرنا على وجه أرضٍ جرداء وهو عليلٌ وضعيفٌ.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ واليَقطِين: القَرْع، وهي شجرةٌ ذات أوراقٍ كبيرةٍ سريعة التمدُّد، ولعلَّ المقصود أنَّه استظلَّ بها، أو أنَّها التفَّت على جسَدِه فستَرَتْه، وربَّما أكل من

ثمرها أيضًا، ولم يُفصِّل القرآن مُدَّة مُكثِه في بطن الحوت، ولا مُدَّة مُكثِه في العراء أو تحت ظلِّ هذه الشجرة، فالعِبرة أعلى وأسمَى من هذه التفاصيل.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾هم أهل المُوصِل، والآية تُشير إلى أنَّها كانت مدينة عامرة منذ ذلك التاريخ.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ هذه ميزةٌ لقوم يونس ﷺ من بين كلِّ النماذج المُتقدِّمة.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾

تتمة الحوار مع المشركين

بعد هذه السلسة النورانيَّة من النماذج والقصص النبويَّة، عادَ القرآنُ مُواصلًا ومُجدِّدًا حواره مع المشركين:

أولًا: يبدأ القرآن حواره في هذه الجولة بمسألةٍ جزئيَّةٍ، لكنها تؤشِّر بوضوحٍ إلى الخطأ المنهجي الذي يمضِي عليه المشركون في تصوُّراتهم الدينيَّة والغيبيَّة بلا حجةٍ ولا دليلٍ، ولا مسكةٍ من علم ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم يُصحِّحُ القرآن هذا المفهوم الخاطئ وعلى لسان الملائكة أنفسهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ فالملائكة إنَّما يتقرَّبون إلى الله بطاعته

وعبادته، وتسبيحه تعالى وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به.

ثانيًا: وعلى صلةٍ بهذه المسألة، يُعرِّجُ القرآن على مسألةٍ أخرى ليؤكِّد لهم أنّهم ماضون على الطريق الخطأ، وبالمنهج الخطأ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

ثالثًا: ثم يؤكِّدُ القرآن أنَّ هذا النهج القاصر والخاطئ لا يصحُّ أن يكون سببًا بنفسه لغواية الناس وإضلالهم؛ لافتِقاره إلى الدليل والمنطق المُقنِع، أمّا الذين يُفتنون به فإنّما فتنتهم أهواؤهم وشهواتهم، وأولئك أصحاب الجحيم ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

رابعًا: ثم يُذكِّرُ القرآن المشركين بما كانوا يتمنَّونه من نزول الكتاب عليهم، كما هو شأن أهل الكتاب من يهود ونصارى ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا التذكير يُقصد به: بيان أنّهم إنّما يُعادُون القرآن بعد أن أنزَلَه الله عليهم؛ لحسدٍ في أنفسهم، ومرضٍ في قلوبهم، وليس من أجل الْتِباسٍ في الرؤية، أو خطأٍ في النظرة والفكرة.

خامسًا: يُؤكِّد القرآن أنّ عاقبة الصراع ستؤُول حتمًا لصالح المؤمنين، وقد حصل هذا بالفعل بعد الهجرة النبويَّة المباركة، ثم فتح مكة، ثم دخول الناس أفواجًا في دين الله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

سادسًا: يُوصِي الله ﷺ في خِتام هذه السورة نبيَّه الكريم والمؤمنين من بعده بالإعراض عن هؤلاء المُعانِدين المُخاصِمين، وهو الإعراض عن استِفزازاتهم ومكائدهم، وليس الإعراض عن دعوتهم والمحاورة معهم ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فسلامٌ عليك سيدي رسول الله وعلى آل بيتك وصحابتك، ومن سارَ على نهجك وحمل دعوتك إلى يوم الدين، وسلامٌ على إخوانك المرسلين، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

دقائق التفسير

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ سَلْهُمْ.

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ هذا سؤالٌ مركبٌ، كأنّه يقول لهم: إن كنتم تُفضِّلون البنين على البنات، فكيف تخصُّون الله بالبنات بادِّعائكم أنَّ الملائكة بنات الله، وتخصُّون أنفسكم بالبنين؟ وهو سؤالٌ استنكاريٌّ يقصد منه دحض تصورات الجاهلية عن الله، وعن الملائكة، وعن البنين والبنات، وميزان التفاضل في الخلق.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ سؤالٌ يُقصد به التوبيخ، وبيان جهلهم، وافتقار مُعتقداتهم إلى الدليل.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي: ينسبُون لله الولد بادِّعائهم أنّ الملائكة بناتُ الله، فهذا إفكٌ وكذبٌ اختَرَعوه من أنفسهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ توبيخٌ آخر لبيان جهلهم وغفلتهم وجرأتهم على الله، وتسفيهٌ لزعمهم أنَّ الملائكة بنات الله، وبيانٌ لتخبُّطهم وقولهم في الغيب بلا عِلمٍ ولا دليلٍ، ونظرتهم الدونيَّة عن الأنثى، ثم نسبة هذا الدون إلى الله! وكأنّهم بهذا يرَون حالَهم أفضل من حال خالقهم؛ إذ هُم لهم الأولاد البنون والبنات، بينما ينسبون له سبحانه البنات خاصَّة!

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حُجَّة واضحة على دعواكم.

﴿ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ بمعنى أنّ قولهم بأنّ الملائكة بنات الله لا يحتمل الاجتهاد والنظر العقلي؛ إذ هو إخبارٌ عن الغيب، وهذا الإخبار بحاجةٍ إلى الوحي والكتاب المُنزَّل من

السماء، فإذ لم يأتوا بالكتاب فإنّهم الكاذبون.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ هذا تخبُّطٌ آخر من تخبُّطات الجاهلية؛ حيث جعل المشركون بين الله - تعالى عن قولهم - وبين الجنِّ قرابة ومصاهرة، وربما أخَذُوا هذا من بعض العقائد المجوسيَّة التي كانت قريبًا منهم في ناحية العراق وفارس؛ حيث قامت هذه العقائد على وجود إلهٍ للخير وإلهٍ للشر، وهناك غبَشٌ وارتباكٌ في تصوُّر العلاقة بين الإلهَين!

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: مجمُوعون للحساب؛ لأنّهم مُكلَّفُون بالشرائع، ومُمتَحَنون بالعبادة مثل البشر ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزَّه الله وتقدَّس عن هذه الصفات التي يدَّعُونها لله إفكًا وبُهتانًا.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، وفائدته هنا: المُقارنة؛ بمعنى أنَّ أولئك الكاذبين المكذِّبين يصِفُون الله بما لا ينبغي، أمّا عباد الله المُخلَصُون فيصِفُونه بصفاته اللائقة به والثابتة له عن طريق الوحي.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ أي: أنتم وأصنامكم لا تقدرون أن تردُّوا أحدًا عن دينه، ثم استثنى من هو على شاكلتهم فقال: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بمعنى أنّهم لا يقدِرون على غواية أحدٍ إلّا مَن كان مُستعِدًّا للغواية، لاهثًا وراءها.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الْتِفاتة في الخطاب تحكي موقف الملائكة مما نسبه المشركون إليهم، فهم عبادُ لله وقّافون عند أمره ونهيه، وكلٌّ منهم له مقامٌ لا يتعدّاه، وكلُّ مقاماتهم داخِلة في مقام العبوديَّة، فليس المُتقدِّم أو المتأخِّر منهم إلا عبدًا لله.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ تأكيدٌ لما ورَدَ في صدر السورة: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ بمعنى أنّهم يقِفُون صفوفًا بانتظام كما يأمرهم خالقهم، وفي هذا تعبيرٌ عن الأُهْبة والاستعداد الكامل مع الانتظام المُتقَن الدقيق.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ الذين يسبِّحُون الله كثيرًا، ويُنزِّهونه عن كلِّ ما لا يليق به.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ هذه الْتِفاتة أخرى، وتحوُّلٌ في الخِطاب إلى المشركين الذين كانوا يتمنَّون أن ينزِلَ عليهم كتابٌ كما أُنزل على جيرانهم من اليهود والنصارى، وكانوا يُمنُّون أنفسهم أن لو كانوا أهل كتابٍ، لكانوا مُخلِصين لإيمانهم، عامِلين بشريعتهم، فلمّا جاءهم الكتاب كفروا به ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وما ذاك إلا لكبرهم وحسدهم.

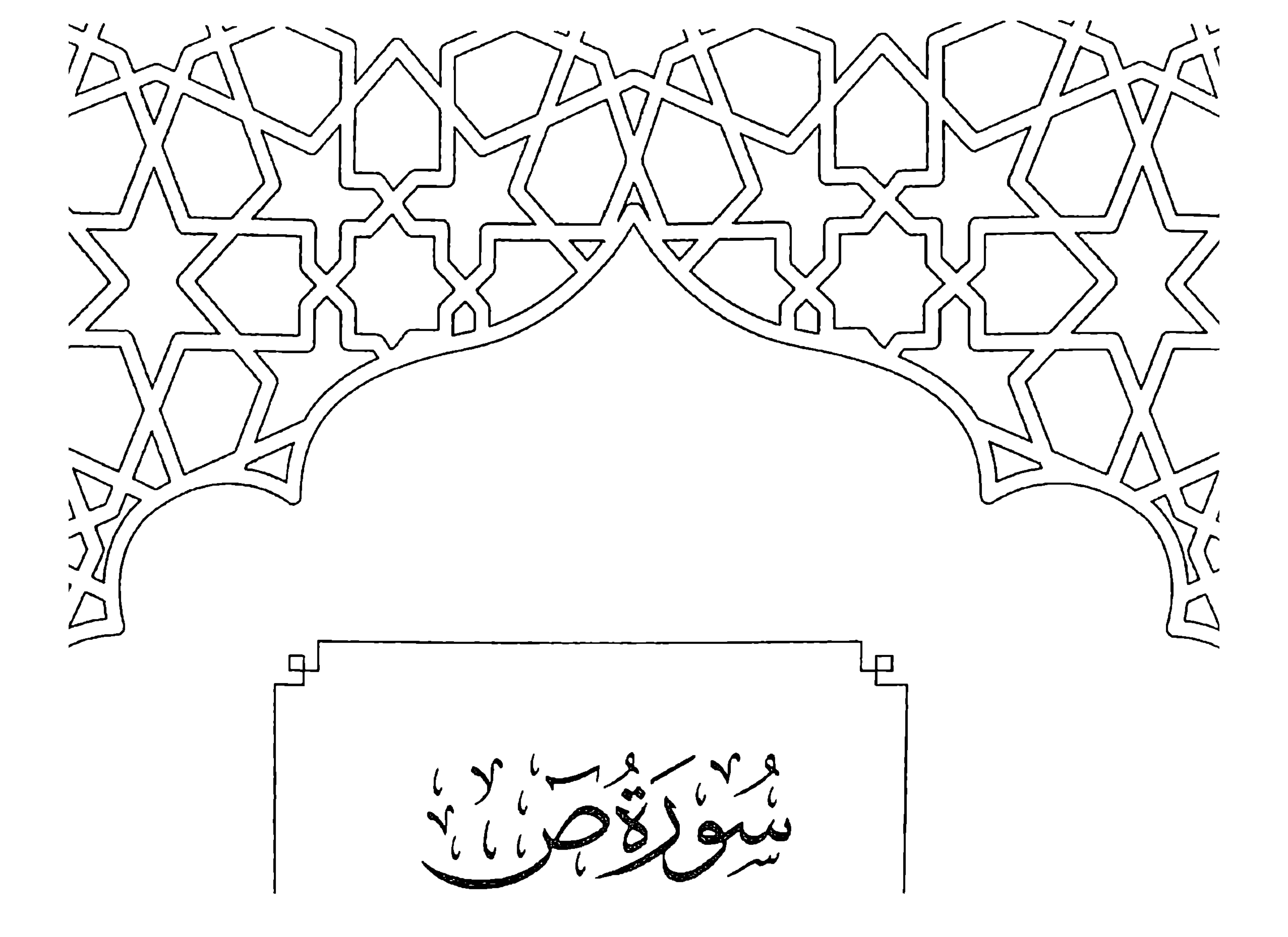
﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ هذا جانِبٌ من تفسير الوعيد السابق: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى أنّ المشركين سيعلَمُون ما يحُلُّ بهم على يد الرسول ﷺ وصحابته الأبرار الذين هم جُندُ الله، وقد جاء الوعيد مسوقًا مساقَ السنَّة الثابتة، فرُسُلُ الله لا تُخذَل، وجُندُ الله لا تُغلَب، وقد تحقَّق هذا الوعيد بفتح مكة وما حولها ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: أَعْرِض عنهم، ولا تُبالِ بما يقولون.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ لوعيده تعالى المُتحقق بالمشركين، وأبصِرهم أي: انظر وارتقب مصيرهم، فسوف يبصرون أي: فسوف يرَون بأعينهم ما توعَّدناهم به.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ مُتكرِّرٌ لوعيد الله لهم وما سوف يَحيقُ بهم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي: تنزَّهَ الله عن كلِّ صفة نَقصٍ، وهو سبحانه العزيزُ ذو القوَّة والقُدرة والمَنعَة، فليس بحاجةٍ إلى شريكٍ، ولا إلى ولدٍ.



سورة ص

المجلس الأول بعد المائتين: عناد المشركين

المجلس الثاني بعد المائتين: ومضات من قصص النبيين

المجلس الثالث بعد المائتين: نهاية الحياة والمصير المحتوم

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

عناد المشركين

موضوع هذه السورة المباركة هو الدعوة الإسلاميَّة في عهدها المكِّي، ومُعاناته ﷺ مع قومه، وفي هذه الآيات وصفٌ لحال المشركين وحركَتِهم التي لا تهدأ للصدِّ عن سبيل الله، ومُحاصَرة الدعوة في مَهدِها، وكما يأتي:

أولًا: استهلَّت السورة ببيان الغاية الكليَّة للقرآن الكريم: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ بمعنى أنّه إنّما جاء ليُذكِّر الناس بما هم عنه غافِلُون.

ثانيًا: لخَّصت السورة موقف المشركين من هذه الرسالة وهذه الدعوة ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ والعزَّةُ معناها هنا: اعتِزازهم بما هم عليه من الكفر والضلال، والشِّقاق معناه: العداوة والبغضاء للحقِّ وأهلِه.

ثالثًا: أشارَت السورة إلى الحسَدِ الذي توقَّد في نفوسهم، فدفعهم لهذا العناد، ولهذه العداوة البغيضة ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾، ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

رابعًا: تنقل السورة حركة الملأِ الدائبة، وتحريضهم وتواصِيهم بالثبات على ما ألِفُوه من دين الآباء والأجداد ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

والملأُ في كلِّ قومٍ هم الذين يُحارِبون الإصلاحَ والتغييرَ؛ لأنّهم يظنُّون أنّ هذا يُفقِدُهم مكانتهم وموقعهم المُتصدِّر في قومهم.

خامسًا: ردَّ القرآن على المشركين مُؤكِّدًا أنَّ الأمر لله، وليس لغيره الخِيَرة في اختيار الرسل، وفي هذا تنبيهٌ آخر على الدافع الأساس لإنكارهم وعنادهم، ألا وهو الحسد ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

سادسًا: ربط القرآن بين موقف المشركين هذا ومواقف الأقوام السابقة المُكذِّبين لأنبيائهم، مُذكِّرًا بهلاكهم وعاقبة أمرهم ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ثم وجَّه الخطاب لُمشركي قريش مُنذِرًا ومُتوعِّدًا ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿صٓ﴾ مِن الحروف المُقطَّعة، وقد فصَّلنا القول فيها أول سورة البقرة.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ يُقسِمُ الله بكتابه المجيد مُبيِّنًا غايتَه الكبرى في تذكير الناس بما هم غافلون عنه من حقيقة الحياة والموت، والحساب والجزاء.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (بل) تفيد الإضراب، ومعناها هنا: إبطال ما قد يتوهَّمه القارئ أو السامع من استِفادة أهل مكَّة من هذا الذِّكر وقد نزل بين ظهرانيهم، فهم بعيدون عن ذلك؛ بسبب اعتِزازهم بكفرهم، وعداوتهم لنبيِّهم.

﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وليس الوقت وقت مَهْرَب حيثُ حلَّ الهلاك بهم.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ هو تعجُّب بمعنى الإنكار والاستغراب؛ حسدًا من عند أنفسهم وتكبُّرًا.

﴿عُجَابٌ﴾ غايةٌ في العجب والغرابة.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ هم أشراف قريش.

﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ فيها معنى العِناد والمطاولة والمُضيِّ في طريق الشرك ومُحاربة الوحي.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: إنَّ هذه الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ لَشَيءٌ يُرادُ منه أمرٌ آخر، وهو انقِيادنا إليه، وخضوعنا لحُكمه ومُلكه، بمعنى أنَّهم يُشكِّكون في غايةِ النبيِّ ﷺ ودعوته.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: الذي يقولُه محمد ﷺ.

﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في آخر ما عهِدناه من الدين، ويقصدون به هنا الدين الموروث عن آبائهم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: ما هذا إلا كذِبٌ.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بمعنى أنّهم يتطاولون كلَّ هذا التطاول؛ لأنَّهم يظنُّون أنّهم في سَعَةٍ من أمرهم، ولا يعلمون أنَّ العذاب بانتظارهم، و﴿لَمَّا﴾ تُفيد نفي الماضي مع توقع حصول ما نفَتْه، كأنّه يقول: إنّهم لم يذوقوا العذاب بَعدُ، لكنَّهم سيذوقُونه.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ سؤالٌ استنكاريٌّ، بمعنى: هل هُم مَن يملك خزائن رحمة الله لكي يُقرِّروا مَن يختارونه للنبوَّة ومَن يستبعدون؟

﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فليصعدوا في السماء إذا كانوا يملكون من أمرها شيئًا.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: ليس هؤلاء المُكذِّبون سوى جُندٍ مُجتَمِعين

لنُصرة الباطل، كالأحزاب الذين كانوا من قبلهم مثل: قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وأنّهم مهزُومُون كما هُزِم مَن قبلهم، وهذه بشارةٌ بهزيمة المشركين، وقد تحقّقَت في بدرٍ إلى فتح مكّة.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ تفصيلٌ لمعنى الأحزاب الواردة في الآية السابقة، وتشبيهٌ لُمشركي قريش بهذه الأقوام.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ الصيحة: نوعٌ من العذاب الماحِق الذي نزل على بعض الأحزاب، وتخويف قريش به جارٍ على مجرى الاستحقاق، بمعنى أنّهم يستحقُّون مثل هذه الصيحة، وليس هذا إخبارًا مِن الله؛ لأنّ خبر الوحي لا يتخلّف.

ويحتمل أنّه تذكيرٌ بالساعة ونفخة الصور التي ستُنهِي هذه الحياة، كأنّه بعد أن توعَّدهم بالهزيمة في بدرٍ وما بعدها، أخذ يُذكِّرُهم بالعذاب الأكبر.

والفَوَاق: وقتٌ محددٌ يعرفه العرب، وهو ما بين حَلْبَتي الناقة، والمقصود أنَّ العذاب إذا نزل بالمشركين فليس فيه مُهلة للتأخير ولا لتدارُك الأمر.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: عجِّل لنا نصيبَنا من العذاب الذي تُهدِّدنا به، والظاهر أنّهم يقولون ذلك استهزاءً وتكذيبًا وتحدِّيًا؛ ولذلك جاء التوجيهُ القرآنيُّ عقِبَ قولَتهم هذه: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

ومضات من قصص النبيين

يأتي التذكير بنماذج من القصص النبوي في هذا السياق؛ تسليةً للنبيِّ الكريم ﷺ الذي يُواجه في مكَّة ما واجهه الأنبياء السابقون مع أقوامهم، وفي النماذج أيضًا توسعة لدائرة الخبرة لدى المؤمنين، وفتح آفاقٍ جديدةٍ واحتمالاتٍ مُتعدِّدة لطبيعة الصراع ومآلاته، وكما يأتي:

أولًا: بدأ القرآن بقصَّة داود ﷺ، مُستهِلًّا القصة ببيانٍ كلِّيٍّ للحكمة من هذا القصص: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وجمع له هنا صفتين عظيمتين: الأَيْد، وهي القوة، والأوَّاب، وأصلها كثير الرجوع، ومعناها: كثير الرجوع إلى الحقِّ والتمسُّك به، ومحاسبة النفس وإلزامها بطاعة الله، وهما صفتان تُكمِّلُ إحداهما الأخرى؛ فالقوة تحمي الحقَّ وتُمكِّنه، والحقُّ يُهذِّبُ القوة ويضَعها في مكانها الصحيح، وذِكرهما في هذا السياق توجيهٌ للنبيِّ الكريم ﷺ لاستحضارهما في مواجهة الباطل الذي يُحيط بدعوته في مكَّة وما حولها، بمعنى أنّ الأُمَّة المُسلمة ينبغي أن تعدَّ العُدَّة لهذه المواجهة ولحمل الدعوة والتمكِين لها، والله أعلم.

ثم ذكر إكرام الله ﷻ له: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

والغاية من ذِكرِ هذه النعم: البِشارة لسيِّدنا محمد ﷺ ولأصحابه الأبرار ﷺ بالنصر والتمكين، والإشارة بهذه البشارة مأخوذة من صدر هذه القصة: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، والله أعلم.

ثم عرَّج القرآن على مشهدٍ مُحددٍ في حكم داود ﷺ، خلاصته: أنَّ خصمَين دخَلَا على داود يحتكِمان إليه، فقضى بينهما ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

والمشهد فيه عبرةٌ كبيرةٌ لمعالجة ما يطرأ بين الشركاء والأقربين من منازعات ومنافسات،

وقد أضافَت بُعدًا آخر لرسالة الأنبياء ﷺ، وهو البُعد المُتعلِّق بإدارة الجماعة المؤمنة وحلِّ مشاكلها الداخليَّة بالقسط والعدل، وكما أنَّ مُواجهة الكفر والباطل فيه اختبارٌ للمُؤمنين ولصلابة إيمانهم، فكذلك الحكم بالعدل بين المؤمنين أنفسهم فيما يختَصِمُون فيه؛ ولذلك عقَّبَ القرآن على هذا المشهد بقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

ولا يبعُد أيضًا أن يكون في هذا المشهد تأديبٌ من الله لنبيِّه داود ﷺ في دقائق حكمه مما لم يشأ القرآن أن يُقحِمَنا فيه؛ لأنَّ الحكمة أكبر من تلك التفاصيل، فينبغي الوقوف عند هذا.

أمّا ما تنقله بعض كتب التفسير من قصصٍ طويلةٍ عريضةٍ، وافتراضاتٍ لها أوَّل وليس لها آخر، فكلُّ هذا لم يثبُت في كتابٍ ولا في سُنَّةٍ صحيحةٍ، وغالبهُ نُقُولٌ عن كتب اليهود وأخبارهم مما لا يصحُّ الاستدلال ولا الاستِشهاد به، وبعضها مُسيءٌ لمقام الأنبياء ﷺ مما لا يتناسب إلّا مع عقائد اليهود ونظرتهم إلى أنبيائهم التي تُجوِّز فيهم ما لا يجوز على آحاد البشر وعامتهم.

ثم ختم القرآن قصَّة داود ﷺ بهذا التوجيه الحاسم: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

إنّها مسؤوليَّة الحاكم فيما استرعاه الله من رعيَّةٍ، وفيما حمَّلَه من أمانة، والخطاب وإن كان مُوجَّهًا إلى داود ﷺ، لكن المقصود به توجيهًا وتكليفًا كلّ من تولَّى مسؤوليَّة عامة، وأعطاه الله سُلطةَ الحكمِ بين الناس، والله أعلم.

ثانيًا: بعد قصة داود شرَعَ القرآن بذكر قصة سليمان ﷺ، وهي قصَّة في الحكم والمُلك أيضًا، وكأن في هذا كلّه تمهيدًا للمُلك الذي سيمنَحه الله لنبيِّه محمد ﷺ ولأُمَّته.

تستهلّ قصة سليمان ببيان أنّه من نِعم الله على أبيه داود، وأنّه قد ورِثَ عنه صفاته الحميدة كما ورث عنه الحكم ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ثم تُعرِّج القصة على مشهدَين اثنَين: الأول مُتعلِّقٌ بمظهرٍ من مظاهر القوة والمُلك؛ حيث عُرِضَت عليه خَيلُه، وهي التي رُبَّما لا تُحصى عددًا، فأخذ يمسَح بأعناقها وسِيقانها حُبًّا لها، واعتزازًا بها، وهو في هذه الحال يتذكَّر أنّ هذا الخير الذي عنده ينبغي أن لا يشغَلَه عن ذِكر الله؛ فالموازنة بين المُلك والعبادة، أو بين القوة والمحاسبة - كما مرَّ في صفة أبيه داود - شرط في الحكم الرشيد.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ هو من صَميم صفة الأوَّاب، بمعنى أنَّه كثير الأَوْب إلى الله، كثير المحاسبة لنفسه.

أمّا ما ورد من أنّه ذبح كلَّ هذه الخيول عقوبةً لنفسه لأنَّه كان قد فاتَه وقت صلاةٍ بسبب انشغاله بالخيل، فهذا لا يستقيم في ميزان الشرع، وفي فِقهِ الحكم والملك، فالخيولُ هذه لها وظيفتها في حماية البلاد التي يحكمها، وقَتلُها لغرض التفرُّغ للذكر والعبادة ليس وارِدًا، والله أعلم.

أما المشهد الثاني، فقد لَخَّصته آية: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأقرب ما ورد في هذا: أنّه ﷺ عزَمَ على أن يأتي زوجاته ليَلِدْنَ له أولادًا يُعينونه في المُلك، ويُقاتِلُون في سبيل الله، فشاءَ الله غير ذلك، فلم يكن له إلا سِقطٌ ليس فيه رُوح، وفي هذا تأكيدٌ لوحدانيَّة الله في الخلق، وأنّ العبد مهما بلَغَ من المنزلة عند الله، ومهما أعطاه الله من المُلك والقوَّة فإنَّ المُلك الحقَّ لله وحده.

وقد أخرج البخاري حديثًا في هذا، وإن لم يأتِ في معرِضِ تفسير هذه الآية، لكنَّه الأقربُ في تفسيرها[1]، والله أعلم.

---

(١) نص الحديث: عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ سُلَيمَانُ بْنُ دَاوُدَ ﷺ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ - أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ - كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ».

بعد هذا الدرس العميق في التوحيد، لجأ سُليمان ﷺ إلى ربِّه يسأله مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وهو سؤال العبد الأوَّاب المُتواضِع لربِّه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فأعطاه الله المُلك الواسع، وسخَّر له الكائنات التي لم تُسخَّر لسواه ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

وهنا إشارةٌ عظيمةٌ وعميقةٌ أيضًا: أنَّ إخلاص العبودية لله لا يُعارِضُه طلب المُلك، على خلاف ما يتوهَّمُه بعض المُتديِّنين في مفهوم العبادة والزّهادة.

ثالثًا: انتَقَلَ السياقُ إلى نموذجٍ آخر مختلف تمامًا عن النموذجَين السابقَين، إنّه النبيُّ الذي لم يُبتَلَ بالحكم والمُلك، وإنّما ابتُلِيَ بالمرض والفقر ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فاستجاب له ربُّه بكشف الضرِّ، ومزيد العطاء: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

ثم يَسَّرَ عليه في شأن زوجته التي كانت قد أغضَبَتْه في أمرٍ ما، فحَلَفَ أن يضربها عددًا، وكانت امرأته بارَّة به، صابِرة معه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وفي هذا تسلِيةٌ لرسول الله ﷺ، وبِشارةٌ برفع الضُرِّ عن المُستضعَفِين مِن المؤمنين في مكَّة.

رابعًا: ثم ذكَر القرآنُ بعددٍ من الأنبياء ﷺ يتقدَّمُهم سيدنا إبراهيم؛ لما له من خصوصيَّة في هويَّة الأُمّة المسلمة، إضافةً لمكانته الدينيَّة والتاريخيَّة بين الأنبياء جميعًا: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ

والحديث متفق عليه، يُنظر: صحيح البخاري (٣/ ١٠٣٨/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م)، ويروى هذا الحديث في عدة مواضع من الصحيح، وصحيح مسلم (٥/ ٨٨/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ صاحِب القوة، والأَيد من الفعل آدَ وأيّدَ، ومنه التأييد، ولا يمنع أيضًا أن يكون جمع يدٍ بحذف الياء، وهو جمعٌ مجازيٌّ بمعنى القوَّة الكثيرة، ويُعضِّد هذا قوله عن الأنبياء الآتِين ﷺ: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ﴾ في تسخيرهما معنًى مضاف غير التسبيح؛ إذ التسبيح كائن قبل داود ﷺ وبعده، ولعلَّ خصوصيَّته كانت بسماعه لهذا التسبيح، واستئناسه به، ولا يمنع أيضًا أنّهما سُخِّرَتا له لتحصيل منافعهما، وكان هذا مُقترنًا بتسبيحهما وخضوعهما لناموس الله الذي وضعه فيهما.

والعشيُّ: آخر النهار، والإشراقُ: أوَّله، وقوله: ﴿مَحْشُورَةً ۖ﴾ أي: مجموعة له.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مُسخَّر معه وراجِع إليه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوَّيناه وثبَّتناه.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قوَّة الحُجَّة وبراعَة الأسلوب.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ دخلوا عليه في مكان عبادته دون استئذان بعد أن تسوَّرُوا الجدار المُحيط بمحرابه، وهو سلوكٌ غير مُعتاد بالنسبة للمُلوك، وداود كان ملِكًا، من هنا مالَ بعض المفسرين إلى القول بأنّهما مِن الملائكة، وهذا مُشكِل أيضًا؛ لأنّ الملائكة لا يحتاجون إلى تسوُّر الجدار، والملائكة لا شأنَ لهم بالنّعاج، والاسترسال في هذا التأويل يقود إلى نفي القصة واعتبارها مثالًا افتراضيا لا غير، وهذا خلاف الظاهر من الخبر.

والأقرب: أن داود كان في مكان عبادته وليس معه حَرَسُه، وربما كان هذا المكان ليس داخِلًا في قصر الحكم، فتسَنَّى لهذَين الرجُلَين أن يدخُلَا عليه بهذه الطريقة، والله أعلم.

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: إلى الصراط السوي المستقيم.

﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: ضُمَّها إلى غنَمِي واجعَلها في مُلكي، ولم يذكر هنا مُسوِّغًا لهذا الطلب، ربما لأنّ المقصود: إظهار حالة الطمَع لدى بعض الشركاء، دون النظر في التفاصيل.

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني واستضعَفَني.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ حَكَمَ بينهما بما أراه الله، وبما هو الظاهر من حالهما، والقرآن هنا لم ينقُل البيِّنة وطريقة الإثبات، وداود ﷺ لا يمكن أن يحكم من غير بيِّنةٍ، ولكنه الإيجاز القرآني الذي لا يستَرسِلُ بنقل الأحداث كاملة كما هو شأن التاريخ، وإنّما يكتَفِي بنقل موضع الشاهد، والله أعلم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ تنبيهٌ لذوي العلاقات الماليَّة والتجاريَّة بالتنزُّه عن البغي والظلم.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩﴾ واستغفار الأنبياء لا يلزم منه الوقوع في المعصية، وإنّما هم في استغفارٍ دائمٍ، وهذا من جميل أدَبِهم مع الله، وهذا دأب الصالحين أيضًا؛ استِشعار التقصير بسببٍ وبدون سبب، خاصَّةً فيمَن يَلِي ولايةً عامَّةً فيها حقوق الخلق، وهو إنّما يحكم بظاهر الأمر، من هنا كان الاستغفار أَولَى، وكان الشعور بأنَّ هذا المُلك إنما هو اختبار وامتحان ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وهذا من تمام أدبِهِ وتعبُّدِهِ لله تعالى.

ولا يمنع أيضًا أنّه فهِمَ من قصة الرجُلَين المُختصمَين شيئًا يتعلَّق بحكمه وإدارة مُلكِهِ يستوجِبُ المراجعة، يُعضِّد هذا قوله تعالى في الآية التالية: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وهذا من تمام وصف الله له بأنّه: ﴿أَوَّابٌ﴾.

أمّا ما تتناقَلُه بعض كتب التفسير من تفسير النِّعاج بالنساء، واتّهام سيدنا داود بها لا يَلِيقُ بآحاد الخلق، فهو من أباطيل القصص الإسرائيليَّة التي لا تثبت سندًا، ولا تصِحُّ عقلًا.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خليفةً لله في إنفاذ حُكمه تعالى في الخلق بإبطال الباطل، وإحقاق الحقِّ، والاستِقامة على الصراط السَّوِيِّ ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فالحكم في الإسلام إنّما هو لله، وما الحاكم إلا منفِّذ لحكم الله وليس مُشرِّعًا، وبهذا يتنزَّه نظام الحكم في الإسلام عن الهوى والتعصُّب وتغليب المصالح الشخصيَّة أو الحزبيَّة، وهذا كله مرتبطٌ أيضًا بفلسفة الخلق الكليَّة ومقاصده الكبرى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فالإنسان مُكلَّف بإدارة الأرض على منهاج خالقها ومُبدعها من العدم سبحانه، ومالِك مقاديرها وأقواتها وأرزاقها وكلّ مَن فيها وما فيها.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ نفيٌ لنظرية العَبَث في تفسير الخلق، وهي نظريةٌ قديمةٌ جديدةٌ، تَتَخِذُ في كلِّ عصرٍ لونًا مُختلفًا، ويجمعها القول بنفي وجود القصد والغاية في هذا الخلق، وإحالة كلِّ هذا النظام الكوني البديع إلى عشوائيَّة الصُّدفة، وعبَثِيَّة الطبيعة الصمَّاء البَكماء، وقد جاء هذا الردُّ في سياق الحديث عن خِلافة الله في الأرض؛ لتأكيد أنّ مقاصِد الخلق إنما تتحقَّقُ بهذا الاستخلاف.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى أنّ الذين يُنفِّذُون حُكمَ الله، ويسِيرون في الأرض على منهج الله هم الذين يُصلِحُونها ويُعمِّرُونها، بخلاف أولئك الذين يظنُّون أنّ الحياة عَبَثٌ، وأنّ وجود الإنسان صُدفة.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تنبيهٌ إلى ضرورة التدبُّر، وأنّ هذا القرآن إنّما أُنزِل ليفهَمَه الناس حقَّ فَهمِه، لا ليتبرّكوا بتلاوته من غير علمٍ ولا فهمٍ، والسياق يُشيرُ إلى

أنّ فهمَ القرآن شرطٌ في تحقيق الاستخلاف الحقِّ في هذه الحياة.

﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾ صورة للخيل وهي تقِف على ثلاثٍ وطرف حافر الرابعة، كأنّها تتأهَّبُ للانطِلاق، وهي صورةٌ جماليَّةٌ تُحبِّبُ الخيولَ إلى أصحابها، خاصَّةً إذا كانت مجتمعة ومتوجِّهة وجهةً واحدةً، وهو معنًى آخر للصافِنات.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع جواد، وهو الفرس ذو الجودة في شكله وبراعته.

﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ يعني: أحبَبتُ هذه الخيولَ الجِيادَ، وانشَغَلتُ بها عن ذِكرِ ربِّي.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: اختَفَت الشمس وراء الأفق، هو تأكيدٌ لمعنى العَشِيِّ، وهو الوقتُ الذي عُرِضَت فيه الخيلُ لسُليمان ﷺ.

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ يُخاطِبُ ساسةَ الخيل أن يُرجِعُوها إليه.

﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ كعادة صاحب الخيل المُحِبِّ لخيله والمعتني بها، والسُّوق: جمع ساق.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ﴾ اختبرناه.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ سِقطًا بلا روح، وكان قد تمنّى أن يرزقه الله بعددٍ من الأبناء الأشِدَّاء بعد أن طافَ في ليلةٍ واحدةٍ على عددٍ مِن نسائه.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أيقَنَ أنّ الخلق لله وحده، وأنّ الأخذَ بالأسباب لا يُغنِي عن التوكُّل على الله واللجوء إليه سبحانه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ وليس استغفار الأنبياء يستلزم وقوع ذنبٍ منهم، بل هو من أدَبِهم مع الله ﷻ.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: لا يكون لأحدٍ من بعدي، ولازم دُعائه أن لا يكون معه في حياته أيضًا من يُنازِعه المُلك، والظاهر أنّه لم يَعنِ بالملك ما هو معهودٌ من أمر

الدنيا؛ إذ هذا مخترق بكثيرٍ من الملوك الذين ملَكُوا بعده، فكان مُلكُهم أوسع من مُلكه، وما هو مُشاهَدٌ اليوم أيضًا من اعتِضاد المُلك بأنواع السلاح المتطوِّر، والصناعات الحديثة، والعلوم المختلفة التي لم تكُن على عهد سُليمان.

والأقرب أنّه يعني نوعَ المُلك؛ حيث كان مُلْكًا مبنيًّا على خوارق العادة، وتسخير الجنِّ لخدمته، وهذا على خِلاف سنَّة الله في الكون، ومِن ثَمَّ كان هذا الدعاء بمثابة الاستثناء المؤقَّت لغايةٍ يعلَمُها الله، ثم يعود المُلك إلى ما هو معهودٌ في عالم السُّنن والأسباب والنواميس الكونيَّة.

ويُعضِّد هذا الفهم ما ورد عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا**»[٢].

بينما وردت أحاديث أخرى تُبشِّرُ بانتشار الإسلام وخضوع الأرض لحكمه بما هو أوسع من مُلك سليمان، ولكن بالسُّنن الكونيَّة وليس بالخوارق والمعجزات، من ذلك حديث مسلم: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِيْ مِنْهَا**»[٣].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: تُطيعه حيثما أراد.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعملون له في البرِّ والبحر.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: مُقيَّدين بالسلاسل.

---

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٣ / ١٢٦٠/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

(٣) رواه مسلم عن ثوبان ﷺ، ينظر: صحيح مسلم (٨ / ١٧١/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي: المُلك الذي خصَّ الله به سليمان، وهو - كما ترى - مُلكٌ يقوم على الخوارِقِ؛ من تسخيرٍ للريح، وتسخيرٍ للجِنِّ، فهذا هو الذي لا يكون لأحدٍ من بعده، والله أعلم.

﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى أنَّ هذا المُلك مُسخَّرٌ لك تتصرَّف فيه عطاءً ومنعًا، بتخويلٍ من الله من غير تحديدٍ أو تقييدٍ.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقُربَى من الله.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حُسن العاقبة، وهي الجنَّة.

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ معلومٌ أنَّ بلاء أيوب ﷺ كان في جَسَده وفي أهله وماله، ونَسَبَ ذلك إلى الشيطان؛ تأدُّبًا مع الله، وإلا فإنَّ كلَّ ما وقَعَ عليه إنَّما هو ابتلاءٌ من الله تعالى، والله يبتَلِي عبادَه بما يشاء، كما قال في سورة الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والنسبة إلى الشيطان فيها تواضُعٌ مع الله، واتِّهامٌ للنفس، كأنَّه يقول: إنَّ ما أصابَني كان بسبب ذَنبِي الذي أوقَعَني فيه الشيطان.

أما توهُّم أنَّ الشيطان قادرٌ على إحداث كلِّ هذا البلاء، فضلًا عن أن يكون هذا في نبيٍّ من الأنبياء، فهو تَوهُّمٌ باطلٌ لا شكَّ في بطلانه.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ قُم واضرِب الأرضَ برِجلِك، وفيه الإشارةُ إلى الأخذ بالأسبابِ، وتجديد الهمَّة والعزيمة.

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ متعلقٌ بقوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حيث أجرى الله له نَبعًا من الأرض بضَربَته هذه؛ ليغتَسِلَ به، ويشرَبَ منه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ ردَّ عليه أهلَه بعد أن اعتَزَلُوه لمَرَضِه، ثم بارَكَ فيهم وكثَّرهم.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ الظاهر أنه ﷺ كان قد حَلَفَ أن يضرِبَ امرأته عددًا من الضربات على أمرٍ أغضَبَتْه فيه وهو في مرضه، وكانت امرأتُه صابِرةً معه في مِحنَتِه، فوجَّهَه الله - رُخصةً له، ورحمةً بامرأته - إلى أن يأخذ حزمةً من الأعواد الرقيقة بعدَدِ حلِفِه فيضرِبَها بها؛ ليبَرَّ بيمينه دون أن يُؤذِي امرأتَه.

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ إشارة إلى علاقة الصبر بالفَرَج وتنفيس الكرب، مع ما في الآية من عظيم المدح لأيوب ﷺ، وكأنَّ الله اختاره ليكون مثالًا يُحتذى في الصبر لكلِّ مُبتلى.

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أراد بالأيدي: القوَّة، وبالأبصار: العلم والبصيرة، وهما صفتان تُكمل إحداهما الأخرى؛ إذ القوة من غير علمٍ تخبُّط وقسوة وظلم، والعلم من غير قوَّةٍ ضعف وتشتُّت وضياع.

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ يعني أنَّ الله منَحَهم الإخلاص والتجرُّد لعمل الآخرة، واستِحضارها في كلِّ شأنٍ من شؤونهم، وعملٍ من أعمالهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ أي: لمن المُختارين الذين اختارَهم الله، فكانوا من صفوةِ عباده.

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ وإسماعيل هو ابن إبراهيم الذي فَدَاه الله بذِبحٍ عظيمٍ، وأمّا اليَسَعُ وذُو الكِفْل فهما مِن الأنبياء بدلالةِ السياق، غيرَ أنَّ القرآن لم يُفصِّل لنا أخبارَهما، فينبغي الوقوفُ عند هذا، والله أعلم.

وفائدة ذكر هؤلاء الأنبياء: تأكيدُ الصِّلَة بين كلِّ هذه الرسالات؛ لأنَّها من مصدرٍ واحدٍ، ولغايةٍ واحدةٍ.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾

نهاية الحياة والمصير المحتوم

بعد هذا التطواف في واقع الصِّراع بين الحقِّ والباطل وتاريخه الطويل، وما أفرزه من ولاءاتٍ متباينةٍ ومواقف مختلفة، ومجادلات ومساجلات، وأخذٍ وردٍّ، يَعرِضُ القرآن للصورة النهائيَّة التي تنتظر الجميع، والتي تبدأ بانتهاء هذه الحياة، وكما يأتي:

أولًا: يبدأ القرآن بالصورة المُشرِقة والمستبشِرة لعباد الله المؤمنين الذين اجتازُوا هذا الامتحان الكبير، وفازوا بمرضاة الله تعالى ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ

أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾.

ثانيًا: يعرِض القرآن الصورةَ الأخرى؛ الصورة المظلمة القاتمة لأولئك الطغاة المعاندين ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾.

وفي هذه الصورة يعرِض القرآن حوار الطغاة فيما بينهم وتلاوُمهم ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

ثالثًا: يُؤكِّد القرآن الغاية من بعثة الرسل، وأنهم إنّما يُبلِّغون رسالةَ الله، ويُذكِّرون الناس بما هم عنه غافلون، يُذكِّرونهم بأجلهم المختوم ومصيرهم المحتوم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم يؤكِّد نزاهة الرسول ﷺ عن أي غرضٍ دنيويٍّ، وإنّما هي الأمانة والحرص على هدايتهم، وجلب الخير لهم، وإقامة الحجة عليهم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

رابعًا: يذكُرُ القرآن بقصّةِ الخلق الأولى، وبعداوةِ إبليس المُبكِّرة لآدم وذريته، وتعهُّدِهِ بالعمل على غواية البشر وحرفهم عن الصراط المستقيم ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ ﴾ أي: هذا الذي يُتلَى عليكم من القرآن فيه ذِكرُكم وتذكيرُكم.

﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ ألحَقَ المُتقين بالأنبياء في حُسن العاقبة - وهي الجنَّة -؛ جزاءً لاتِّباعهم لهم وحُسن تأسِّيهم بهم.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ تفسيرٌ لحُسن المآب.

﴿۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴾ الحُورُ العين، وقاصِراتُ الطرف أي: من الحياء، والأتراب: الأقران من سنٍّ واحدةٍ، فليس فيهنَّ الصغيرة التي لا تعقِل، ولا العجوز التي لا تُرغَب.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي: ما لَهُ من انقطاع.

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴾ شرّ مرجع، والمقصود به: النار وسوء القرار.

﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ تفسيرٌ لشرِّ مآب.

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ شبَّهَ النار التي تلفُّهم بالفراش الذي يحتَضِنُ النائم.

﴿حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴾ الحميم: الماء الحار، والغسَّاق: سائلٌ كريهٌ، قيل: إنّه يتجمَّع من صديد أهل النار، والله أعلم.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴾ أي: وعذاب آخر بأصناف عديدة.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ ﴾ أي: داخل جهنَّم معكم، والاقتحام فيه معنى الزحام والشدَّة.

﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ ﴾ أي: غير مُرحَّب بهم، وأصلُ الرَّحب: السَّعَة، وهذا قولُ أهل النار بعضهم لبعض؛ ولذلك ردُّوا عليهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ ﴾.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ هذا قول الأتباع لقادتهم؛ لأنهم كانوا السبب في غوايتهم وإيرادهم هذا المورد الأليم.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ هذا مشهدٌ آخر يُضيفُ إلى مشاهد الحسرة والعذاب لونًا مُختلفًا؛ فهناك عندما كانوا في الدنيا كانوا يسخرون من المؤمنين ويعادونهم، ويظنُّون أنّهم أشرار وفُجّار بحسب مقاييسهم المعوجَّة، ثم هم لا يرونهم اليوم في هذا العذاب!

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: القرآن وما فيه من وعدٍ ووعيدٍ.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تأكيدٌ لربَّانيَّة الإسلام، وأنّه وحيٌ خالصٌ من الله، وأنّ كلَّ ما جاء في القرآن الكريم من أخبارٍ غيبيَّةٍ فإنّ النبيَّ ﷺ لا شأن له بها سوى تبليغها عن الله كما أُوحِيَت إليه.

والاختصام المذكور في الملأ الأعلى جاء تمهيدًا لقصة آدم الآتية؛ حيث كان هناك حوارٌ بين الله تعالى وملائكته، وكانت هنالك خصومة من إبليس برفضه السجود لآدم ﷺ.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أتممتُ خلقَه.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الروح هنا مُضافة إلى الله من باب إضافة الصَّنعة إلى صانعها؛ فالروح مخلوقة لله، كما نقول: أرضُ الله، وسماءُ الله، وليست هي صِفة قائمة في ذات الله ولا جُزءًا منه، تنزَّه الله عن مُشابَهَة خلقه، وتعالى علُوًّا كبيرًا.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ بيان أنّ التكبُّر هو سبب المعصية التي هلَكَ بها إبليس، وفي هذا درسٌ للمُتكبِّرين، و﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنّه ليس من جِنس الملائكة، بل هو مِن الجنِّ، وإن كان مشمُولًا معهم بالسجود.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ مع أنّه لا يُنكِر وجود الله ولا ربوبيَّته وألوهيَّته، لكنه أعلَنَ مُخالفتَه لأمره لا عن غفلةٍ ونسيانٍ، بل عن تكبُّرٍ وطغيانٍ، وهذا درسٌ آخر للذين يؤمنون بوجود الله

ثم يرفضون الاحتِكام إلى شريعته.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ أي: من غير واسطة ولا سبب ظاهر، بخلاف ذريَّته التي خلقها من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مُضغةٍ، ومثل هذا قوله تعالى في خلق الأنعام: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس: ٧١]، ولا يبعُد عن هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وفي سِياق خلق آدم إضافة معنى التشريف والتكريم؛ إذ جاء هذا في مقامِ تأنيب الله لإبليس، كأنّه يقول له: كيف لا تسجُد لمن خلقتُه بيديَّ، وقد أمرتُك بالسجود له؟ ولا شكَّ أنّ هذا المقام مقام مَدحٍ لآدم ﷺ.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هذه وقاحةٌ وحماقةٌ من إبليس؛ فهو من ناحِيةٍ يُقِرُّ بأنّ الله هو الذي خلَقَه وخلَقَ آدم، ومن ناحيةٍ أخرى كأنّه يُريدُ أن يُعلِم الله بموازين التفاضل بين العباد!

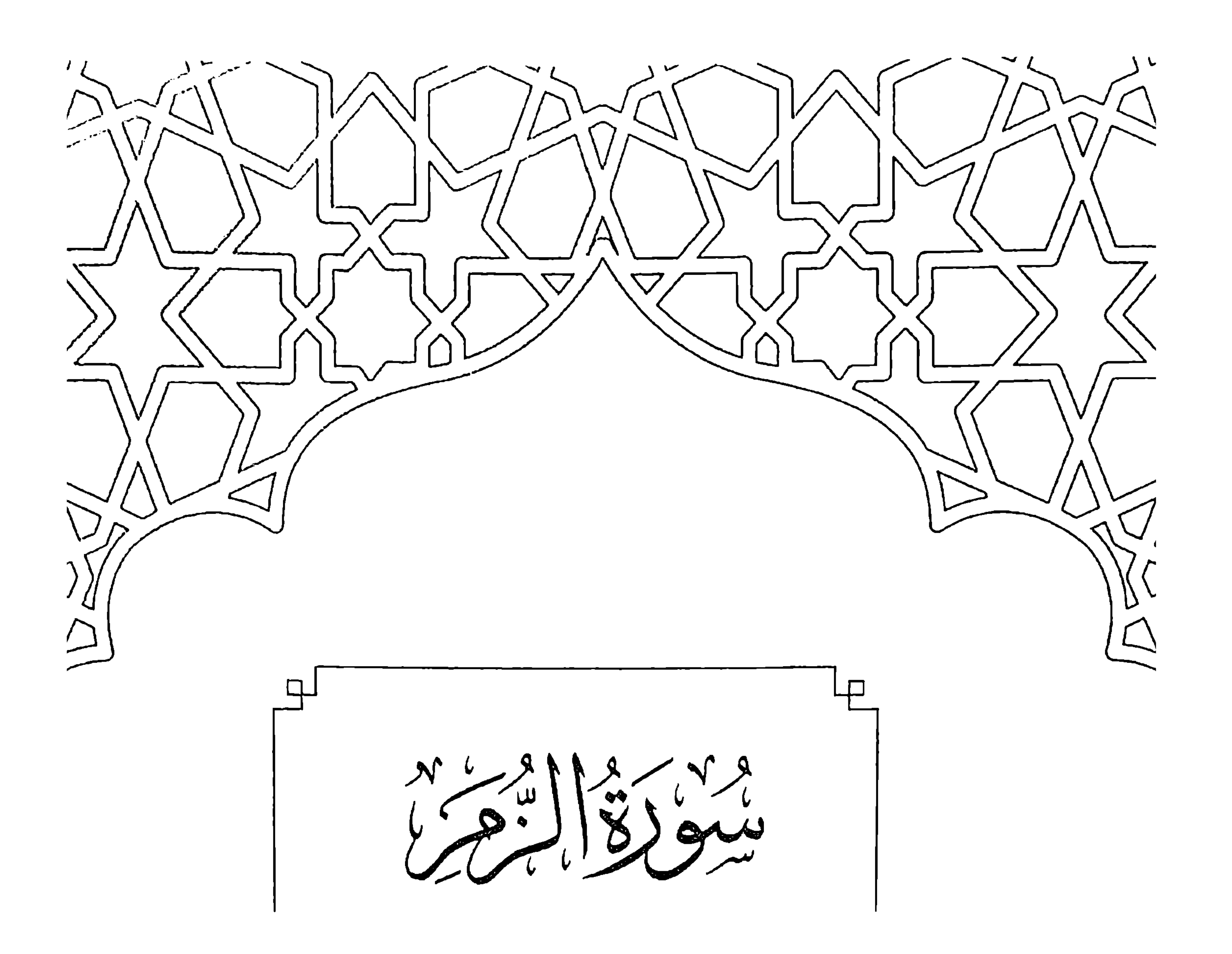
﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي: أخِّرني إلى يوم القيامة.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ هذه وقاحةٌ أخرى؛ إذ أقسَمَ بعزَّة الله أن يُغوِي عبادَ الله عن طاعة الله!

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ أي: الذين اصطفاهم الله وحصَّنَهم من الشيطان.

﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ لأنّ دعوته ﷺ دعوة ربَّانيَّة خالصة، لا مطمع فيها سوى رضا الله والجنَّة، فهو لا يطلُبُ أجرًا من الناس، ولا يتكلَّف أشياء من نفسه فيُضيفها إلى رسالة ربِّه، بل هو الوحيُ الخالصُ، والأمانةُ النقيَّةُ التي يُؤدِّيها ﷺ كما تلقَّاها عن ربِّه ﷻ.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ تأكيدٌ لوعده ووعيده، فيوم الحساب آتٍ لا محالة؛ فمنهم إلى جنَّةٍ ورضوانٍ، ومنهم إلى نارٍ وخُسرانٍ.



سورة الزمر

سُورَةُ الزُّمَرِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

إخلاصُ الدين لله هو موضوع هذه السورة بشكلٍ عام، وقد تناولته هذه السورة من جوانب مختلفة، غير أنّه في هذا المقطع جاء بطريقةٍ مباشرةٍ وصريحةٍ، وبألفاظٍ مُتقاربةٍ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، و﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾، و﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، و﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾.

وهذا الأصلُ العظيمُ لا يتحقّق إلا بمنظومةٍ إيمانيّةٍ معرفيّةٍ تربويّةٍ يُمكن استخلاصها من هذه الآيات، وكما يأتي:

أولًا: تأكيد مصدريّة الدين الحقّ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فالقرآن هو مصدر هذا الدين، وهو الذي يحمل دلائل صدقه في داخله، في بيانه وإعجازه، وقوة حجّته، ودقّة أحكامه وتشريعاته ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾، ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

وكلُّ دينٍ لا يستَنِدُ إلى مصدرٍ موثوقٍ فهو دينٌ مغشُوشٌ، تختلط فيه الأوهام بالحقائق، والعبادات بالمبتدعات، والأخلاق بالأمزجة والانفعالات، كما هو محسوسٌ اليوم ومُشاهَدٌ في أنواع التديُّن المغشُوش والمُحرَّف.

ثانيًا: التنبيهُ إلى مداخل الشرك والذي هو مناقضٌ للدين الخالص ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

ففتنة المشركين لم تكن في إنكار الخالق، وإنَّما باتخاذهم الوسطاء والشفعاء من غير علمٍ ولا إذنٍ من الله، ثم عبدوا هؤلاء الوسطاء والشفعاء، ومنَحوهم بعضًا من صفات الربوبيَّة والألوهيَّة، ومنهم من شطَّ بعيدًا فنسب وسطاءَه أبناء لله؛ كقول المشركين في الملائكة، وقول النصارى في عيسى ﷺ؛ ولذلك ردَّ الله عليهم فِريَتَهم هذه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

ثالثًا: التنبيهُ إلى دلائل التوحيد الخالص وآياته تعالى المبثُوثة في هذا الكَون ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

رابعًا: التنبيهُ إلى فطرة الإنسان المكنونة في داخِله، والتي تشهَدُ بالتوحيد الخالص كلَّما انقشَعَت غشاوة الظلمة، وانخلَعَت قشرة الغفلة ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾.

ومن هنا كان التحذيرُ من قساوَة القلب وكثافة الحُجُب التي يصنعها الإنسانُ لنفسه فيُغطِّي بها فِطرَته ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

خامسًا: التذكير بأهمية العلم وفتح منافذ المعرفة لسماع الكلمة الطيبة، والموعظة النافعة، فإنَّما الجاهل من أخَذه الغرورُ حتى أغلق عليه سمعَه وبصرَه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

سادسًا: تقريب الصورة لهم بضرب المثل المحسوس والمناسب لإدراكهم، ولمجرى حياتهم ومعيشتهم ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

سابعًا: تأكيد أنّ الله غنيٌّ عن العالمين، فهو لا ينفعُه دينٌ خالصٌ، ولا يضرُّه دينٌ مغشُوشٌ، وإنما القضيّةُ قضيتُنا، والحاجةُ حاجتُنا ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

ثامنًا: التذكيرُ بالعاقِبة التي تنتظر الجميع، وكلٌّ بحسب ما عمل وما قدَّم، فأمّا الذين أخلَصُوا دينَهم لله من غير شركٍ ولا غشٍّ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

وأمّا الذين أشرَكُوا مع الله آلهةً أخرى، وغشُّوا أنفسَهم بالتديُّن الباطل، وبالتعبُّد المغشُوش ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾، ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ إعلانٌ لوحدانيَّة الله ﷻ في الأمر والنهي، والعبادة والطاعة بحكم وحدانيَّته تعالى في الخلق والملك.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هم المشركون الذين اتخذوا أوثانَهم آلهةً مع الله بغير علمٍ ولا إذنٍ.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ مقولٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديره: يقولون، والزُّلفَى: المنزِلة القريبة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المُؤمنين والمُشركين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، فالكاذب الذي لا يَصدُق مع نفسه ولا مع ربِّه لن يهتدي إلى الحقِّ، ولو كان صادقًا لاهتدى.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هذه الآية جاءت في مقام المُحاجَجة، بمعنى أنّ الله لو أرادَ أن يتَّخِذ ولدًا، لاختارَ هو مِن خلقِه ما يشاء لا ما تنسِبُونه أنتم له، وإنّما أراد بهذه المُحاججة مطالبتهم بالدليل على صحة ما نَسَبوه إليه سبحانه، فإذ لم يأتوا بالدليل فإنّهم هم الكاذبون.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ تأكيدُ لوحدانيَّته تعالى، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولد وإلى غير الولد.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ التكوير من الكُرة، وهي الشكل الدائري، ومعناه: لفّ الشيء، كما تقول: كوّرت العمامة على رأسي، ومنه كور الغزل، وهو تشبيهٌ دقيقٌ لالتفاف الليل والنهار على الأرض، وهذا الالتفاف لا يكون إلّا إذا كانت الأرض على شكل الكرة.

ولا شكّ أنّ هذا مما لم يكن معروفًا عند الناس، فهو من دلائل الصدق الجليّة؛ حيث لا

يختلف اثنان اليوم من أهل الاختصاص على كُرويَّة الأرض، وأنّ الليل والنهار يلفَّانها دائمًا بحركةٍ دائريَّةٍ التفافيَّةٍ لا تتوقَّف.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلَّلهما في هذا النظام الكوني البديع لغايةٍ تتناسب مع حياة الناس على هذه الأرض.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: كلّ هذه الأفلاك تسيرُ في حركةٍ دائمةٍ، وكلٌّ في مداره الذي لا يختلط بمدار الآخر، حتى يأذَنَ الله بانتهاء الحياة، وذلك هو الأجلُ المُسمَّى.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفسُ أبينا آدم ﷺ، فكلُّنا لآدم، وآدم من تراب.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خَلَقَ أُمَّنا حوَّاء من جسد آدم، وقد وردَ في الحديث أنَّها خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ[1]، وبهذا يكون جميع البشر الذكور والإناث ومن طرفَي الأب والأم يرجِعون إلى أصلٍ واحدٍ، ونفسٍ واحدةٍ، وهذا أساسٌ لمبدأ المساواة في الإسلام، بخلاف الفلسفات والنظريات الأخرى التي تُؤسّس للتمييز العنصري ثقافةً وسياسةً.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ هي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤] والقرآن يُفسِّرُ بعضُه بعضًا.

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مفسّرة بآية الحج: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

---

(١) نص الحديث: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢١٢/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ ظُلمة المشِيمَة، وتُحيطُ بها ظُلمةُ الرَّحِم، وتُحيطُ بالرَّحِم ظُلمةُ البَطن، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأصدق القائِلِين.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ أي: لا تَحمِلُ حامِلةٌ حِمْلَ غيرها، والمقصود لا تَحمِلُ نفسٌ إثمَ غيرها.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ تأكيدٌ لمعنى الاستخلاف، فالنعمة التي بيد الإنسان ليست ملكه على الحقيقة، وإنّما هي على سبيل الاستخلاف والتخويل والاختبار.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ أي: نسِيَ الضُّرَّ الذي أصابَه وكان يدعو الله تعالى لكَشفِه.

﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ﴾ أي: تمتَّع بما بقِيَ من عُمرك وأنت مُلازِمٌ للكفر، والسياقُ للتهديد كما هو واضِحٌ.

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ السياق للمُقارنة، بمعنى: أذاك الكافر المُعاند خيرٌ أمَّن هو قانتٌ لله يدعوه في ساعات الليل؟ وذِكْرُ الليل يُوحي بإخلاص العبادة والبُعد عن شائبة الرياء.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ تأكيدٌ لمعنى المقارنة، وفيه تفضيلُ العلماء على غيرهم، وأنَّ العلمَ طريقٌ للهداية، وأنَّ العلماء أَولَى بالقنوت لله والخشوع بين يديه، ثم أكّد كلّ هذه المعاني بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول.

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ أي: جزاء الحسنة الحسنة، والجزاء بالحسنة مُطلقٌ يشمل الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا: السكينة وطمأنينة القلب، وأُخُوَّة الدين، والتمكين في الأرض بشروطه المعلومة، وفي الآخرة: الجنَّة، والسعادة الأبديَّة.

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ تلميحٌ للمؤمنين في مكّة بالهِجرة، وذكر الصبر بعدها إشارة لِمَا يلاقونه من أذًى على يد المشركين، ولِما سيتحمَّلونه في الهجرة من غُربةٍ وبُعدٍ عن الأوطان.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ بيانٌ لمنزلة الصبر وعظيم جزائه عند الله، والسياق جاء في الصبر على الدعوة وتحمُّل أعبائِها، وفضلُ الله أوسع وأعظم.

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فرسولُ الله ﷺ هو الأولُ على طريق هذه الدعوة، من حيث السَّبق، ومن حيث الفضل، ومن حيث كونه الأسوة الحسنة، والمَثَل الأعلى لكلِّ مسلم.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وحاشا لرسول الله ﷺ أن يعصِي ربَّه، وإنّما المقصود: تيئيس المشركين من أي مطمعٍ باستمالته ﷺ، وفيه تحذيرٌ للمؤمنين عن الفتنة ونكث العهد ولو في أمرٍ من أمور الدنيا.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ تهديدٌ للمشركين، وتأكيدٌ لتحمّل الإنسان مسؤوليَّة خياره.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ بمعنى أنّ النار تُحيطُ بهم من كلِّ جانبٍ، وأصلُ الظُّلَل: السُّحُب.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ أي: ذكر هذا العذاب إنّما هو لغاية حمل الناس على الطريق الصحيح الذي فيه خيرُهم دنيا وأخرى؛ ولذلك قال بعدها: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: إنّ هذا التخويف يُورِثُ التقوى ويدفعُ باتِّجاهها.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الطاغوت من الطغيان، وأصلُه: مجاوزة الحدِّ، والمقصود به هنا: كلّ معبودٍ من دون الله.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ منهجيَّةٌ قرآنيَّةٌ نفيسَةٌ في التعامُل مع المعلومات والأخبار وكلّ ما يتصل به الإنسان من معارف، وهذه المنهجيَّة تُنمِّي حِسَّ النقد والتحقيق والتمييز، وتُحرِّرُ العقولَ من أغلال التقليد، وطرائق التضليل؛ ولذلك وصَفَ الله هؤلاء بالعقل والهداية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ وصفٌ لغُرفات الجنّة التي أعدّها الله للمتقين، والوصف يُوحي بالأُنس والجمال والحركة اللطيفة، وهذا الإيحاء يكفي؛ إذ لا مجال في العقل لإدراك كُنْه تلك الغُرفات، أو تشكيل صورة مناسبة لها.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: الذين تقسُو قلوبهم عند سماعهم القرآن؛ وذلك لفَرط تكبُّرهم وحسدهم وكراهيتهم للحقّ الذي جاء به.

﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ هو القرآن الكريم، يُشبِهُ بعضُه بعضًا في تناسُقه وتكامُله وإعجازه وبيانه، ولتشابُه آياته وتناسُقها تجِد المعاني فيها تُثنَّى وتُكرَّر.

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ وهي حالٌ من أحوال المؤمن الذي يقرأ القرآن أو يُصغِي له؛ حيث يشعر بجلال الله وبهَيبة القرآن، ووَقعه القويّ في نفسه ووجدانه حتى يقشعرَّ جلده خوفًا من الله، وتعظيمًا لكلامه.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ هذه حالٌ أخرى؛ حيث يتحوَّل القلب المستمر على تدبُّر القرآن من حال الرهبة إلى حال الأُنس، ومن حال الخوف إلى حال الرجاء.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أي: يُواجِهُه مواجهة فلا يستطيع أن يدفعه عن نفسه إلا بوجهه، وهذا غاية العجز؛ إذ العادة أنّ الإنسان يحمي وجهه بيديه أو بما تيسَّر عنده، لكن ذلك الشقي غُلَّت يداه، فلم يبق عنده ما يدفع به عن وجهه.

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، فإنّما يحصد الحاصد ما زرع، ويأكل الجاني مما كسب.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ القرآن كلام الله نزل بلغة العرب، وهم حملته إلى العالمين، ولأنّه كلام الله، فهو الحقُّ المُطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الطريق السويُّ الذي لا عِوج فيه، ولا غموض، ولا اضطراب.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لتوضيح الفارق بين المُوحِّد والمُشرك؛ فالمشرك يعبد آلهةً مُتعددة لا يجمعها جامع، ولا يربطها رابط، فهناك إلهٌ للخير، وهنالك إلهٌ للشرِّ، وهنالك إلهٌ للحرب، وهنالك إلهٌ للجمال، وهناك أربابٌ بعضها فوق بعض، وبعضها أكبر من بعض، وهناك أوهامٌ متضاربة، وتصوراتٌ متناقضة عن الملائكة والجنِّ والنجوم والكواكب، والمُشرِكُ غارقٌ في هذه الفوضى لا يدري من أين يأتيه الخير، ولا من أين يأتيه الشر.

بينما المؤمن المُوحِّد لا يعبدُ إلا إلهًا واحدًا، مُعتقدًا على سبيل اليقين الجازم أنّ الله سبحانه هو الذي خلقه، وهو الذي رزقه، وهو الذي خلق هذا الكون كلّه بلا مُعاوِنٍ أو مُعاضِدٍ، وهنالك طريقةٌ واحدةٌ للتقرُّب من الله وعبادته.

فكان مَثَلُ المشركِ مثل الذي يخدم أسيادًا عدة يُرضِي هذا فيغضب هذا، بل لا يدري أصلًا ماذا يُريد هذا، وماذا يُريد ذاك! أمّا المؤمن فمَثَلُه مثل الذي لا يخدم إلا سيِّدًا واحدًا، وهو عارفٌ به وبأمره ونَهيِه، وسبيل مرضاتِه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

بعد بيان الدين الخالص، شَرَعَ القرآن في بيان حال الناس وانقسامهم تجاه هذا الدين، وما ينبني على هذا الانقسام من اختلافٍ في المشارب والمناهج، وما يتبعه من خصومة وصراع، وكل هذا من سنن الله في هذا الخلق؛ ليميز الله الحق عن الباطل، والهدى عن الضلال، وطريق السعادة عن طريق الشقاء:

أولًا: يُذكِّرُ القرآن الكريم الخلقَ جميعًا بأنّهم سيُلاقون يومَهم الموعود - مؤمنهم وكافرهم -، فلا يُستثنى من الموت أحدٌ، وإنّما العبرة بما بعد الموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فما بعد الموت من افتراق وتباين إنّما كان نتيجة لافتراقهم وتباينهم في الدنيا.

ثانيًا: يضع القرآن الصدق قيمةً عُليا، ومعيارًا رئيسًا لافتراق الطريقين: طريق الهدى، وطريق الضلال ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ فصِدْقُ الإنسان مع نفسه هو الذي يقودُه للنظر الهادف والبحث الجاد، أمّا حينما يَكذب على نفسه فأنّى له الهداية؟

ثالثًا: وبسياقٍ مُتَّصِلٍ يذكر القرآن شواهد من الكذب الذي يقود صاحِبَه إلى الهاوية، ويدعه مُتناقِضًا في مواقفه، مُضطربًا في سلوكه، مُتردِّدًا مُتلفِّتًا بحسب مصلحته الآنيَّة، وليس بحسب ما يراه من حقٍّ أو باطلٍ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

فهؤلاء وقت الاضطرار يُوحِّدُون الله، ووقت الرخاء يكفرون به، ويؤمنون بالشيء ونقيضه، وأصلُ هذه الأمراض إنّما هو الكذب، الكذب على النفس قبل كلّ شيء، وحالة العبث التي ترافق مثل هذا الكذب في العادة.

رابعًا: يؤكِّدُ القرآن أنّ الله قد أقام الحجّة على الناس كافة بهذا القرآن الذي أبانَ طريق الحقِّ من طريق الباطل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

ومن ثَمَّ فإنَّ الله هو الذي يحكم بينهم ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وآنذاك لا عُذر لمعتذر، ولا حُجّة لُمحتجٍّ ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

خامسًا: يؤكِّدُ القرآن أنّ التوحيد الحقّ - والذي يستلزم إخلاص الدين لله وحده - هو الفيصل بين الطريقين؛ إذ كلّ ما بعد التوحيد مبنيٌّ عليه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

فكلّ عملٍ مهما بدا للناس صلاحه إن لم يكن مبنيًّا على التوحيد فإنّه باطل، بل قد يكون وسيلةً وأداةً لتزيين الشرك والوثنيّة، كما نراه من أعمالٍ خيريَّةٍ تقوم بها مؤسسات تنصيريّة تُزيِّن للناس عقيدة التثليث، وأمّا إن كان العامل صادقًا في نيّته، مُحبًّا للخير في طبيعته فإنَّ

هذا مؤشِّرٌ في الغالب على أَوبَته وهدايته، وحُسن خاتمته؛ إذ الصدق مع النفس مفتاحُ الهداية، والخطوة الأولى في الافتِراق عن سُبُل الغواية.

سادسًا: يزيح القرآن مخاوف الناس بانتقاص الأمن أو انتقاص الرزق إن هم اتبعوا الهدى، وهذا ما يُلوِّحُ به الباطل في كلِّ عصر ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سابعًا: يدعو القرآن جميعَ الناس إلى التوبة والإنابة؛ فرحمةُ الله أوسع من أن تضِيق بأحدٍ مهما بلَغَت معصيته، ومهما كان إسرافه على نفسه وتقصيره بحقِّ ربه ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

فلا يأس مع الإيمان، والله لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، وإنّما هو الامتحان والاختبار؛ فمن صحَّح موقفَه قبِلَ منه تصحيحه، ومن اعترف بذنبه قبِلَ منه اعترافه، ومن تاب قبِلَت منه توبته، فباب الله لا يُغلق أمام أحد مهما طغى وبغى، وشنق وخنق، وكفر وفجر.

دقائق التفسير

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فكلّ ابن آدم ميِّت طال عمره أم قصر، وإنّما ذكره؛ تمهيدًا لبيان حال الفريقين بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ نسب إليه ما لا يليق به من الشريك والولد وكلّ صفة نقص، ويدخل فيه: كلّ من أفتى عن الله بغير علمٍ، وحلَّل أو حرَّم على عباد الله ما لم يأذن به الله.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: كذَّبَ بالقرآن.

﴿مَثۡوَى﴾ منزل يستقِرُّ فيه.

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ هو سيدنا ونبيُّنا محمدٌ ﷺ، وكذلك كلّ نبيٍّ بعثه الله.

﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ كلّ مؤمنٍ صدَّق برسول الله وآمَنَ به وبرسالته.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ وأسوأُ الأعمال الكفر؛ فمَن آمَنَ كفَّر الله عنه ما كان منه قبل ذلك، وتكفيرُ ما دون الكفر أَولَى.

﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وأحسنُ العمل: الإيمان، وكلّ عملٍ صالحٍ إنّما هو تابعٌ له، فمَن قَبِلَ الله إيمانه قَبِلَ له سائر عمله، مع الإشارة إلى مُضاعفة الأجر وقبول الأعمال بأعلى درجةٍ مِن القبول، والله أعلم.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ تأكيدٌ لطمأنينة المؤمن المُوحِّد الذي لا يعبُدُ إلا إلهًا واحدًا، فالله يكفِيه عن اللُّجُوء إلى غيره؛ إذ هو الذي بيَدِه مقاليدُ كلِّ شيء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ من تلك الآلهة المصنُوعة التي لا تمِلك لأنفسها شيئًا، فضلًا عن أن تمِلك لغيرها ضرًّا أو نفعًا.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ بمعنى أنّ الله يضلُّ مَن طلب الضلالة وسعى لها، ويهدي مَن طلب الهداية وسعى لها، فهذه سُنَّةُ الله العادلة في عباده، ولن يستطيع أحدٌ أن يخرق هذه السُنَّة الإلهيَّة.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ فيه تأكيد التمايُز بين الفريقَين، وفيه أنّ عمل الباطل لا بُدّ أن يُقابَل بعمل الحقّ وإلّا خَلَت الساحة للباطل، وفيه تهديدٌ لأهل الباطل؛ ولذلك قال بعدها: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ والعذابُ المُقيم هو: العذابُ الدائم.

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي،

وأنّ كلّ إنسانٍ يتحمَّلُ مسؤوليَّته دون جَبرٍ أو إكراهٍ، وفي هذا تفسيرٌ أيضًا لقوله تعالى المُتقدِّم: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبِضُها بعد أن يُوفِّيها أجَلَها المُسمَّى لها، ثم استعمل التوفِّي بمعنى الموت نفسه لمكان التلازُم بينهما.

﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ شبَّهَ النائمَ بالميِّت؛ لفقده الإدراك والإرادة كالميِّت، مع أنّ النائم حيٌّ وداخلٌ في أحكام الأحياء بلا خلاف، لكنّه تنبيهٌ إلى ضعف هذا الإنسان واستسلامه لما يُشبِهُ حال الميت طوعًا أو كرهًا.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ تفريقٌ بين الميت والنائم؛ فالميت لا ترجع إليه روحه ولا وعيه ولا حركته، بخلاف النائم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تمييزٌ للمفكرين عن غيرهم في إدراك الظواهر وتحليلها، واستنباط النتائج والدروس منها.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ فلا يشفع أحدٌ عنده إلَّا بإذنه، ولستم أنتم الذين تختارون له الشفعاء.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وصفٌ لحال المشركين في نفرتهم عن التوحيد مع أنّه الحقّ الأبلَج، وأُنْسِهم بآلهتهم مع ظُلمتها وعجزها وقلَّة حيلتها، ويدخل في هذا أيضًا كلُّ من يأنس بأحكام البشر وتصوُّراتهم وآرائهم، ويُقدِّمها على حُكم الله وهديه وشريعته، كما نراه اليوم من بعض المُنتسِبين للإسلام.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا الدعاء المبارك يملأ القلب ثقةً وطمأنينةً، فلا يدعو به إلَّا المطمئن على عقيدته ودينه.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نَزَلَ وأحاطَ بهم.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً﴾ مِن نعم الدنيا؛ كالمال والمنصب والجاه.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: ينسَى الله فيها ولا ينسب النعمة إليه، بل ينسبها إلى علمه وجهده وكفاءته.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ إذ هذه النعم كلّها اختبارٌ وامتحانٌ، والعاقبة لمن اتّقَى اللهَ فيها وسخَّرها في طريق الخير.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال مثلَ هذا القول الذين من قبلهم؛ كفرعون وقارون.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يُوسِّع لهم بالرزق اختبارًا لهم.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُضيِّق بالرزق على من يشاء اختبارًا لهم أيضًا.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أكثَرُوا من المعاصي وتمادَوا فيها.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ نداءٌ جميلٌ وودودٌ يقذف في النفس روح الخير والأمل، والاستعداد للتغيير نحو الأفضل والأصلح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فالله سبحانه لا تضره ذنوبنا، ورحمته أوسع من أن تضيق بنادمٍ أو مُستغفرٍ ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ فهذا هو المطلوبُ من العبد إذا وقع في الذنب تذكَّرَ واستغفَر، وإذا ابتعَدَ في الغفلة رجَعَ وأنابَ.

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: القرآن، فهو الكتاب المُهيمِن على كلِّ الكتب السابقة، وهو رسالةُ الله الأخيرة الذي تعهَّدَ الله بحفظه، فلا تشُوبُه زيادةٌ ولا نُقصانٌ، بخلاف الكتب الأخرى.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ هذه غاية الحسرة والندامة؛ أن يرى الإنسان نفسه أمام الله ضائعًا عابثًا فرَّط في حياته الدنيا حتى أقبل على الله بلا شيءٍ إلَّا

الذنب والغفلة والإعراض، ومعنى ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: على ما قصَّرتُ بحقِّ الله ﷻ.

﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: عودة ثانية إلى الحياة الدنيا.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ تنبيهٌ إلى أنّ الاستِكبار أصلٌ في كلِّ ضلالة.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بالفوز الذي نالُوه، وهو هنا الجنَّة.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له مُلْكُها وخزائنُها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وحاشاه ﷺ من الشرك، وإنّما الخطاب من خلاله للناس كافَّة، وتوجيه الخطاب له ﷺ فيه من تعظيم الأمر والتنبيه إلى خطره ما لا يخفى، وفيه أيضًا تيئيس المشركين من استمالته ﷺ مهما بذَلُوا ومكَرُوا.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تنبيهٌ إلى صِلةِ التوحيد بالشكر، فمن شَكَرَ الله على نعمائه قادَه هذا الشكرُ إلى إخلاصِ الدين لله، ومن آمَنَ بالله حقَّ الإيمان دفَعَه هذا الإيمان لتحقيق الشكر أيضًا.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أصحاب الجنة وأصحاب النار

بعد تمييز الحقِّ عن الباطل وبيان العلامات الفارقة بينهما، شَرَعَ القرآن في بيان عاقبة الفريقين:

أولًا: يُنبِّهُ القرآن الكريم هذه العقول إلى عظمة الخالق، وأنَّه الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، فلا يُعجِزه سبحانه شيءٌ، ولا يَغِيبُ عن علمه شيءٌ، ولا يشغَلُه شيءٌ عن شيءٍ، وكما كان بيده أصلُ النشأة والبداية، فبيده أيضًا الخاتمة والنهاية ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثانيًا: يؤكِّدُ القرآن أنَّ هذه الحياة بكلِّ من فيها وما فيها ستنتهي في ساعة واحدة، ثُم إذا

أذِنَ الله تعالى تعود كرّة ثانية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ثالثًا: آنذاك يوضع الميزان الحقّ؛ ليأخذ كلّ ذي حقٍّ حقّه، ويحصد كلّ زارعٍ ما زرع، وكلّ عاملٍ ما عمل، في محكمة العدل الإلهيّة؛ حيث يقضي الله سبحانه، ويشهد النبيُّون ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

رابعًا: يرسم القرآن صورةً قاتمةً مُظلمةً لأولئك المجرمين المُفسدين وهم يواجهون مصيرهم المحتوم ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

خامسًا: ثم يرسم القرآن في مقابل تلك الصورة صورة أخرى، صورة المؤمنين وهم يدخلون الجنّة زُمرًا زُمرًا ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

سادسًا: ثم يختم القرآن بالصورة الثالثة، وهي صورة الملائكة الحافِّين بعرش الرحمن والمُسبّحين بحمده؛ ليزداد أهلُ الإيمان أُنْسًا وحبورًا، ويزداد أهلُ الباطل حسرةً وثبورًا ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عرفوه حقّ معرفته، ولا عظَّموه حقّ تعظيمه؛ وذلك لفرط جهلهم وغفلتهم واستِكبارهم.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ فلا مُلك إلا مُلكه، ولا سُلطان إلا سُلطانه، أما حقيقةُ ما سيَجرِي في ذلك وما أضافَه الله تعالى لنفسه، فعلَينا الإيمان به جملةً كما أخبر سبحانه، مع اعترافنا بعجزنا عن الإحاطة بحقيقته وكُنهه، فليس لعقولنا تصوُّر الغيب على صورته، ولا سبيل لها إلى ذلك، وليس مطلوبًا منها ذلك؛ إذ الأخبار الغيبيَّة لها غاياتها العمليَّة في حياة الإنسان وسلوكه وما هو مُكلَّف به، فإذا تحقَّق ذلك فهذا كافٍ له حتى يلقَى الله عليه.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه هي النفخةُ الأولى التي تُعلِن انتهاء الحياة الدنيا بكلِّ مَن فيها وما فيها.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ هذه هي النفخةُ الثانيةُ؛ حيث تعود الأرواح لأجسادها لتبدأ الحياة الثانية، وهي الحياةُ المُستقِرَّةُ الخالدةُ.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ هي أرض المحشر بدلالة السياق، ونور ربِّها يحتمل المعنى المادّي، أي: تشرق الأرض هناك بنورٍ يجعله الله فيها فلا تخفى خافية حتى تنكشف الخلائق لبعضها دون حاجزٍ أو ظلمةٍ، ويحتمل أنَّه نور الحقِّ والعدل؛ حيث زالَت شُبهات المشركين وسطوة الطغاة المفسدين، ولا مانع من إرادة المعنيَين، والله أعلم.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو اسمُ جِنسٍ للكتاب الذي يلقاه كلّ مُكلّفٍ هناك، فلكلِّ مُكلَّفٍ كتابه.

﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ تصويرٌ للمشهد العظيم، ولجدِّيَّة الأمر في الحساب والجزاء؛ وعطفُ الشهداء على النبيِّين عطفٌ للعام على الخاص، فالأنبياء يشهدون، ثم يشهدُ كلُّ

صالحٍ للشهادة، وهذه الأُمَّة تشهدُ على من سَبَقَها، وتشهدُ للأنبياء السابقين بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ تأكيدٌ متكررٌ لعقيدة العدل الإلهي، فلكلِّ عاملٍ ما عمل.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جماعات مكتظة ومحشورة في طريقها إلى جهنم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وفي هذا التعبير من الهول والصدمة المريعة ما فيه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم زبانية جهنَّم وحُرَّاسها.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي: جماعات مُتعدِّدة، يأنَسُ المؤمن بهم، وهؤلاء هم وُفودُ الرحمن، وأهلُ الخير والجِنَان.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أضاف الواو هنا للتنبيه أنّها كانت مُفتحة لهم قبل وصولهم إكرامًا لهم، كما يفعل صاحب الدار الكريم مع ضيوفه، وهؤلاء هم ضيوف الله وأحبابه ، جعلنا الله منهم.

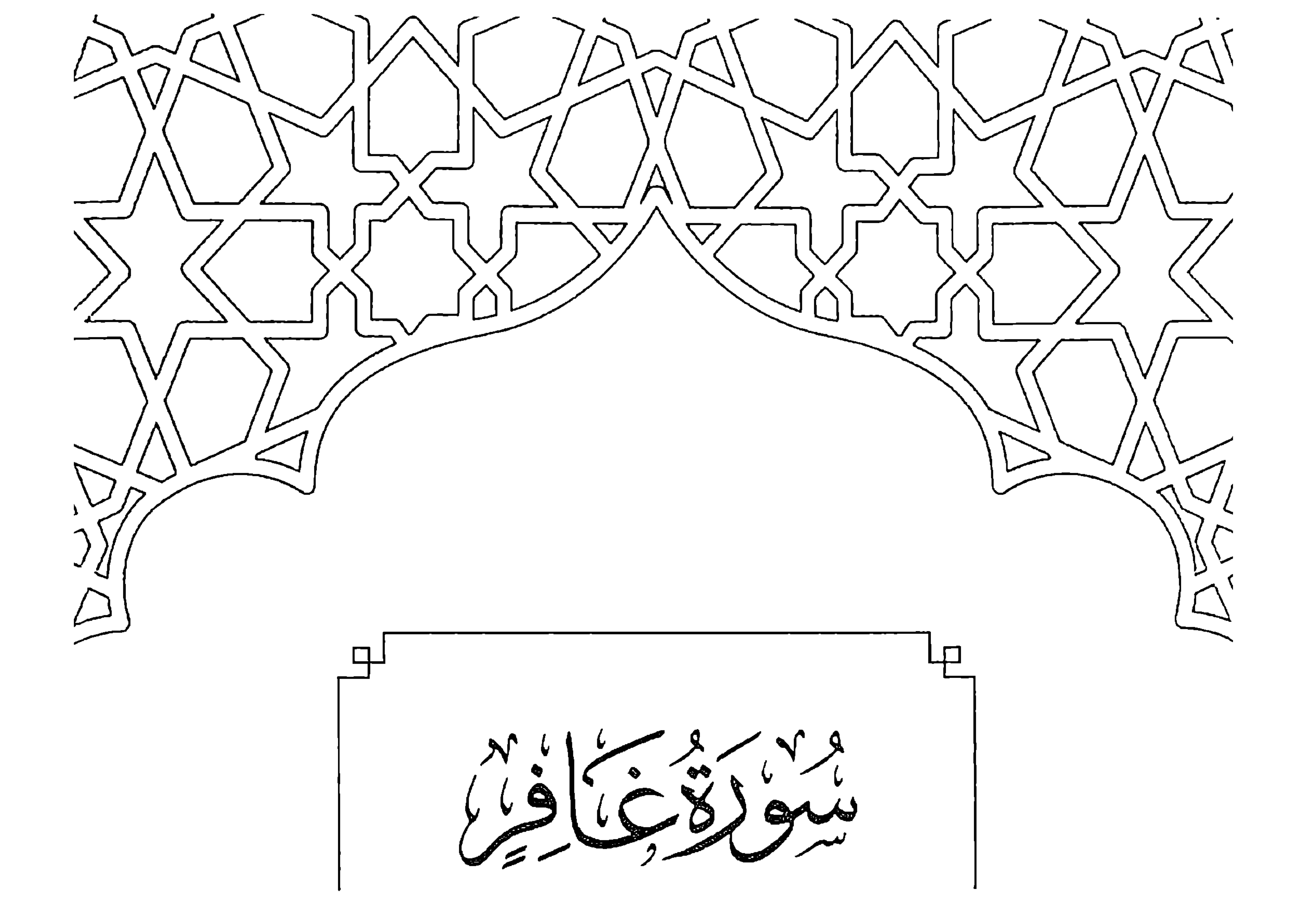
﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنَّة.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: ننزِل فيها حيث نشاء ونختار.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ تأكيدٌ آخر لعقيدة العدل الإلهي، فهؤلاء المُكرَمُون إنما استحقُّوا هذه المنازِل بأعمالهم، لا بأنسابِهم ولا بأموالِهم.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مُحِيطين به من كلِّ جانبٍ.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمُصاحَبة، بمعنى أنَّهم يُسبِّحُون الله مُستصحِبين حمدَه. والحمد لله رب العالمين دائمًا وأبدًا، وفي كلِّ حين.



سورة غافر

﴿حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿٢﴾ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴿٣﴾ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴿٤﴾ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴿٥﴾ وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴿٦﴾ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴿٧﴾ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿٨﴾ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴿٩﴾ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴿١٠﴾ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴿١١﴾ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴿١٢﴾ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ﴿١٣﴾ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴿١٤﴾ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴿١٥﴾ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿١٦﴾ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴿١٧﴾ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴿١٨﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿١٩﴾ والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿٢٠﴾ ۞ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴿٢١﴾ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴿٢٢﴾﴾

الذين آمنوا والذين كفروا

سورةُ غافر سورةٌ مكيّةٌ تُعالِجُ حالةَ الصراع بين الإيمان والكفر، والتي بدأت مع بواكير الدعوة الإسلاميَّة المُبارَكة في مكّة، وكان القرآن يُتابعُ هذا الصراع من زوايا مُختلفة، بدءًا

بتوصيفِ حالةِ الفريقَين، والأُسُس التي يفترقون عليها، والمعالم الواضحة التي تميِّز كلّ فريقٍ عن الآخر، وكما يأتي:

أولًا: بيان الأصول التي افترق عليها الناس؛ حيث تستهلُّ السورة بتأكيد نزول الوحي بهذا القرآن، فهو كلام الله العزيز العليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

ولأنّ القرآن رسالة عمليّة هادفة تسعى لتصحيح عقائد الناس وتصوُّراتهم، وإصلاح حياتهم وعلاقاتهم، فتح الله بابَ التوبة لكلِّ مُخطِئٍ وعاصٍ مهما كان، مُحذِّرًا في الوقت ذاته من التمادي في الخطأ، والإصرار على المعصية ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

ثم نبَّه العقولَ إلى دلائل الإيمان المبثوثة في هذا الكون فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

ثم نبَّه إلى ما في التاريخ من دروسٍ وعبرٍ: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ مؤكِّدًا في ثنايا ذلك أصول الدين القائمة على توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان برسالة النبيِّ ﷺ، وأنّه هو المُبلِّغ عن الله ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٧ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ۝١٨ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ

ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

ثانيًا: بيان حال الذين كفروا وأنهم أهل جدالٍ وعنادٍ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ مُذكِّرًا بهذه الظاهرة البشريَّة المُمتدَّة في عُمق التاريخ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

وبعد هذا الأخذ والعقاب الأليم في الدنيا، يذكِّرهم القرآن بالمصير الأقسى والعذاب الأكبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾.

ثالثًا: بيان حال الذين آمنوا واستجابوا لهذا الدين، فكانوا في انسجامٍ مع فطرتهم ومع هذا الخلق الواسع الذي أبدعه الله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

وهذا الدعاء الودود اللطيف الذي تدعو به الملائكة لهؤلاء المؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريَّاتهم قائمٌ مقام التحقُّقِ؛ لأنَّ الله تعالى امتَدَحَ الملائكة به، وساقَه مساقَ الامتِنان على أهل الإيمان.

وفيه كذلك شعورٌ بالرابطة الإيمانيَّة الجميلة التي تربط المؤمن بعالم الملائكة، ذلك العالم الأجمل والأطهر والأنقى، وهذا الشعور يرفع هذا الإنسان عن ضِيق الدنيا وهمومها ومستواها المادّي الثقيل ليَسْبَح في عالمٍ من النور والأفق الواسع الرحيب.

دقائق التفسير

﴿حمٓ﴾ تقدّم الحديث عن الحروف المقطَّعة في أوَّلِ سورة البقرة.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذه الصفات الجليلة تجمع في تأثيرها العملي السلوكي بين الرجاء والخوف؛ فالذي يُقبِلُ على الله يقبَلُه الله، والذي يتمادَى في غيِّهِ وإعراضه له العقابُ الشديد.

﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ أصلُ الطَّول: السَّعة، ومعناه هنا: سَعة قُدرته سبحانه، وعظيم فضله وإنعامه.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الجدال هنا: الجدال الباطل، وهو التكذيب بآيات الله عنادًا واستكبارًا.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فلا يغرُرْكَ ما معهم من جاهٍ ومالٍ وقدرتهم على التصرُّف في مكة، والتحكم في شؤونها، وذلك هو تقلُّبهم فيها، وأصلُ التقلُّب: التردُّد ذهابًا ومجيئًا.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ أي: من بعد قوم نوحٍ؛ كعادٍ، وثمود.

﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أي: ليقتُلُوه.

﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ ليُبطلوا.

﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ فأهلَكْتُهُم، ويلحظ هنا مناسبة هذه العقوبة لما تقدَّم من جُرمهم ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ هم الملائكة، وحملهم للعرش من الأحوال الغيبيَّة التي تُوحي بالجلال والعظمة، ولا سبيل للعقل أن يُدرك ذلك الغيبَ على حقيقته وكيفيَّته، وإنَّما الواجب التسليم بصدق الخبر، ثم البحث عن مقصوده العملي السلوكي، وهو قريبٌ ويسيرٌ على من يسَّره الله عليه.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ الباء للمُصاحبة، بمعنى أنَّهم يُسبِّحون الله مُستصحِبين حمده ﷻ.

﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يتجدَّد فيهم معنى الإيمان كُلَّما سبَّحُوه وحمِدُوه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الذِّكر يُعزِّزُ الإيمانَ ويُقوِّيه.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يدعُون لهم بالمغفرة، وهذا الاستغفار يُقوِّي من صِلَة المؤمن بملائكة الله واستِشعار وجودهم ومودَّتهم، ومِن ثَمَّ الحياء منهم، وكلّ هذا الشعور مؤثِّرٌ في النفس مُعزِّزٌ لمعاني الخير، والله أعلم.

﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أي: وسِعَتْ رحمَتُك وعِلمُك كلَّ شيءٍ.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: احمِهم وادفع عنهم كلّ ما يسوؤهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أي: من حَمَيتَه من السيئات في ذلك اليوم – وهو يوم القيامة – فقد رحِمتَه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ﴾ تُناديهم الملائكة، وذلك يوم القيامة.

﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ بمعنى أنّ بُغض الله لكم ولما قدَّمتموه لأنفسكم أشدُّ مِن بُغضكم لأنفسكم؛ ذاك أنّ الكافرين هناك سيبغضون أنفسهم ويتمنَّون أن لو كانوا عدمًا.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ هذه الآية مُفسَّرة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨]، فسمَّى العدمَ قبل الخلق موتًا؛ إذ هو بحُكمه، والله أعلم.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾ أي: المطر الذي هو سبب الرزق، فذكر السبب وأراد النتيجة.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وصفٌ لله تعالى يستلزم العلوَّ المطلق، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، والعلوُّ صفةٌ ثابتةٌ لله بالنص، ولا قدرة للعقل في إدراك معناها كما هي في الغيب، لكنّها تُوحي بالعظمة والقدرة المطلقة، وهذا هو المقصود العملي من هذا الإخبار، ولا يبعُد أيضًا أن يكون المعنى أنّه تعالى يرفع درجات المؤمنين، إلّا أنَّ ذِكر العرش بعدها يُرجِّح الأوّل، والله أعلم.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالق العرش ومالكه.

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يُنزِّلُ الوحيَ على مَن يشاء مِن أنبيائِهِ ورسُلِهِ.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: ليُنذِر النبيُّ الناسَ ويُحذِّرهم من يوم القيامة، وسمّاه يوم التلاقِ لأنّ الخلائق تلتَقِي فيه أوّلُهم وآخرُهم.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ المُلك لله وحده دائمًا وأبدًا في هذا اليوم وفي ذاك اليوم، وإنّما خصّ ذلك اليوم لأهميته وخطورته، ولأنَّ الذين توهَّموا أنّهم يشاركون الله في مُلكه لغفلتهم وضعف بصيرتهم أدركوا هناك الحقيقة، وأدركوا أن كلَّ المتاع الذي كان بأيديهم إنّما كان على سبيل التخويل والاستخلاف والاختبار.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، ونفيٌ صريحٌ لأي شُبهةٍ قد تطرأ بسبب سوء فهمٍ لعقيدةِ القدر، أو نصٍّ من نصوص الهداية والضلال؛ فالله إنّما يضل من يطلب الضلالة، ويهدي من يطلب الهداية وفق سُننٍ كونيّةٍ عادلةٍ، كمن يموت بسبب شُرب السمّ، ومن يبرأ بسبب أخذ الدواء.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾ هو يوم القيامة، والآزفة أي: القريبة، والتذكير بقُربها يشدّ الانتباه لها، وأخذ الحيطة قبل وقوعها.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ ﴾ بمعنى أنّ القلوب تضطرب من شدَّة الخوف حتى كأنّها تتحول من أماكنها، وتصعد إلى الحناجر، والحناجر جمع حنجرة، وكاظمين أي: كاتمين أنفاسهم من شدَّة الخوف والترقُّب.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ من قريبٍ ينفَعُهم.

﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي: وما لهم من شافِعٍ يشفَع فتُقبل شفاعته.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ أي: يعلم اختلاسات الأعْيُن الخفيَّة، بمعنى أنّ الله يعلم كلَّ ذنبٍ ارتكبه العبد ولو كان دقيقًا خفيًّا، وقد أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ أي: يحكُمُ بالعدل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ ﴾ أي: تلك الأوثان التي عبَدُوها من دون الله لا تقضي لهم بحقٍّ ولا بباطلٍ، فهي أعجَزُ من ذلك، فهي لا تسمعُ، ولا تُبصِرُ، ولا تقدِرُ على شيءٍ، وقد عرَّضَ القرآن بهذا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تدل على قوَّتهم وتمكُّنهم في الأرض.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أهلَكَهم بسبب ذنوبهم، وفيه أنّ الذنب يُطلق على الكفر، ولا يقتصر على المعصية العمليَّة.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أي: ما كان لهم من دون الله مُدافِع يَحمِيهم ويدفَعُ عنهم العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾

الاستِشهادُ بقصَّة موسى ﷺ ظاهرة قرآنيَّة مُتكررة، وقد تقدَّم الحديث عنها وعن غاياتها المنهجية والعمليَّة، غير أنَّ هذه السورة تناوَلَت القصة ببُعدٍ آخر؛ حيث ركَّزت على نموذج الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه وهو يعيش في وسط الكافرين وكأنّه واحدٌ منهم، ولا شكَّ أنّ هذا النموذج يسوقه القرآن للَفت أنظار المؤمنين وتوعيتهم بإمكانيَّة وجود مثل هذا الصِّنف في ملأ قريش، وفي أي ملأٍ آخر، وقد حصل هذا بالفعل مع سيدنا العبّاس عمِّ النبيِّ ﷺ؛ لوجود قرائن كثيرة على أنّه كان يكتم إيمانه، وأوضح من هذا قصَّة نُعيم بن مسعود في معركة الأحزاب.

ويمكن تلخيص ما ورد في هذه الآيات حول هذا النموذج بما يأتي:

أولًا: قدَّم القرآن خلاصةً لدعوة موسى ﷺ وما واجَهَه هو والمؤمنون معه على يَدِ فرعون ومَلَئِه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

ثانيًا: بعد تلك المُقدِّمة يبدأ القرآن بتسليط الضوء على قصة الرجل المؤمن وطريقته في الدفاع عن موسى وقومه ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾.

فهو هنا يقِف موقِفَ الناصح؛ لئلَّا يرتَكِبَ قومُه جريمةً بحقِّ رجُلٍ بريءٍ لم يَأتِ بما يستوجِبُ القتل، بل جاء بما عجز عنه السحرة، ثم استدرك كأنّه يخشى من تنبُّه قومه له: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا

﴿يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فهنا أبعَدَ نفسَه عن دائرة التُّهمة، وأظهر مزيدًا من الحرص على مصلحة قومه، واضعًا أمامهم الاحتمالَين المنطِقِيَّيْن؛ فإن كان موسى - حاشاه - كاذبًا فلن يضرَّهم كذِبُه، وإن كان صادقًا أصابَهم الخيرُ الذي يعِدُهم به.

ثالثًا: بعد ذلك النصح وما فيه من منطقٍ مقنعٍ، أخذ يُمهِّد القلوبَ لسماع كلمة الحقِّ ومن مدخل النصح نفسه ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ يُذكِّرهم بما هم فيه من نعمةٍ ومُلكٍ وسلطانٍ، ثم يخوِّفهم من إمكانيَّة تحوُّل هذه النعمة وزوالها ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

هنا تدخل فرعون نفسه ليحسِم الأمر على طريقته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كأنّه يُطمئنهم على مُلكهم وما هم عليه من النعمة، وأنّه هو وحده الأعلم والأقدر على حماية هذا المُلك، وإدامة هذه النعمة.

رابعًا: لم ييأس الرجل المؤمن من دعوته لقومه فراحَ يكلِّمهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

ثم أخذ يُذكِّرُهم بيوسف ﷺ وما كان له من فضلٍ على أهل مصر، كأنّه يُشبِّهُ دعوة موسى بدعوة يوسف، ولا شكَّ أنّ هذا أوقَع في نفوسهم، وأدعَى لفتح العقول والقلوب لهذه الدعوة الجديدة ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

والأظهر أنَّ هذا لم يكن في مجلسٍ واحدٍ، بل في مكانٍ آخر وفي مناسباتٍ أخرى، وربَّما بغياب فرعون أيضًا؛ إذ يصعب تصوُّر مُواصلة الحديث في ذلك المجلس بعد أن حسَمَه فرعون وأنهَى فيه كلَّ رأيٍ أو قولٍ يُخالف قوله.

خامسًا: ينتقل السياق إلى فرعون وما يُدبِّرُ لمواجهة هذه الدعوة المباركة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

وتعليل بناء فرعون لهذا الصرح تعليلٌ تافهٌ قد يَنمُّ عن حماقة فرعون وجهله، وليس هذا بعيدًا عن كلِّ من حجَبَتْه غاشية التكبُّر عن التفكُّر والتعلُّم والتدبُّر؛ إذ التكبُّر قرينُ الجهل.

ولا يبعُد أيضًا أنّه إنّما أراد بذلك أن ينشغل الناس بأخبار البناء والعمران وما فيه من بهرجٍ وزخرفٍ عن التفكير في أصل القضية، وهي دعوة النبيِّ موسى ﷺ، على عادة الفراعنة في إشغال شعوبهم بكلِّ ما ليس فيه مساسٌ بعروشهم، حتى إذا اكتمل الصرحُ، رَاحَ ليخدع العامَّة المساكين بأنّه صعد إلى السماء فلم يجد فيها إله موسى! والعامّة إن غاب عنها وَعيُها أصبحَت أسيرةً للخداع وللإشاعات والأخبار الغريبة، خاصَّةً إذا كانت تتعلَّق بالقصر وما حوله.

سادسًا: يعود القرآن إلى الرجل المؤمن وهو يُواصِلُ دعوته في كلِّ مجلسٍ ومحفلٍ ناصحًا ومُحذِّرًا، ومُنذِرًا ومُبشِّرًا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ

﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

وواضحٌ من هذا السياق أنّه قد بلغ بالتدريج إلى حدِّ الإعلان عن هويّته وعقيدته، والإجهار بالدعوة إلى نبذ عبادة الشرك بكلِّ صورها، وإخلاص العبوديّة لله وحده.

سابعًا: يَذْكر القرآن عاقبةَ هذا المؤمن العزيز وعنايةَ الله به وحمايته له، وفي كلِّ هذا إشاراتٌ لا تخفَى للمؤمنين المستضعفين في مكّة ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

ثامنًا: يَذْكر القرآن أيضًا عاقبةَ أولئك الطغاة العُتاة بإشاراتٍ لا تَخفَى أيضًا، تحمِل التهديد والوعيد لطغاة مكّة وعُتاتها ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.

تاسعًا: ينقل القرآن صورةً من داخل جهنّم يتحاور فيها الأتباع والمتبوعون، والضعفاء والمستكبرون تحاور الحسرة والندم، والشعور بالغبن والخسران ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾.

عاشرًا: ينقل القرآن حوارًا آخر يدور بين أهل النار وبين خزنة جهنّم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ وهو حوارٌ يزيدهم حسرةً على حسرتهم، وندامةً على ندامتهم، وعذابًا فوق عذابهم.

حادي عشر: ثم يؤكّدُ القرآن وعد الله الحقّ بنصر الأنبياء المرسلين ومن تمسّك بهديهم من المؤمنين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

ثاني عشر: ثم يختِم القرآن القصة بما استهلّت به، بتأكيد أنّ قصّة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون ليست سوى حدثٍ جزئيٍ في قصّة موسى ﷺ ودعوته الكبيرة على هذه الأرض ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وبرهانٌ ظاهرٌ.

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ لا تقتلوهنَّ ليبقَين في الخدمة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ ولم يكن هناك من يجرؤ على منعه، وإنما هو أسلوب يقصد به الإعلان عن الرغبة في الفعل والتوجُّه إليه، ويقرب من هذا قوله تعالى في سورة المدّثر: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: ١١، ١٢]، بمعنى: كِلْ أمرَه لي.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يقولها على سبيل السخرية والتحدِّي.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ هو اعترافٌ ضِمنيٌّ بقُدرة موسى ﷺ على التأثير في الناس وتغيير آرائهم، وهو اعترافٌ ضِمنيٌّ أيضًا بعدم صِدقِه في ادِّعائه الألوهيَّة، فكيف يكون إلهًا ويخاف من موسى أن يُغيِّر عليه قومه.

والحقيقةُ أن فرعون كان يخاف على عرشه أكثر من خوفه على قومه، لكنَّها لغة الطواغيت دائمًا في التلبيس على الناس واستدرار عطفهم وتأييدهم.

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وهذه فرعونيَّةٌ أُخرى، فهو لا يرى في ادِّعائه الربوبيَّة فسادًا ولا بتقتيل الناس واستِعبادهم، ولا بتفريقِهم إلى شِيَع وأحزاب مُتنافِرة مُتخاصِمة، ولا ذلك العَبَث بثروات البلاد وتسخيرها في شهواته وملَذّاته، وإنما الفساد في كل دعوة تُخالِفُه، هكذا هو أيضًا منطق الفراعنة في كل زمان ومكان.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: إني أحتَمِي بالله وألُوذُ به من كيد فرعون، وكان هذا هو ردّ موسى على تهديد فرعون وقوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وفيه أن التكبُّر والغفلة عن الآخرة من أقوى أسباب ارتكاب الجرائم وانتهاك الحرمات.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ لم يُسمِّه لنا القرآن، ولم يرِد اسمه في سنَّة صحيحة، فالأَولَى التوقُّف عند النص، وعدم إضاعة الجهد فيما لا طائل من ورائه، والذي يبدو من خلال القصة أنه كان من أعيان مجلس فرعون ومن المقرَّبين إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يعني أن الله لن يَدَع من بلَغَت به الجرأة أن يكذب على الله مُدَّعيًا أنه رسولٌ منه، والإسراف هنا: مجاوزة الحد المعهود في الكذب.

ومُجمل المعنى أنه يقول لقومه: إنَّ موسى إن كان صادقًا عن الله فإنه سيُصيبكم بسببه خيرٌ كثيرٌ، وإن كان مُسرفًا في كذبه على الله فإن الله سيأخذه بعقابٍ، أو يفضحه أمام الناس فلا يهديه إلى ما يُريدُ من مطمَعٍ أو منصِبٍ.

﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عالِين فيها بمُلككم وسلطانكم.

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: لا أسمح لكم أن ترَوا رأيًا غير رأيي، فأنا الذي أُريكم ما أشاء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ دليلٌ على أن أهل مصر كانوا على درايةٍ بتلك الأقوام وما أصابها، والله أعلم. وقوله: ﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أراد جنسَ اليوم وليس يومًا مُحدَّدًا؛ إذ إنَّهم لم يُهلكُوا بيومٍ واحدٍ، بل بأيامٍ مُختلفةٍ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي؛ فالله سبحانه مُنزَّهٌ عن الظُّلم، وإنما المكلَّف هو من يظلم نفسه.

﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة، سُمِّي بذلك؛ لأن الخلائق تتنادَى فيه، فمِن مُستشفِعٍ، ومِن لائمٍ، ومِن مُستغِيثٍ، وفيه مُناداةُ المؤمنين للكافرين توبيخًا وتقريعًا، ومُناداةُ الكافرين للمؤمنين، ومُناداة المؤمنين بعضهم بعضًا، ومُناداة الكافرين بعضهم بعضًا، ومُناداة الملائكة لهؤلاء وهؤلاء كُلٌّ بما يُناسِبُه، والله أعلم.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍۗ﴾ أي: يوم القيامة؛ حيث تُحاوِلُون الفرارَ، لكن الفرار لا ينفَعُكم، فجهنَّم مُحيطةٌ بالكافرين، أعاذنا الله والمسلمين منها.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ مُفسَّرٌ بقوله تعالى المُتقدِّم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فالله سبحانه إنما يُضلُّ من يطلب الضلالة ويسعى لها، ويهدي كذلك من يطلب الهداية ويسعى لها.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل موسى، وهذا تذكيرٌ حكيمٌ لطيفٌ، ففضل يوسف على أهل مصر لم يُنسَ بعد.

﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ من الدين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ بمعنى أن آباءكم كانوا على شك من دين يوسف رغم فضله عليهم والبيِّنات التي جاءهم بها، لكنهم حينما توفَّاه الله بالَغُوا في مدحه، وقالوا: لن يبعث الله رسولًا بعده، كأنهم يَعنُون أنه لن يكون في الأرض مثله، وهذه عادةٌ بشريةٌ معروفةٌ؛ فحينما يكون المرء حيًّا بينهم ينتَابهم شعور الحسد والقلق على بعض مصالحهم، فإذا مات ظهَرَ ما كانوا يُخفُونه من إعجابٍ به واعترافٍ بفضله؛ ولذلك ترى الجنائزَ في كثيرٍ من الأحيان موسمًا للمديح حتى ممن كان مُخالفًا للميت أو مُخاصمًا له.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ بغير علم ولا برهان.

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ تأكيد أن التكبر سبب أساس للضلالة.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ وهامان كان وزيرًا لفرعون، والصَّرحُ: البناء العالي.

﴿لَعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: لعلَّه يصِلُ إلى أبواب السماوات وطُرقها فيطَّلِع إلى إله موسى! وهذه حماقةٌ ما بعدها حماقة، وجهالةٌ ما بعدها جهالة، إلا إذا كان يقصِدُ بذلك إلهاءَ الناس وإشغالَهم عن التفكير بدعوةِ موسى ﵇، وهذا أمرٌ مُعتادٌ عند الطواغيت.

﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي تمتَّعون فيها على قدر آجالكم ثم ترحلون عنها إلى دار القرار.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ هذا بعدله سبحانه.

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وهذا من فضله ورحمته وسعة جوده وكرمه؛ إذ جعل جزاء العمل الصالح من غير حساب، أي: من غير حدٍّ ولا عدٍّ.

ونصّ هنا على الأنثى مع الذكر - مع أنها داخلة أصلًا في كل خطاب -؛ دفعًا لتوهُّم حرمانها من هذا الفضل، وتعريضًا بالظلم الواقع عليها من قِبَل المشركين.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا محالة، وهي صيغةٌ من صِيَغ التوكيد.

﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: ليس لآلهتكم المُزيَّفة دعوةٌ مُستجابةٌ تنتفِعُون بها لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ لم يذكر نوع المكر الذي مكَرُوه به، لكنَّ الظاهر أن الله نجَّاه منهم ومن كفرهم، ومن العذاب الذي حاق بهم.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: نزل العذاب عليهم وأحاط بهم.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: يرَون مقاعِدَهم من النار صباحًا ومساءً وهم في عالم البرزخ قبل البعث، فإذا قامَت الساعةُ أُدخِلُوا في النار، وهذا دليلٌ على الحياة البرزخية التي هي بين الموت والبعث، وهي من الأخبار الغيبية التي نقف فيها مع النص، ولا مجال لإدراك كُنهها وحقيقتها، والقصد من

الإخبار بها معلوم، وهو قصد عملي يدفع المؤمن للحيطة والحذر، ومراقبة الله في الصغيرة والكبيرة.

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وهي مُحاججة لغرض التلاوُم؛ إذ لا ينبني عليها شيء، والضمير يعودُ إلى أقرب مذكور، وهم آل فرعون، لكن التلاوُم هذا ليس خاصًّا بهم، بل هو عامٌّ بين المستضعفين والمستكبرين من أهل النار، والعياذ بالله.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ هذا غاية اليأس؛ إذ يستشفعون بملائكة العذاب لعل الله يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب، فلم يعودوا يطمَعون بأكثر من هذا.

﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ هذا ردُّ خزَنة النار على استِشفاع الكافرين بهم، بمعنى أن استِشفاعهم هذا باطل ولا ينفعهم بشيء.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ هذا وعدٌ إلهيٌّ، أما نصرهم في الآخرة - وهو اليوم الذي يقوم فيه الأشهاد - فظاهرٌ، وأما نصرُ الرسل ﷺ في الدنيا فظاهرٌ أيضًا بنجاتهم، وإهلاك أعدائهم، أما المؤمنون فالوعدُ بنصرهم الدنيوي قائِمٌ على شروطٍ، كمثل قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦]، فإذا قصَّرَ المُؤمنون في هذه الشروط، تخلَّفَ عنهم النصرُ، وربما يكون ثَباتُهم على أصل الإيمان وحِفظهم من الفتنة نوعًا من النصر أيضًا، والله أعلم.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: التوراة.

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ربط بين الوحي والعقل، على خلافِ من يتوهَّم الانفِصال بينهما.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

الذين يجادلون في آيات الله

بعد قصة الرجل المؤمن وحواراته مع قومه الفراعنة المشركين، عاد القرآن إلى مشركي مكّة ليكشف وهن عقيدتهم، وليردّ عليهم عنادهم وجدالهم الباطل، وليرسم للمؤمنين معالم في طريقة التعامل معهم، وكما يأتي:

أولًا: أكَّد القرآن أهمية التحلِّي بالصبر، واللُّجوء إلى الله بالنسبة للداعية الذي يُواجِهُ هذا النوعَ من الناس، وقد جاء الخطابُ مُوجَّهًا للرسول ﷺ ثم من خلاله لكل الدعاة في كل زمانٍ ومكانٍ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾.

ثانيًا: شخَّصَ القرآن بواعِثَ هذا العِناد والتكذيب المستمر، والمجادلة بغير علم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ فالكِبْرُ هو رأسُ الخطايا وأساس البلايا، ولقد ردَّ القرآن على المشركين كِبْرَهم هذا، مُبيِّنًا لهم حَجمَهم الصغير أمام هذا الخلق العظيم الذي لا يملِكون فيه نصيبًا، ولا يعلَمون عنه إلا قليلًا ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثالثًا: نبَّه القرآن إلى أهميَّة فتح منافذ المعرفة، والتأمُّل في هذا الكون وما فيه من آيات ودلائل لا تخفَى إلا على من عمِيَت بصيرَتُه، وكلَّت قريحَتُه ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

رابعًا: بيَّن القرآن أن دعوة الإسلام إنها هي دعوة التوحيد الخالص وعبادة الله وحده دون شريك ولا وسيط ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

خامسًا: حذَّر القرآن أولئك المشركين ممَّا ينتظرهم في آخرتهم؛ حيث لا ينفع التلاؤم، ولا يُجدِي الندم ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ لإظهار العبوديَّة الكاملة لله، واتهام النفس أمام الله من كمال العبوديَّة، ثم إنه ﷺ هو الأسوة لأمته، ومنه يتعلمون التوبة والاستغفار كما يتعلمون الشريعة والدين كله.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباء للمصاحبة، أي: سبِّح ربَّك مُستصحِبًا مع التسبيح الحمدَ.

﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ عند غروب الشمس وشروقها.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ﴾ بغير علم ولا دليل.

﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي: ليس في قلوبهم سوى الكِبر، وهو الذي يدفعُهم إلى هذه المجادلة والمعاندة.

﴿مَا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: لا يقدِرُون على بلوغِ ما يدفَعُهم إليه كِبرُهم، بمعنى أن الله سيقهَرُهم ويُذِلُّهم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فيه ردٌّ على مُنكِري البعث، بمعنى أن إعادة خلق الناس ليست بأكبر من خلق السماوات والأرض، والتي يُقِرُّ المشركون بأن الله تعالى هو الذي خلقها، وفيه أيضًا توبيخٌ لهؤلاء المُتكبِّرين المُتطاوِلين على الحق وهم لا يُعدُّون شيئًا أمام سعة هذا الكون وعظمته.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ الدعاء هنا معناه: العبادة بدلالة السياق، أي: اعبدوني أتقبَّل منكم وأُثِبكم على عبادتكم.

وأما الدعاء بمعنى السؤال، فلا شك أنه من العبادة؛ لما فيه من معنى التذلل والخضوع، إلا أن استجابة الدعاء ينبغي أن تُفهم بمعناها الصحيح، وهو أن الله يتقبَّل هذا الدعاء ويُثيب عليه، وليس شرطًا أن تأتي الاستجابة على وفق رغبة السائل؛ لأن هذا من شأنه أن يعطِّل نواميس الكون، فلكل إنسان أمنياته التي لو تحقَّقَت له ولكل سائلٍ مثله لتغيَّر هذا العالم، فلا يبقى فيه فقيرٌ، ولا مريضٌ، ولا مُبتلى، فضلًا عن رهبة الإنسان من الموت ورغبته في الخلود، ودعاء الناس بعضهم على بعض، فالله ﷻ يستجيب لعباده الصالحين بميزان حكمته ورحمته لا بميزان البشر ورغباتهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مقهورين.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ أي: مُضيئًا صالحًا للإبصار والحركة والعمل.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرَفون عن الحق؟

﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: فاعبُدُوه وحده ولا تشركوا به أحدًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأنه تعالى خلَقَ آدم من تراب وهو أبو البشر، ولأن جسد الإنسان إنما يتغذّى وينمو بالنبات الذي يخرج من التراب، وبلحوم الحيوانات ومُنتجاتها، والحيوان إنما يتغذّى من النبات كذلك، فأصلُ النشأة وسر استمرارها إنما هو التراب.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ تقدم الحديث عن هذا في أوائل سورة الحج.

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ بمعنى أن الله لا يحتاج إلى الوسائل والوسائط، ولا إلى المعامل والهندسة الصناعية، وإنما إذا أراد شيئًا أو قضى أمرًا فيكون كما قضى وأراد.

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يحرقون، فيكونون لجهنّم كأنهم وقودها وحطبها.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ احتراز عن الفرح بنعمة الله وفضله، فإنما المذموم إنما هو فرح الطغاة بطغيانهم، والمتكبّرين بتكبّرهم.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ والمرح هو اللعب أيضًا، وثنّى به تنويعًا للخطاب، وتوسيعًا لما هم فيه من معنى الفرح الباطل والغفلة عن الحق.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فبِئسَ المقام مقامهم.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾

فاصبر إن وعد الله حق

في خواتيم هذه السورة جاءت التوجيهات الربَّانية إلى الرسول الخاتم ﷺ ثم لكل المؤمنين معه بالصبر على مشاقِّ الدعوة، وانتظار الوعد الإلهي الذي لا يتخلَّف لا في الدنيا ولا في الآخرة، فعاقبة المؤمنين إلى خيرٍ طال الزمان أم قصُر، وعاقبة المشركين إلى سوءٍ مهما تمتَّعوا في هذه الحياة وطغَوا وبغَوا:

أولًا: يؤكِّد القرآن مرةً أخرى أهميةَ التحلِّي بالصبر، لكنه صبرٌ مقرونٌ بالثقة المُطلَقة بوعد الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

ثانيًا: يربطُ القرآن بين هذه الدعوة المحمدية وبين الدعوات السابقة والسنن الإلهية الحاكمة لخط الدعوة في كل مراحلها الزمنية المختلفة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ثالثًا: يذكِّر القرآن بعظمة الخالق وآياته المنتشرة في هذا الكون ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾.

رابعًا: يذكِّر القرآن أيضًا بأحوال الأمم السابقة وتاريخ البشرية الطويل مع هذه الدعوة على اختلاف مراحلها ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وفيه تأكيدٌ لوعد الله الذي لا يتخلَّف، وتأكيدٌ لسنَّة الله الماضية والتي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من عذاب الدنيا، وقد حصَلَ لهم ذلك في بدر وغيرها.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي لو توفَّيناك قبل أن ترى عذابَهم - والخطابُ للنبيِّ ﷺ -، فالجوابُ أنهم سيرجِعُون إلى الله، وسترَى عذابَهم الأكبر، وليس معنى هذا أنهم لا يُعذَّبون في الدنيا بعد وفاته ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾ فيه جوابٌ ضمنيٌّ لمن يسأل عن سرِّ وجود الأنبياء كلهم في هذه المنطقة ما بين الفُرات إلى النيل؛ إذ إنّ من الأنبياء من لم يُذكَر في القرآن الكريم، ولم تُذكَر أرض بِعثته، وفيه أيضًا تنبيهٌ لنا ألّا نتناول أحدًا من المُصلِحين والمُؤثّرين في العالم بسوءٍ؛ لأنه قد يكون من هؤلاء النبيين الذين لم

يقصُصهم الله علينا وإن حُرِّفَت رسالاتهم، فتحريفُ الرسالة الصحيحة واردٌ، كما حُرِّفَت رسالة موسى وعيسى ، فالتوقُّفُ عن القول بنبُوَّتهم أو إنكارها أولَى، والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ والآية هنا: الخارقة التي يطلبها المشركون على سبيل التحدِّي؛ فالرسول ليس هو الذي يصنع المعجزات، وإنما الله هو الذي يُجرِيها على يديه تأييدًا له، والله سبحانه هو الذي يختار المعجزة المناسبة لكل نبيٍّ وليس لمخلوقٍ في هذا شأن.

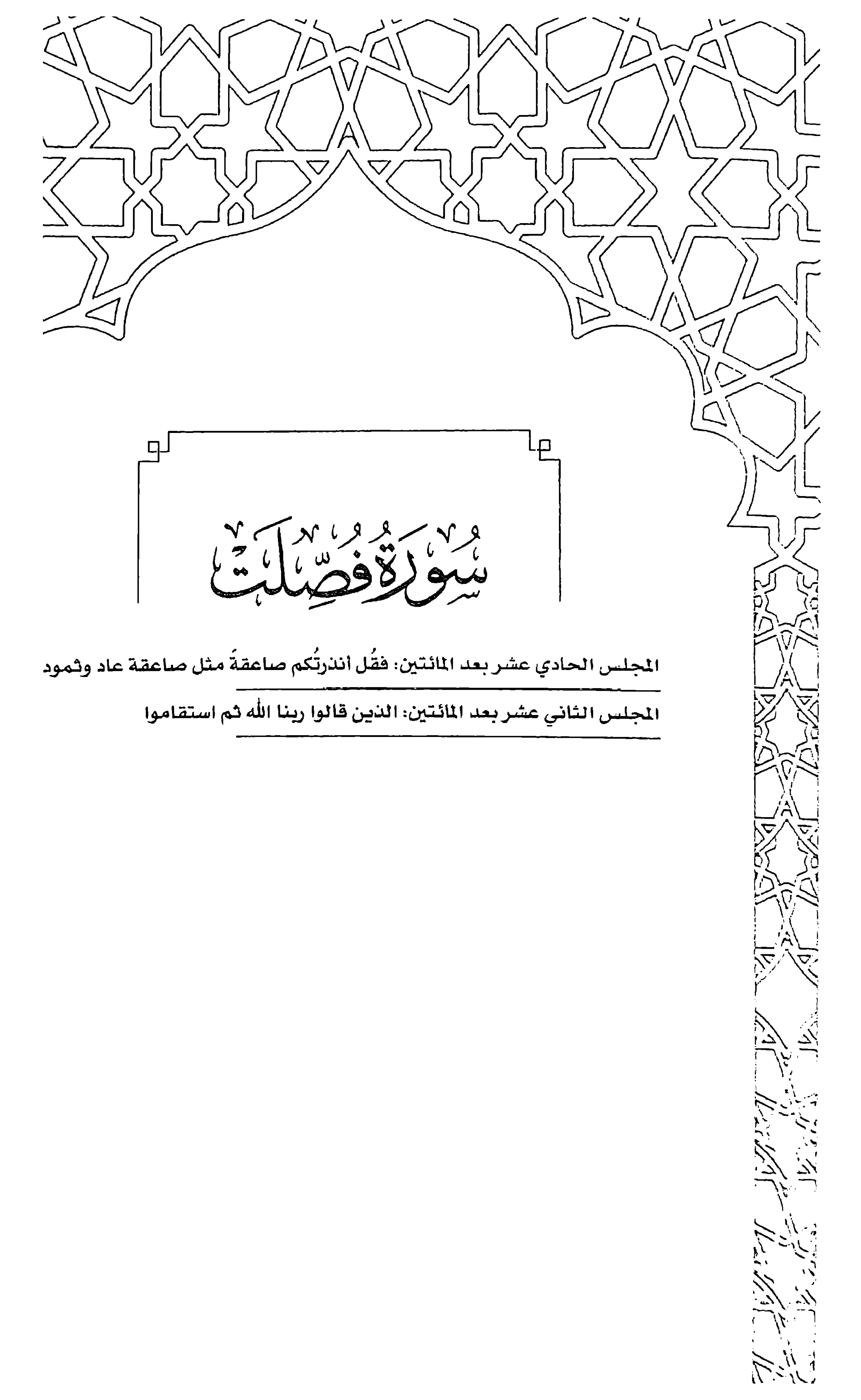
﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ غير الأكل من لحومها، والركوب على ظهورها، ففي جلودها منافع أيضًا، وفي أوبارها وأصوافها وأشعارها، وغير ذلك.

﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أن الأمم السابقة التي أهلكها الله كانوا أكثر من قريش وأقوى وأكثر عمرانًا في الأرض، وفي هذا تهديدٌ للمشركين وتخويفٌ لهم، ودفعهم إلى التفكير بما يُنجيهم من هذا الهلاك.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: فرِحُوا بما عندهم فرح المغرُور المُتكبِّر حتى أعماهم هذا الفرحُ عن تلك البيِّنات.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: نزَلَ بهم العذاب الذي كانوا يُنكِرُونه ويستهزِئُون به.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ وهو البأس الذي حاقَ بالأمم السابقة؛ كالصيحة، والرجفة، ونزول هذا النوع من العذاب بعد تقدُّم الوعيد به يُلجِئُ الناسَ إلى الإيمان اضطرارًا، وهو إيمانٌ لا ينفع أصحابه؛ ولذلك ردَّ القرآن عليهم إيمانهم هذا: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.



سورة فصلت

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

سورة فُصِّلَت جاءت لتحمِلَ بشارةً ونذارةً، هذا هو موضوعها الأساس ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أما البِشارةُ فإنّما هي للذين قالوا: ربُّنا الله ثم استقاموا، وهي موضوعُ الشَّطر الثاني من هذه السورة، وأمّا النِّذارةُ فهي لأعداءِ الله، وهي موضوعُنا في هذا المجلس، وكما يأتي:

أولًا: أكَّد القرآن أنّه كتابٌ مُنزَّلٌ من الله الرحمن الرحيم، وأنّه كتابُ بِشارةٍ ونِذارةٍ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

والتذكيرُ بأسماء الله تعالى الدالَّة على الرحمة في سياق البشارة والنذارة يعني: ارتباط هذه المعاني بعضها ببعض؛ فمِن رحمةِ الله تعالى بهذا الخَلق أنزَلَ هذه الرسالة المُبارَكة لتُنذِرَ الناس، وتكفَّهم عن أسباب هلاكهم، ولتُرشِدَهم إلى طريق هدايتهم وسعادتهم.

وهذا أصلٌ عظيمٌ في فهم هذه الرسالة وخصائصها وما تهدف إليه، فالإسلام لا يدعو إلى التديُّن الذي يعذِّب فيه الإنسان نفسه، ولا يدعو إلى غرس الكراهية بين البشر، بل هو الرحمة في أوَّله ومُنتهاه، وأصله وفرعه، وعقيدته وشريعته ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثانيًا: بيَّن القرآن موقفَ المشركين في مكَّة من هذه الرسالة الكريمة ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

وهكذا يُصِرُّ هؤلاء الأشقياء الرافِضُون لنعمة الله عليهم ولرحمته بهم على أن يُعطِّلوا كلَّ أسباب المعرفة، فلا آذانهم تسمع، ولا قلوبهم تعِي، بل كانوا يتواصَون مع قرنائهم وشركائهم بهذا الصدود وهذا الإعراض ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثالثًا: بيَّن القرآن طبيعةَ الرسول ﷺ، وأنّه بشرٌ مثلهم معروفٌ حسبه ونسبه بينهم، إلا أنّه تميَّز عنهم بهذا الوحي ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وقد جاء هذا البيان في سياق تجريد التوحيد مما قد يعلَق به من تأليه البشر ورفعهم إلى مقام الألوهيَّة، كما فعل النصارى بنبيِّهم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

رابعًا: نبَّه القرآن هؤلاء المشركين إلى دلائل الإيمان وبراهين التوحيد المبثوثة في هذا الكون الفسيح ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

خامسًا: ذكَّر القرآن هؤلاء المشركين بما أصابَ أسلافَهم من الأمم السابقة، وقد اختارَ لهم مَثَلَين من القبائل التي كانت معروفة لهم بحُكم قُرب مساكنهم، وتشابُهِهم في أعرافهم وتقاليدهم، وطبيعة تفكيرهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

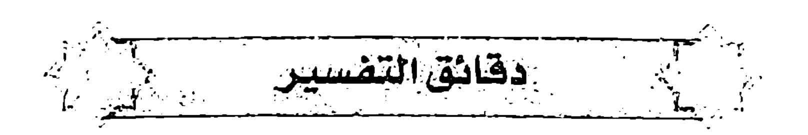
سادسًا: وبعد هذا التحذير من مصيرٍ كمصير عادٍ وثمود وما لاقوه من عذابٍ وهلاكٍ في

هذه الدنيا، عادَ ليُحذِّرهم من العذاب الأكبر والأدوم ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾، ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

وهناك يكون التلاوُم فيما بينهم، ويتبرَّأ بعضهم من بعض بعد أن كانوا يتناصَرُون في هذه الدنيا ويتنادَون لمحاربة الحقِّ وأهله ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

سابعًا: يُشيرُ القرآن إشارةً سريعةً إلى علاقة العقائد الفاسدة بالسلوك الفاسد، والتقصير في حقوق الناس، والإعراض عن مُساعَدة الفقراء والمُحتاجِين ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

ثامنًا: وفي ثنايا هذه الآيات جاء التأكيد بنجاة المؤمنين وتميُّزهم عن هؤلاء المُجرمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾، ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾.



دقائق التفسير

﴿حمٓ ﴾ تقدَّم الكلام في الحروف المقطَّعة أوَّل سورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ هو القرآن الذي جاءت آياته كلُّها واضحة المعنى مُبيِّنةً لأحكام الله في العقيدة والشريعة، ومُفصِّلة لقصص النبيِّين وما فيها من دروسٍ وعبرٍ، فليس في

القرآن ألغاز وأحاجِي، ولا مُبهمات وطلاسِم، بل هو الهدى والنور في كلِّ آيةٍ من آياته، وكلِّ كلمةٍ من كلماته.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلُغته وبيانه، وإلا فالقرآن ربانيُّ المصدر، عالميُّ الرسالة.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ للصلة بين القرآن والعلم.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ هذا هو العِناد الذي يُعمي ويُصم، وهو الذي يحول بينهم وبين طريق الهداية، فقلوبهم لا تفقَه؛ لأنّها مغلَّفة بالأكِنَّة؛ وهي الأغطِية التي تحجُبُها عن التفكير، وهي أغطِية الكِبر والغرور، وآذانهم لا تسمع؛ لأنّها مملوءة بالوَقْر؛ وهو ثِقَل الغلِّ والحسد، وعيونهم لا ترى؛ لأنّ أمامها حجابًا سميكًا من صُنع أنفسهم، وهكذا يكونون قد اعترفوا بأنّهم قد أغلقوا بأيديهم كلَّ منافذ المعرفة فأقامُوا بذلك الحجَّة على أنفسهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ تعريفٌ دقيقٌ للنبوّة، فإنّما النبيُّ بشرٌ يُوحَى إليه؛ فمَن أخرجه عن بشريَّته فقد ضلَّ، وكذلك من ادّعى الوحي بأي صورةٍ من الصور لغير الأنبياء؛ لأنّه نسب النبوّة لغيرهم وإن سمّاها باسمٍ آخر، كما يفعل غُلاة الشيعة ببعض الأئمة من آلِ البيت، وآلُ البيتِ من ذلك براء.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوعٍ ولا منقوصٍ.

﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ من أيّام الله التي هي ليست كأيّامنا؛ لأنّ يوم الأرض إنّما هو ناتجٌ عن دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، فيومها متأخرٌ عن وجودها بالضرورة.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ فالأرض محلٌّ لبركة الله وخيره وفضله، وعلاقة المؤمن بهذه الأرض مبنيَّة على هذا المعنى الودود واللطيف.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ ثرواتها وكلّ ما يحتاجه الناس فيها وفق ميزانٍ دقيق، وهذا مِن شأنه

أن يصنع الطمأنينة في نفوس الناس، ويزيح عنهم الشعور بالقلق والخوف من نفاد الرزق.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ هذا من الأخبار الغيبيَّة التي لا قُدرة للعقل على الإحاطة بها، أو تصوُّرها على حقيقتها كما هي في عالم الغيب، والمقصود منها واضحٌ، وهو تنبيهُ العقل إلى عظمة هذا الخلق ودِقَّتِه، ووضع العقل أيضًا في مكانه الصحيح، فهو يتدبَّرُ ويتأمَّلُ، ولا يتجاوز ذلك إلى القول على الله وعلى خلقه بغير علمٍ.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: توجَّهَت إرادةُ الله إليهما بأن يكونا فكانتا، وقوله: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ معناه: الحتم الذي لا تردُّد فيه، وليس معناه نسبة الاختيار إليهما، فالسماء والأرض لا تَملِكان الإرادة ولا الاختيار، وقوله: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: كانتا كما أراد الله.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ أتمَّ خلقهنَّ.

﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ أي: شأنها، فلكلِّ سماءٍ وظيفتها في هذا الكون، فالله لم يَخلُق هذه السماوات عبثًا، والوحي هنا معناه: التكوين الخلقي، كما قال في النحل: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أي: كوَّنَها وجعل فيها هذه الغريزة.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: زيَّن السماء بالنجوم والكواكب، وفي هذا تنبيهٌ لقيمة الجمال والتزيُّن.

﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾ هذه وظيفةٌ أخرى للنجوم أن يحفظ الله بها السماء، وهذا خبرٌ غيبيٌّ نؤمن به كما ورد، والمقصود به: تأكيد حفظ الوحي النازل من السماء عن أي شائبةٍ من وساوس الشياطين وتخرُّصاتهم.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ أي: فإن استمرَّ أهل مكَّة في إعراضهم.

﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ تذكيرٌ لقريش بما أصاب أسلافهم من مُشركي الأُمم السابقة.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كناية عن أنّ هؤلاء الرسل ﷺ قد سلكوا كلَّ السُّبل، واتخذوا كلَّ الأسباب لدعوة أقوامهم.

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ حُجّة تُردِّدُها هذه الأقوام؛ لتشابُهٍ في طريقة التفكير عندهم، فهم لا يُريدون أن يُكرِّمَ الله إنسانًا من بينهم بهذه الرسالة، بدوافع نفسيَّةٍ لا تخفَى، وربما يقصِدُون أيضًا التعجيزَ أو التهكُّمَ.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ هذا مبعَثُ غرورهم واستعلائِهم الباطل.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ هذا هو القياس الذي يُهذِّب النفوس، ويُلجم نزوات الأقوياء ليتواضعوا، فهم خُلِقوا من لا شيء، وما كانوا يملكون من شيء، حتى الطعام والشراب وقضاء الحاجة لا يستقلُّون بها دون مساعدة الآخرين، فكيف يغترُّون اليوم بقوتهم وهم على علمٍ بأنّها زائلةٌ لا محالة.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة شديدة الصوت، والصرصرة: صوت الدويّ والصفير الذي يصحب الريح إذا كانت مُسرِعة.

﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ في أيّامٍ مشؤوماتٍ نكداتٍ.

﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فأرشدناهم لطريق الهداية وعلّمناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ رفضوا الهداية وآثروا الضلال.

﴿الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ العذاب الذي يُهينهم ويُذِلُّ كبرياءهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي وأنَّ الإنسان إنَّما يحصد ما زرع.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُجمَعُون في مكانٍ واحدٍ.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ شهادة اللوم والتوبيخ؛ لأنّ هذه الحواس كانت تتَّصِل بدعوة النبيين فيكفُّها أصحابها، ولو عقلوا لانتفعوا بها ونجَوا مما أوقعوا أنفسَهم فيه.

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهو نُطقٌ لا نعلم كيفيّته، لكنه ثابتٌ بالنص ولا مانع منه في العقل، فالله الذي أنطق اللسان قادرٌ على أن يُنطق غيره.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى أنكم لم تكونوا تحذَرُون من هذه الشهادة؛ لأنكم كنتم تشُكّون بقُدرة الله عليكم، وبعلمه بأحوالكم، ولم تكونوا تُؤمنون بالبعث والحساب.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: هذا الشكُّ الباطل وتلك الأفكار الخاطئة هي التي أهلكَتكم وقادَتكم إلى هذا المصير البائس.

﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مأوى ومنزلٌ لهم.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: إن يعتَذِرُوا لا يُقبل منهم عُذرُهم، وأصلُ العُتبَى: الرجوع إلى ما يُرضِي العاتِب.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ هيّأنا لهم نُظراء على شاكلتهم، وهذا من جِنايتهم على أنفسهم وليس بظُلم الله لهم - حاشاه -؛ إذ الذي يسير على درب الباطل لن يجد معه إلا قرناء الباطل، وهذه سنّةٌ من سُنن الحياة.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم قُرناؤهم ما هم فيه من الباطل، حتى أحاط الباطل بهم من كلِّ جنبٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى تأثيرِ البيئة في أخلاقِ الشخص وتصوُّراته المُختلفة.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ أي: حقَّ عليهم الوعيدُ الإلهيُّ بإهلاكهم وتعذيبهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا هو دَيدَنُ الباطل في مُواجهة الحقِّ، إنّه يستخدم التضليل والتشويش والإشغال ولو باللَّغو الذي لا معنى له؛ إذ هو أعجزُ من أن يُواجِهَ الحقَّ بالحُجَّة.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ هذه حسرَةُ الأتباع وهم يَجْنُون ثمارَ اتِّباعهم لشياطين الإنس والجن، فليس لديهم سِوَى الأماني، والشعور بالغَبن، والتشفِّي برؤية متبُوعِيهم في هذا العذاب المُهين، وتحت أسفل السافلين؛ وجاء بصيغة التثنية للدلالة على المُضلِّين مِن فريقَي الإنس والجنّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾

في الشَّطر الثاني من هذه السورة يتناولُ القرآنُ الأُمَّةَ المؤمنةَ التي تحمل هذه الدعوة باستقامةٍ وثباتٍ، وما تتميَّز به من خلالٍ وصفاتٍ في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها، وما أعدَّه الله لها من مُؤيِّداتٍ ومُبشِّراتٍ، وكما يأتي:

أولًا: تستهلُّ هذه الآيات ببيان هويَّة هؤلاء الناس الذين يستحقُّون هذه البشارة وهذا التأييد من الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

ثانيًا: يُشخِّصُ القرآن خصائص هذه الأُمَّة المؤمنة في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهي أُمَّة الدعوة إلى الله، وأُمَّة العمل الصالح، وأُمَّة الخُلُق الحسن، وأُمَّة الصبر والحلم، والأُمَّة التي تعتزّ بانتمائها الإسلامي، وبُعدِها عن سُبُلِ الغواية وطُرُقِ الضلال.

ثالثًا: يُنبِّه القرآن إلى دلائل الإيمان والتوحيد في هذا الخلق، مُشيرًا إلى افتراق سبيل المؤمنين الموحّدين عن طريق الكافرين المشركين ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾.

وهنا إشارةٌ أخرى تربط بين هذه الأُمَّة المؤمنة وبين أولئك المُسبِّحين لله في العوالم العلوية، وبهذا تنفتح الآفاق التي لا حدود لها أمام المؤمنين؛ لتمنحهم الثقة والطمأنينة وهم يُواجهون مكرَ هؤلاء المشركين المُعاندين.

رابعًا: ثم يُنبِّه القرآن الكريم إلى عقيدة اليوم الآخر وثبوتها بالدليل الحسّي الملموس، وافتراق المؤمنين عن الكافرين هناك تبعًا لافتراقهم هنا في هذه الحياة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

خامسًا: ثم يؤكِّدُ القرآن أنّه الكتاب الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّه الهُدى والشفاء للمؤمنين ولكلِّ مَن يفتح له قلبه وسمعه وبصره، أمَّا أولئك المعاندون المكذِّبون فسيخسرون أنفسهم، ويخسرون كلَّ شيء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

ثم يدعوهم إلى التفكير في مصيرهم وعاقبة أمرهم وهم يُجازِفون بإنكار رسالة الله الأخيرة إلى هذه الأرض دون علمٍ ولا بيِّنَةٍ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

سادسًا: وكما ربط القرآن هناك بين مشركي قريش وبين عادٍ وثمود، ربط هنا بين المؤمنين بهذه الرسالة - رسالة محمد ﷺ - والمؤمنين بالرسالة السابقة؛ رسالة موسى ﵇: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى

شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

سابعًا: يؤكِّدُ القرآن في هذا السياق عِلمَ الله الشامل الذي لا يغيب عنه شيء ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾.

ومناسبة هذا التأكيد: تأكيدُ أنَّ كلَّ ما ورد في هذه الآيات إنّما هو الحقُّ والصدق؛ لأنّه صادرٌ عن علّام الغيوب سبحانه، وأيضًا لتأكيد الجزاء العادل الذي لا تشُوبه شائبة، فالله يعلم كلّ حسنةٍ وكلّ سيئةٍ، ويعلم المُصلح من المُفسد، وفي هذا زيادة في تبشير المؤمنين، كما هو زيادة في إنذار المشركين.

ثامنًا: يُشخِّصُ القرآن طبيعة البشر ودوافعهم الداخلية، ونزوعهم نحو العاجل من أمرهم، وكأنّه يُنبِّه الكافرين والمُعاندين إلى الجانب النفسي العميق الذي يدفعهم إلى مثل هذا السلوك ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾.

تاسعًا: بعد هذا الدخول إلى أعماق النفس البشريّة، يأخذ القرآن هؤلاء الناس إلى تلك الآفاق الرَّحْبة التي تمدُّ المُتأمِّلين والصادِقين مع أنفسهم بكلِّ دلائل الإيمان، ودلائل صدق هذا القرآن حتى تقوم الحُجّة الكامِلَة، وتستَبِين السبيل بلا شُبهةٍ ولا غشاوةٍ؛ ليهتدي من يهتدي عن بيِّنةٍ، ويهلك من يهلك عن بيِّنةٍ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ربط بين الإيمان والعمل مع تقديم الإيمان؛ لأنّه الأصل، وما العمل إلا ثمرة منه، وفيه التوجيه بأهميّة الاستقامة، فهذه قيمة ومعيار من معايير الصلاح.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ليس في الآية تحديدٌ لوقت هذا التنزُّل وهذا التبشير، لكنّه من الواضح أنّه قبل دخولهم الجنَّة، فيحتمل أن يكون ذلك عند الموت، ويحتمل أن يكون عند البعث، ولا مانع من الجمع بينهما.

وفي نزول الملائكة معنًى مضاف من التكريم لهؤلاء المؤمنين المستقيمين؛ حيث تتنزل ملائكة الرحمن من أجلهم لتُبشِّرهم وتُهدِّئ من روعهم.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فالملائكة لا نؤمن بهم إيمانًا غيبيًّا مُجرَّدًا، بل هم أحبابنا الذين نودّهم ويودّوننا، ولا شكَّ أنَّ استشعار المسلم لهذا المعنى الجميل يغرس فيه روح الثقة والأمل الواسع، والشعور بالأُنس والطمأنينة.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أصل النُّزُل: ما يُقدَّمُ للضيف إكرامًا له.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثلاث صفاتٍ لهؤلاء الصفوة: دعوةٌ إلى الهُدى والخيرِ، وعملٌ نافعٌ صالحٌ، وانتماءٌ لهذه الأُمَّة؛ أُمَّة التوحيد والقرآن.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع السيئة بما هو أحسن منها، وهو بمعنى الإحسان إلى المسيء، وهذا أصلٌ أخلاقيٌّ عظيمٌ لا يقوى عليه إلا الصفوة من عباد الله.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ تأكيدٌ لتأثير الأخلاق حتى في مواقف الأعداء؛ فالخصم الذي يرى منك الحلم والعفو والإحسان سيُغيِّرُ موقفه منك، هذا منطق

الفطرة، فمن ردَّ الإحسان بالإساءة فقد انتكست فطرته، وخرج عن طبيعة الآدميين.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي: تلك الخصلة العظيمة لا يتحلَّى بها، ولا يسعى إليها إلا المُصابِر المُثابِر صاحب المنزلة الرفيعة، والشأن العظيم.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: إن أصابك وسواسٌ من الشيطان؛ من تشكيكٍ بالحقِّ، أو تزيينٍ للباطل فاحْتَمِ بالله، واطلُب المَدَدَ والعَونَ منه.

﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ أي: لا يملُّون.

﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ ساكنة يابسة لا نبات فيها ولا حركة.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: اهتزَّتْ بحركة الماء فيها، ونمَتْ بالنبات الخارج منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ تشبيهٌ حسيٌّ؛ فإحياءُ البذرة الكامنة في التربة بعد سُكونٍ طويلٍ يُقرِّبُ إلى العقل صورةَ إحياء الناس بعد أن يسكُنُوا طويلًا في تربة الأرض.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ الإلحاد هنا معناه: الإعراض عن آيات الله الكونيَّة، وعن آياته القرآنيَّة، فلا يتدبَّرون هذه، ولا يُفكِّرُون في تلك، حتى قادَهم هذا الإعراضُ إلى الكفر، فهؤلاء يتوعَّدهم الله هذا الوعيد: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ ثم أكَّد مضمون هذا الوعيد بقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وبلغ الوعيد مداه بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذه التأكيدات تدفعُ العاقل ليُعيد النظر في موقفه، وتُنبِّهُ الغافل ليستيقظ من غفلته.

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ أي: ليس فيه ثغرة في أيِّ جانبٍ من جوانبه، أو حُكمٍ من أحكامه تحتمل الشكّ، أو تلتبِس بالباطل.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ هذا الإخبار فيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ وهو يواجه كلَّ هذا الصدود والإعراض، وفيه تأكيد العمق التاريخي لهذا الصراع بين جبهة الحقِّ

وجبهة الباطل.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: لقال المشركون مُعترضين: هلَّا بُيِّنت آياته بالعربيّة لنفهَمَها.

﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ هذا القول من تتِمَّةِ اعتراضهم، يقولون: كيف يكون الكتابُ أعجمِيًّا، والمُخاطَبُ به عربيًّا؟

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ بمعنى أنّ هؤلاء المشركين لا ينتفعون بهذا القرآن الذي نزل بلُغتهم، ليس لغموضه وإبهامه فقد جاء مفصَّلًا مبينًا، ولكنَّه الوَقْر الذي سدَّ آذانهم، والعَمَى الذي غَشّى عيونَهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا الأجل المُسمَّى الذي حدَّده الله لهم لقَضَى عليهم بالهلاك، ولكنَّه يُمهِلُهم حتى انتهاء أجَلِهم.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فلا يعلم الساعةَ إلَّا الله.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: كلُّ ثمرةٍ تخرج من غشائها المحيط بها فالله أعلم بها.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ وهنا تشبيهٌ لطيفٌ بين الطفل الذي يكون في بطن أُمِّه ثم يخرج إلى هذه الحياة، وبين الثمرة التي تستتر في غشائها وهي في شجرتها حتى تنضج فتخرج، وفي التشبيه إشارةٌ إلى وحدة هذا النظام الكوني البديع الذي يشهدُ بوحدانيَّة الخالق سبحانه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هذا سؤالٌ من الله يوبِّخ به هؤلاء المشركين، فيُجيبونه بالندم والحسرة أنّهم يعترِفون له بأنّه ليس فيهم شاهدٌ يشهَد اليوم بأن لله شريكًا.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ما لهم من مَهرَب.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يمَلُّ من طلَبِ الرزق.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: وإن مسَّه الفقرُ ونحوه فهو شديدُ اليأس، شديدُ القُنُوط، وهذه طبيعةٌ بشريَّةٌ إلَّا للمؤمن الواثق بربه، المُطمئن إلى رحمته، العارف بسرِّ هذه الحياة وأنَّها تقوم أساسًا على الاختبار وليس الاستقرار، واليأس والقنوط بمعنًى متقارب.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ وهذه طبيعةٌ بشريَّةٌ أخرى، وهي بالمشركين ألصق وألْيَق؛ حيث إنَّهم إذا أصابَت أحدَهم النعمة بعد الكرب والشدّة نسَبَها لنفسه، كأنّه يفخَر بقدراته ومهاراته أن حوَّل النقمة إلى نعمة، والشدّة إلى يُسر.

ثم يصِل به هذا الغرور إلى حدِّ نسيان الآخرة أو الكفر بها: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ثم يتمادَى أكثَر ليقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ لأنّه يرى نفسَه أهلًا لكلِّ خيرٍ، ولا يَبعُد أيضًا أن يقول هذا على سبيلِ الاستِهزاء والسُّخرية من المؤمنين.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ وهذه طبيعةٌ ثالثةٌ؛ فالإنسان في حال النعمة يطغى وينسى، ويعرض عن الحقِّ تكبُّرًا وغُرورًا، فإن انتكَسَ وافتَقَرَ وأصابه الضُّرُّ أكثَرَ من الدُّعاء والسُّؤال.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب فيه استدراج بالحوار للمشركين، فهم لم ينظروا تمام النظر في هذا القرآن، وإنّما أعرضوا عنه استعلاءً واستكبارًا، فهو يقول لهم: ماذا لو كان هذا القرآن من عند الله؟ وهذا مُحتمل بالنسبة لهم وإن كان مُتيقَّنًا في حقيقة الأمر، والقصد من هذا الاستدراج: تشجيعهم على النظر والتفكير الجاد.

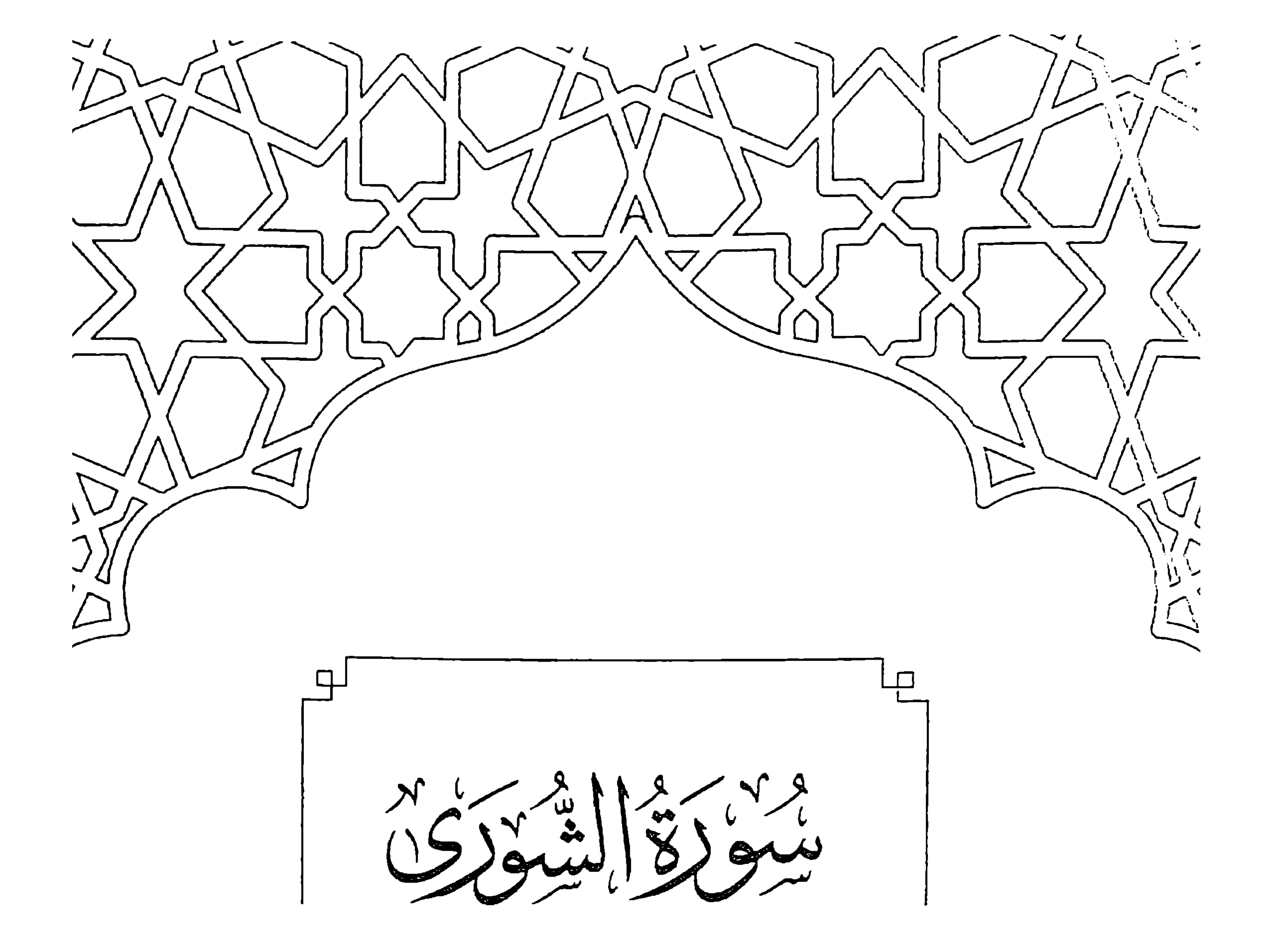
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ هذا وعدٌ إلهيٌّ بأنّه سبحانه سيؤيِّد هذا القرآن بالدلائل القاطعة في آفاق الكون، وفي حياة الإنسان وأسرار تكوينه، فكلَّما تقدَّم العلم وتوسَّعَت الكشوفات الكونيَّة والعلميَّة، ظهَرَت دلائل القرآن وأدلَّة صدقه.

وفي الآية أيضًا إشارة لقريش يتوعَّدهم بظهور آياته فيهم، كما حصل لهم في بدرٍ، ثُمَّ في فتح مكَّة، وآنذاك ظهر لكلِّ متشكِّكٍ فيهم أنّ هذا القرآن إنّما هو الحقُّ، فدخلوا في دين الله أفواجًا.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالِمٌ بما في القرآن؛ لأنّه كلامُهُ، وبما في الكون؛ لأنّه خَلقُه.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شكٍّ.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ إي: إنَّه سبحانه مُهيمِنٌ على هذا الكون بعلمه وقدرته، فلا يغِيبُ عنه شيءٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ.



سُورَةُ الشُّورَىٰ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِىُّ وَهُوَ يُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَىۡءٍ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجًا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

الوحي الإلهي لمحمد وللأنبياء السابقين عليهم السلام

يُمثِّل الوحيُ الموضوعَ الأساسَ لهذه السورة؛ حيث استهلَّت السورةُ بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم ثنَّت بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، ثم ثلَّثت بقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وأخيرًا راحت السورة تختتم بما استهلَّت به مُفصِّلةً للوحي وأنواعِه ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

في الآيات الأُوَل: جاء الحديث عن الوحي وامتداده التاريخي في سلسلة الأنبياء السابقين حتى كمل على عهد النبيِّ الخاتم سيدنا محمد صلى الله وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين أجمعين، ثم جاء الحديث بعدها مُركّزًا في الذين كفروا بهذا الوحي، وجادلوا فيه بغير حقٍّ، ثم اختتَمَت السورة بأهل الإيمان وصفاتهم وأحوالهم، أولئك الذين استجابوا لهذا الوحي واهتَدَوا بهُداه، فهداهم الله لكلِّ خيرٍ.

أولًا: أكّد القرآن أنَّ مصدر الوحي للأنبياء السابقين وللنبي الخاتم ﷺ إنّما هو الله وحده ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وهذا يقتضي وِحدة الدين، فليس هناك أديانٌ مختلفةٌ كما يتوهَّم المُتوهِّمُون، وقد أكَّد القرآن نفسه هذه النتيجة الحتميَّة ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾.

وفي هذا السياق ينبغي أن نفهم طبيعة الرسالة الإسلاميَّة، فهي رسالةٌ عالميَّةٌ ممتدَّةٌ على مساحة الأرض كلِّها، وموصولةٌ بالعمق التاريخي لكلِّ الرسالات السماويَّة حتى وإن بدأت بمكَّة وكانت على لسانهم ولُغتهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾.

فمكَّة مُنطلَق الرسالة وليست الرسالة حِكرًا عليها، والعربيَّة لغة القرآن وليس القرآن حِكرًا للعرب، فهذا كلُّه منقوضٌ بالسياق، ومنقوضٌ بصريح قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثانيًا: أكّد القرآن أنَّ الدعوة الحقّ إنّما هي الدعوة لهذا الدين بمفهومه العالمي الشامل، وبامتداداته التي تشمل الوحيَ الإلهي كلّه، والرسالات السماويَّة كلّها ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

ثالثًا: أكّد القرآن أنّ الله سبحانه الذي أنزل هذا الوحي، وشرَّع هذا الدين هو الذي خلق هذا الخلق

وأبدَعه، وبالتالي فهو الأعلَمُ بما يصلُحُ له، بخلاف الأهواء التي تُحاول أن تُنازِع اللهَ في خلقه وملكه وأمره ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وتأكيد الترابط بين وحدانيّته سبحانه في الخلق، ووحدانيّته في الملك، ووحدانيّته في الحكم والتشريع منهجٌ قرآنيٌ واضحٌ ومكررٌ في كثيرٍ من سور القرآن، وهو ترابطٌ منطقيٌّ أيضًا؛ فالذي يخلُق هو الذي يَملك، والذي يَملك هو الذي يتصرّف في ملكه كيف شاء.

رابعًا: ندّد القرآن بموقف المشركين الرافضين للوحي، والهائمين حول آلهتهم المزيّفة التي لا تملِك لهم نفعًا ولا ضرًّا ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

خامسًا: ثمّ ندّد القرآن بأولئك الذين آتاهم الله العلم - والإشارة هنا إلى أهل الكتاب - لكنّهم حرّفوا رسالات الله، وفرّقوا دينه، وأثاروا الفتنةَ بين عباده ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

دقائق التفسير

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴾ تقدّم الحديث عن الحروف المقطّعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فمصدر الوحي لكلّ الأنبياء واحدٌ وهو الله تعالى، وذِكْرُ العزيز الحكيم مُشعِرٌ أنّ هذا الوحي فيه العزة والحكمة، وهما قوام الأمر.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي: يتشقّقنَ من أعلاهنَّ، أو يتشقّقنَ من فوق الأرضين؛ لما فيها من شركٍ وظُلم، و(تكاد) تُفيد استعظامَ الأمر حتى كأنه يُوشِكُ أن يقَع، لكنّه لم يقَع، وهذا نظيرُ

قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٠].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الإخبار باستِغفار الملائكة لَمن في الأرض يُشعِر بالودِّ والصداقة بين المؤمنين وبين ملائكة الله المُقرَّبين، وهذا الشعور له آثارُه العمليَّة الجميلة في حياة الناس.

﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ عليهم يُحصِي أعمالهم ويُجازيهم بها.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: ما أنت بمُوكَّل بِهِم ولا بمسؤولٍ عن صُدودهم وإعراضِهم.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلُغته وفصاحته، وهذا لا ينفي عالميَّته.

﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مكّة؛ سُمِّيت بذلك لأنّها سيّدة القرى.

﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة؛ سُمِّي بذلك لاجتماع الخلائق فيه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كما جعل الملائكة موحّدين على طاعة الله، ليس فيهم عاصٍ أو مُكذّب.

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ هذا الاستدراك قُصِد به بيان خصوصيَّة هذا الإنسان؛ فهو مُكلَّفٌ مُختارٌ، وهو يتحمَّلُ مسؤوليَّة اختياره، وليس مجبولًا أو مُجبَرًا بطبيعة خِلقته على فعل الخير أو الشر.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ﴾ بحكم أنّه سبحانه هو خالق الخلق، وهو أعلم بما يُصلحهم، ومن ثَمَّ أنزل لهم هذا الوحيَ، وأقامَ عليهم الحجّة به.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ منشئها من العدم، وخالقها لا على مثالٍ سابق.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ﴾ أصلٌ من أصول العقيدة الإسلاميَّة، وركنٌ من أركان التوحيد فيها، فالله ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾ أي: له مُلكُها وخزائنُها.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يُوسِّع على من يشاء في الرزق.

﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي: ويُضيِّق على من يشاء.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فذلك البسط وهذا التقدير إنّما يجريان بعلم الله وحكمته تعالى في خلقه.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: سَنَّ لكم وأوضَحَ وبيَّن.

﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ فإقامة الدين الحقّ تنفي الفرقة؛ لأنّها تجمَعُ القلوبَ على غايةٍ واحدةٍ، وطريقةٍ واحدةٍ.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: شقَّ عليهم اتِّباع الحقّ الذي تدعُوهم إليه.

﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾ يختار الأنبياء من بين الناس ليحملوا الدين ويبلّغوا الرسالات.

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يُوفِّق للدخول في هذا الدين من يطلب الهداية ويسعى لها.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بيانٌ لسبب تفرُّق أهل الكتاب مع وجود الوحي بينهم، والسبب هو البغي، بمعنى أنّ سبب تفرقهم لم يكن عن اجتهادٍ في فهم الدين، وإنما اتِّباع الهوى والمنافسة في الباطل.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: لولا أنّ الله حَكَمَ بتأخير العذاب عنهم إلى الأجل المُحدَّد بعلم الله وقدرته لتَمَّ الفصل بينهم والحكم عليهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هم أحفاد أهل الكتاب الذين ورثوا الكتاب عن أجدادِهم ثم عاصروا البعثة المحمديَّة.

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي: لفي شكٍّ مِن هذا القرآن.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ ربط بين قيمة الصلاح والإصلاح؛ فالدعوة إلى الحقِّ قيمة، والاستقامة على الحقِّ قيمة أخرى.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الضد من الصلاح والإصلاح إنّما هو الهوى.

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أمر بالإيمان بكلِّ الكُتب السماويَّة؛ تأكيدًا لوحدة الدين،

وقد أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ﴾.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾ تأكيدٌ لقيمة العدل، وقد أكَّد هذا بقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ﴾ فتلخَّصَت في هذه الآية أربع قِيَم رئيسة: الصلاح، والإصلاح، والوحدة، والعدل.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ﴾أي: لا مُحاجَجة، بمعنى أنّه إن تحقَّقَت هذه القِيَم فلا خصُومة بيننا ولا منازَعة؛ لأنّ المُحاجَجة لا تكون إلَّا بين خصمَين مُختلِفَين.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ﴾ أي: يوم القيامة فيَجزِي كلَّ عاملٍ بما عمل.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

الذين يُحاجّون في الله ويكفرون بأنبياء الله

في هذه الآيات يعرِضُ القرآن حال أولئك المكذِّبين بالوحي الذين يجادلون في الله بغير علمٍ، بحوارٍ ومقارناتٍ تكشف جهلهم وتحذِّرهم ذلك المصير البائس:

أولاً: أكّد القرآن أنّ هؤلاء المُكذِّبين ليس لهم حُجّة تدفعُهم إلى هذا التكذيب ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثانيًا: وبَّخ القرآن أولئك المكذِّبين على تكذيبهم الذي لا يستَنِدُ إلَّا على خُرافةٍ فاسدةٍ تُقدِّس الأحجارَ من غير نظرٍ ولا فكرٍ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثالثًا: نبَّه القرآن إلى سببٍ آخر من أسباب التكذيب والتِّيه والضلال، وهو التشكيكُ بيوم الحساب والجزاء، وهذا من شأنه أن يدفع الإنسان نحو الظُّلم والعبث والبحث عن المتاع الزائل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

رابعًا: نبَّهَ القرآن هذه العقول إلى آيات الله المبثُوثة في هذا الكون، والتي تشهَدُ بوحدانيَّة الخالق ﷻ وتفاهَة هذه الآلهة المُزيَّفَة وحقارَتها أمام هذا الكون الكبير ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

خامسًا: حذَّر القرآن أولئك المكذِّبين من سوء العاقِبة التي تنتظرهم جزاءً على كفرهم وظلمهم وعنادهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ﴾، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

سادسًا: فتَحَ القرآن بابَ التوبة الواسع، مؤكِّدًا وعْدَ الله الأكيد بالعفو والمغفرة لكلِّ مُقبلٍ على الله، صادقٍ في أَوبَته وتوبته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

سابعًا: يُؤكِّد القرآن عقيدة العدل الإلهي، وأنَّ كلَّ عاملٍ إنَّما يُجزى بعمله؛ فطالب الدنيا يُعطيه الله من الدنيا ما يشاء، وطالب الآخرة يعطيه الله الآخرة، والله يزيد من فضله وكرمه ما يشاء ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ

حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾، ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾.

ثامنًا: عرَضَ القرآن مقارنةً بين مصير أولئك البائسين الخاسرين وبين الوعد الإلهي الموعود والبشرى الطيبة لعباد الله المؤمنين المتقين ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ ﴾.

تاسعًا: أكَّد القرآن نزاهةَ الرسول ﷺ - وهو المُبلِّغ للوحي - عن أيِّ مطمعٍ أو غرضٍ آخر لا يتصل بالوحي ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ ﴾ أي: إنّما أدعوكم لله ولا أبتغي بذلك أجرًا غير الحرص على إيصال الخير لكم؛ لأنكم أهلي وعشيرتي، فأدعوكم لأن تصِلُوا هذه القرابة ولا تقطعوا هذه الرحم التي بيني وبينكم.

دقائق التفسير

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يجادلون في توحيده وإخلاص العبوديّة له.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: مِن بعد ما استجابَ له المؤمنون المُوحِّدون، فآمنوا به وصدّقوا بنبيِّه، وظهر الحقّ، وقامَت الحُجَّة.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ ﴾ الحقُّ يعني: الصدق والصواب والثبات، بخلاف الكذب والباطل والتذبذب، والميزان يعني: العدل والتوازن، فليس فيه ثغرة للظلم، ولا انحِياز لجانبٍ على جانبٍ، وهذه جملةٌ من القِيَم الرئيسة اختصرَتْها هاتان الكلِمَتان الشريفَتان.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: وما يُعلِمُك، والعبارة تأتي عادةً لتهيئة المُخاطَب إلى الكلام الذي بعدها إشعارًا بأهميته، وقريبٌ أي: قريب زمانها، والمعنى هذا شائعُ الاستعمال في قريبٍ وبعيدٍ ونحوهما، والله أعلَم.

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ على سبيل التحدِّي والاستهزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ خائفون وجِلون؛ لأنّ فيها الحساب، والمؤمن مهما بلغ من الطاعة يبقى خائفًا وجِلًا من ذلك اليوم، وهذا من علامات الإيمان، وهو الذي يدفعه لمحاسبة نفسه ومراقبة أعماله، وتلك حقيقة التقوى.

﴿يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون في وقوعها.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ أصلُ الحرث: تهيئة الأرض لزراعتها، ثم استُعمِل في الزرع نفسه وما يكسبه الناس نتيجةَ جُهدهم وعملهم، فيكون المعنى أنّه مَن عمل للآخرة أعطاه الله أكثر مما يرجو.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن عمِلَ للدنيا أعطاه الله من الدنيا بحسب جهده، والله لا يظلِمُ أحدًا، أما الآخرة فليس له نصيبٌ منها؛ لأنه لم يُؤمن بها ولم يعمَل لها.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ تأكيدٌ لحقّه ﷻ وحده في التشريع؛ فكل حُكمٍ لا يؤخذ من الوحي، أو يُستنبط منه، أو يُقصَد به تحقيق مبادئ الوحي ومقاصده فهو حكمٌ باطلٌ مُتجاوِزٌ على هذا الحقّ الثابت لله، بحكم أنّه لا خالق لهذا الكون غيره، ولا مالك له سواه.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي: لولا حكم الله السابق بتأخير الحساب إلى أجله المعلوم لحكم الله عليهم اليوم بما يستحِقُّون.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: تراهم يوم القيامة خائفين مما كانوا قد اقترفوه في الدنيا من كفرٍ وظلمٍ.

﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ أي: الجزاء الذي يستحِقُّونه.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ هذا استثناءٌ منقطعٌ؛ فالرسول لا يأخذ أجرًا على الدعوة أبدًا، وإنّما دعاهم لصلة الرحم والحفاظ على مودَّة القُربى التي تجمعه ﷺ بهم، وهذا من حُسن التلطُّف بهم، وجميل التواصُل معهم.

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ أي: ومن يكسِب حسنةً، والاقتراف: الاكتساب، وهو مُستعملٌ في الخير والشر.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ بمعنى أنّ الله لا يُقرُّ من يكذب عليه، فلو كان ما يقولونه صحيحًا لختم الله على قلبك وسلبك الإدراك، وأنساك كلَّ ما تقول.

﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ هذا كلامٌ مستأنفٌ قُصِد به تأكيد سنَّة الله في إبطاله الباطل وإحقاقه الحقّ، وإنّما يعرف الحقّ بكلمات الله ووحيه الثابت لأنبيائه ﷺ، والفعل (يَمْحُ) حقُّه الرفع، وإنما حُذفت الواو تخفيفًا؛ إذ لا يصح عطفه على جواب الشرط؛ لأن المعنى سيكون: فإن يشأ الله يَمحُ الباطل، كما أنّ رفع الفعل (يُحِقُّ) المعطوف على (يَمْحُ) دليلٌ آخر على الرفع.

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ أي: يستجيب الله لهم ما يرجُونه ويزيدهم فوق ذلك، هذا بدلالة السياق؛ لأنّ الفعل (يستَجِيب) جاء بين أفعال كلّها مُسنَدة إلى الله تعالى، فقبلَه جاء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، وبعده جاء: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ والله أعلم.

﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ بيان لسُّنَّةٍ من سُنَن الله في الخلق؛ أنّه سبحانه لا يُنزِّل الرزقَ إلا بقَدرٍ معلومٍ، وفي هذا القَدر يتفاوَتُ الناس ليخدم بعضهم بعضًا، ولتتنوَّع المِهَن والأعمال وأسباب الرزق، أما لو فتح الله لهم الرزق ووسَّع عليهم جميعًا، فإنّ الحياة ستتوقَّف لتوقُّف كثيرٍ من الأعمال والحرف، ثم إنّ الترَف مع كونه مدعاةً للكسل والإحجام عن كثيرٍ من الأعمال، فهو كذلك مظنَّة البطر والظلم، والله أعلم.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ بيان لسُنَّةٍ من سُنَن الله في الخلق؛ أنّه سبحانه لا يُنزِّل الرزقَ إلا بقَدرٍ معلومٍ، وفي هذا القَدر يتفاوَتُ الناس ليخدم بعضهم بعضًا، ولتتنوَّع المِهَن والأعمال وأسباب الرزق، أما لو فتح الله لهم الرزق ووسَّع عليهم جميعًا، فإنّ الحياة ستوقَّف لتوقُّف كثيرٍ من الأعمال والحرف، ثم إنّ الترَف مع كونه مدعاةً للكسل والإحجام عن كثيرٍ من الأعمال، فهو كذلك مظنَّة البطر والظلم، والله أعلم.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ تأكيدٌ لتحمُّل الإنسان مسؤوليَّته؛ فمَن كسب خيرًا نالَ خيرًا، ومَن كسب شرًّا نالَ شرًّا، والمصيبةُ هنا: ما يُصيبُ الناسَ في حياتهم الدنيا من قَحطٍ ووباءٍ، وفتنٍ وحروبٍ، فهذه قد تكون نتيجةً لعمل الشرِّ نفسِهِ، وقد تكون عقوبة إلهيَّة عاجلة لردع الظالم وتنبيه الغافل.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الخطاب للمشركين بمعنى أنّكم لا تجدون لكم مخرجًا أو مهربًا من عذاب الله وقدرته عليكم، لا في الأرض ولا في السماء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ شبَّه السفن الكبيرة وأشرعتها العالية بالجبال، مُنبِّهًا إلى قدرة الله في حمل الناس وأمتعتهم على سطح الماء وفق توازنٍ كونيٍّ دقيقٍ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ تنبيهٌ إلى التوازُن والتكامُل بين ماء البحر وحركة الريح وهذه السُّفُن العائِمَة، فلو سكَنَت الريحُ لتوقَّفَت السُّفُن، وهذا هو المعهُودُ في تلك السُّفُن الشِّراعيَّة التي لم تكن لها طاقة تُسيِّرُها سِوَى حركة الرِّيح.

﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر.

﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي: إنّ الله قادرٌ على أن يغرقهنَّ، ويُهلِك مَن فيهنَّ عقوبة لهم على شِركهم وظلمهم، ومن رحمته سبحانه حتى بهؤلاء أن عقَّب على هذا بقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالباطل تكذيبًا واستهزاءً.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ما لهم من مفرٍّ ولا مهرَبٍ.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾

الذين استجابوا لربهم وآمنوا بهذا الوحي

في مُقابل أولئك الضالِّين المُكذِّبين، يعرِضُ القرآن لنا في هذه الآيات حالَ المؤمنين الذين استجابوا لله، وآمنوا بنبيِّه، وصدَّقوا برسالَتِه:

أولًا: تأكيد الوعد الإلهي المُتقدِّم لهؤلاء الصفوة ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ثانيًا: تأكيد القرآن أنَّ هؤلاء الصفوة إنَّما استحقُّوا ذلك الوعد الكريم باستجابتهم لله، وخضوعهم للحقِّ، وتصديقهم بالوحي، واستقامتهم على الصراط المستقيم ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن

عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

ثالثًا: بيان أنّ الشورى هي الأساس الثاني بعد الوحي، والذي يقوم عليه هذا المجتمع المؤمن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فكلُّ ما لا نصَّ فيه من الأمور العامة؛ كالسياسة، والإدارة، والعلاقات العامة، ومجالات السِّلْم والحرب، وتعيين الوُلاة والقضاة، وسياسات التعليم، والاقتصاد والتدابير، والتعازير، ومُواجهة التحدِّيات، وحلِّ المشكلات، كلّ ذلك لا بُدَّ أن يستَنِدَ إلى الشورى بعد الاهتداء بنور الوحي، والشورى مسؤوليَّةٌ تتطلَّب العلم والأمانة في القول والشهادة، وليست هي حقًّا مُجرَّدًا.

رابعًا: بيان أنّ هذه الشورى مُتصلة بعقيدة الأُمَّة وهويَّتها، ومُنبثِقة عن معنى العبوديَّة الخالصة لله، ومقرونة بإرادة الخير والتعاون والتكافل بين المسلمين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

خامسًا: بيان أنّ هذا المجتمع المؤمن بالله والمصدِّق بوحي الله مجتمعٌ نظيفٌ وحليمٌ، إنّه مجتمع الأخلاق والقيم والآداب الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

سادسًا: بيان أنَّ هذا المجتمع مجتمعٌ قويٌّ وشجاعٌ، وقادرٌ على حماية نفسه بالحقِّ والعدل دون تعسُّفٍ ولا عُدوانٍ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، ثم بيَّن القرآن قانون العدل في هذا، مرغِّبًا في الوقت نفسه بالصفح والعفو، فهذا من خُلق المؤمنين الشجعان ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

سابعًا: بيان مُفترَق الطريق بين هؤلاء المؤمنين الصادقين وبين أولئك الكاذبين المكذِّبين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟

أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

ثامنًا: توجيه الدعوة لهؤلاء المكذِّبين وللناس كافَّة أن يستجيبوا لربِّهم كما استجاب هؤلاء المؤمنون، وهي دعوةٌ مقرونةٌ بالتحذير من مغبَّة الإعراض والعناد ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

تاسعًا: تأكيد أنّ الله وحده مالك هذا الملك، وهو الذي يخلق ما يشاء، ويرزق من يشاء، ويمنع من يشاء بعلمه سبحانه الشامل لكلِّ شيءٍ، وقدرته التي لا يُعجزها شيء ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

عاشرًا: بيان أنواع الوحي الإلهي، وأنّه سبحانه كما يخلق ما يشاء ويرزق مَن يشاء، يُوحي لمن يشاء، وبالطريقة التي يشاء، فله سبحانه الخلق والأمر، وليس لأحدٍ سواه ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ وهكذا تكون السورة قد ابتَدَأَت بالوحي واختتَمَت به، والله الهادي سواء السبيل.

دقائق التفسير

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما أعطاكم الله من رزقٍ فإنكم تتمتَّعُون به مُدَّة حياتكم في الدنيا ثم يزُول.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ما أعدَّه الله في الآخرة لعباده المؤمنين خيرٌ من هذا المتاع وأدوَم.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يكظِمُون غيظَهم، ويتجاوَزُون عمَّن أساءَ إليهم.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: تبادُل المعلومات والآراء والنصائح للوصول إلى الرأي الأصوَب فيما لا نصَّ فيه من الشرع.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ والبغيُ هو: العدوان ومجاوزة الحقِّ، وهذه الآية تهيئة للمسلمين أن يستعدُّوا لدفع الضُّرِّ عنهم، وكأنّها مقدِّمة لفقه القتال الذي نزل بعد ذلك في المدينة، ومعنى ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ هنا أنّهم يردُّون البغيَ وينتَفِضُون عليه.

والجمعُ بين هذه الآية والتي قبلها: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أنّ مُوجِبات الغضب أوسَع من البغي، وليس كلُّ مُوجِبٍ للغضب يستَدعِي الردَّ، إلَّا إذا وصَلَ إلى حدِّ البغي ومُجاوزة الحقِّ والحدِّ؛ كالعدوان الذي يستهدِف الدين ووجود المسلمين، فهنا الانتِفاض واجبٌ بالقَدر الذي يردُّ العدوان، والله أعلم.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ هذا ضابط في ردِّ العُدوان؛ أن يكون الردّ بقدر العدوان فلا يزيد عليه ولا يتوسَّع به، وسمّى الرد المشروع ﴿سَيِّئَةٞ﴾ على طريقة المشاكلة؛ لأنّه ردٌّ لسيئة البغي.

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ عَودٌ على بِدء في الترغيب بكظم الغيظ إذا لم يكن فيه خطرٌ على الدين نفسه.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: ما عليهم من إثمٍ ولا حرجٍ.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: إنّما الإثم على هؤلاء الظالمين، وليس على من ردَّ الظلم عن نفسه.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ترغيبٌ آخر في الصبر وكظم الغيظ، والقرآن يؤكِّد هذا؛ لما فيه من خُلُقٍ نبيلٍ، ولما فيه من مصلحةٍ أيضًا للمؤمنين وهم يعيشون تحت سَطوة المشركين في مكّةَ؛ لأنّ الردَّ على كلِّ إساءةٍ منهم قد يفتَحُ بابًا من الفتنة لا يتحمَّله المسلمون في ذلك الوقت؛ ولذلك وصف هذا الصبر والكظم أنّه من عزم الأمور؛ لأنّه صبرٌ عن وعيٍّ وحكمةٍ وسداد رأيٍ.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: لما رأوا عذابَ الآخرة صارُوا يتمنَّون الرجوعَ إلى الدنيا.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على النار.

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يُسارِقُون النظرَ إلى النار خوفًا منها وكراهيةً لها.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: عذاب دائم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهداية ولا إلى النجاة، وإضلال الله لهم إنّما كان على سُنَنِهِ العادلة سبحانه، فهو لا يظلم أحدًا، ولا يُجبِرُ أحدًا على الضلال، وإنّما من طلب الضلالة ضلَّ، كما أنّه من طلب الهداية هُدي، فلو كانوا لا سبيل لهم إلى الهداية بإكراه الله لهم لما استحقُّوا الملامة، ولما بعث الله لهم الأنبياء مُبشِّرين ومُنذِرين.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: لا تقدِرُون أن تُنكِرُوا شيئًا مما اقترَفتُموه.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ فهذه وظيفةُ الرسل أن يُبلِّغوا وحيَ الله إلى عباد الله، وليسوا مُوكَّلِين بعد ذلك على إرادةِ الناس وهدايتهم.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ هذه طبيعةٌ بشريةٌ عامةٌ؛ فالإنسان يفرَحُ بالنعمة، ويقنَطُ عند المصيبة، وقد يُوصِلُه القنوط هذا إلى السخط والكفر، إلَّا مَن زكَّى نفسَه بنور الوحي، وهذَّبها بأخلاق المتقين، وقد ورد قريبًا من هذا في سورة المعارج: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي: يَهَبُ له الإناثَ دون الذكور.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: يَهَبُ له الذكورَ دون الإناث.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ أي: يجمع له الذكورَ والإناثَ.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ فلا يولد له، فهذه قسمةٌ رباعيةٌ، وقد عقَّب القرآن عليها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ بمعنى أنّ هذا كلّه كائنٌ بعِلم الله وقدرته، كما أنّه يُقسِّم الأرزاق بعلمه وقدرته، وكلّ ذلك لحكمةٍ يعلمها هو سبحانه.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ هذه ثلاثُ طرائقَ لبلوغ

وحي الله إلى أنبياء الله:

أولاها: الإلهام، بأن يقذف الله في قلب النبيِّ الوحيَ على سبيل اليقين والجزم، فذلك قوله: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾.

وثانيتها: أن يسمع النبيُّ كلامَ الله من وراء حجاب، كما حصل لموسى ﷺ، وذلك قوله: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.

وثالثتها: أن يأتي مَلَك الوحي - وهو جبريل ﷺ - فيُبلِّغ النبيَّ ما أمره الله به، والقرآن كلّه نزل بهذه الطريقة بدلالة قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]. وقد بقِيَت طريقة الرؤيا، وهي طريقةٌ ثابتةٌ من طرق الوحي بالنسبة للأنبياء، بدلالة قول إبراهيم لابنه إسماعيل ﷺ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فأجابَهُ الابن: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، والأظهر أنّ هذا من جنس الطريقة الأولى وهي الإلهام، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ أي: كما أوحَينا إلى الأنبياء السابقين، أوحَينا إليك هذه الرسالة الخاتمة، وقد سمّاها روحًا؛ تشبيهًا لها بالروح التي لا تكون الحياة إلّا بها.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: ما كنت تدري عن القرآن شيئًا قبل أن نُوحِيه إليك، ومع ما في هذا من المنّة، إلا أنّ المقصود الأكبر به: تأكيد أنّ هذا القرآن إنّما هو من عند الله، فلم يكن النبيُّ ﷺ عالمًا به، ولا مُتشوِّفًا له.

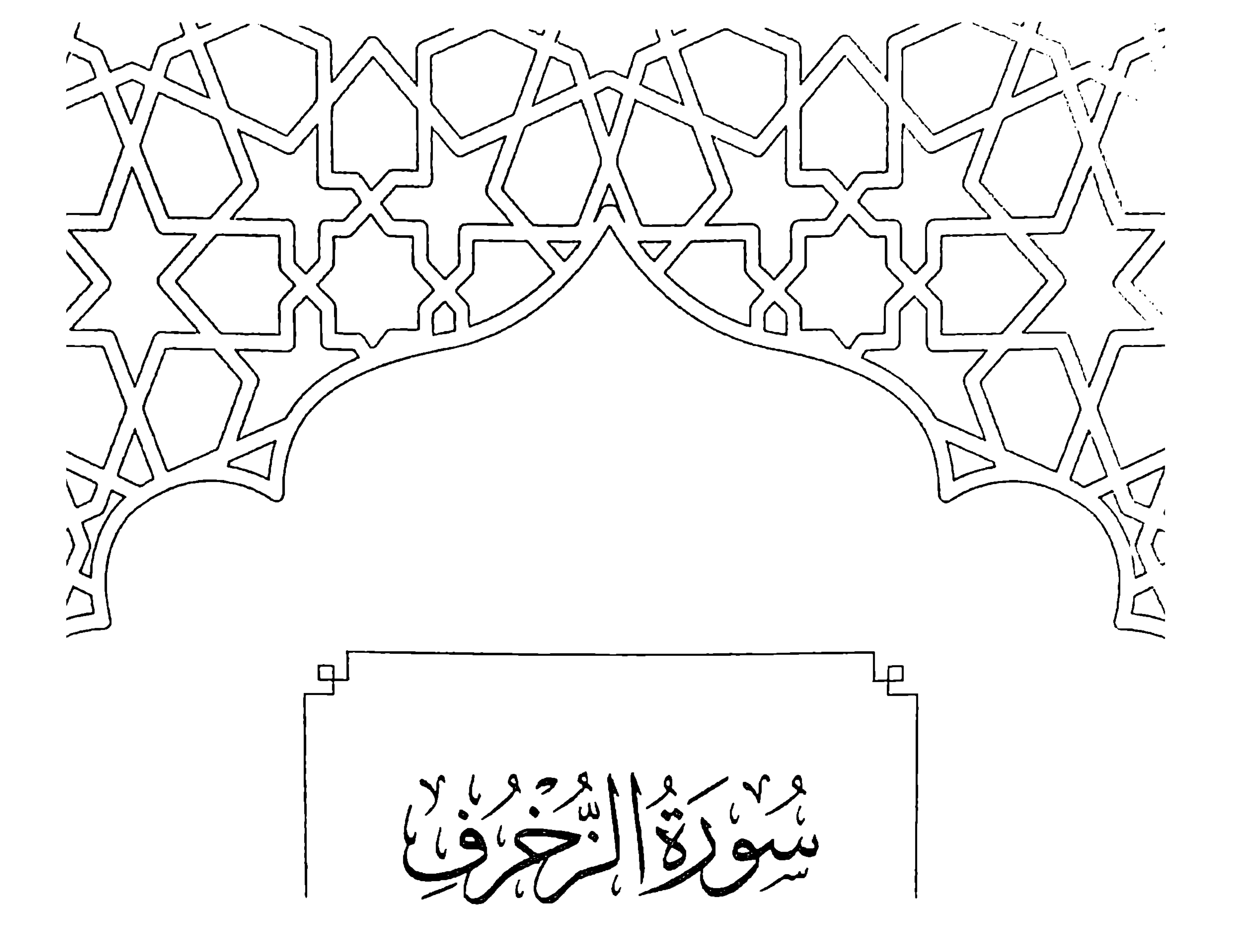
﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ وما كنت تعلَم عن العقائد الغيبيَّة؛ كأسماء الله وصفاته، وأحوال الآخرة وأهوالها، وكذلك أسماء النبيين وقصصهم، فهذا كلُّه إنّما علِمَه النبيُّ ﷺ عن طريق الوحي، أمّا معرفة الخالق فهي فطرةٌ مغروسةٌ في الإنسان، ولقد كان ﷺ يتعبَّدُ في حراء قبل البعثة، وكان مُوحِّدًا لله مُبرَّءًا من الشرك، لكن معنى الإيمان أوسع من كلِّ ذلك، والله أعلم.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الوحي.

﴿نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ وهي المشيئة المتصلة بأسماء الله الحسنى، والتي تؤكّد أنّ الله مُنزّهٌ سبحانه عن الظلم، فهو يهدي من يطلب الهداية، ويُضِلُّ من يطلب الضلال، تمامًا كمَن يشرب الدواء فيبرأ، أو يشرب السمّ فيموت.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ والهداية من الرسول إنّما هي الدعوة والإرشاد.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فكلّ أمور الخلائق إنّما ترجع إليه سبحانه وحده في الدنيا والآخرة.



سورة الزخرف

المجلس
السادس عشر بعد المائتين

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

من الآية
﴿١ - ٣٠﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ
﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا
تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ
﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم
بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى
ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟
لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ
﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا
ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ
مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون

إذا كان الموضوعُ الأساسُ في سورة الشورى هو الوحيُ، فإنَّ الموضوع الأساس لهذه السورة هو القرآن، ومن هنا تكون هذه السورة كأنَّها امتدادٌ لسورة الشورى.

في هذه الآيات جاء الحديثُ عن القرآن في إطار الصراع المُستمرِّ مع الوثنيَّة وأعرافها وتقاليدها، والتي كانت تُهيمِنُ بشكلٍ شبهِ مُطلَقٍ على مكّة وما حولها، بل وغالب جزيرة

العرب، ويمكن تلخيص النقاط التي وردَت في هذا الإطار بالآتي:

أولًا: بيان رسالة القرآن الخالدة في هذه الحياة، والتنويه ببيانه وعلوِّ شأنه وحكمته ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

ثانيًا: بيان أنّ موقف المشركين في مكّة لا يختلف عن موقف المشركين السابقين في الأمم الغابِرة ممن كذَّبوا بأنبيائهم، واستَهزَؤوا برسالاتهم ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثالثًا: بيان أنّ السبب الذي دفع هؤلاء المشركين وأسلافهم إلى هذا الموقف المُعادي للرسالة الإلهيّة إنّما هو التقليد الأعمى لموروث الآباء والأجداد ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقد تضمَّنَت هذه الآيات الإشارة إلى سببٍ آخر من أسباب هذا العداء، ألا وهو الترف؛ فالمترفون هم الذين يُبدون حرصًا أكثر من غيرهم على الموروث؛ لأنّهم يخشون التغيير الذي يرَون فيه تهديدًا لمكاسبهم التي ورثوها في ظلِّ هذه الأعراف والتقاليد، والنظام الاجتماعي القائم.

رابعًا: تنبيهُ العقول إلى آيات الله المبثُوثة في هذا الكون، لعلَّها تستَعلِي على الواقع الصغير والمُتخلِّف الذي يُقدِّسُ الحِجارةَ، ويخافُ منها، ويُقدِّمُ القرابين لها، رغم اعترافه بأنّ هذه الحجارة ليست هي التي خلقَت هذا الكون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، فالذي خلق كلّ هذه النعم في البرِّ والبحر والسماء، وجعل فيها هذا النظام الدقيق الذي لا تقوم الحياة بغيره هو الجدير بالشكر والعبادة، وليس تلك الآلهة الصمَّاء البكماء.

خامسًا: التنديد بالتصوّرات الجاهليّة الظالمة والآثمة بحقِّ الله، والتي اعتادَت الجرأة على مقام الألوهيَّة بغير علمٍ ولا دليلٍ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾.

فهم يُشرِكون مع الله آلهةً أخرى، ثم لم يكتَفُوا بذلك، بل راحوا ينسبون إلى الله البنات، زاعمين أنّ الملائكة إنّما هم بنات الله، وهم في الوقت ذاته يكرَهون البنات ويحتقرونهنَّ إلى الحدِّ الذي يبقى أحدهم مُسودَّ الوجهِ حزينًا كئيبًا لو رزقه الله ببنت، وهم بهذا قد ارتكبوا جريمتَين: احتِقار المرأة من ناحيةٍ، ثم نِسبة هذا المُحتَقر - بزعمهم - إلى الله!

سادسًا: تأكيدُ المُفاصَلَة التامَّة بين طريق التوحيد وطريق الشرك، والتأكيد أيضًا للبُعد التاريخي لهذه المفاصلة، بمعنى أنّ هذا الافتراق لم ينشأ الآن، بل هو عميقٌ عُمق الرسالات السماويَّة واختلاف الناس عليها ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

والتذكير بقصة إبراهيم ﷺ في هذا السياق إنّما جاء لتأكيد الهويَّة الإسلاميَّة وعُمقها التاريخي، وكشف الانحراف الذي شطَّ بالمشركين بعيدًا عن الإبراهيميَّة السمحة التي لا زالوا يتشبَّثون ببعض شعائرها وآثارها.

سابعًا: التحذير من العاقبة الأليمة التي تنتظر المشركين إن هم أصرُّوا على شِركهم وكفرهم ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ حمٓ ﴾ تقدَّم الحديث عن الحروف المقطعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تأكيدٌ للصلة بين الوحي والعقل؛ إذ إنّ مُنزِّلَ الوحي وخالقَ العقلِ واحد، وهو الله ﷻ، فلو تنزَّه العقل عن أدرَان التعصُّب والهوى والتقليد لاهتدى لنور الوحي بالضرورة.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي: إنّ هذا القرآن موصوفٌ بالعلوِّ والحكمة في أصل الكتاب ومصدر الوحي، وهو اللوح المحفوظ، واللوح من الأمور الغيبيَّة فلا نعلم كُنهَه ولا صورتَه، لكن المعنى العام له مرتبطٌ بعِلم الله تعالى الأزلي، فيكون المعنى الإجمالي أنّ هذا القرآن عندنا وفي عِلمنا الأزلي عليٌّ حكيمٌ، والله أعلم.

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ أفنقطع عنكم الوحيَ ونمنع نزول القرآن إعراضًا عنكم بسبب إسرافكم في التكذيب والعناد والمُكابرة، وهو سؤال قُصِدَ منه أنّ الوحي ماضٍ ولن ينقطع بسبب جهلهم وسفههم، وأنّ القرآن باقٍ في الأرض ما بقِيَ الليل والنهار.

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ بمعنى أنّ فعلهم هذا ليس جديدًا؛ لأنّ دوافعه موجودة من القِدَم، فالتكبُّر والغرور والحسد موجودة

في طبع الإنسان، وهي كفيلةٌ بأن تجعله يُعرِض عن الحقِّ إلَّا مَن زكَّى نفسه وحمَلَها على الطريق الصحيح، وفي هذا تسليةٌ أيضًا لرسولِ الله ﷺ.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضى في القرآن ذِكرُ الأمثلة من أولئك الأقوام المُكذِّبة وما جرى لهم.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مُمهَّدة لمعاشكم وسكنكم واستقراركم، فلا يوجد كوكبٌ آخر - بحسب المعلوم إلى الآن - يصلُح لحياة البشر كهذا الكوكب الذي أودَعَ الله فيه كلّ مُقوِّمات الحياة.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾ أي: فأحيَينا بماء المطر الأرضَ التي كانت ميتة وخالية من النبات، وجاء بوصفِ المُذكَّر لموصوفٍ مُؤنَّث؛ للدلالة على معنى المصدرِ الذي هو أبلغُ في الوصفِ، مع أنّ تأنيثَ البلدة مجازيٌّ، يصحُّ فيه ما لا يصحُّ في التأنيث الحقيقيّ.

﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تشبيهٌ لبعث الناس من جديدٍ بإعادة الحياة للأرض الميتة بعد نزول المطر.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: خلق أصنافَ الموجودات وأنواعَها، وذكَرَها وأُنثَاها.

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتركبوا على وسائط النقل هذه في البَرِّ والبحر.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ لأنّه سبحانه هو الذي خلقها ويسَّرها.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: ذلَّلـه وطوَّعَه لنا، ومعلومٌ أنّ قُدرة الإنسان البدنيَّة لا تَقوَى على ترويض الخيول والجمال مثلًا، لولا أنّ الله تعالى أودَعَ فيها القابليَّة على الترويض، وهذا التسخيرُ في الحقيقة إنّما هو جزءٌ يسيرٌ من ظاهرة التسخير على مستوى الكون؛ فالشمس والقمر، والبَرُّ والبحر، والشجر والثمر، والأنعام، كلّها تسير بنظامٍ دقيقٍ يؤدِّي إلى خدمة هذا الإنسان، وسدِّ حاجاته الكليَّة والجزئيَّة، حتى التحسيني والتكميلي منها؛ كأدوات التزيُّن، والتطيُّب، والتفكُّه.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: وما كنا قادِرين عليه لولا أنّ الله سخَّرَه وذلَّلَـه لنا.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: وإنَّا إلى ربنا لراجعون.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ أي: وجعلوا بعض خلقه جزءًا منه - تعالى ربُّنا عن ذلك -؛ كقولهم في الملائكة أنّهم بنات الله، والولد جزءٌ من أبيه، فكأنّهم بقولهم هذا جعلوا الملائكة جُزءًا منه سبحانه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ أي: كيف خصَّكم الله بالبنين واختارَ لنفسه البنات؟ وهذا تنزُّلٌ لُمستوى عقولهم، وإلا فنسبةُ البنين إليه سبحانه كنسبةِ البنات، فهو سبحانه الغني عن البنين وعن البنات، لكنّهم - وهذا من عظيم جهلهم وسفاهتهم - يكرَهُون البنات ويحتقرونهنَّ، بدلالة قوله تعالى الآتي: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾.

فهم لا يَرَون المرأة إلا متاعًا مُبتذَلًا يُحسِن التزيُّن لهم، ولا يُحسِن البيان ولا التخاصُم والتقاتُل، ثم بعد كلِّ هذا يَخُصُّون أنفسَهم بالبنين، ويَخُصُّون اللهَ بالبنات، فجمَعُوا بين القُبحَين: قبح نظرتهم إلى المرأة واحتقارها، وقبح نسبة هذا المُحتَقَر عندهم إلى الله خالقهم.

﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ هذا استفهامٌ إنكاريٌّ قُصِدَ منه بيانُ جَهلِهم وجُرأتِهم على الله بغير علمٍ.

﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ شديدٌ، وفيه تعظيمٌ لمسؤوليَّة الكلِمة التي رُبَّما لا يُلقِي لها صاحِبُها بالًا، ولا يُعيرُ لها شأنًا؛ فكثيرٌ من التصوُّرات الجاهلة الظالمة تتسلَّل إلى عقول البشر حتى تكون جزءًا من ثقافتهم، ثم يتحزَّبون لها ويُوالون فيها وكأنّها عقائد ثابتةٌ بالوحي، وما هي كذلك.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ هذا نوعٌ من الاحتِجاج بالقدر، وإلقاء اللَّوم على المشيئة الإلهيَّة، وهذا هو الجهلُ بعَينه، والظلم بعَينه، فحاشَا لله أن يُجبِرَ أحدًا على شيءٍ ثم

يُعاقبه عليه، وإنّما هي مساحة الاختبار التي خصَّ الله بها هذا الإنسان ليتحرك فيها بإرادته الحرّة، ثم هو يتحمَّل مسؤوليَّة خياره وقراره؛ ولذلك نسَبَ الله هؤلاء المحتجِّين بالقدر إلى الجهل والتخرُّص ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يقولون قولًا بغير علمٍ ولا بيِّنةٍ.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ سؤالٌ قُصِدَ به توبيخُهم على عنادهم وإعراضهم عن القرآن الكريم، وتأكيد أنّ قولَهم في الملائكة لا يستَنِدُ إلى علمٍ، ولا إلى خبرٍ صحيحٍ.

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على ملَّةٍ.

﴿۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ سارَعوا في الإنكار على النذير الذي بعثه الله إليهم دون تفكيرٍ، ولا سؤالٍ، ولا حوارٍ، وهذه علامةٌ أنّ كفرهم لم يكن عن نظرٍ واستدلالٍ، بل عن كِبْرٍ وسفهٍ وعنادٍ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: بريءٌ من أوثانكم وأصنامكم، وبدأ الخطاب بأبيه؛ تأكيدًا أنّ المفاصلة بين التوحيد والوثنيَّة لا تحتمل المجاملة ولو كان المقابل أبًا، فضلًا عمن دونه.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: جعل إبراهيم ﷺ كلمة التوحيد باقية في ذريَّته، بمعنى أنّه ربَّاهم عليها، ووصَّاهم بها لتبقى محفوظة فيهم جيلًا بعد جيل.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يُخبر الله سبحانه أنّه أبقى هؤلاء المشركين ولم يستأصلهم رغم انحرافهم عن كلمة التوحيد، حتى يشهدوا الحقّ والرسول الخاتم الذي يُجدِّد في الناس دعوةَ جدِّه إبراهيم ﷺ.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾

وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم

ينتقِل الحوار في هذه الآيات إلى اعتراضٍ تلُوكه ألسِنة المشركين؛ حيث يقترِحون على الله أن يختارَ لرسالته بدلًا عن محمد ﷺ واحدًا من اثنَين ممن يرضَون عنهم بحسب مقاييسهم! فيكون هذا مدخلًا مناسبًا لبسط موقف المشركين من القرآن، ودوافع هذا الموقف والفلسفة الكليَّة التي ينطلِقُون منها، ويتحرَّكُون في داخلها، وكما يأتي:

أولًا: يُسجِّل القرآن اقتراحَ المشركين هذا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فيردّ القرآن عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فالله تبارك وتعالى هو خالق الخلق، وهو مالك المُلك، وهو الذي يتصرف في مُلكه كيف يشاء، وكما

أنّ الرزق يقسمه الله بينهم ويقدّره بحكمته ووفق الناموس الذي يُنظم حركة الخلق، ويضبط فيه التوازن المطلوب، فكذلك الوحي، بل هو من باب أَولَى؛ لأنّ مسؤوليَّة الوحي أكبر من مسؤوليَّة المال.

ثانيًا: يتوسَّع القرآن في شرح المبدأ الكلِّي الذي يقوم عليه هذا التفاوُت بين الناس ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

فالله لا ينقُص من مُلكِه أن يُعطِيَ كلَّ سائلٍ ما أراد، وأن يمدَّ هؤلاء المشركين بسُقُفِ الفضة وأبوابِ الزُّخرُف، فكل هذا متاعٌ زائِلٌ، لكن هذا يُخِلُّ بموازين الأرض، ويُؤثِّرُ في حياة الناس ونظرَتهم للحقِّ والباطل، وربما يكون فتنةً لبعضهم، وسببًا في انحرافهم واضطراب تصوُّراتهم وتصرُّفاتهم.

ثالثًا: يُحذِّرُ القرآن هؤلاء المشركين المُكذِّبين بالقرآن والمُعرِضين عنه أنّهم إنّما يتَّبعون خطوات الشيطان، وأنّهم سيشتركون معه في مصيرٍ واحدٍ؛ حيث الحسرة والندم، والعذاب الأليم ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

رابعًا: يبيِّن القرآن أنّ سببَ ضلالة هؤلاء إنّما هو تعطيلُهم لأسباب المعرفة وغلقهم لمنافذها، فلا هم يسمعون، ولا هم يبصرون ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

خامسًا: يتوجَّه القرآن بخطابه إلى النبيِّ الكريم ﷺ مؤكِّدًا قدرة الله على هؤلاء المُعاندين، وأنّ مصيرهم العذاب والهلاك، سواء كان ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته، فالأمر لله وحده

من قبل ومن بعد ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

ثم يُوصِيه - والخطاب لأمَّته من بعده أيضًا - بالتمسُّك بهذا القرآن؛ فهو الصراط المستقيم، وهو الذكر المبارك، والرفعة والشرف لكلِّ مَن استنار بنوره، واهتدى بِهُداه، وهو كذلك محلُّ التكليف والاختبار، وتحمُّل المسؤوليَّة ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هذا قول المشركين يعترضون به على الله أن اختارَ لهم محمدًا ﷺ، وأرادوا بالقريتَين: مكّة والطائف؛ لأنّهما أكبر قرى تِهامة، وما بين القريتين من الصِّلات أقوى من صلتهما أو إحداهما بيثرب وغيرها، ولم يسمِّ القرآن الرجُلَين، وربَّما لم يُصرِّح المشركون باسمهما أيضًا؛ لأنّهم إنّما أرادوا أن يختارَ الله واحدًا من عظماء مكّة، أو من عظماء الطائف، فالمهم عندهم أن يكون عظيمًا في ماله وجاهه وجبروته، وأن يكون من هاتَين القريتَين، أمَّا العلم والصدق والأمانة ومحبة الخير للناس فهذه معايير مؤخَّرةٌ عندهم.

هذا وقد ورد في كتب التفسير روايات مختلفة في تعيين الرجُلَين، ولا مانع من بَحثِها وترجيح إحداها، لكنّه مبحثٌ لا يُغيِّر من دلالة الآية شيئًا ولا من مغزاها ومعناها.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذا سؤالٌ استنكاريٌ يُنكر على المشركين جُرأتهم على الله؛ إذ يقترحون عليه سبحانه الرسولَ الذي ينبغي أن يُرسله إليهم.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ بيانٌ لحكمة الله في تفاوُت الرزق، وتفاوُت أسباب القوة والملك كذلك، فلولا هذا التفاوُت لما توزّع الناس على كلِّ المهن شريفها ووضيعها، وسهلها

وشاقِّها، فبهذا يُسخِّرُ الله الناسَ بعضهم لبعضٍ؛ لتتكامل الحياة دون خللٍ أو اضطرابٍ.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ بمعنى أنّه لو لا أن يفتتن الناس وينحازوا إلى الكفر فيكونوا مع الكافرين أُمَّة واحدة، وجواب (لولا) ما بعدها أي: لأعطَينا الدنيا بزينتها وزخرفها لهؤلاء المشركين؛ لأنّ الدنيا ليست هي المقياس، فهي حياةٌ زائلةٌ فانيةٌ، وإنّما العبرة بدار الخلود.

وفي هذا إشارةٌ إلى سببٍ من أسباب الفتنة، وهو تملُّك أهل الباطل لمقاليد الحياة الدنيا، والإشارة فيها جانبٌ عمليٌّ تكليفيٌّ؛ إذ واجب المسلمين أن يسدُّوا باب الفتنة هذا بحرصهم على العلوم والفنون، وأدوات التمكُّن والقوة سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وإعلاميًّا.

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ مصاعِد عليها يصعَدُون ويعتَلُون.

﴿وَسُرُرًا ﴾ جمع سرير.

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ ﴾ الزخرف: الزينة؛ وأخَّرَها لأنّها تكميلٌ وتحسينٌ لكلِّ ما تقدَّم من سُقُفٍ ومعارجَ وأبوابٍ وسررٍ.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من يُعرض عن القرآن، وهذا من باب التمثيل؛ فالذي يُعرض عن الشيء كأنّه يعشُو عنه فلا يراه، والأعشى: ضعيف البصر.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وهذه نتيجة طبيعية ومنطقية؛ فمن أعرض عن الحقِّ تلقّفه الباطل، فالشيطان يبتعد عن الذاكرين المتيقِّظين، ويقترب من الضالِّين الغافلين.

والتقييض: التهيئة، ومعناه هنا أنّ الله جعل الغفلة عن القرآن سببًا لوجود قرناء الشرِّ من شياطين الإنس والجن.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين القرناء وأصدقاء السوء، وهذه أخطر أنواع الضلالة؛ لأنّ الغارق فيها لا يرى أنّه يرتكب ما يستوجب الرجوع والتوبة.

﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يتمنّى أن لو كان بينه وبين قرنائه هؤلاء بُعد ما بين

المشرق والمغرب، وقد غلَّب لفظ المشرق على المغرب، وهذا شائعٌ في اللغة كما يُطلقون القمَرَين على الشمس والقمر، والله أعلم.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: نقبِضك إلينا بانتِهاء أجَلِك في هذه الحياة قبل نزول العذاب بهؤلاء الذين آذَوك وكذَّبُوا رسالتَك.

﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ جوابٌ للشرط المتقدِّم، أي: إنّ الله سينتقم منهم بَعدك.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي: نُبقِيك حتى ترى عذابهم.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: فإنَّا مُقتَدِرُون على إهلاكِهم في الوقت الذي نشاء.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي: تمسَّك بالقرآن ولا تلتَفِت إلى هؤلاء المُكذِّبين الضالِّين.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والصراط المستقيم: هو الطريقُ الحقُّ الجامعُ لكلِّ معاني الخير والعدل والفضيلة، والموصل في النهاية إلى رضا الله والجنَّة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: وإنَّ هذا القرآن لهو الشرف والرِّفعَة لك ولكلِّ من اتَّبَعَك.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن قيامكم بحقِّ هذا القرآن.

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

واسأل من أرسلنا قبلك من رُسُلنا

بعد هذه المحاورات والمواجهات العقديَّة والفكريَّة مع هؤلاء المشركين، ينتقل السياق إلى القصص النبوي، مُستشهِدًا بالرسالات السابقة وما فيها من دروسٍ وعبرٍ، وإشاراتٍ ودلالاتٍ، وبتأكيد أنّ هذه الرسالة المحمديَّة إنّما هي امتدادٌ لتلك الرسالات وإتمامٌ لها، وكما يأتي:

أولًا: يستشهد القرآن الكريم بالرسالات السابقة في إبطال الوثنيَّة، وقد جاء هذا الاستشهاد بصيغة التوجيه المُباشر للنبيِّ الكريم ﷺ أن يَسْأَلَ الرسل الذين من قبله، والمقصود النظر في قصصهم، واستقراء أحوالهم في دعوتهم واختلافهم مع أقوامهم، ثم

استنطاق المنتسبين إليهم إن كان أحد يعلم أنّ نبيًّا من الأنبياء قد أقرَّ قومَه على الشرك وعبادة الأصنام ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

ثانيًا: وفي هذا السياق أورد القرآن قصة موسى ﷺ مع فرعون، وهي نموذجٌ للصراع الصارخ بين التوحيد والوثنيَّة، وبين دعوة الحقِّ ودعوة الباطل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ حيث كان موسى ﷺ يأتيهم بالبيِّنات والآيات الظاهرات، فلا يُواجِهُونه إلَّا بالتكذيبِ والاتِّهام بالسِّحر ونحوه، فلما أخَذَهم العذاب الأدنَى وضاقُوا به ذَرعًا، أخَذُوا بالمُراوَغَة، وما علِمُوا أنَّهم بذلك إنّما يُخادِعُون الله، وهم في الحقيقةِ لا يخدَعُون إلَّا أنفسهم، وهذا كلُّه إنَّما يصدُرُ عن تصوُّراتٍ مُظلِمةٍ ومُرتبِكَةٍ عن الإله الذي خَلَقَهم من العَدَم، وخلَقَ لهم هذا الكونَ الكبيرَ من حولهم.

ثالثًا: وفي هذه القصة يأخذ القرآن مشهدًا من مشاهد الجاهلية وغرورها بقوتها والمتاع الزائل الذي عندها، وهذا لا شكَّ سببٌ رئيسٌ من أسباب العناد والمكابرة، والإعراض عن الحقِّ مهما تجلَّى بآياته ودلائله ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

والترابُط هنا واضحٌ بين فِسق المجتمع وتحلُّلِه، ثم استِخفاف الطغاة به، ثم خضوعه لهم وطاعته إياهم على ما هم فيه بلا رأيٍ ولا رويَّةٍ، فالشعوب النقيَّة المحترمة لا يستخِفّ بها الطغاة، ولو حاولوا الاستخفاف بها لَمَا وجدوا منهم السمعَ ولا الطاعةَ، لكنها المجتمعات

اللاهثة وراء الفُتات ولو كان الثمن حريتها وكرامتها، أولئك هم الذين يُغرون الطغاة بهم، بل هم الذين يصنَعون طغاتهم بأيديهم، كما يصنع المشرك صنَمَه من تمره الذي يقتات به.

رابعًا: وفي نهاية القصة يعرض القرآن لتلك الخاتمة البائسة التي أحاطَت بفرعون ومن معه ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾.

خامسًا: ثم انتقل السياق إلى قصةٍ أخرى: قصّة عيسى ﷺ، جاعلًا المدخل إليها مُجادلة أثارَتْها قريش حولَ هذا النبي الكريم ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

ولم يفصّل القرآن في فحوى هذه المُجادلة، لكن السياق يُشير إلى صلة الموضوع بتأليه النصارى لعيسى ﷺ، وربَّما أخذه المُشركون حجّةً للتشكيك في استشهاد القرآن بالرسالات السابقة، والذي تقدَّم في صدر هذه الآيات، وكأنّهم بذلك يرَون أنّ عقيدة النصارى أقرب إلى عقيدتهم؛ ولذلك قالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ﴾ على سبيل المقايسة والمشابهة، وما ورد في كتب التفسير لا يبعُد بجملته عن هذا، والله أعلم.

سادسًا: وفي هذه القصة بيّن القرآن حقيقة عيسى ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وفي هذا ردٌّ على تلك المُقايَسة، فعيسى ﷺ بريءٌ من عبادة الناس له، وإنّما هو التحريفُ الظاهرُ البيِّن.

سابعًا: ثم بيّن القرآن حقيقةَ الدعوة التي جاء بها عيسى ﷺ، وأنّها لا تختلف عن دعوات الأنبياء الآخرين ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فالاختلاف إنّما جاء من الأحزاب الظالمة الآثمة التي حرّفت رسالته وأدخلت فيها ما ليس منها، فهؤلاء في

حقيقة الأمر ما عبدوا عيسى، وإنّما عبدوا أهواءهم، وعبدوا الشيطان الذي زيَّن لهم أعمالهم؛ ولذلك صدَّرَ القرآن هذا البيان بهذه الآية: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: انظر في الرسالات السابقة، واستقرِئ أخبارها وما ورد فيها، فهل تجِد فيها ما يُثبِتُ دعوةَ هؤلاء المشركين.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: التي قبلها، والآية هنا: المعجزة القاهرة، وفيه أنّ هذا النوع من الطغاة لا تنفع معهم المواعظ، ولا الأدلة، ولا المعجزات، فما في نفوسهم من كبرٍ وحسدٍ كفيلٌ بأن يُعمي قلوبهم وعيونهم.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ يقولون عنه ساحر، وهم يطلبون منه أن يدعو ربّه لعله يكشِف العذاب عنهم، صحيح أنهم كانوا يُعظِّمون السحر، لكن مخاطبة النبيِّ الذي جاءهم بكلِّ تلك الآيات والمعجزات التي أبطَلَت سحرهم دليلٌ على صَلَفهم وسَفَههم.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ وهذه من أغرب الأحوال، فقد رأَوا بأمِّ أعينهم أنّ الله قد استجابَ لنبيِّه موسى ما طلَبُوه منه، فرفع عنهم العذاب الذي لم يستطع فرعون أن يُحرِّكَ ساكنًا فيه، ثم بعد كلّ هذا يرجِعون إلى فرعون، ويكفرون بموسى وبربِّ موسى، وكأنّهم هنا يتعامَلون مع الله كما يتفاوَضون مع ملوك الأرض بالخداع والمراوغة، وهو مظهرٌ من مظاهر السياسة في الدول التي تقوم على أساس الظلم والخُلق الفاسد.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ هذا مقياس الفضل عند الفراعنة، فموسى لا يستحقّ النبوّة في نظر فرعون؛ لأنّه لا يملك الذهب، ومثل هذا قولُ المشركين عن محمد ﷺ

واقتراحهم على الله أن يختارَ رجُلًا من القريتَين عظيم.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ وكأنّ ما جاء به موسى من الآيات والمعجزات لا يكفي لإقناع فرعون، إنّه يريد المعجزة التي يختارها هو، أمّا المعجزة التي يختارها الله لنبيِّه فهي مرفوضةٌ في منطق فرعون ولو كانت أكبر في الإعجاز، وأظهر في الدلالة.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ لم يُقِم لهم وزنًا؛ بل عاملهم معاملة العبيد والخَوَل والخدم.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ مع استخفافه بهم، وهذه خصلة خطيرة في الشعوب التي تستمرِئُ القهر والإذلال.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وأصلُ الفسوق: الخروج، ولعلَّ المراد هنا خروجهم عن الفطرة الإنسانيَّة، فالإنسان مفطور على حبِّ العزةِ والكرامة، ولو كان فيهما تلَفُ نفسه وماله، لكنّ هؤلاء اللاهثين خلف فُتات فرعون قد انتكست فطرتهم، وانقلبت إنسانيّتهم.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ فلما أغضبونا.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي: عبرة سابقة لكلِّ من يأتي بعدهم.

﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ مثالًا في مصير الظالمين لكلِّ ناظرٍ ومتأملٍ.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ على قدرة الله؛ حيث خلقه الله من غير أبٍ، كما خلق آدم من قبل بلا أبٍ ولا أمٍّ.

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يضِجُّون بالنكير.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ مُقارنةٌ خاطئةٌ ومقايسةٌ ظالمةٌ؛ فاشتراك آلهتهم مع عيسى ﷺ في أنّ الناس اتخذوهم آلهةً لا يُسوِّغ هذا القياس، فعيسى نبيٌّ وله رسالة، وله سيرةٌ ومنهجٌ إصلاحي في هذه الأرض، وهو متبرئٌ تمامًا من هذه العقائد الفاسدة، بخلاف هذه الأصنام التي لا ترى ولا تسمع، وليس لها ما تُعبِّرُ به عن نفسها.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: شديدُو الخُصُومة.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: جعلناه آيةً دالَّةً على قُدرة الله.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ أي: لو نشاء لأهلَكناكم وجعَلنا الملائكةَ في الأرض بَدَلًا عنكم، والمقصود أنَّ الله إنّما خلَقَ الناسَ لغايةٍ أُخرى، وهي الاختبار وتمييز المُصلِح عن المُفسِد، ولو أراد سبحانه منْعَ الباطل أصلًا لما خلق آدم وذريَّتَه، ولاكتَفَى بالملائكة الذين لا يَعصُون اللهَ ما أمَرَهم ويفعَلُون ما يُؤمَرُون.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ اختلف المفسرون في عَود الضمير على قولَين مشهورَين:

الأول: أنّه عائِدٌ إلى عيسى ﷺ؛ لتقدُّم الحديث عنه، بمعنى أنّ نزولَه في آخر الزمان - وهو الثابتُ في الصِّحاح - سيكون علامةً على قُرب وقوع الساعة.

والثاني: أنّه يعودُ إلى القرآن؛ إذ هو موضوع السورة الأساس، ومعناه أنّ في القرآن أخبار الساعة وأحوالها، والترهيب منها، والترغيب بالاستعداد لها.

ويُعضِّدُ هذا تعقيب القرآن مُباشرةً: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ ولو كان قصد به نزول ابن مريم لقال: ولا تمترُنَّ به؛ لأنّه إخبارٌ بمسألةٍ غيبيَّةٍ خارِجةٍ عن معهُود الناس، تستَدعِي بطبيعتها الريب والشكّ، خاصَّةً أنّها لم تُذكَر إلّا في هذا الموضع، بخلافِ الحديث عن الساعة، فقد تكرَّر في أغلب سُور القرآن.

ثم إنّ الأَولَى في المعطوف أن يُناسِب لفظ المعطوف عليه، فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ أنسَب أن تُعطَف على: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ حتى لو طالَ الفصل، بخلاف عطفِها على: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، والله أعلم.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ عن التمسُّك بهذا القرآن، وعن الاستعداد للساعة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ الخطاب لبني إسرائيل؛ حيث اختلفوا كثيرًا في

التوراة، فبعث الله تعالى إليهم عيسى بن مريم عليه السلام ليُبيّن لهم ما اختلفوا فيه.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ ﴾ أي: زادَ خلافُ بني إسرائيل فيما بينهم، فبعد أن كانوا مُختَلِفين في شريعة موسى وتفاصيل أخبارها وأحكامها، صاروا يختلفون في نُبُوَّة عيسى، وفي براءة أمِّه مريم.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

هل ينظرون إلا الساعة

في خواتيم هذه السورة جاء الحديث عن خاتمة هذه الحياة وما يعقبها من حساب وجزاء، وانقسام الناس هناك بحسب أعمالهم التي قدّموها هنا؛ فمنهم الشقيّ، ومنهم السعيد، وتأكيد القرآن لهذه العقيدة بعد كلّ حوارٍ مع المشركين إنّما يهدف إلى تكوين الدافع الذاتي في نفوسهم، لحملهم على استشعار جدّيّة الأمر، لعلّهم يتفكّرون فيرجعون.

أولًا: حذّر القرآن هؤلاء الغافلين من ذلك اليوم الذي سيبغتهم وهم لا يشعرون ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ مؤكّدًا أنّ عِلم الساعة إنّما هو لله وحده، ربّ السماوات والأرض

ومُنشِئهما من العدم، ومُقدِّر آجالها ومالِك المُلك فيهما ﷻ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثانيًا: عرض القرآن المصيرَ البائس الذي ينتظر هؤلاء المُكذّبين؛ حيث سيكفر بعضهم ببعض، ويخاصم بعضهم بعضًا، وينسَون ما كان بينهم من صلاتٍ وقراباتٍ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فالمُتَّقون هم المُستثنون من هذا العذاب، ثم يُرمى بأولئك المشركين المتخاصمين في نار جهنم؛ حيث لا يُفتَّرُ عنهم العذاب ولا هم يُرحمون ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وهناك يستغيثون بخزنة النار فلا يردون عليهم إلّا بما يُخزيهم ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

ثالثًا: أكَّدَ القرآن مبدأ العدل الإلهي؛ فهؤلاء المُجرِمون إنّما أَودَى بهم جُرمُهم وظُلمُهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد كانت أعمالهم تُدوَّن عليهم، حتى وهم يتناجَون في السرِّ، ويمكُرُون في الخفاء ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

رابعًا: وقد كشَفَ القرآن جانِبًا من تناقُضاتهم ليبيِّن أنّ ما ذهبوا إليه من الشرك والوثنية لم يكن عن اجتهادٍ ونظرٍ عقليٍّ، بل هو الهوى والعناد والمُكابرة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

خامسًا: قطع القرآن عليهم طريق الشفاعة تلك التي كانوا يرجونها من أصنامهم جهلًا وغرورًا ومكابرة ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

سادسًا: في مُقابل تلك الصورة المُظلِمة القاتِمة، يعرِض القرآن صورةَ المؤمنين المُتَّقين وهم ينعمون برضا الله تعالى والجَنَّة التي كانوا يسعَون لها، ويعملون مِن أجلها ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي: هل ينتظرون إلَّا وقوع الساعة، والتعبير بـ ﴿يَنظُرُونَ ﴾ مُشعِرٌ بقُربها وخطرها أكثر.

﴿أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ أي: فجأة وهم غافلون عنها.

﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أولئك الأخلَّاء الذين اجتمعوا على الباطل، سينقَلِبون يوم القيامة أعداء، وسيتبرَّأ بعضهم من بعض، أما المُتَّقون فيزدادون أُلفةً ومحبّةً.

﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تُسَرُّون.

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ ﴾ فالصِّحاف للطعام، والأكواب للشراب، فأهل الجنّة لا يُعِدُّون لأنفسهم طعامًا ولا شرابًا، وإنّما يُطاف عليهم به.

﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ ﴾ فهذه نعمةٌ متكاملةٌ تجتمع فيها اللذة الباطنة باللذة الظاهرة، وطِيب المخبر بحسن المظهر.

﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ بمعنى: أُعطِيتُمُوها خالصةً لكم، كما يُعطَى الورثة ما يستحِقُّون من الإرث.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء أعمالكم الصالحة، وفيه تأكيدٌ للعدل الإلهي؛ فهؤلاء المُتَّقُون إنّما ورِثُوا الجنَّة بتَقوَاهم وبعَمَلِهم الصالح، وليس بأنسابِهم وأحسابِهم، ولا بجَاهِهم وأموالِهم.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيِسُون، والحديثُ هنا عن أهل النار، فلا أمَلَ لهم بانتِهائه ولا بالخروجِ منه.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيدٌ للعدل الإلهي، فالله سبحانه لا يظلم أحدًا، وإنَّما هو حصادُ ما زرَعُوه لأنفسهم.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ يستشفعون بمالِك، وهو خازن النار.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والقضاء هنا معناه: الإماتة، كما قال في قصة موسى ﷺ: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، فهؤلاء الأشقياء يستشفعون بمالِكٍ إلى مولاه لعلَّه يُمِيتُهم ويُخلِّصُهم من هذا العذاب.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي: باقون ومُخَلَّدون، فيزيدهم هذا عذابًا أكبر مما هم فيه من العذاب.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ مع أنَّ الفِطرة تقتضي قبولَ الحق، إلَّا أنَّ هؤلاء لا يَرَون في الحقِّ إلا سَلبًا لمكاسِبِهم، ومنعًا لشهَوَاتهم، وتكديرًا لِلَهوِهم وعَبَثِهم، ومِن ثَمَّ فهم يكرَهُونه كلَّ هذا الكُرْه.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ أي: هل أحكَموا خطةً للنَّيل من محمدٍ ﷺ ودعوته وصحابته؟

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي: فإنَّا سنُقابِل كيدَهم هذا بما يُناسِبُه، وفي هذا تهديدٌ لا يَخفَى.

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: بلى نحن نسمَعُ سِرَّهم ونَجوَاهم، ولدينا الملائكة المُوكَّلون بحفظ كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أجل إقامة الحُجَّة عليهم.

﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ هذا على سبيل المُحاجَجَة، بمعنى أنّه لو جازَ على قولكم أن يكون لله ولد ثم أثبتم ذلك بالبرهان، لكنت أوّل المطيعين له، ولما ترفَّعت عن عبادته كما تترفَّعون أنتم عن عبادة الله مع إيمانكم بوجوده، وأنّه هو الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض، واستدراج النصارى ومن يقول ببنوّة الملائكة لله إلى هذه المحاججة إنّما قُصِد به تعريتهم وإبطال حُجّتهم.

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ هذا التأكيد لتوحيد الله وتنزيهه بعد تلك المُحاجَجَة قصد به دفع توهُّم أنّ ذلك الافتراض الوارِد في المُحاجَجَة قد يكون مُحتملًا أو له حظٌّ من النظر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ ﴾ أي: ليخوضوا ويلعبوا، على سبيل التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، وفيه أنّ ما هم فيه ليس دينًا، ولا اجتهادًا أو نظرًا محترمًا، بل هو الخوض في الباطل واللعب، لا غير.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ ﴾ أي: هو النافِذُ أمره في السماء والأرض، والمُستحِقُّ للعبادة وحدَه من أهل السماء وأهل الأرض، ولا يمكن أن تكون السماء والأرض ظَرفًا لله – تعالى الله عن ذلك –، فالله أجَلُّ من ذلك وأعظم.

وما السماءُ بما فيها والأرض بما فيها إلَّا خلقٌ من خلقه، وكلّ خلقه محتاجٌ إليه، وليس هو سبحانه بحاجةٍ إلى أحدٍ من خلقه، والمقصود بالآية: نفي الشريك عن الله في الأرض كما يزعم المشركون بأصنامهم، ونفي الشريك عن الله في السماء كما يزعمون بالملائكة.

﴿ وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فلا يعلم وقت وقوعها غيره ﷻ.

﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ نفيٌ للشفاعة التي يتوَهَّمُها المشركون في أصنامهم، والتي هي مبعَثُ عبادتهم لها.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ استِثناء للملائكة وبعض النبيين الذين عُبِدُوا من دون الله جهلًا وظلمًا، فهؤلاء يشهدون لله بالحقِّ، ويشفعون، لكنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى.

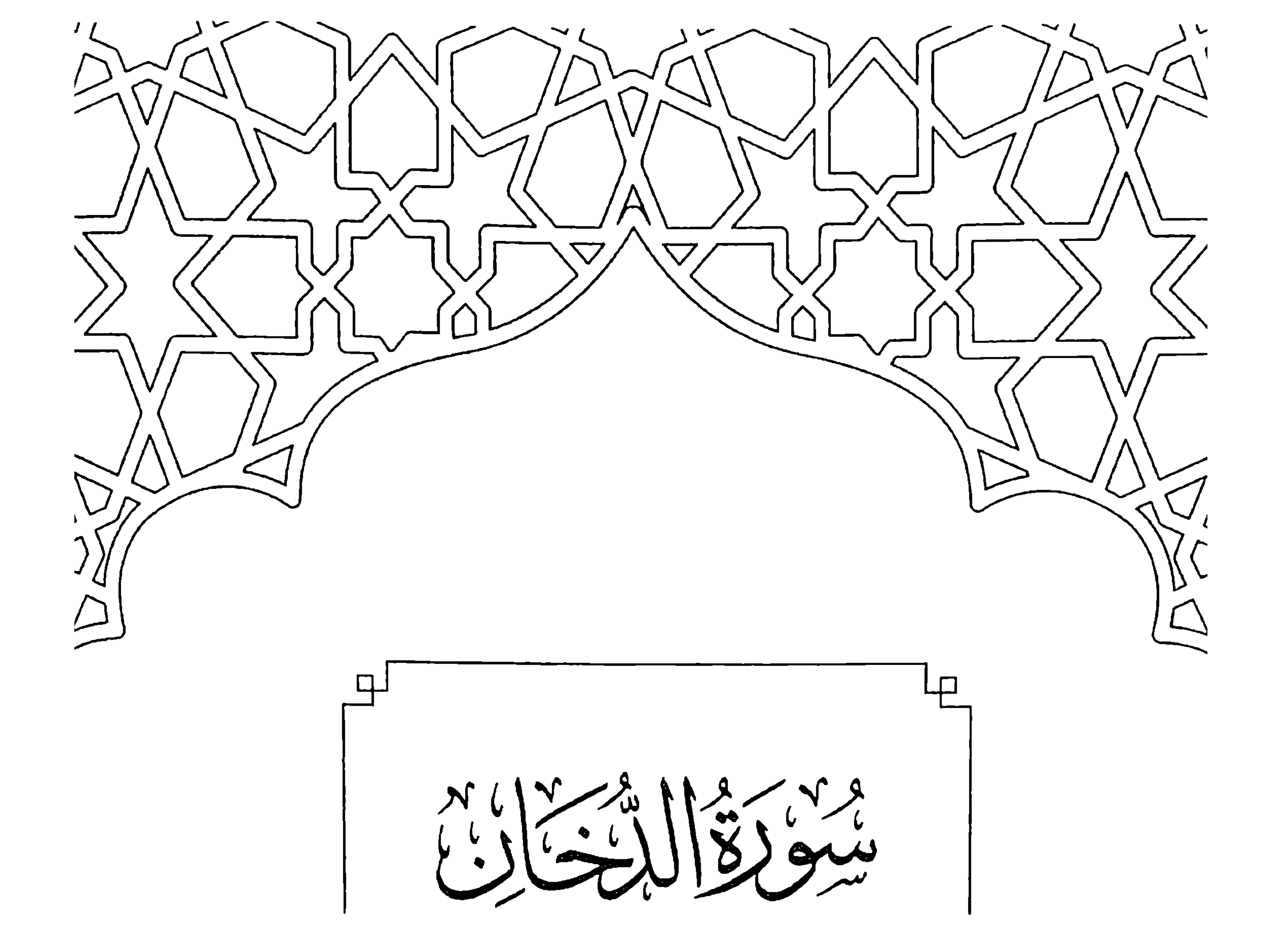
﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فأنّى يُصرَفون عن هذا الحقّ.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ هو قولُ محمدٍ ﷺ مُفوِّضًا أمرَ هؤلاء المُعانِدين إلى ربِّه، شاكِيًا له صدودهم وإعراضهم، ويجوز في (قِيلِهِ) أن يكون مصدرًا لفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: وقال قِيلَهُ، أو يكون مفعولًا به بمعنى أنّ الله يسمَعُ سرَّهم ونَجوَاهم، ويسمَعُ قِيلَهُ، والمعنى بكِلَا التقديرَين واحدٌ، والله أعلم.

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرِض عنهم ولا تنشَغِل بهم، والكلام عن النَّفَر المُعانِدين الذين علِمَ الله أنّهم لن يؤمنوا، وليس عن كلِّ الكافرين، ففي الأرض مُتَّسعٌ كبيرٌ لهذه الدعوة المباركة.

﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: نُسالِمُكم فلا نُجادِلُكم، ولا نُخاصِمُكم، وهي كلمةٌ جميلةٌ حتى مع أولئك المُعاندين؛ تليينًا لقلوبِهم، واتِّقاءً لشرِّهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما ينتظرهم نتيجة تكذيبهم وظُلمهم وعنادهم.



سورة الدخان

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

بل هم في شكٍّ يلعبون

على صلة بسورة الزخرف وموضوعها الأساس - وهو القرآن الكريم - تستهِلّ هذه السورة بالحديث عن القرآن أيضًا، ثم تشرَعُ بالحديث عن المشركين وشكوكهم ووساوسهم وتخبطاتهم، ثم ينتقلُ السياق إلى التاريخ لالتقاط العبرة من قومٍ آخرين تشابه موقفهم مع موقف هؤلاء المشركين، ثم تختتم السورة بالمصير المحتوم الذي ينتظر الجميع ولن يستثنى منه أحدٌ.

أمَّا الحديث عن القرآن ومواقف المشركين المُتشكِّكة والمُضطربة فيمكن تلخيصها في الآتي:

أولًا: تأكيد أنّ هذا القرآن كتاب الله المُبين الذي أنزله الله في الليلة المباركة، وهي الليلة التي يُفرَقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾.

ثانيًا: تأكيد أنّ الغاية الكبرى مِن هذا القرآن إنّما هي الرحمة، رحمة الله السميع العليم بهذا الخلق، فهو سبحانه أعلم بخلقه، وأعلم بما يُصلحُهم ويُحقِّقُ الرحمة لهم ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا

كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

ثالثًا: تشخيص موقف المشركين أنّه موقفٌ لا يتّسم بالجدّيّة ولا الشعور بالمسؤوليّة، بل هو موقفُ لاعبٍ عابثٍ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ والشكّ وحده كان ممكنًا أن يكون علامةً على النظر والتفكير، والبحث عن الحقيقة، لكن اقترانه باللعب أبانَ عن معنًى آخر، إنّه الشكّ العابث الذي يكون مبعثه الحسد والكبر، وقلة المبالاة.

رابعًا: تحذير هؤلاء العابثين اللاعبين بما ينتظرهم في هذه الدار قبل يوم الحساب ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آنذاك سيقول هؤلاء المشركون كما جرَت عادة بعض من تقدَّمهم في هذا التكذيب والتشكيك: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هكذا قال فرعون وقومه لموسى ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهنا يؤكّد القرآن سنّة الله في هذا الصنف من الناس ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ هكذا أيضًا كان موقف فرعون وقومه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠].

خامسًا: وبعد كلّ هذا اللعب والمُراوَغات اللاهِية العابِثة، يأتي القرار الحاسم الذي يَلِيقُ بهؤلاء، وفيه التحذيرُ والعِبرةُ الكافِيةُ لكلِّ ناظِرٍ وسامِعٍ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿حمٓ﴾ تقدَّم الحديث عن الحروف المُقطَّعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يُقسم الله تعالى بكتابه العزيز؛ تعظيمًا له، وتنبيهًا إلى ما فيه من هدًى ونورٍ.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ هي ليلة القدر، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ومعلومٌ أنها في رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذا النزول غيبيٌّ نتوقف فيه مع النص، أما نزول القرآن على محمدٍ ﷺ فمن المقطوع به أنّه لم يكن في ليلةٍ واحدةٍ، ولا في سَنةٍ واحدةٍ، بل كان مفرّقًا ومُنجّمًا ما بين بِعثته الشريفة إلى وفاته ﷺ، ولا يمنع أنّه قد ابتدأ نزوله هذا في ليلة القدر.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ إشارة إلى كون القرآن نذيرًا للعالمين.

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: فيها يُقضَى ويُفصَّل كلُّ أمرٍ مُحكَم من الأمور التي يُقدِّرها الله لخلقه.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ محمّدًا ﷺ بهذا القرآن.

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فالرسول رحمةٌ، ورسالته رحمةٌ، وليس في هذا الدين إلّا الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، لكنّها رحمةٌ لمن يقبَلُها لا لمن يأباها ويُحاربها.

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ والحديث عن المشركين الذين كفروا بهذا القرآن وشكّكوا بما فيه من خبرٍ ووعيدٍ، تشكيك الغافلين اللاعبين، وليس تشكيك الناظرين المُفكّرين.

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الدخان معروفٌ، وهو المنبعث من الحرق والنار، وقد وصفه الله تعالى بأنّه مُبِينٌ بمعنى: ظاهرٌ للعِيان لا يختلف فيه اثنان، وأنّه عامٌّ يغشى الناس، بمعنى أنّه يعلوهم ويُغطّيهم، وهذا من علامات الساعة الثابتة، جاء في «صحيح مُسلِم»: «**إِنَّهَا** - أي: الساعة - **لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ ..**»، فَذَكَرَ: «**الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**

.. الحديث»[1].

أما ما ورَدَ من أنَّ النبيَّ ﷺ قد دعَا على قريشٍ بالسِّنين، فأصابَهم القَحطُ حتى كان أحدهم يرى مثل الدخان من شدَّة الجوع، فهذه وإن كانت أحاديث ثابتة وصحيحة، لكن يبعُد تفسير الآية بها؛ لأنّ الذي رأتْه قريشٌ لم يكن دُخانًا مُبينًا، ولم يكن يغشَى الناس؛ ولذلك استبعَدَه غيرُ واحدٍ من المُفسِّرين بينهم ابن كثير، مع أنّ ابن مسعودٍ فسَّرَ الآيةَ به، كما في رواية البخاري وغيره[2].

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من طريقين كلاهما عن أبي سَرِيحَة حُذيفة بن أُسَيْدٍ ﷺ، الأول بلفظ: قال: اطَّلَعَ النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «مَا تَذَاكَرُونَ؟»، قالوا: نذكُرُ الساعةَ، قال: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَونَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ..»، فذكَرَ: «الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٍ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٍ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٍ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ: نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ» ينظر: صحيح مسلم (٨/ ١٧٨/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

والطريق الثاني قريبٌ منه، ولفظه: قال: كان النبي ﷺ في غُرفةٍ ونحن أسفل منه، فاطَّلَع إلينا، فقال: «مَا تَذْكُرُونَ؟»، قلنا: الساعة، قال: «إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَالدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرَةِ عَدَنٍ تُرَحِّلُ النَّاسَ» ينظر: صحيح مسلم (٨/ ١٧٩).

والحديثُ رواه الترمذي عن حذيفة بن أُسَيْدٍ أيضًا، وقال عنه: (حسن صحيح)، ينظر: سنن الترمذي (٤/ ٤٧٧/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، ورواه غيرهما.

(٢) نص الحديث في «صحيح البخاري» أنّه روى عن مسروق قال: دخَلنا على عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس! مَن علِمَ شيئًا فليقُل به، ومن لم يعلَم فليقُل: اللهُ أعلم؛ فإنَّ مِنَ العلم أن يقول لما لا يعلَم: اللهُ أعلم، قال الله عزَّ وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وسأُحدِّثُكم عن الدُّخان، إنَّ رسول الله ﷺ دعَا قُريشًا إلى الإسلام فأبطَؤُوا عليه، فقال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ». فأخَذَتْهم سَنَةٌ فحَصَت كلّ شيءٍ حتى أكَلُوا الميتةَ والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دُخانًا من الجُوع. قال اللهُ ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: فدَعَوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾. أفيُكشَفُ العذابُ يوم القيامة؟ قال: فكُشِفَ ثم عادُوا في كُفرهم، فأخَذَهم الله يوم بدرٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٠٩/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ هذا دَيدَنُ كثيرٍ من الغافِلين اللاعِبين، وهو أنّهم حينما يرَون العذابَ أو مُقدِّماته يلجَؤُون بالضراعة إلى الله، لكنّها ضراعةٌ أشبَه بحالة المُراوَغة واللعب أيضًا؛ ولذلك فإنّهم عائدون إلى اللجاجة في الكفر بعد تأخير العذاب عنهم ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ هكذا فعل فرعون وقومه كما مرّ آنفًا.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ هذا توبيخٌ لهم؛ إذ كان الأحرى بهم أن يتفكَّروا ويتذكَّروا لما جاءهم رسولهم بالبيِّنات والآيات المُعجزات، لكنّهم لم يتّعظوا حتى جاءهم العذاب.

﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ الأظهر أنّ ذلك يوم القيامة، فهذا هو الوعيد الذي ما فوقه وعيد، وذِكْر آية الدخان قرينة أيضًا، والله أعلم.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون

في هذه الآيات يختار القرآن مثلًا لهؤلاء المشركين المُعاندين، مثل فرعون وقومه، وموقفهم من رسالة موسى ﷺ ثم ما حصل لهم من عذاب وخراب:

أولًا: ذكَرَ القرآن برسالة موسى ﷺ إلى فرعون وقومه؛ حيث دعاهم إلى إطلاق القوم المُضطهدين - وهم بنو إسرائيل - وتحريرهم من نَيْر العبودية الفرعونيَّة، ثم دعا الفراعنة أنفسهم لطاعة الله، وترك التعالي والتكبُّر على الحقِّ، وإلا فليتركوه وشأنه ولا يتعرَّضوا له ولدعوته بالأذى ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾.

ثانيًا: أصرَّ الفراعنة على موقفهم الظالم الآثم، ولحِقُوا بموسى والمؤمنين معه بعد أن تركوا لهم أرضهم وسلطانهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ

﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

وهكذا انتهت قصّة الصراع بين الفئة المؤمنة على استضعافها وفقرها وقلة حيلتها، وبين الفئة الطاغية المُتجبِّرة؛ حيث أغرقهم الله جميعًا، فكانوا عبرة لكلِّ مُعتبِر.

ثالثًا: اصطفى الله تلك الثُّلَّة التي آمنت بموسى ورسالته واختارهم على علمٍ على العالمين، وفي هذا إشارةٌ مبشِّرةٌ للثُّلَّة التي آمنت بمحمدٍ ﷺ أنَّ الله سيصطَفِيهم وسيُمكِّن لهم دينهم ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ﴾.

رابعًا: قارَنَ القرآن بين هؤلاء المشركين وما ينتظرهم جزاءَ ظُلمهم وتكذيبهم وبين أسلافهم من المشركين ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ فهذه الأقوام التي أهلكها الله إنما أهلكَهم لأنَّهم كانوا يقولون بما يقوله هؤلاء المشركون اليوم من تشكيكهم بالوحي، وتكذيبهم بيوم الحساب.

دقائق التفسير

﴿۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: اختبَرنا قوم فرعون قبل هؤلاء المشركين، والتذكير بفرعون في هذا السياق تنبيهٌ إلى التشابُه بينهم في العِناد والمُكابَرة والمُراوَغة.

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ هذا قولُ موسى ﵇ يطلُبُ فيه مِن فرعون أن يُسلِّمَه بني إسرائيل ويسمح لهم بمغادرة مصر.

﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ بحجّة ظاهرة.

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ هذا توجيهُ الله تعالى لموسى ﷺ أن يخرج بقومه ليلًا حتى لا يعلم بهم فرعون؛ لأنهم خارجون عنه بغير إذنٍ منه، وقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: سيتبَعكم فرعون وجُنده.

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي: مفتوحًا؛ حيث الفجوَة التي أحدَثها الله وسط البحر بضربة موسى ﷺ والتي عبرَ منها موسى وقومه.

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ حيث سيلتَئِم البحر عليهم، وقد كان ذلك كما أخبر ربُّنا سبحانه، فغرق في هذه الفجوة فرعون وجنده.

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: كمْ ترَكَ فرعون وقومه في أرض مصر من بساتين وعيون كثيرة، إشارة إلى النعيم الذي كانوا يتمتَّعون به.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: أورَثنا مصرَ لملوك آخرين بعد غرق فرعون، وهؤلاء الملوك هم مِن مصر أيضًا وليسوا من بني إسرائيل؛ لأنّ بني إسرائيل لم يعودُوا ثانيةً إلى مصر بعد أن خرَجُوا منها، والله أعلم.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ هذا على سبيل التحقير لهم، بمعنى أنّهم هلَكُوا كما هلَكَ من قبلهم، فلم تَحزَن عليهم السماء، ولم تَحزَن عليهم الأرض، بل استمرّت الحياة كما كانت ولم تتغيّر.

﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: وما كانوا مؤخَّرين عن هذا الهلاك الذي جاءهم بالأجل الذي قدَّره الله لهم.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ بخروجهم من مصر، وبهلاك فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب.

﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي: اصطَفَيناهم وفضَّلنَاهم على العالمين بعلمٍ منَّا، فالله أعلم حيث يجعلُ رسالته، ومن أين يختار لها حمَلَتها، والمقصود بالعالمين هنا: الذين

كانوا في زمانهم، أمَّا بعد البعثة المُحمديَّة فإن الله اختارَ هذه الأمة، واختارَ مِن هذه الأمة أولئك الصحابة الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ البلاء هنا معناه: التمحيص والتطهير والتزكية؛ إذ البلاء يكون في الخير كما يكون في الشر ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: وما نحن بمبعُوثين للحساب.

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذه حجّة المشركين في إنكارهم للبعث، بمعنى أنّهم لا يريدون أن يؤمنوا بالبعث إلّا بعد أن يرَوه عيانًا، وهذا من سقيم الرأي؛ فالعقول السليمة تبني المقدِّمات، وتستخرج النتائج الصادقة، ولا تتوقف عن القياس والاستنتاج إذا غاب الشيء عن الحواس، فالذي يرى بناءً أثريًّا يجزمُ بوجود بَنَّاء بنَاه وإن كان لا يراه.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ هذا تخويفٌ آخر لُمشركِي العرب أنّ مصيرهم لن يكون بأفضل من مصير الأمم المكذِّبة السابقة إن هم استمرُّوا في عنادهم وتكذيبهم، وتُبَّع هو مَلِكُ اليمن، كما أنّ فرعون هو مَلِكُ مصر، وقد عُرِفَ قومُ تُبَّع بالقوّة، وهذا معنى خيريَّتهم، فـ ﴿خَيْرٌ﴾ هنا لمقارنة قوة قريش بقوة تُبَّع، كأنّه يقول: أهُم أقوى أم قوم تُبَّع؟

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين

بعد ذكر اختلاف الناس قديمًا وحديثًا في هذا الوحي ورسالات الله المُتتابعة إلى أنبيائه، وما جرى ويجري لكلِّ فئةٍ وفرقةٍ، جاءت الآيات هذه لتختتم المشاهد كلّها بمشهدٍ واحدٍ؛ حيث يقوم الناس لربِّ العالمين فيقضي بينهم بحُكمه العادل الذي لا يظلم أحدًا، ولا ينحاز إلى أحدٍ:

أولًا: تأكيد أنّ الله ﷻ لم يخلق هذا الكون عبثًا، كما يتوهّم العابثون اللاعبون ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثانيًا: تأكيد أنّ يوم الفصل بين الناس والحُكم عليهم بما يستحقُّه كلُّ فريقٍ منهم آتٍ لا محالة ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ثالثًا: بيان عاقبة هؤلاء الظالمين الآثمين ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾.

رابعًا: بيان عاقبة المؤمنين المتقين ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

خامسًا: اختتمت هذه السورة المباركة بما استهلَّت به، فعاد الحديث عن القرآن ورسالته في هذه الحياة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ فيه ردٌّ على مُنكِري البعث؛ إذ لو انتهت الدنيا عند هذا الحدِّ، يموت الظالم ويموت المظلوم دون أن يُنصف لهذا من ذاك، ويموت العالِم والعامل، والكريم وصاحب المروءة كما يموت السفهاء والمجرمون والعابثون، بلا تمييزٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ، لو كانت الحياة كذلك فإنّها ستكون مسرحًا هزيلًا، ولعبًا لا قيمة له، ولا جَدوَى منه، وفيه تعريضٌ أيضًا بنهج المشركين ونمط حياتهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: إنّ يوم القضاء العادل بين هذه الخلائق كلّها هو موعِدُهم المُحدَّد الذي سيجمعهم جميعًا ولا يستثني منهم أحدًا.

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ والمَولَى هو المُناصِر مِن قريبٍ أو صديقٍ أو حليفٍ، فلا تغني كلُّ هذه الأواصر؛ لأنّ الميزان هناك إنّما هو ميزان العمل.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ هذا استثناءٌ للمؤمنين الذين اجتمعوا وتناصَروا على حُبِّ الله وطاعته، فلا شكَّ أنّ هذه الصِّلَة تنفع يوم القيامة؛ لأنّها جزءٌ من العمل الصالح، فمحبّةُ النبيِّ ﷺ هي عملٌ صالحٌ ينال به المُحِبُّ الثوابَ من الله، والشفاعةَ من النبيِّ، وهكذا محبّةُ الصحابة الأبرار، وأهل البيت الأطهار، وكلّ الصالحين الأخيار.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ وهي شجرةٌ خبيثةٌ أُعِدَّت طعامًا لأهل النار، والأثيم: كثير الإثم المستوجِب للنار.

﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ والمُهل يُطلَقُ على المعدن المُذاب كالقطران ونحوه، ويُطلقُ أيضًا على عكر الزيت المتبقي منه بعد تصفية الزيت منه، ومعناهما متقارب، والله أعلم.

والحميم: الماء المغلي، والمعنى أنّ ثمرة هذه الشجرة الخبيثة تتحول في بطونهم إلى ما يُشبِه القطران المغلي، والعياذ بالله.

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: خذوا هذا المجرم وادفعوه إلى وسط الجحيم، والخطاب لملائكة العذاب.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ تقول له الملائكة ذلك على سبيل التهكُّم والازدراء، كما كان يتهكّم بعباد الله ويزدريهم يوم أن كان مغرورًا بجاهه وماله.

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي: هذا العذاب الذي تَصلَونَه اليوم هو الذي كنتم تشكُّون به وتُجادِلُون فيه.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ جاءت الإشارةُ هنا إلى الأمن؛ لأنّ الصور المُتقدِّمة كانت تخلَع القلوب، فاحتاج المُتَّقون إلى ما يُطمئِنهم ويؤمِّنهم.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ تفسيرٌ للمقام الأمين.

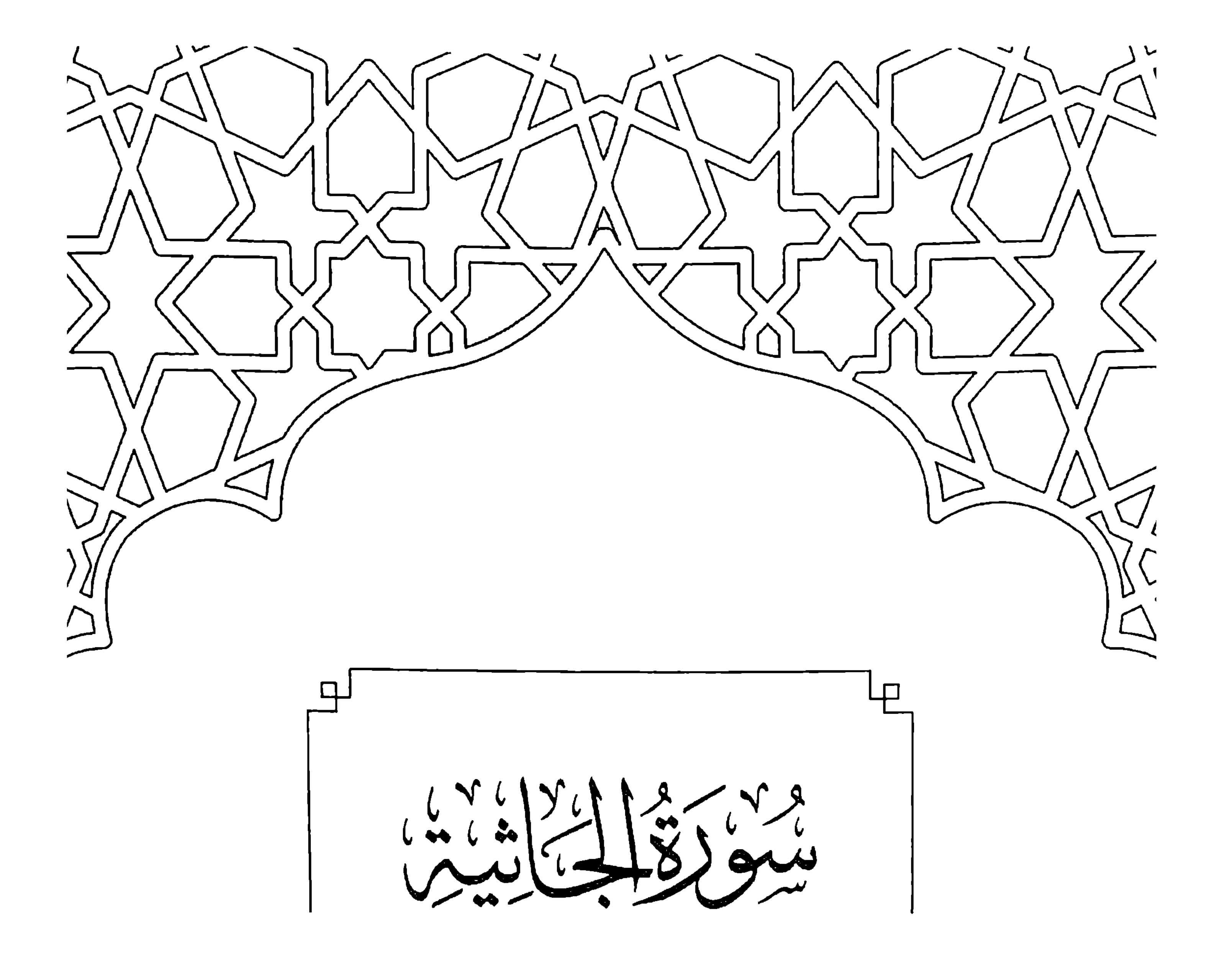
﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ﴾ والسندُسُ: رقيقُ الحرير.

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ غليظُ الحرير.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾ لأنّ الله يجزي بالحسنات أضعافًا، ولأنّ أصل جزائه إنّما هو تفضُّلٌ منه، فهو سبحانه لا ينتفع بأعمالنا الصالحة، كما لا تضُرُّه أعمالُنا الطالحة، لكن هكذا قضَت مشيئتُه أن يُميِّز بين المُحسِن والمُسِيء، وبين الصالح والطالح.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يسَّرنا تلاوةَ القرآن وفهمَه على أكمل وجهٍ، وأوضح صورةٍ، وبلُغتِك يا محمد ولُغة قومِك لعلَّهم يتفكرون فيه، ويتدبَّرون آياته، فتَستكِين له قلوبهم، وتخضع له جوارحهم.

﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ إشعارٌ بجدِّيَّة الأمر، وفيه الوعدُ والبُشرى لكلِّ مؤمنٍ يرتَقِبُ لقاءَ الله، والوعيدُ الشديدُ لكلِّ غافلٍ لا يخشَى الله، ولا يرتَقِبُ إلَّا الموتَ الذي يراهُ نهايةَ الحياة.



سورة الجاثية

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾

هذا بصائر للناس وهدىً ورحمة

في هذه السور المتتالية يتتابعُ حديثُ القرآن عن القرآن؛ ففي الشورى كان الحديث عامًّا في الوحي ومعناه وصوره، فاستهلّت بقولِهِ تعالى: ﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ - ٣]، وكأنّها تُمهِّدُ لما تناولَتْه سورة الزخرف التي استهلّت بقوله تعالى: ﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣]، ولما تناولَتْه سورة الدخان: ﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ١ - ٣]، ثم جاءت هذه السورة في السياق ذاته:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وواضحٌ من هذه الاستهلالات أنّ الموضوع الأساس لهذه السور واحد، لكن كلّ سورة تتناوَلُه من جانبٍ.

في هذه الآيات من فواتح سورة الجاثية يأتي حديث القرآن عن القرآن ليتناول مسائل مما تستدعِيه طبيعة الصراع في العهد المكّي، وكما يأتي:

أولًا: تأكيد أنّ هذا القرآن تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وذِكْرُ هاتَين الصفتَين الكريمَتَين مُشعِرٌ بتجَلّيهما في القرآن الكريم، ففي القرآن العزّة والحكمة، وهما صفتان مُتكاملتان، والإشارة أيضًا إلى أثر القرآن في الأُمّة التي تؤمن به وتربّي أجيالها عليه أنّها ستكون أمة عزيزة حكيمة.

ثانيًا: تأكيد الصلة بين آيات الله في الكتاب، وآياته في الخلق؛ فالكتاب كتابه، والخلق خلقه، فلا يمكن أن يتعارَضَا أو يتناقَضَا، وهما من مصدرٍ واحدٍ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثالثًا: تأكيد أنّ هذا القرآن إنّما هو الحقُّ والهدى، والرحمة والبصائر التي تُبصِّرُ الناسَ في شؤون دينهم ودنياهم، ومبتدئهم ومنتهاهم ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾، ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

رابعًا: بيان أنّ الذين يكذّبون بهذا القرآن إنّما يُكذّبون به لكبرٍ في نفوسهم، فهم يكذبون على أنفسهم، ويستهزئون بالحقّ الذي جاءهم قبل أن يصغوا إليه أو يتفكروا فيه ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ

عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

خامسًا: وصيَّة المؤمنين بالحلم والصفح عن أولئك المُكذِّبين المُعاندين بعد أن استبانَت لهم طريق الحقِّ من طريق الباطل، وبلَغَتْهم الدعوة بصورتها الصحيحة الناصعة، فلم يَبْقَ إلَّا أن يتحمَّل كلّ إنسانٍ مسؤوليَّة خياره وقراره، ولا يظلم ربُّك أحدًا ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

سادسًا: التذكير بالرسالة السابقة؛ رسالة موسى ﷺ الذي أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوَّة، وبعثه في بني إسرائيل ليحملوا معه هذه الأمانة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكيف أنّهم اختلفوا مع كلّ هذا عن هَديِه ﷺ ونور الكتاب الذي كان معه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

سابعًا: وصيَّة الرسول ﷺ وأُمَّته من بعده بالتمسُّك بشريعة الله الخاتمة التي نسَخَ الله بها شريعةَ موسى ﷺ وكلَّ الشرائع السابقة، والابتِعاد عن أهواء الذين لا يعلمون ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿حمٓ﴾ تقدَّم الحديث عن الحروف المقطعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ للعلاقة بين العلم والإيمان، فالنظر في الكون يدعو للإيمان، والإيمان بالله يدعو للنظر في هذا الكون.

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلاف وجهتها وحركتها.

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الأفَّاك: الكذَّاب كثيرُ الكذب، والأثِيمُ: كثيرُ الإثم.

﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ تعليلٌ لاستِحقاقه العذاب بأنّه قد بلَغَتْه الدعوة، وأُقيمَت عليه الحُجَّة.

﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على الكفر بها.

﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ بيانٌ للدافع الذي يدفعه لإنكار هذه الآيات بعد سماعها.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ فهو لم يسمع فقط، وإنّما علِم، وفي هذا تأكيدٌ لبلوغ الدعوة له، وإقامة الحُجّة عليه.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: من بعد حياتهم هذه.

﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ في حياتهم هذه من مالٍ وجاهٍ.

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ أي: ولا تُغنِي عنهم أصنامهم التي عبَدُوها من دون الله.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تأكيدٌ للعلاقة بين الدين والفكر، والإيمان والعلم، بخلاف ما يتوهَّمه الجاهلون.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: قُل لهم أن يصفَحوا ويُعرِضوا عن هؤلاء الذين تقدَّم ذِكرُهم من المُستكبِرين المُعانِدِين الذي لا يحسبون حساب الآخرة، ولا يُؤمنون بها، فالانشِغالُ بهم مضيَعةٌ للوقت والجهد، وتعطيلٌ للدعوة أن تصِلَ إلى غيرهم.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، وتأكيدٌ أيضًا لغنى الله تعالى عن عمل العاملين وعبادة المتعبِّدين.

﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بحمل رسالة الله وإقامة خلافته في الأرض، وهو تفضيلٌ مقترنٌ بالمسؤوليَّة التكليفيَّة، فلما حادُوا عن الطريق ذهَبَت الأفضليَّة عنهم.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ الأمر هنا: الشأن المطلوب تبيِينه وتشريع الأحكام له،

وهو كلُّ ما يتعلق بنظام الحياة وتحقيق مصالح العباد.

﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بمعنى أنّ اختلافهم لا عُذر لهم فيه، والسياق يُوحِي بالتعجُّب من فعلهم تعجُّبًا ممزوجًا باللوم والتوبيخ؛ إذ ما كان لهم أن يختلفوا بعد كلّ تلك البيِّنات، ثم كشفَ عن مبعث اختلافهم فقال: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ فالبغي إذن هو الباعِثُ وليس العلم، وهذه طامّة من طوامِّ أهل العلم؛ إذ لو تنافَسُوا على الصدارة والوجاهة والمتاع الزائل فسيكونون أقوى في تفريق الأمة وتمزيقها ممّا يكيده لها عدوُّها.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ وهي الإسلام الكامل الشامل، وأشار هنا بـ ﴿ثُمَّ﴾ إلى سلب الأفضليَّة عن بني إسرائيل والأمانة التي كُلِّفوا بحملها، وتحويلها إلى أُمَّةٍ أخرى هي أُمَّةُ الإسلام التي ترِثُ الرسالات السابقة وتُؤتَمَن عليها، وتُقيم الإسلام الكامل الشامل في هذه الحياة.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: والله ناصِرُ هذه الأمة التي آمَنَت بالله وبرسوله، وحمَلَت هذه الأمانةَ من جديد.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ هذا أي: القرآن، والبصائر: جمع بصيرة، وهي إدراك الشيء على حقيقته، والمقصود أنّ القرآن يُعلِّمُ الناس حقائق الأمور التي يحتاجون إلى فهمها في شؤون دينهم وعلاقاتهم وقوام حياتهم.

﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ يُؤمنون عن علمٍ ويقينٍ، لا عن جهلٍ وتقليدٍ.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق

بعد بيان هذه البصائر للناس وكيف اختلفوا فيها كما اختلف الذين من قبلهم، جاء الشطرُ الثاني من هذه السورة ليبيِّن عاقبة الفريقَين: المؤمنين والمكذِّبين؛ فكلٌّ سيجِدُ ما قدَّم لنفسه في كتابٍ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً، إنّه الكتاب الذي يملَؤُه المرءُ بنفسه إن خيرًا، وإن شرًّا:

أولًا: بيان القانون العدل الذي يُقضَى به بين الناس ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

فالميزان إنّما هو ميزان العمل، وليس هناك شيءٌ آخر، والعمل ميدان مفتوح للتنافس، ويتمايَزُ فيه الناس بحسب جهدهم وما يُقدِّمونه لأنفسهم، بخلاف الموازين الأخرى؛ كالجنس، واللون، والقوميّة، والقبيلة؛ والتي لا يقدِرُ الناس على تغييرها ولا تعديلها.

ثانيًا: بيان أنّ هذا القانون متّسقٌ مع سنن الله الكونيّة القائمة على العلم والحكمة والنظام الدقيق ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثالثًا: بيان حال الكافرين المُكذِّبين وهم يعبدون أهواءهم، ويُغلقون أسماعهم وأبصارهم عن كلمة الحقّ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم يعرض شُبهةً من الشبهات التي يتمسّكون بها وهم ينأون عن الوحي ويصدُّون عنه ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

رابعًا: تأكيد الوعد الحق بقيام الساعة واستعداد الخلائق كلّها ليوم الحساب ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وفي هذا ردٌّ على تلك الشبهة البائسة، فالله الذي خلق الحياة من العدم أقدَر على إعادتها مرة ثانية، هذا هو منطق العقل لو كانوا يعلمون.

خامسًا: تأكيد أنّ عمل الناس كلّه محفوظٌ وموثَّق، وعليه يكون الحساب، وبه تقوم الحجّة ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

سادسًا: تأكيد أنّ الفائزين هناك إنّما هم أولئك الذين استعدُّوا لذلك اليوم، وأخذوا له أهبته ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

سابعًا: أما الخاسرون فإنّما هم أولئك المستكبرون المستهزئون الذين أعماهم تكبُّرهم عن

سماع كلمة الحقِّ، وغرَّهم المتاع الزائل في هذه الحياة الدنيا عن مصيرهم الذي ينتظرهم في حياتهم الأخرى، هناك تتجلَّى لهم الحقيقة كاملة، وتظهر لهم سيئات أعمالهم، ويندمون حيث لا ينفع الندم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

ثامنًا: وفي ختام السورة يُمجِّدُ الله نفسه، فهو سبحانه المستحقُّ للحمد في السماوات والأرض وله الكبرياء فيهما، وهو العزيز الحكيم ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اكتسبُوا السيئات بفعلِهم وإرادتهم.

﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ سؤالٌ استنكاريٌّ، يقصد به إنكار أن تكون حياة المؤمنين كحياة الكافرين؛ فحياةُ المؤمنين هادفةٌ ثابتةٌ مُطمئنَّةٌ، وحياةُ الكافرين آثِمةٌ عابِثةٌ ظالمةٌ مُضطربةٌ، وإذا كان هذا في الحياة فما بعد المات أشد افتراقًا وتفاوُتًا.

﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي وأنّه سبحانه ليس بظلَّام للعبيد.

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هذا هو الصنَم الخفيُّ الذي يعبُدُه هؤلاء المشركون، إنّه الهوى الذي يصُدُّهم عن الحقِّ ولو نزَلَت به الآيات، وقامَت عليه البيِّنات، والهوى درجات أو دركات، ولا تكاد تخلُو منه نفس، وإنّما العبرة بغلبة الحال، والقدرة على الأَوبَة بعد الحَوبَة

من عَدَمِها، والمؤمنُ إلى خيرٍ ما نازَعَ في الحقِّ هواه ولو زلَّ وأخطأ، والله أعلم وأرحم.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: أضلَّه الله مع ما هو عليه من العلم، والله سبحانه لا يُضِلُّ إلَّا من طلَبَ الضلالةَ وسعَى لها، والعلمُ سبيلٌ للهداية، لكنّه مع غلَبَة الهوى واشتعال نار الحسد لا ينفع صاحبه بشيءٍ.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ هذا من لوازم التكبُّر والمُكابَرة، ونسبة الختم إلى الله إنّما كان بحكم إرادة الله المطلقة التي لا تنفصل عن عدله وحكمته، والله لا يظلم أحدًا، لكنها الأسباب والسُّنن التي وضعها الله في هذا الكون، فمن طلب الهدى هداه الله، ومن تكبَّرَ أضلَّه الله، تمامًا كالذي يأخذ الدواء فيشفى، ويأخذ السمّ فيردى، وقد ذكر السمع والقلب والبصر؛ تأكيدًا أنَّ هؤلاء قد عطَّلوا كلَّ منافذ المعرفة لديهم.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ليست الحياة إلَّا هذه الحياة الدنيا، أي: أنّهم يُنكِرون الآخرة.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: ليس الموت سوى انقضاء الأيّام والليالي، والأيام لا تعود، وهذا كلّه تنوُّع في عباراتهم التي تدلُّ على كفرهم بالحياة الآخرة.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تقدَّم مثل قولهم هذا في سورة الدخان، وقلنا هناك: إنّ هذه حُجَّة المشركين في إنكارهم للبعث، بمعنى أنّهم لا يريدون أن يؤمنوا بالبعث إلا بعد أن يرَوه عيانًا، وهذا من سَقِيم الرأي، فالعقول السليمة تبني المُقدّمات، وتستخرج النتائج الصادقة، ولا تتوقف عن القياس والاستنتاج إذا غابَ الشيء عن الحواس، فالذي يرى بِنَاءً أثريا يجزم بوجود بَنّاء بَناه وإن كان لا يراه.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ كلّ مجموعة من الناس بارِكة على الرُّكَب تنتظر حكم الله فيها.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلى أعمالها المحفوظة في كتاب كلِّ فردٍ من أفرادها، والذي يظهر من هذه الآية أنّ الحساب وإن كان فرديًّا أي: لكلِّ فردٍ كتابه، وعلى كلِّ فردٍ حسابه، إلَّا

أنّهم يُجمعون جمعًا على حسب الملّة التي ينتسبون إليها، والله أعلم.

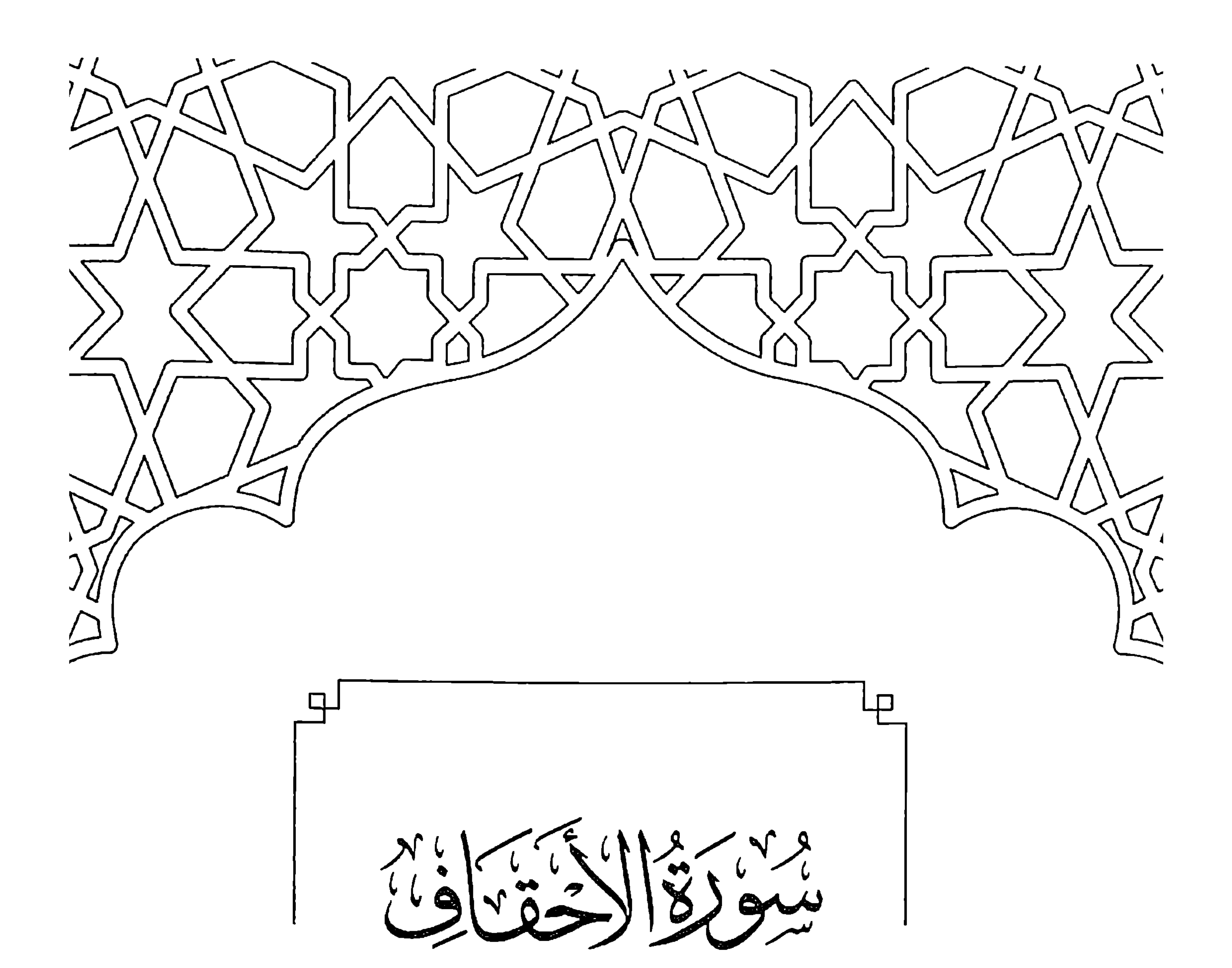
﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ والكتاب هنا جنس الكتاب، أي: بمعنى الكتب؛ إذ لكلّ فردٍ كتابه، و﴿يَنطِقُ﴾ مجاز قصد به تشبيه الكتاب بالكلام المنطوق؛ لشدّة ظهوره، وقوّة حُجّته.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نحفظ لكم أعمالكم في كتابٍ ظاهرٍ بيّنٍ، ولم يذكر القرآن طريقة الحفظ هذه، ولا مانع من حفظ صورة الأعمال خاصّة بعد أن تمكّن البشر من حفظ الأعمال والحركات كما هي، ولا شكّ أنّ حفظ صورة العمل كما هي أقوى في الحُجّة من تدوينها كتابةً، ولا مانع أيضًا من إطلاق اسم الكتاب على هذه المدوّنة من الوثائق والمُستَنسَخات، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فجملةُ (يُقال لهم) مقدّرة بمُقتضى السياق.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ النسيان صفة نقص منفيّة عن الله جَزمًا، وإنّما هذا على سبيل المشاكلة، بمعنى أنّ الله يترُكهم في العذاب، وسمّى الترك نسيانًا؛ لأنّه يُناسِب جريمتهم في نسيان الآخرة وعدم الإيمان بها، أو الاستعداد لها.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطلب منهم الاعتذار في مقابل الرضا والعفو عنهم.



سُورَةُ الأَحْقَافِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢﴾

أم يقولون افتراه!

على صِلَةٍ بالسور المُتقدِّمة، يتتابعُ حديثُ القرآن عن القرآن في هذه السورة أيضًا؛ حيث تستهلُّ السورة بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ ثم يدخل القرآن في حوار مُفصَّل مع المُكذِّبين بالقرآن، وكما يأتي:

أولًا: تأكيد أن هذا القرآن تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وذكْر هاتَين الصفتَين الكريمَتَين مُشعِرٌ بتجلِّيهما في القرآن الكريم؛ ففي القرآن: العزة والحكمة، وهما صفتان متكاملتان، والإشارة أيضًا إلى أثر القرآن في الأمَّة التي تؤمن به وتربِّي أجيالها عليه أنّها ستكون أُمَّة عزيزة حكيمة.

ثانيًا: تأكيد الصلة بين آيات الله في الكتاب وآياته في الخلق، فالكتاب كتابه، والخلق خلقه، وكلاهما من مصدرٍ واحدٍ فلا يتعارضان ولا يتناقضان أبدًا ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾.

ثالثًا: دعوة المشركين للتفكُّر في آلهتهم المُزيَّفة التي يعبدونها عن غير دليلٍ لا من كتابٍ سابقٍ، ولا من أثارةٍ من عِلْمٍ، ولا من أثرٍ لها في هذه الحياة ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ثم تحذيرهم من أنّ هذه الأصنام لن تستجيب لهم في الدنيا، ولن تنفعهم في الآخرة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾.

رابعًا: بيان حال المُكذِّبين بالقرآن وتخبّطهم واتهامهم للنبيِّ الكريم ﷺ بشتى النقائص، فيتهمونه بالسحر أولًا ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم يتهمونه بالكذب والافتراء ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ ﴾، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ ثم يتهمون القرآن بالنقص والدونيَّة، ويجعلون المقياس في ذلك ما هم عليه من الاغترار بجاههم وما لهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ ﴾.

خامسًا: بعد ذلك يبدأ القرآن بالردِّ على تخرُّصاتهم واتهاماتهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وفحوى هذا الردّ: أنّه يُخاطبهم في داخل أنفسهم، فهؤلاء يعرفون مُحمدًا ﷺ وتاريخه فيهم، وهم الذين كانوا يُسمُّونه الصادق الأمين، ولا زالوا إلى آخر يومٍ من هجرته الشريفة يستأمِنُونَه على أموالهم، وهم كذلك يعلمون أنّ هذا القرآن ليس بسحرٍ، وأنّه لو كان كذلك فبإمكانهم أن يأتُوا بساحرٍ يُعارِضُه، بل هم أعلَمُ من غيرهم بحقيقة هذا القرآن؛ لأنّهم هم أهل الفصاحة والبيان.

سادسًا: ثم يستشهد عليهم بشهادةٍ من أهل الكتاب، مُؤكِّدًا بهذه الشهادة أن الذي يمنع

قريشًا من الإيمان إنَّما هو الكِبْر والظلم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنَّ ما بين القرآن الكريم والتوراة من التماثُل شاهدٌ على وحدة المصدر، وأنَّه ﷺ ليس بِدعًا من الرسل، ولا رسالته بدعًا من الرسالات، كما سيأتي تأكيده وبيانه.

سابعًا: في معرِضِ هذا الرد أيضًا يُؤكِّد القرآن صِلةَ هذه الرسالة بالرسالات السابقة؛ فمحمد ﷺ إنّما هو واحدٌ من هؤلاء النبيين، وليس بِدعًا منهم، بل هو شاهدٌ لهم ومُتمِّمٌ لرسالتهم ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وفي هذا السياق يأتي التذكيرُ برسالة موسى ﷺ وما بينها وبين الرسالة المحمّديَّة من ترابُطٍ وتشابُهٍ ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿حمٓ﴾ تقدَّم الحديث عن الحروف المُقطَّعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ﴾ سؤالٌ على معنى الإنكار والتوبيخ، فهذه الأصنام التي لم تخلق شيئًا من الأرض، ولم تخلق شيئًا في السماء كيف تكون آلهة تُعبد وتمجَّد من دون الله؟

﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أثر باقٍ عندكم من العلم.

﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني: الأصنام التي لا تقدر على استجابة الدعاء أبدًا مهما طالَ بها الأمد.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ بمعنى أنَّها ليست فقط عاجِزة عن إجابة الدعاء، بل هي غير قادرة على فهمه؛ لأنَّها جمادات لا تعِي، ولا تعقِل.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إنَّ الله أعلم بما تخُوضُون فيه من تكذيبٍ واستهزاءٍ بهذا القرآن.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو الله الذي يعلَمُ حالي ويعلَمُ حالكم، وكفى به شاهِدًا وحكمًا بيننا، والعبارة فيها تهديدٌ ووعيدٌ لا يَخفَى.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أعقب ذاك الوعيد بهاتَين الصفتَين الكريمتَين لله؛ ترغيبًا لهم بالتوبة والإنابة.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لم أكن أنا أوَّل رسولٍ في الأرض، بمعنى أنّه يستنكر عليهم استغرابهم، وكأنّهم لم يسمعوا برسولٍ بُعث إلى الناس من قبل.

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ لأنَّ الرسولَ بشرٌ لا يعلم إلا ما علَّمه الله.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي: ماذا تقولون إن تبيَّن لكم هناك أنّ هذا القرآن مِن عند الله، وقد جِئتُم إلى الله وأنتم كافرون به.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: وشهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل ما ورد في القرآن، مما يُؤكِّد صلةَ هذه الرسالة المُحمّديَّة بالرسالات السابقة؛ لأنّها جميعًا من مصدرٍ واحدٍ.

وقصد بهذه المحاججة أنّكم تستبعدون أن يرسل الله رسولًا منكم، وتعلمون أنّه سبحانه قد أرسل رُسُلًا سابقين في غيركم، وتستغربون القرآن وما فيه من قصصٍ وأحكامٍ وأنتم ترَون بني إسرائيل يقُصُّون عليكم مثل ما هو موجودٌ في القرآن، فما وجه إنكاركم واستِغرابكم؟

﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: الذين يشهَدون على مثل ما في القرآن من بني إسرائيل مؤمنون بما عندهم، بخلافكم أنتم الذين تكفرون بما أوحى الله به إليكم، وقد وهِمَ مَن قال بأنّ الشاهد هنا والذي آمن بالقرآن هو عبد الله بن سلام؛ لأنّ إسلام عبد الله بن سلام كان بعد

الهجرة الشريفة، والآيات هذه مكِّيَّة، والخطاب موجَّه لأهل مكَّة كما هو بيِّنٌ من السياق، إلّا إذا كان ذلك على معنى الإخبار المستقبلي، بمعنى: ماذا تقولون لو شهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيل على صحة هذا القرآن فآمَنَ به، فتكون هذه بِشارة بإسلام عبد الله بن سلام ﷺ، وفيها تعجيزٌ وتقريعٌ لقريش، والله أعلم.

﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ يقول ذلك المشركون من قريش تكبُّرًا وتعاليًا على فقراء المؤمنين، بمعنى أنّهم يقولون: لو كان القرآن خيرًا لما سبقَنا إليه هؤلاء الفقراء.

﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ أي: يقولون عن القرآن أنّه كذِبٌ معهودٌ مِن القِدَم، ولا يقصدون أنّ القرآن نفسه قديم، والربط بين قولهم هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ فيه تفسيرٌ نفسيٌّ عميقٌ لموقفهم هذا؛ فالمرء الذي يُعادِي الحقَّ لغايةٍ في نفسه من كِبْرٍ وحسدٍ ونحوهما يضطرّ لخداع ضميره بتشويه هذا الحقّ، حتى يخفّف على نفسه من وطأة الضمير وصوت الفطرة الناطق في داخله.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ﴾ أي: هذا القرآن مُصدِّقٌ لكتاب موسى الذي هو التوراة.

﴿لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: بلسانٍ عربيٍّ، وتأكيد العربيَّة في هذا السياق مقصودٌ ومُناسبٌ للمُخاطَبين في مكَّة؛ تقريعًا لهم، وإقامةً للحُجَّة عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

في هذه الآيات يعرِض القرآن حال المؤمنين المصدِّقين بهذا القرآن، وما يتَّصِفون به من سجايا ومزايا، وما ينتظرهم جزاء صبرهم واستقامتهم، كلّ هذا أيضًا بمقارنة مع أولئك المُكذِّبين وما ينتظرهم من عذابٍ وهوانٍ، وكما يأتي:

أولًا: امتدح القرآن أولئك المؤمنين الذين قالوا: ربُّنا الله، ثُمَّ وفّوا بهذه الكلمة وأعطوها حقَّها، واستقاموا عليها، مُبشِّرًا إيَّاهم بالنعيم الدائم الذي لا يشوبه خوفٌ ولا حزنٌ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ثانيًا: استكمالًا لتلك السجايا الطيِّبة والأعمال الصالحة، ركَّز القرآن حديثه عن سجيَّةٍ من هذه السجايا، وعملٍ صالحٍ من تلك الأعمال متَّصِل ببناء الأسرة الصالحة الكريمة، وبناء

المجتمع الأمثل الذي فيه أبناءٌ يبرُّون آباءهم، وآباءٌ يحرصون على تربية أبنائهم ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ويلحظ هنا أيضًا أنَّ هؤلاء لم يكتفُوا بإعلان ولائهم لله ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، بل أعلنوا ولاءَهم للمسلمين والدخول في هذه الأُمَّة المؤمنة الموحِّدة ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهكذا تتكامل الصورة المُشرقة: إيمانٌ بالله، واستِقامةٌ على دينه، ومبرَّةٌ بالآباء والأبناء، وإعلانُ الولاء للمؤمنين.

ثالثًا: ولكي لا يظُنَّ ظانٌّ أنّ هؤلاء الأخيار مع كلّ ما ذكره الله لهم من مزايا وسجايا مُبرَّؤُون من الذنب أو الخطأ، إنّهم يبقَون في دائرة الطبيعة البشريّة، ولم يتحوَّلوا إلى ملائكة، ومن ثَمَّ فهم بحاجةٍ إلى التوبة والعفو والمغفرة ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

رابعًا: في مُقابل هذه الصورة المُشرقة، ينقل القرآن صورةً أخرى، صورة مظلمة قاتِمة: صورة الإنسان المُتمرِّد على الله، والمُتمرِّد على الفطرة، المُتأفِّف القَلِق الذي لا يَرعَى لله ذمَّة، ولا للرَّحِم حُرمة ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

خامسًا: يتوعَّد القرآن هذا الصنف من الناس بما يستحقُّونه من عذاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ

ﱡٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﱠ.

دقائق التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ جمع بين القول والعمل، وفيه معنى إظهار الإيمان؛ فالإيمان القلبي لا يكفي ما لم يقتَرِن بالإعلان؛ لأنّ الإعلان هنا هو إعلان الهويَّة والانتماء، والاستقامة فيها معنًى مُضاف على العمل، بمعنى أنّه العمل الدائم غير المُنقطع، والعمل المستقيم العدل غير المشوَّه بالغلوِّ والإسراف.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، وفيه إعلاءٌ من قيمة العمل.

﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ أي: حمَلَتْه بمشقَّة، فالحملُ بطبيعته شاقٌّ على الأُمَّهات.

﴿وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ أي: ووضَعَتْه بمشقَّةٍ، وهي مشقَّةُ الطَّلْق.

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ بمعنى أنّ هذا هو المعتاد، وليس فيه تحديدٌ شرعيٌّ لمدَّة الحمل أو للفِصال، وهو الفطام. وذكر هذه المشاق فيه تعليلٌ لوصيَّة الله ببرِّ الوالدين، والأم بشكلٍ خاصٍّ؛ لأنّها هي التي تتحمّل هذه المشاق، ولحاجتها في العادة للبرِّ أكثر من الأب.

﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي: ألهِمني ووفِّقني.

﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ والنعمة هنا عامة في كلِّ النعم الدينيَّة والدنيويَّة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: الطاعات.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ هذا نموذجٌ للولد الطالح من أبوَين صالحَين، فهو يُسيءُ إلى ربِّه بالكفر وإنكار الآخرة، ويُسيءُ لوالدَيه بالتأفُّف وإظهار التضجُّر لهما.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ هذه رحمةُ الوالد بولده، رحمةُ الفطرة التي يُعزِّزُها الوحي، وهي رحمةٌ واعيةٌ، فهما يدعُوَانه إلى الإيمان بحرصٍ شديدٍ، وضراعةٍ إلى الله، بخلافِ أولئك الذين لا همَّ لهم إلا دفع أولادهم لكسب المزيد من المتاع الدنيوي مالًا وجَاهًا وسُمعةً.

﴿أَسَٰطِيرُ﴾ أي: أباطيل، وأصله: ما سطَّره الأقدمون بغير عِلْمٍ، كأقاصِيص الخرافة والخيال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الوعيد الذي توعّدهم الله به.

﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ أي: مع أُممٍ قد مضَت من الجنِّ والإنسِ، وذكر الجنِّ هنا كأنّه تمهيدٌ لما جاء في خِتام السورة، من استماع الجنِّ لتلاوته ﷺ بالقرآن وما بُنِيَ على ذلك.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ تأكيدٌ للعدل الإلهي الذي لن يُضيِّع حقَّ أحدٍ، فلكلِّ عاملٍ درجته من الثواب أو العقاب بحسب درجة عمله.

﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ ليس التوبيخ على تمتعهم بالطيّبات، فالله خلق لنا الطيّبات وامتنَّ بها علينا لنتمتَّع بها، لكن المقصود أنّ الطيبات التي خلقها لهم الله تمتعوا بها في الدنيا، أمّا طيبات الآخرة فهذه لن تكون لأحدٍ إلّا إذا قدّم من العمل ما يستحقها به، ومِن هذا العمل شُكرُ الله تعالى على تلك الطيّبات الدنيويَّة، والاعتراف لله بفضله في خلقها وتيسيرها، وأداء الحقوق المترتبة عليها؛ كالزكاة، والنفقة، وغيرهما.

﴿عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: عذاب الهوان.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ فالجزاءُ بالهوان مُناسِبٌ لجريمةِ التكبُّر والتعالِي على الخلق.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾

واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف

في سِياقِ الوعيد الذي توعَّدَ الله به أولئك المُكذِّبين بالقرآن، يأتي هذا التذكيرُ بعادٍ، وهم قوم هود ﷺ، وما جَرَى لهم جرَّاء كفرهم وعنادهم وتكذيبهم بنبيِّهم:

أولًا: يأمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يَذكُر هودًا وكيف أنّه أنذر قومه كما أنذر النبيُّون السابقون أقوامهم ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا تأكيدٌ لوحدة الرسالات السماويّة، وفيه أيضًا أهميّة النظر في التاريخ لأخذ العبرة والدرس، وفيه كذلك تسلية لرسول الله ﷺ.

ثانيًا: يذكر القرآن أنّ عادًا كذَّبوا رسولهم وتحدَّوه أن يأتيهم بما توعَّدَهم به ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما كان ردّه عليهم إلا قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وفي هذا بيانٌ لوظيفة الرسول أنّه المُبلّغ عن الله، أما الغيبُ وما يُقدِّرُه الله لهذه الأقوام فإنّما هو لله وحده.

ثالثًا: فلما أذِنَ الله بهلاكهم، رأَوا في السماء عارِضًا كالسحاب الثقيل، فظنُّوا أنّه مُغيثُهم بالمطر، فكان فيه هلاكهم وتدميرهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

رابعًا: ثم ينتَقِل السياق ليُخاطِب أهل مكّة علّهم يأخذون العبرة من قوم عادٍ، ومِن تلك الأقوام التي أهلَكَهم الله بظلمهم وتكذيبهم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فأولئك الهالكون كانوا مُمكَّنين في الأرض أكثر من قريش، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، وكان باستطاعتهم أن يفتحوا منافذ المعرفة ليهتدوا بسماع الكلمة الطيبة ورؤية الدلائل الظاهرة، لكنّه الحسد والكبر والسخريّة التي حالَت بينهم وبين ذلك.

خامسًا: يُحاجِج القرآن هؤلاء المشركين بأنّ الآلهة المُزيّفة لو كانت تنفع شيئًا لنفعَت أولئك الهالكين الذين أفنَوا أعمارهم بعبادتها وتقديم القرابين لها ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هو هود ﷺ، وسمّاه أخا عادٍ؛ لأنه من عادٍ، كما تقول: يا أخا العرب، أي: من العرب.

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الأحقاف منطقة بين عُمان وحضرموت كانت تسكنها قبيلة عاد، وأصل الأحقاف: كُثبان الرمل.

﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرِفَنا.

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من العذاب.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ أي: فلما رأَوا العذاب مُستعرِضًا في الأُفُق كأنَّه السحاب.

﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ أي: عارِضٌ يحمِلُ إلينا المطر.

﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ أي: هلكوا جميعًا، وبقِيَت مساكِنُهم دالَّة عليهم.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ أي: مكنَّا عادًا بما لم نُمكِّنكم فيه يا كفَّار مكَّة، وهذا تخويفٌ لهم، فإذا كانت عادٌ القويَّة لم تتمكَّن من أن تدفع عن نفسها من عذابِ الله من شيءٍ، فكيف بمَن هم أضعَف منها؟

﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بيَّنَّاها بكلِّ السُّبُل والأساليب الواضحة.

﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ أي: هلَّا نصرَتْهم آلهتُهم التي كانوا يعبُدُونها ويتقرَّبُون بها إلى الله.

﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ أي: غابُوا عنهم، ولم يتمكَّنوا من نُصرَتِهم.

﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فعبادةُ الأصنام لم تكن سِوَى كذبةٍ كبيرةٍ صدَّقَها الناس؛ لأنَّ فيها ما يرُوقُ لهم من دينٍ بلا تكاليف، ولا حسابٍ، ولا عقابٍ، ولبعضهم جاهٌ ومكانةٌ، ومصالحُ على حساب الطبقات المحرومة والمنبوذة؛ كالعبيد ونحوهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يا قومَنا أجيبُوا داعِيَ الله

بعد هذا التطواف في أجواء الدعوة المكيَّة وما تُواجِهُه من صدودٍ وإعراضٍ، والحديث عن الرسالات السابقة والأقوام الماضية، شرَعَ القرآن في خواتيم هذه السورة يفتح أفقًا آخر ومن عالمٍ آخر، عالم لا نعرف عنه إلَّا ما يرِدُنا عنه من خلال الوحي، وكما يأتي:

أولًا: يخبر الله نبيَّه ﷺ أنّه أرسَلَ له وهو يقرأ القرآن في مكّة نَفَرًا من الجنِّ، فاستمعوا القرآن ووَعَوه فآمنوا به، ثم ذهبوا دُعاةً هُداةً إلى قومهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

ثانيًا: وصَف هؤلاء النفر لقومهم القرآنَ الذي سمِعُوه بأنّه كتاب هدايةٍ وعدلٍ واستقامةٍ، وأنّه الكتاب الذي أُنزِل من بعد موسى، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّهم كانوا على علمٍ بكتاب موسى، وبالصِّلَة الوثيقة بينه وبين القرآن ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثالثًا: تبنَّى هؤلاء النفَر الدعوة إلى هذا القرآن ترغيبًا وترهيبًا، ويظهر من حديثهم أنّهم أصحاب علمٍ وفقهٍ بطبيعة هذا الدين ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

رابعًا: عاد القرآن إلى مناقشة المشركين في إنكارهم للبعث بعد أن ختَمَ حديثَه عن الجنِّ بما يُثبِت أنّهم كانوا مؤمنين بالآخرة وما فيها من حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ فالله الذي خلق هذا الكون العظيم ولم يُصِبه ما يصيب العاملين عادةً من تعبٍ ونصبٍ، لا شكّ أنّه قادرٌ على إعادة خلق الإنسان وبالقياس الأَولَى.

خامسًا: أكّد القرآن أيضًا تهديده ووعيده للمشركين ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

سادسًا: ختَمَ القرآن هذه السورة الشريفة بالوصيّة الجامعة التي تؤكِّد صِلَةَ هذه الرسالة المُحمّديَّة بالرسالات السابقة، وحاجة الدعاة دائمًا إلى الصبر والحلم وهم يُواجِهون مثلَ هؤلاء الفاسقين عن أمر الله وعن مقتضى الفطرة ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أرسلناهم إليك وأنت تقرأ القرآن، والخطاب لرسول الله ﷺ.

وهنا مسألةٌ: أنَّ الآية لا تُشيرُ إلى أنّه ﷺ كان على علمٍ بهم، ولا أنّه كان يقرأ ليُسمِعهم.

قال ابن كثير عن الحسن البصري: (إنَّه ﷺ ما شعَرَ بأمرهم حتى أنزَلَ الله عليه بخَبَرهم)[1].

والوقوف في هذه الأخبار الغيبيَّة على مورد النص أسلَم وأحكَم؛ إذ لا تعلُّق لها بأعمال المُكلَّفين سوى وجوب تصديقها، وأخذ العبرة العامة منها، أمَّا ما يتناقَلُه الناس عن أخبار الجنِّ وأحوالهم وقُدراتهم وتأثيراتهم، فغالِبُه من القصص التي يروِيها الدجَّالون والمُشعوِذُون وبعض الرُّقاة بلا نصٍّ ولا دليلٍ، وهذه كلُّها لا تُعَدُّ من الدين حتى لو صحَّت بنفسها، فليس كلّ خبرٍ صحيحٍ دينًا، مع أنَّ إثبات صحَّتها دونه خَرطُ القَتاد، أمّا امتِحانُ الناس بها فهذا من أبطَلِ الباطل، فكيف يُمتَحُن دين الناس بشيءٍ ليس من دينهم؟

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ وهذه إشارةٌ إلى أدب المُتعلِّم.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وهذا واجب المُتعلِّم بعد أن يقضي تعلُّمَه أن ينطلق لنَفْع مَن حوله؛ فكِتمان العلم لا يجوز، وفيه منعٌ للخير عمّن هو بحاجة إليه.

﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بعد كتاب موسى، وهو التوراة، وذَكَرَ موسى ولم يذكر داود وعيسى ﷺ؛ لأنَّ التوراة هي الكتاب الشامل الذي فيه تفصيلُ كلّ شيءٍ، بخلاف الزبور والإنجيل فإنّهما مُتمِّمَان للتوراة، هذا بحسب ما نعلَمُه نحن البشر، أمّا بالنسبة للجنِّ فلا ندري أكانوا على علمٍ بالزبور والإنجيل أم لا، فهذا من الغيب الذي لا يصِحُّ القولُ فيه بلا دليلٍ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: القرآن جاء مُصدِّقًا لما في التوراة.

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أي: أجِيبُوا دعوةَ محمَّدٍ ﷺ وادخلوا في دينه.

﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: يحمِيكم ويمنع العذاب عنكم.

---

(١) ينظر: «تفسير القرآن العظيم» للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤) (٧/ ٢٩٠/ دار طيبة، ط. ٢، ١٤٢٠ - ١٩٩٩م، تح سامي بن محمد السلامة).

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا ينجو من عذاب الله، ولن يجد له مفرًّا في الأرض.

﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يُصِبْه ﷻ ما يُصيب العامل في ما هو دون ذلك الأمر من تعبٍ ونصبٍ وكلفةٍ في التهيئة والإعداد.

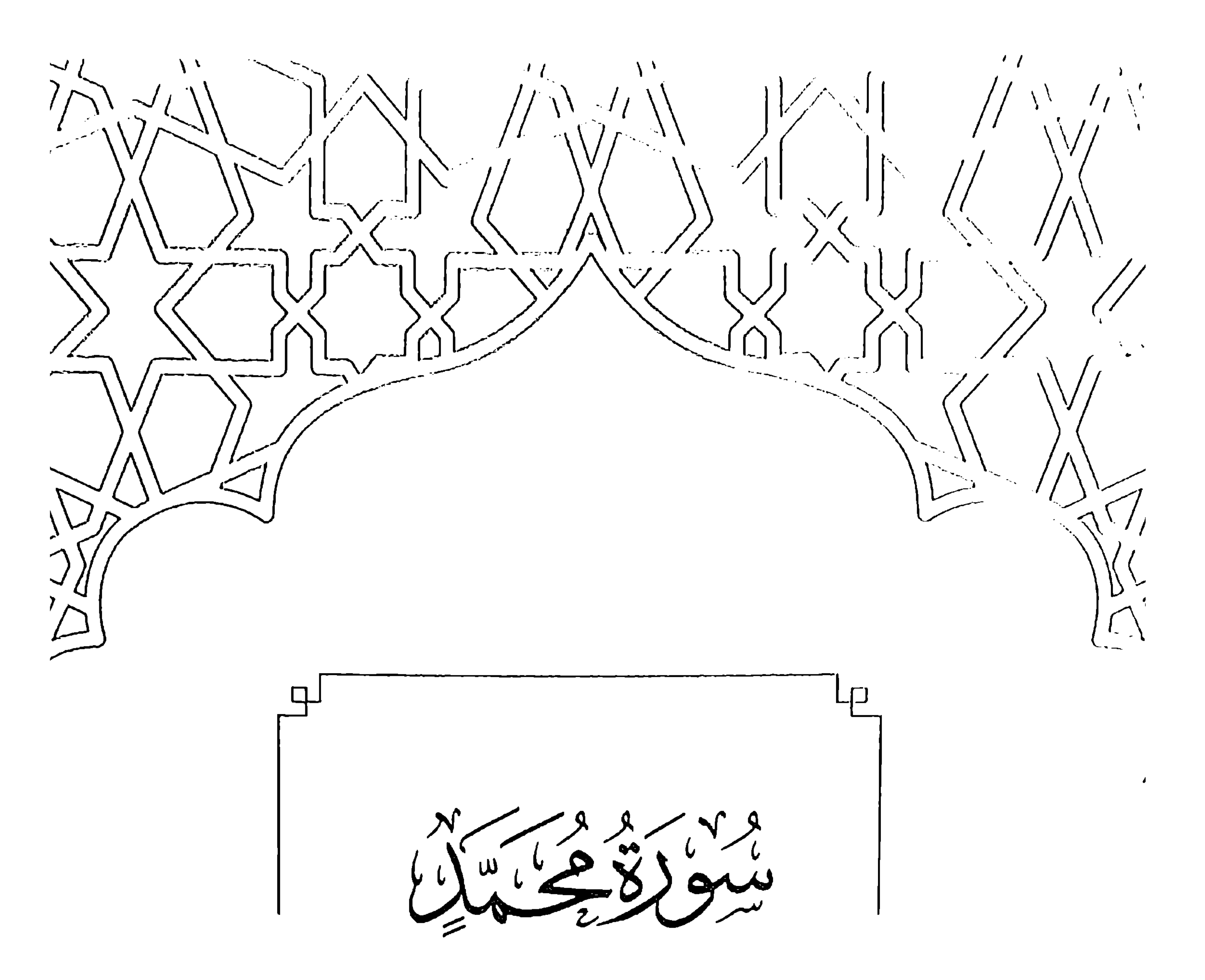
﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُقال لهم حينما يرَون النار: أليس هذا بالحقِّ؟ وهو سؤالٌ قُصِدَ به اللَّومُ والتوبيخُ.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: اصبِر على طريق الدعوة كما صبَرَ هؤلاء الصفوة من الرسل، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ثم خُتِمُوا بمحمدٍ عليه وعليهم الصلاة والسلام.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ العذاب وحلول العقوبة فيهم.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ بمعنى أنّ هذه الدنيا قصيرة مهما طالَت، وفي ذلك اليوم سينظر إليها هؤلاء الأشقياء كأنّها لم تكن بِطُولها سوى ساعة من نهار، ونسبية الزمن مسألة علميَّة معروفة، والدنيا بحسابها الدقيق أمام الآخرة لا تُساوي شيئًا؛ لأنّ نسبة المحدود إلى غير المحدود لا يمكن قياسها، وتبدو ضئيلة جدًّا ولا قيمة لها.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: لا يستحِقُّ الهلاك في الآخرة إلّا القوم الفاسِقُون.



سورة محمد

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

إن تنصروا الله ينصركم

سورةُ مُحمّدٍ هي سورةُ القتال، نزلت لبيان فقه القتال، ووضع أُسُس التربية الجهاديَّة، والتمايز بين المُعسكرَين المُتقابلَين؛ معسكر الحقّ، ومعسكر الباطل، إننا هنا نقرأ ونتدبّر أحكامًا وتوجيهات عسكريَّة، فلا ينبغي الخلط بينها وبين الأحكام والتوجيهات الواردة في دائرة الدعوة والعلاقات السياسيَّة والاقتصاديَّة بيننا وبين الآخرين، فلكلٍّ مقامٍ مقالٍ، ولكلِّ مجالٍ فقهه وقيمه وأحكامه:

أولًا: تستهلُّ السورة بتأكيد التمايُز بين معسكر الإيمان، ومعسكر الكفر، أو معسكر الحقِّ، ومعسكر الباطل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾.

ويلحظ هنا أنّه لم يذكر الكفر مُجرَّدًا، بل قرَنه بجريمة الصدِّ عن سبيل الله، وهو واقع المشركين في مكّة، الذين عذَّبوا المؤمنين أشدّ العذاب، وأكرَهوهم على ترك مكّة، وألَّبُوا عليهم قبائل العرب وقبائل اليهود.

ثانيًا: يأمر القرآن الجنديَّ المسلمَ إذا حضر الميدان - ميدان المعركة - بالحزم والعزم، وأن يُبادر إلى قتل عدوِّه، وألَّا يمنحه فرصة للنَّيل منه، أو الإفلات منه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾.

ثالثًا: يبيِّن القرآن طريقة التعامل مع أسرى العدوّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ والمنُّ: أن يُطلقَ الإمام سراحهم من دون مقابل، والفداء: أن يكون ذلك بمقابل كمُبادلة الأسرى، وإبرام صفقات الصلح، أو بالفداء الماديِّ، والدولة تنظر هنا في الصالح العام، وليست مخيَّرة بإطلاق.

رابعًا: يؤكِّد القرآن هنا أنّ هذه المواجهة بين المعسكرين هي جزءٌ من سنّة الاختبار الحاكمة في هذه الحياة، كما قال في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]، فالله يبتلي بالغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، ومن هذا: ابتلاء المؤمنين بالكافرين والظالمين ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ فالله تعالى قادرٌ على أن يُهلِك عدوَّنا من غير قتال، لكن هذا يُنافي الحكمة من الابتلاء الذي هو مقصد الخلق.

خامسًا: يخصُّ القرآن الشهداءَ بمكانةٍ خاصَّة، ويَعِدُهم بالجنّة التي هيّأها وطيّبها لهم ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾.

سادسًا: يَعِدُ الله المؤمنين بالنصر وتثبيت الأقدام، كما يتوعَّد الكافرين بالضياع والتعاسة والهلاك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾.

وهنا لا بُدّ من وقفة؛ فهذا الوعد الإلهي بنصر المؤمنين ينبغي أن يُفهم في سياق السورة، وفي سياق السُّنن الإلهيَّة التي تحكم هذا الكون؛ فالسورة تتحدَّث عن مُنازلةٍ قائمةٍ بين مُعسكَرَين مُستعِدَّين للقتال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أمّا حينما يكون الباطل قد أخذ استعداداته في التدريب والتجهيز، والتمويل وصناعة السلاح، ونحن في حالة سُباتٍ، ثم ننهض فجأة وندعو للجهاد دون مُقدِّماتٍ ولا استعدادات، ثم نحتَجّ بهذه الآية على وعدِ الله لنا بالنصر الأكيد، فهذا احتجاجٌ في غير محلّه، ولو كان الأمر كذلك لما ترَكَ المسلمون مكَّة وفيها بيت الله الحرام وتجنَّبوا المواجهة، بل وحتى حينما صار للمسلمين جيشٌ في المدينة لكنّه كان غير مُتكافئٍ مع جيش المشركين في معركة الأحزاب، حفَرَ النبيُّ ﷺ الخندق وتجنَّبَ المواجهة، والقرآن يذكُر لنا مثلًا في سورة البروج؛ حيث أُحرِقَت ثلَّة مؤمنة على يد الكافرين المعتدين ولم يتدخَّل القَدَر الإلهي لنُصرتهم.

والخلاصة: أنّ المسلمين إذا كان لهم جيشٌ مُجهَّزٌ ومُدرّبٌ، وكانوا على مستوى عالٍ من الإيمان والتوكُّل على الله، وقرّروا المواجهة عن عِلمٍ ووعيٍ وكفاءةٍ، فإنّ الله ناصرهم لا محالة؛ هذا هو وعدُ الله، وهذا هو الواقع في غالِبِ معارك المسلمين وفتوحاتهم الكبرى، والله أعلم.

سابعًا: يَعِدُ الله المؤمنين بالجنّة والنعيم الخالد، كما يتوعَّد الكافرين بالنار والعذاب الدائم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾.

ولا شكّ أنّ هذا التوسّع في تفصيل نعيم الجنة وتفصيل عذاب النار يأتي في سياق الإعداد الإيماني للمواجهة؛ ففيه الترغيب الذي يصنع الشوقَ للشهادة والرغبة في القتال، وفيه الترهيب الذي يُزلزل قلوب الأعداء، ويحمِي الصفَّ المؤمنَ من أسباب الضعف والتخاذل.

دقائق التفسير

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فالحديث عن فئةٍ من الكافرين، وليس عامًّا في كلِّ الكافرين، هؤلاء هم الذين حاربوا الإسلام وصدُّوا عن سبيل الله.

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أبطَلَها ولم يُقِم لها وزنًا.

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: يُبيِّن للناس أحوالَهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قابلتُمُوهم في ساحات القتال، فهذه لها أحكامُها الخاصَّة، بخلاف اللُّقيَا في أي مكانٍ آخر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل.

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ شُدُّوا وَثاقَهم وخذوهم أسرى.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ أي: حتى تتوقَّف الحرب، ويضع الناس أسلحتهم وأُهبتهم.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾ أي: تمنُّوا عليهم بإطلاقهم من غير فداءٍ.

﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: تُطلِقُوهم مُقابل فداء، والفداء له صور كثيرة: كإطلاق أسرانا، أو دفع فديةٍ ماديةٍ، أو عقد صلحٍ لصالح المسلمين، وكلّ هذا إنّما يُؤخذ بالشورى، وتقدير الأصلح والأوفق.

﴿لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لأهلكَهُم بلا قتال.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: يهدِيهم إلى الجنَّة، ويُصلِحُ حالَهم بعد حياة الكَدِّ والكَدحِ والجهاد.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: وصَفَها لهم في الدنيا فشوَّقَهم إليها، وطيَّبَها لهم في الآخرة، وأعدَّها لاستقبالهم.

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ والتعسُ يأتي بمعانٍ متقاربةٍ؛ كالخيبة، والسقوط، والشقاء.

﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: دمَّرَهم الله، وعدَّاه بالحرف (على) بمعنى أنّ التدمير قد غشِيَهم وتمكَّن منهم.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي: أمثال هذه العاقبة المُدمّرة، وهذا تهديدٌ ظاهرٌ لكُفَّار مكّة ولكلِّ من يُشابِههم في عداوته للمؤمنين، وصدّه عن سبيل الله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مُؤيدهم وناصرهم.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ لأنّهم إنّما يعبدون الأصنام، والأصنام عاجزةٌ وغيرُ قادرةٍ على نصرهم.

﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مقرٌّ لهم.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ هذا من أخطر أنواع الضلال أن يرى المنكر معروفًا، والرذيلة فضيلة، فهؤلاء لا يتوبون ولا يشعرون بالحاجة إلى التوبة.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: صفتها.

﴿مَآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ أي: غير مُتغيِّر الطعم أو اللون أو الرائحة بطول مُكثٍ ونحوه.

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ لأنّ المعهُود في لبن الدنيا أنّه سريع التغيُّر.

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بطعمها ورائحتها، بخلاف المعروف من خمر الدنيا أنّه كريه الطعم، كريه الرائحة.

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ فلا شمع ولا شوائب فيه.

﴿مَآءً حَمِيمٗا﴾ حارًّا شديد الحرارة.

﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ من شدّة حرِّه.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

الذين في قلوبهم مرض

يلتفِتُ السياق في هذه السورة إلى زاويةٍ مُظلمةٍ من زوايا الصراع؛ حيث تقبع المجاميع المنافقة، والتي تجد متنفَّسها دائماً في أجواء الفتنة والاضطراب، كما تجد امتدادها بين ضعاف الإيمان وضعاف الوعي والإرادة.

من هنا تأتي هذه الآيات لتكشف هذه المجاميع وتضَعها تحت الشمس؛ لتستبين سبيلهم أمام الناس، فيحيا من حيَّ عن بيِّنة، ويهلِك من هلَكَ عن بيِّنة:

أولًا: يؤكِّدُ القرآن أنّ هؤلاء المنافقين يعيشون بين المسلمين، ويُجالِسون رسولَ الله ﷺ ويسمعون كلامه، لكنّهم لا يلبثون أن يبثُّوا سُمُومَهم بكلِّ طريقةٍ ووسيلةٍ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ

إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

وذمُّ القرآن لسؤالهم هذا دليلٌ على أنَّهم ما قصدوا به إلا السوء، والظاهر أنّهم يلمِزُون النبيَّ ﷺ أنّ كلامه ليس مفهومًا، وربَّما لَوَوْا ألسنتَهم بالسؤال على طريقة الاستخفاف والسخريَّة الخفيَّة، بقصد التشكيك فيه، والتهوين منه.

ثانيًا: يُبيِّن القرآن أنّ هؤلاء الذين يُصلُّون مع المُصلِّين، ويحضُرُون معهم المناسبات والجلسات سيفتضح أمرهم عند نزول القتال ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأنَّ القتال يُميِّز بين الصفوف، فلا يبقى هناك مجال لمداراة هؤلاء وهؤلاء، ولا للوقوف بينهما على الحياد، كما أنّ القتال لا يكون إلَّا عن عزيمةٍ وشجاعةٍ، والمنافق يفتقر إليهما بحكم تردُّده وتذبذُبه وغياب الدافع الذي يدفعه للتضحية.

ثالثًا: يكشف القرآن حقيقة هؤلاء المنافقين أنّهم لا يؤمنون بالله، ولا برسوله، ولا بكتابه، بل هم كافرون مرتدُّون ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

رابعًا: يَقْرِن القرآن فسادَ عقيدتهم هذه بفساد أخلاقهم وعلاقاتهم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾.

خامسًا: يُشخِّصُ القرآن السبب الذي يدفعهم لهذا السلوك الشاذ والشائن في عقائدهم وسلوكهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فهؤلاء قد أغلقوا كلّ منافذ التأمُّل والتفكير عندهم، فأصمُّوا آذانهم، وأعمَوا أبصارهم، وأغلَقُوا قلوبهم، وقد نسَبَ اللهُ كلَّ هذا إلى فعله فيهم؛ لأنّه جارٍ على سُنن الله الحاكمة العادلة؛ فمن طلب الهداية وفَّقه الله إليها، ومن طلب الغواية يسَّره الله إليها، فالله لا يُجبِرُ أحدًا، ولا يُحابِي أحدًا.

سادسًا: يُحذِّرُ القرآن هؤلاء المنافقين من سوء العاقبة وعذاب الآخرة ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾.

سابعًا: يُحذِّرُهم القرآن أيضًا بفَضحِهم وكَشفِ أسرارهم وخباياهم للناس ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾.

دقائق التفسير

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ﴾ أي: ماذا قال الآن أو في الوقت القريب.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بما اكتسبوا، ونسبته إلى الله تعالى؛ لأنّه جارٍ على سُننه سبحانه في أنَّ مَن طلب الهداية اهتدى، ومن طلب الضلالة ضلَّ.

﴿بَغْتَةً ۖ﴾ فجأة.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ﴾ أي: وقعت بعض علاماتها وأماراتها، ومن ذلك ختم النبوّة وانقطاع الوحي به، ولا يبعُد أيضًا أن يكون جاء هنا بمعنى: يجيء، لكن على معنى التحقُّق كأنّه قد جاء بالفعل، كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، والله أعلم.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي: فأنَّى لهم ذِكراهم إذا جاءتهم الساعة، كما قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٣].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الأمر بالعلم هنا يقصد به: تجديد العلم بتجديد ذِكره والمداومة عليه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: يعلم أحوالكم المختلفة في الدنيا، ويعلم مستقركم في الآخرة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اكتفى بذِكر الموصوف وحذف الصفة؛ لدلالة ما بعدها عليها، أي: سورة تُشرِّعُ للمؤمنين القتال إذ كانت قريش تعتدي عليهم وتسلُبُ أموالهم منهم وهم ممنوعون من الردِّ.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا وصفٌ لحال المنافقين فور سماعهم لآيات القتال، أنّهم يبهتون وتبقى أعينهم شاخصة مُتحيِّرة في كيفيَّة مواجهة الأمر، وقلوبهم وجِلَة مُضطربة وكارِهة لهذا الأمر، كمَن نزَلَ به الموت وهو له كارِهٌ؛ لأنّهم ليس عندهم قضيَّة يُقاتِلون من أجلها، كما أنّ بينَهم وبين جبَهَات العدو صِلاتٍ ووشائج.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ كلمةُ تهديدٍ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]، ويحتمل أن يكون مبتدأ خبره صدر الآية التالية: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ بمعنى أنّ الطاعة وقول المعروف خيرٌ لهم، وهذا المعنى مُتفقٌ عليه إمَّا بهذا الربط، أو على تقديره إذا أخذنا بالتأويل الأول.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إذا لزم القتال ووقع.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لو صدقوا بادّعائهم الإيمان، ووفّوا بمقتضيات هذا الإيمان من السمع والطاعة لكان خيرًا لهم.

﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ أي: فلعلَّكم - على سبيل التحذير مما يتوقَّع حدوثه - إن تركتم القتال.

﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ فمُعاونة العدو الخارجي مظنَّة شيُوع الفساد والاضطراب، وتقطيع العلاقات، وإشاعة الفتنة، وقد كانت بين المنافقين وبين بعض الأنصار صِلات قَرابةٍ وجِوارٍ ورَحِمٍ، وهذه كلُّها ستتقطَّعُ في حال خِيانة هؤلاء المنافقين وافتِضاح أمرهم.

وهذا خطابٌ واقعيٌّ يصلُحُ لهذه الفِئة من الناس في كلِّ مُجتمعٍ، وفي كلِّ جيلٍ، إنّه يعمل على إقناعهم أنّ هذه الخيانة ستضرُّهم ولن يَجنُوا منها شيئًا؛ لأنّ الأمر سيستَأثِرُ به الطرفُ المُتغلِّبُ، أما المنافق البائع للمواقف فسيكون الطرفَ الأضعفَ على كلِّ الاحتمالات.

﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ بمعنى أنّهم أرادوا أن يُغلِقُوا آذانَهم وأعيُنَهم عن الحقِّ، فكان لهم ذلك، وهذه من سُنن الله الماضِية في هذه الحياة، ولو كان الله هو الذي أصَمَّهم وأعمَى أبصارَهم دون سببٍ منهم لكانوا معذُورين في ما هم عليه.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أمر بتدبُّر القرآن؛ إذ القرآن كلامٌ يحمل معانيَ ودلالات، ولا جدوى معرفيّة أو عمليّة تُرتجَى مِن سماع القرآن أو حتى تلاوته من غير فهم معانيه ودلالاته، وفيه أنّ تدبُّر القرآن من أقوى أسباب الهداية.

﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ أَمْ هنا بمعنى: بل، بمعنى أنَّ هؤلاء المنافقين لا يتدبّرون القرآن؛ لأنّ قلوبهم مُقفلة، وقفل القلوب إنّما يكون بأمراضها؛ كالتكبُّر، والحقد والحسد، واتباع الهوى، والشهوة، ونحو ذلك، وإضافة أقفال إلى الضمير العائد على القلوب يُوحِي بأنّ لكلِّ قلبٍ من تلك القلوب قفلُه الخاصّ به، ورُبّما أخذ أهل السلوك والتربية الإيمانيَّة من هذا المعنى قولهم أنّ لكلِّ محجوبٍ عن الله حجابه، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ هم المنافقون بدلالة السياق، ومعنى ارتدادهم أنّهم

يُعطون العهود والمواثيق لرسول الله ﷺ ثم ينكثون عنها، وهذا شأن المنافقين بشكلٍ عام، ولا يمنع أيضًا أن يكون بعضهم قد آمَنَ بالفعل، ثم ارتَدَّ وأخفَى رِدَّتَه، كما في سورة المنافقون: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ [المنافقون: ٣]، والله أعلم.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ تعليلٌ لِردَّتهم ونكثِهم لعهودهم بأنَّ الشيطان سوَّلَ لهم، أي: زيَّنَ لهم طريق النُّكُوث والرِّدَّة، وأَملَى لهم، أي: أمَدَّهم بالأمل العريض، فأنساهم حالَهم ومآلَهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ والذين كَرِهُوا ما أنزل الله هم الكافرون الذين يصدُّون عن سبيل الله، والذين كانوا في حال صدامٍ وقتالٍ مع المؤمنين، فكان هؤلاء المنافقون يمدّون معهم بحبلٍ، ويمدّون مع المؤمنين بحبلٍ آخر، وهذا ليس تذبذُبًا في المُعتقد، بل هو مراوغة سياسية لضمان المكاسِب مع الطرفين، والوقوف مع المُتغلِّب في النهاية، وهذا دَيدَن السياسة اليوم، إلا ما رحم ربك.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي: ما يُسرُّونه ويُخفُونه عن المسلمين.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي: فكيفَ بهم، وماذا هم صانِعون إذا توفَّتْهم الملائكة وقبَضَت أرواحَهم.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ أي: أحَسِبَ هؤلاء المنافقون أن لن يُظهِر الله نفاقَهم وعداوَتَهم للمؤمنين، بمعنى أنّ هذا الذي تقدَّم هو فضحٌ لهم، وقد كانوا يظُنُّون أنّ هذا لا يطَّلِع عليه غيرُهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ بمعنى أنّ الله عالمٌ بهم ولا يخفى عليه شيءٌ منهم، ولو اقتَضَت حكمته أن يكشِف لنبيِّه ذواتهم لعَرَفَهم النبيُّ ﷺ بأسمائهم وبأوصافهم، وقد كان له ذلك، بل ومن المعلوم أنّه أطلَعَ عليهم حذيفةَ بنَ اليمان ﷺ، فكان صاحِبَ سِرِّ رسول الله ﷺ في المُنافِقِين.

﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ هذا تنبيهٌ للمسلمين، ولمن يهمّه أمر معرفة هذه المجاميع أن ينتَبِه إلى طريقة هؤلاء في الحديث والمعاني التي تحمِلُها ألفاظهم، وهذا مستوًى آخر غير مستوى تحقيق العدالة القانونيَّة، فإنّ التعامل القانوني شيءٌ، وفهم كلام المقابل وأبعاده ومراميه شيءٌ آخر، وهذا له أهلُه ورجالُه، كما للقضاء أهله ورجاله، والاكتفاء بالإجراءات القضائيَّة في مثل هذه الحالات يُوقع الدولة بالطامَّات والمُفاجَآت.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين

يختتم القرآن هذه السورة العزيزة ببيان معنى الابتلاء وأنواعه وغاياته، وافتراق الناس فيه وما ينتظر كلّ فريقٍ، ويمكن تلخيص كلّ ذلك بما يأتي:

أولًا: بيان الحكمة والغاية من الابتلاء بشكلٍ عام ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ فالتمايز بين الناس لا يكون من دون اختبارٍ، هذه سُنّةٌ من سُنن الله في هذه الحياة لا تتخلّف.

ثانيًا: بيانُ الحكمة من الابتلاء في مجال الإنفاق خاصّةً ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

فالله سبحانه إنّما يأمر الناس بالنفقة اختبارًا لهم أيضًا، وتمييزًا لمَن يطلب الآخرة بصدقٍ عن ذلك الذي يبخَلُ على نفسه، فيصُدّه بُخلُه عن مُنافسة الأخيار الكُرماء، فالله سبحانه

ليس مُحتاجًا لأحدٍ؛ فالسماءُ سماؤُه، والأرضُ أرضُه، والخلقُ خلقُه، والرزقُ رِزقُه، كما أنّه لا يطلب من الناس جميعَ أموالهم ولو على سبيل الاختبار، فهذا يشُقُّ عليهم ويُنافِي فِطرَتَهم، بل ويُنافِي وظيفةَ المال الذي أودَعَه الله عندهم.

ثالثًا: بيان المعيار الذي يُقاس فيه الفائز مِن الخاسر في كلِّ مجالات الابتلاء ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾.

فالمُبتلى الناجح هو الذي يسأل عن حكم الله فينفّذه بحسب موقعه وقدرته، فإذا كان مطلوبًا من الغني الجود والإنفاق، فالمطلوب من الفقير القناعة والتعفُّف، وإذا كان مطلوبًا من العامة احترام العلماء وتبجيلهم، فالمطلوب من العلماء الصدق في الفتوى، وبذل الجهد في تحريرها، وإذا كان مطلوبًا من الآحاد السمع والطاعة لولي الأمر، فالمطلوب من وليِّ الأمر العدل والرحمة، وهكذا يكون الناس كلّهم في ابتلاءٍ، وبعضهم مُبتلى ببعض، ولكلِّ واحدٍ منهم حكمه، ومعيار نجاحه من فشله.

رابعًا: تحذير المؤمنين من التولِّي عن ميدان الاختبار هذا بالتولِّي عن طاعة الله وطاعة رسوله، والتخلِّي عن الأمانة وتحمُّل المسؤوليَّة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾، كما تولَّى بنُو إسرائيل عن حمل الأمانة، فاستبدَلَ الله بهم هذه الأمَّة.

خامسًا: في مُقابِل هذه التوجيهات المُفصَّلَة للذين آمنوا، يأتي بيان حال الكافرين والمنافقين، أولئك الذين شاقُّوا اللهَ ورسولَه، ووقَفُوا الموقفَ المُعادِي لهذا الدين بالسِّرِّ أو بالعَلَن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

ويلاحظ هنا تأكيد القرآن ربط الكفر بالله بجريمة الصدِّ عن سبيل الله، في إشارةٍ أنّ المواجهة إنّما تكون مع هؤلاء فقط، أمّا الآخرون الذين لا يصُدُّون عن سبيل الله، فمسلكُنا

معهم مسلَك الدعوة والحوار، والعمل بالمشتركات الحياتيَّة؛ كالصناعة، والزراعة، والتجارة، والمصالِح العامة.

دقائق التفسير

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولنختبرنَّكم بأنواع الاختبارات والابتلاءات، ونبلُو بعضكم ببعض حتى يظهر ما في علم الله عن أخباركم ومواقفكم، فعِلم الله أزليٌّ ثابتٌ لا يتجدَّد؛ لأنَّه ليس علمًا كسبيًّا، وإنَّما هو ظهور هذا العلم في واقع الناس وحياتهم لإقامة الحُجَّة عليهم، ولا يظلم ربُّك أحدًا، وفي هذه الآية إعلاء لمقام المُجاهدين والصابرين.

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ خالَفوه وكذَّبوه، وأظهَروا عداوَته.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: يُحبِط ما يُخطِّطُون له من مَكرٍ وكَيدٍ برسولِ الله ﷺ، ويُحبِط أيضًا ما كان لهم من عملٍ قد يُرجَى ثوابُه؛ كالصدقة، وإكرام الضيف؛ إذ الشرك مُبطِلٌ لثواب العمل ولو كان العمل بنفسه صالحًا.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فَصَلَ بينهما للتأكيد والتنبيه، وإلا فطاعة الرسول هي من طاعة الله؛ إذ هو المبلِّغ عن الله، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحى، وفي هذا كفايةٌ للاحتجاج بسُنَّته ﷺ؛ فهي المكمِّلة للقرآن، والمبيِّنة له، والمفصِّلة لأحكامه وطريقة تطبيقها وتنزيلها في الواقع.

﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ بالارتِداد وطاعة الكافرين وموالاتهم.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ هذا توجيهٌ للجُند المقاتلين وقيادتهم ألّا يطلبوا السَّلْمَ من عدوِّهم بناء على الوهن والشعور بالضعف، وعدم الرغبة بالمقاومة.

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ بإيمانكم واستعدادكم ووحدة صفِّكم.

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بتسديده وتأييده ونصره.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ ولن ينقصكم مِن جهدِكم شيئًا، ولا مِن جزائِكم وثوابِكم.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إذا تجرَّدت من معاني الإيمان بالغيب وعمل الآخرة، فإنّها تبدو حياة لاهية عابثة لا هدف لها ولا غاية، وهذه كأنّها مُقدِّمة للحديث عن الإنفاق، وطريقة تعامُل المسلم مع ما عنده من مالٍ.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يطلُبها منكم جميعها؛ إذ للمال وظيفة أخرى في حياة المسلم غير القتال، والزكاة، والصدقة.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ فيه مراعاةٌ لواقع الناس وتعلُّقهم بأموالهم، بمعنى أنّ الله لو طلَبَ منهم جميعَ أموالهم وألحَّ عليهم في ذلك، فإنّهم سيبخَلون ويقَعون في الحرج؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: تظهر منكم كراهيتكم لهذا السؤال، وتضجُّركم منه.

والخطاب بكلِّ تأكيد ليس عامًّا لكلِّ المؤمنين في ذلك الوقت؛ فالصدِّيق ﷺ تصدَّق بكلِّ ماله عن رضًا وطِيبِ نفسٍ، وكان الصحابة يتنافسون في تقديم أموالهم، لكن هذا في عامة الناس ممن دخلوا في دين الله بعد الهجرة ثم بعد الفتح، والله أعلم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ هذا تفريعٌ عمّا تقدّم، بمعنى أنّ الله لم يسألكم جميع أموالكم، بل سألكم بعضًا منها وهو الزكاة والنفقة على مُستلزمات القتال، ومع هذا ظهر فيكم من يبخل، فكيف لو كان قد سألها جميعًا.

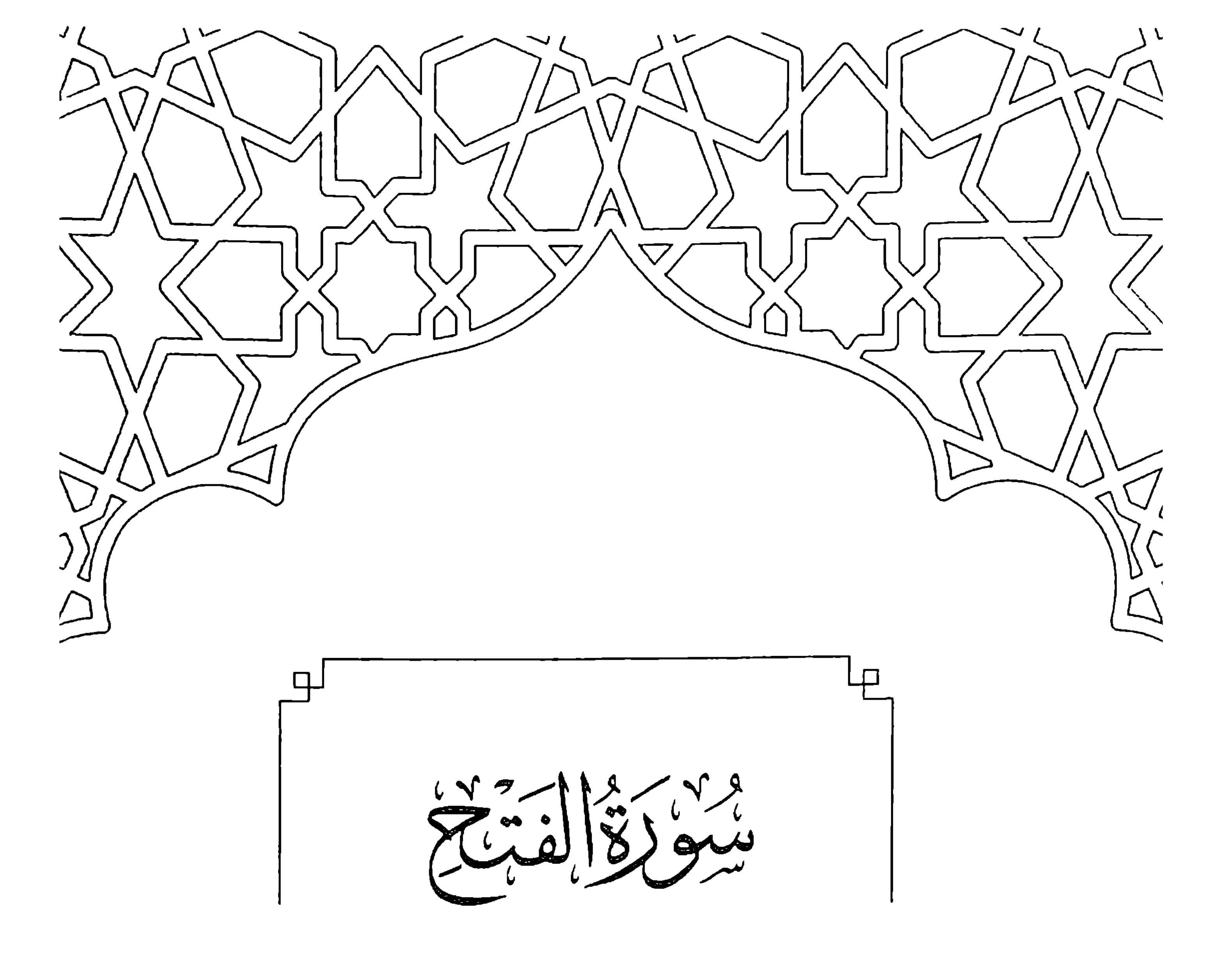
﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لأنّه يحرمها من ثواب الله.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ هذه حقيقةٌ إيمانيَّةٌ وواقعيَّةٌ بحكم أنّه سبحانه هو خالق السماوات والأرض وما فيهما من ثرواتٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، والناس إنّما يأكلون من رزقه، ولو شاء لمنَعَه عنهم، أو لمنَعَهم منه، وعليه فالتكليفُ بالإنفاق ليس سِوَى اختبارٍ، كما هو الشأن

في كلِّ التكليفات الدينيَّة.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن أمْرِهِ، وتخرجوا عن طاعته.

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ أي: يَنزِعُ الله عنكم شرَفَ حمل هذه الدعوة، ويمنَحه لغيركم.



سُورَةُ الفَتْحِ

المجلس الثاني والثلاثون بعد المائتين: إنا فَتحنا لك فتحًا مُبينًا

المجلس الثالث والثلاثون بعد المائتين: إذ يُبايعونك تحت الشجرة

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

إنا فتحنا لك فتحًا مُبينًا

سورةُ الفتح كأنّها جاءت مُتمِّمة للسورة السابقة: سورة محمد ﷺ، فهناك كان الحديث عن القتال، وهنا جاء الحديثُ عن الفتح، وهل القتال إلّا مُقدِّمةٌ أو سببٌ من أسباب الفتح؟

صحيحٌ أنّ الفتح الذي تتحدَّث عنه السورة هو فتحٌ سياسيٌّ جاء نتيجةً لمفاوضات الحديبيّة، إلّا أنّ قبول قريش بالمفاوضات ما كان له أن يكون لولا سلسلة من المعارك

والمواجهات العسكريَّة الحامية، بدءًا بمعركة بدر، وانتهاءً بالأحزاب، وحتى في الحديبية نفسها كانت المبايعة على الموت تحت الشجرة عاملًا مُساعدًا للإسراع بالحلِّ السياسي، وهكذا يكون الربط بين السورتين إنّما هو في الحقيقة ربطٌ بين وجهَين من أوجه الصراع الحتمي بين دولة الحقِّ، ودولة الباطل: وجه القوَّة العسكريَّة والاستِعداد الدائم للقتال، ووجه القوَّة السياسيَّة القادرة على قطف ثمار الجهد العسكري، فإذا انفصَلَا كانت القوَّة عُنفًا أعمى، وخرابًا ودمارًا، وكانت السياسة استسلامًا وخنوعًا لا يلِيقَان بالناس الكرماء.

في هذه الآيات تقويم دقيق لهذا الفتح وأبعاده وآثاره، وتقويم أيضًا لواقع المجتمع المسلم بحسناته وسيئاته في تلك المرحلة المفصليَّة من تاريخ الإسلام، وكما يأتي:

أولًا: سمَّى القرآن صُلحَ الحديبية فتحًا مُبينًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وسمَّاه نصرًا عزيزًا ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ والصلحُ كان جهدًا سياسيًّا تفاوضيًّا لا قِتالَ فيه، وهذا تنبيهٌ على أهميَّة العمل السياسي، وأنّه قد يُحقِّقُ ما لا يُحقِّقُه العمل العسكري بمُفرده.

ثانيًا: نبَّه القرآن إلى أهميَّة السكينة والثقة في مثل هذه المواجهة التي تتَّسِم في العادة بقدرٍ كبيرٍ من المرونة، مما قد تخفى أهدافه وآثاره المتوقَّعة على كثيرٍ من الناس ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثًا: أشادَ القرآن بموقف الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم في الْتِفَافهم حول رسولِ الله ﷺ ومبايعتهم له ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مُنبِّهًا إلى أنَّ هذا الموقف جاء نتيجةً لإيمانهم الراسخ بالله وبرسوله ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

رابعًا: حذَّرَ القرآن من المنافقين الذين يُروِّجون الفتن والإشاعات المخذِّلة، وربَطَ بينهم وبين المشركين لاشتراكهم في الكفر وفي عداوة المؤمنين ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ

وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

خامسًا: عرَضَ القرآنُ بشيءٍ من التفصيل حالةً لمجاميع مُختلفة من الأعراب الذين لم يترسَّخ الإيمانُ في قلوبهم، وغالِبُهم ممَّن أسلَمُوا حديثًا ولم تُتَح لهم فرصةٌ للتربية الكافية، وهؤلاء يكونون أرضًا خصبةً لتشويش المنافقين وإشاعاتهم ودعاياتهم ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

فهؤلاء قد تخلَّفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وقد كان ﷺ قد انتَدَبَهم ليرى المشركون كثرة المسلمين فيهابوهم ولا يصدُّوهم عن المسجد الحرام، وكلّ هؤلاء في أعناقهم بيعة الإسلام التي تنصُّ على السمع والطاعة، لكنهم نكثوا.

سادسًا: ينتقد القرآن موقف هؤلاء الأعراب، ويُقارن بين تخلُّفِهم هذا عن رسول الله ﷺ، وبين حرصِهم على الخروج معه حينما يظنُّون أنّ ثمَّة غنائم ومكاسب ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

سابعًا: يفتح القرآن لهؤلاء الأعراب بابًا لتجديد إيمانهم، ولإدماجهم مع الصفِّ المؤمن المجاهد، في دلالةٍ واضحةٍ أنّ هؤلاء الأعراب لم يكونوا من المنافقين وإن شابَهُوهم في بعض المواقف ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُبيِّنًا من يحِقُّ لهم

التخلُّفُ من أصحاب الأعذار المقبُولة ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

ثامنًا: في ثنايا هذا الوصف والتقويم، جاء التذكيرُ المُتكرِّرُ بعقيدة الحساب والجزاء، وهي العقيدةُ الدافِعةُ لمُراجعة النفس، وحَملها على طريق التوبة والاستقامة ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ۝١٣ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ هو فتح الحديبية وإن لم يُصرّح به؛ إذ هو الموضوع الأساس الذي تناوَلَته السورة، والفتحُ أخصُّ وأعظمُ من النصر؛ إذ النصر يصدق في أدنى غلبة، والفتح لا يصدق إلا في النصر العظيم؛ كفتح مكّة، وفتح العراق والشام ومصر.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فالفتح نتَجَ عن عملٍ وجهادٍ طويلٍ، والحسنة تمحو السيئة في حقِّ سائر الناس، فكيف بالنبيِّ الذي هو الأسوة لكلِّ عاملٍ، والقدوة لكلِّ مُجاهد. وهذه المغفرة بحقِّه ﷺ لا تستلزم وجود الذنب منه، بل هي المقام الرفيع الذي يعني: النقاء والصفاء، وكمال العبوديّة دون أي شائبة، وفيه أيضًا أنَّ الفتح الذي يريده الله إنّما هو فتح العابدين الخاشعين المتواضعين لا فتح المتكبِّرين والمتسلِّطين.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يُثبِّتك على الصراط المستقيم، ويزيدُك من فَيض عِلمِه وهدايته.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ وصفُ هذا الفتح بالنصر العزيز، الذي هو العزَّة والسيادة على الأرض التي تَحقّقَ الاعتراف بها من قبل القوَّة الرئيسة المُهيمنة على قبائل الجزيرة، وهذا الذي يُسمَّى اليوم بالاعتراف الدولي الذي هو شرطٌ في قيام الدولة، بمعنى أنَّ الله فتح لك هذا الفتحَ لتتحقَّق هذه السيادة، ولا يمنع أنّه أراد بالنصر العزيز ما تحقَّق من انتصاراتٍ بعد الحُديبية في خيبر وغيرها، والمعاني هذه تتداخل ولا تتعارض.

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثقة والطمأنينة.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي: ليزدادوا يقينًا بالله بعد تحقُّق ما وعد به رسوله من انتشار الدين وتمكينه.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجنوده في السماء هنا: الملائكة، وجنوده في الأرض المؤمنون من البشر، وجمع المؤمنين مع الملائكة وإضافتهم إلى الله في اسمٍ واحدٍ شرفٌ للمؤمنين ما بَعده شرف.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ فالمشركون يظنُّون بالله السوءَ في أصل معتقدهم القائم على توهُّم وجود شريكٍ مع الله، وإلصاق الصفات الناقصة به سبحانه، كما مرَّ في قولهم أنّ الملائكة بنات الله، والمنافقون يظنُّون السوءَ بالله، ويقولون: إنّه لا يفِي للنبيّ بما وعَدَه به، وأنّ المسلمين لن يكسبوا من مسيرهم إلى مكَّة خيرًا؛ ولذلك لم يخرجوا معهم.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: إنَّ السوء سيدُورُ عليهم ويرجعُ على رؤوسهم، والسوءُ هنا كلّ ما يسُوؤهم من نصرٍ للمؤمنين، وزيادةٍ في رزقهم وقوّتهم، وغير ذلك.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ أي: تشهد على الناس بالتبليغ أنّك بلَّغتَهم رسالة الله كاملة، فلا عذر لُمعتذرٍ منهم.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا بيانٌ للغاية من بعثته ﷺ بهذه الرسالة، وهي الإيمانُ بالله وبرسوله، أي: وبرسالته؛ لأن كلمةَ الرسول تتضمَّنها، ثم ما يستَلزِمُه هذا الإيمان من عِبادةٍ لله، وجِهاد في سبيله، وتعظيمٍ لشعائره.

وقد اختُلِفَ في عودة هاء الغائب في: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وهو أشبَهُ بالخلاف اللغويِّ اللفظيِّ؛ فالتعزيرُ معناه: التأييد والنُّصرة، والتوقيرُ معناه: الإجلال والتعظيم، وكلاهما يصِحُّ أن يعودَ إلى الله أو إلى نبيِّه، ولا يصِحُّ الجمعُ بينهما؛ لأنه لو أرادَ الجمعَ لقال: تُعزِّرُوهما وتُوقِّرُوهما، لكن الفعل الثالث: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ مُتفقٌ على عودته إلى الله؛ لأن التسبيحَ إنما يكون لله وحده، وهذا مُرجِّحٌ لعودة الضميرَين السابقَين إلى الله تعالى أيضًا.

وأما كونُه خلافًا لفظيًّا؛ فلأنَّ نُصرةَ الله تستلزِمُ نُصرةَ النبيِّ ﷺ، وكذلك التعظيم والإجلال، والله أعلم.

﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ تسبيحٌ في بداية النهار استعدادًا للعمل، وفي نهايته استغفارًا من الزلل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ وهذه بيعة الحديبية؛ وهي بيعة خاصَّة لموقف خاص، وهي أشبَه بالتعاهد على فعل معين، وهو ما أخذَتْه بعض الجماعات الإسلامية في مشروعية البَيعة لقادتها، ولكن قد يخلِطُ بعضُهم بين أحكام هذه البَيعة وأحكام البَيعة الكبرى التي لا تكون إلا لإمام المسلمين الذي تلتَقِي عليه كلمَتُهم، والقادر على القيام بشريعة الله فيهم.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأن بَيعَة الرسول ليست لشخصه، وإنما لدينه ونصرة دعوته، وفيه تعظيمُ الله لهذه البَيعَة، وأنه سبحانه شاهِدٌ عليها ومُؤاخِذ الناس بها.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ بالتأييد والحفظ والعناية.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقَض البَيعَة، ولم يعمل بمُقتضاها.

﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ أي: يرجِع وبالُ نَقضِه عليه في الدنيا والآخرة.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى أنهم لم يكونوا صادقين بطلب الاستغفار لهم.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بمعنى أن هؤلاء الأعراب إنما تخلّفوا لظنّهم أن قريشًا سوف تستأصل المسلمين الخارجين إلى مكة لأداء العمرة.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: قومًا هالكين بذنبكم وتخلّفكم وسوء ظنّكم.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هم الأعراب المتخلفون عن الحديبية.

﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ في خيبر.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: نسير معكم إلى خيبر.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ لأن الله حكم على هؤلاء المتخلّفين عن الحديبية أن لن يشتركوا في غزوة خيبر.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: في هذه الغزوة، وهذا هو حكمه ﷻ فيهم.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ حكم الله عليكم بعلمه السابق سبحانه.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: لا تريدون إشراكنا في الغنائم.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنهم ينظرون إلى هذا المنع بالمنظور المادي الدنيوي، وليس بالمنظور الإيماني والتربوي.

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: ستكون هناك معارك أخرى بعد خيبر وستُدعون لها، فالمنع إنما كان في غزوة خيبر؛ تأديبًا على تخلُّفكم عن الحديبية.

وهذه المعارك كانت في عهد الصدِّيق ﷺ في قضائه على حركة التمرُّد والردَّة، ثم في فتح العراق والشام، ولا شك أن هذه تزكية لسيدنا الصدِّيق ولِمَن كان معه من الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين، أما فتح مكة فلم يكن فيه قتال كما هو معلوم، والله أعلم.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ غنيمة الدنيا وثواب الآخرة.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: كما تولَّيتم في الحديبية، والخطاب لم يزَل للأعراب المتخلفين عن الحديبية.

﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ دليلٌ على أن القتال مع الصدِّيق ﷺ كان قتالًا واجِبًا؛ بحيث يستحِقُّ المُتخلِّف عنه العذاب الأليم.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ ليس عليه في تخلُّفه إثم.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

إذ يُبايعونك تحت الشجرة

في الشَّطر الثاني من هذه السورة العزيزة جاء الحديث عن أولئك الصفوة الذين صنعوا الفتح بجهدهم وجهادهم المُتواصِل، والتِفافهم حول نبيِّهم وقائِدِهم ﷺ، إنهم النموذج الأمثَل الذي ينبغي على المؤمنين في كل جيلٍ أن يَحذُوا حَذوَهم، وأن يقتدوا بهم.

لقد عنيت هذه الآيات عناية خاصَّة بعرض هذا النموذج وتقديمه بصفاته وخصائصه ضمن الحركة العملية التي كان يخوضها بهذا الدين:

أولًا: أعلن القرآن أن هؤلاء الصفوة قد رضي الله عنهم، وهذا خبرٌ لا يحتمل إلا التحقُّق والصدق المطلق ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

ثانيًا: قرَنَ القرآن بين الفتح وبين المغانم، في إشارةٍ إلى دور المال والتنمية الاقتصادية في تعزيز الفتح؛ ليُضِيف إلى هذا الفتح بُعده الثالث؛ فهو فتح سياسيٌّ عسكريٌّ اقتصاديٌّ ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾، وهذه المغانم كانت إحدى ثمار الحديبية؛ حيث تفرَّغ رسول الله ﷺ لمقاتلة اليهود، فكانت خيبر كلها غنيمة للمسلمين، وهي غنيمة بمعنى أوسع من المعنى المتبادر للغنيمة؛ ففتح خيبر فيه توسيعٌ لرقعة الدولة المسلمة، وامتداد نفوذها في محيط الجزيرة الأوسع، والتخلُّص من آخر جيب يهوديٍّ، إضافةً إلى ما في خيبر من المزارع التي تُموِّل المسلمين بشكل مستمر، وما غَنِمَه المسلمون من مالٍ وسلاحٍ.

ثالثًا: امتَنَّ الله على المسلمين بكفِّ أيدي المشركين عنهم، ونَزع فَتِيل الاقتِتال معهم، وفي هذا دليلٌ على أن قتال المشركين ليس مطلوبًا لذاته؛ فإن تحقَّقَت الغاية بدفعهم - كما في الأحزاب -، أو بالتفاوض معهم - كما في الحديبية - فذاك أقرب لمقاصد الدعوة وأنفع للمسلمين ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾.

رابعًا: أكَّد القرآن أن هذا الكفَّ لم يكن بسبب ضعف المسلمين، بل المسلمون متجهِّزون للقتال، ومتوكِّلون على الله في كل مواجهة، وهم واثِقُون بنصره؛ لأنهم أصحاب حقٍّ لا طلَّاب دنيا ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾.

خامسًا: بيّن القرآن سببَ كفِّ القتال في مكة، أي: قبل إبرام الصلح؛ حيث وصل الفريقان إلى حدِّ الاقتتال لولا أن الله أراد شيئًا آخر ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فرِعايةُ هؤلاء المستضعفين المقيمين في مكة بين ظهرانَي قريش أن يُصابوا بأذى من المسلمين لاختلاطهم مع المشركين، وكذلك إصابتهم من قبل المشركين إن علِمُوا بإسلامهم، فهذا مقصد نصَّ عليه القرآن في هذه الآية، وفي هذا دلالةٌ على خلاف ما تقوم به بعض الجماعات المقاتلة اليوم والمتشبِّثة بشعار الدين؛ حيث لا يتورَّعون عن قتل الأبرياء أو التسبُّب في قتلهم، بحُجَّة عدم القدرة على تمييزهم عن العدو، بينما جعَلَ القرآن عدم التمييز سببًا لمنع قتال المشركين ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

سادسًا: قارَنَ القرآن بين موقف المؤمنين في الحديبية المتَّسِم بالحكمة والهدوء، وبين موقف المشركين المتوتِّر والمشحون بالحميَّة الجاهلية، والقرآن يُشيرُ مِن خلال السياق أن هذا التمايُز له صِلَة بتحقيق النصر للمؤمنين ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فكانت السكينة في مقابل الحميَّة، وكانت التقوَى في مقابل الجاهليَّة.

سابعًا: أجاب القرآن عن تساؤل بعض المؤمنين حول بِشارةِ النبيِّ ﷺ بدخول مكة معتمرين؛ لأنَّه لما كان الصلح متضمنًا لرجوع المسلمين عن عمرتهم هذه إلى العام القادم، استشكل بعض الصحابة ذلك، وأصابهم غمٌّ شديدٌ؛ إذ كانوا يظنُّون أن البِشارة النبويَّة محددة في هذا العام، بدلالة الإحرام بها من الميقات، لكن الله ﷻ أرادَ لهم ما هو خير ﴿لَّقَدْ

صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴾.

ثامنًا: أكَّدَ القرآن وعدَ الله سبحانه بإظهار هذا الدين على الدين كله؛ فالفتح فاتحة لطريق طويل من التمكين وانتشار الدعوة المباركة في العالمين ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾.

تاسعًا: ختم القرآن هذه السورة ببيان صفات أولئك الصفوة الأخيار من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، المُتأسِّين برسولِ الله والمُتَّبِعِين له: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾.

وهذه الصفات جمَعَت بين القوَّة والرحمة؛ القوة بالحق، والرحمة بالخلق، القوة على الكافرين المعتدين، والرحمة بالمؤمنين، وجمَعَت إلى ذلك كلِّه إخلاصَ العبادة لله، حتى بَدَا ذلك يُقرأ في وجوههم نورًا وحياءً، وسَمتًا حسنًا، ثم أخبر القرآن أن صفاتهم هذه قد ورَدَت في الكتب السابقة، مع إضافةِ صورةٍ جميلةٍ تدل على نموِّ هذه الفئة المباركة وثباتها ورسوخها في الأرض كما يستغلظ الزرع النامي، وأن ذلك مما يغيظ الكافرين المجرمين، ثم فتح القرآن بابَ الأمل الواسع لكل المؤمنين المتَّبِعين لنهج الأخيار هؤلاء: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وهم كل الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ في الحديبية وكانوا ألفًا وأربعمائة، وكانت البَيعة على القتال بعدما أُشِيع عن قتل المشركين لرسولِ رسولِ الله ﷺ، وهو سيدنا عثمان بن عفان ﷺ والذي بعثه ﷺ إلى قريش للتفاوُض معهم، وقوله تعالى عن هؤلاء الصفوة: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خبر لا يحتمل النسخ، وفيه ردٌّ قاطِعٌ على الذين يكرهون الصحابة ويُكفِّرونهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق واليقين.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ بالصلح الذي سمَّاه القرآن فتحًا مبينًا.

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ ﴾ أي: ووَعَدَكم مغانِمَ أخرى، لا تقدِرُون عليها بما معكم من عددٍ وعُدَّةٍ، والإشارةُ هنا - والله أعلم - إلى فارس والروم، لكن الله ناصِرُكم عليهم بقدرته التي تُحيطُ بهم.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ بمعنى أن هؤلاء المشركين الذين كفَّ الله أيديَهم عنكم لو قاتَلُوكم لنَصَرَكم الله عليهم، وهذا تأكيدٌ أن كفَّهم إنما كان لحكمةٍ أعلى وأسمَى، وليس لضعفِ المؤمنين عن مُقاتَلَتهم.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ في نصر النبيِّين على أعدائهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ تأكيدٌ آخر لاستعداد المسلمين للقتال دفاعًا عن نبيِّهم وعن دينهم وأنفسهم، وإنما كفَّ الله الفريقَين عن الاصطِدام لحكمةٍ ظهرت آثارُها فيما بعد بفتح خيبر، ثم مكة نفسها، ثم بدخول الناس في دين الله أفواجًا.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ بأسفل مكة حيث كانت الحديبية.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ حيث تمكَّن المسلمون في الحديبية من أَسر بعض المتهوِّرين

من شباب قريش الذين اتَّفَقُوا فيما بينهم على مُباغَتة المسلمين فأمكَنَ الله منهم، ثم أمر النبيّ ﷺ بإطلاق سراحهم.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: أنهم مَنعوا الهَديَ من وصوله إلى محلِّه في مكة وبقِيَ معكوفًا، أي: محبوسًا، والمقصود بهذا التشنيع على قريش بمنعهم المسلمين من دخول مكة وقد جاءوها مُعتمرين لا مُقاتلين.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لأنهم مُستضعَفُون لا يجهَرُون بإسلامهم؛ ولأن في المسلمين أيضًا من أهل المدينة، وهؤلاء لا يعرفون هؤلاء المستضعفين بأسمائهم ولو كانوا قد أعلَنوا إسلامهم.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أن تُصيبُوهم بسوء.

﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ التَّبِعَة الثقيلةُ من إثمٍ، ولَومٍ، ودِيَةٍ.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لو خرج المؤمنون المستضعفون لسَلَّطناكم على المشركين، وفي هذا بيانٌ لحكمةٍ وفائدةٍ أخرى لصُلح الحديبية، وهي: حماية المؤمنين المُستضعَفين، وبيان حُرمة المسلم البريء ولو كان يعيشُ مع العدو.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الأنَفَة والكبر والتناصُر على الباطل.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ إذ رؤيا الأنبياء وحي، وقد كان ﷺ قد بشَّرَ المسلمين برؤيا رآها أنهم سيدخلون مكة آمنين معتمرين، ففرِحَ الصحابة بذلك وظنُّوه في عامهم هذا الذي وقَعَ فيه الصلح، فلما صدَّتْهم قريشٌ أصابَهم الحزن، وتساءَلُوا عن تلك الرؤيا ومعناها ووقت تحقُّقها، فجاءَت هذه الآية تُطمئِنُهم أن هذه الرؤيا حق، وأنها واقِعة لا محالة.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: علِمَ الله ما فيه الخيرُ لكم، فجعَلَ قبل تحقُّق الرؤيا فتحًا قريبًا، وقد كان ذلك في الحديبية ثم في خيبر؛ حيث فتَحَها المسلمون قبل عُمرة القضاء، فعلى أيِّ الفتحَين حُمِلَت الآية كان حملًا صحيحًا، ولا يمنع

أيضًا الجمع بينهما؛ لأن الثاني كان ثمرةً للأول، والله أعلم.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليكون له العلوّ والشرف على كل دين آخر.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ علاماتهم الظاهرة في وجوههم؛ من السكينة، والحياء، ونور الوجه، وحُسن السَّمْت، فالسجود له أثره في نفوس الساجدين وسلوكهم، وهذا الأثر ينعكس - دون ريبٍ - في ظاهرهم.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: ذلك الذي تقدَّم من صِفات محمدٍ ﷺ وأصحابه قد جاء مُوافقًا لصِفاتهم في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي: ووصفهم في الإنجيل.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: نَما وتكاثَر وأخرَجَ له فروعًا.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: فقوَّاه.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: غلُظَ، والحديث عن الزرع.

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: قام الزرع وكمُل واعتدل، والسُّوْق: جمع سَاق، والمقصود به هنا: أصول الزرع وأعواده التي يقوم عليها.

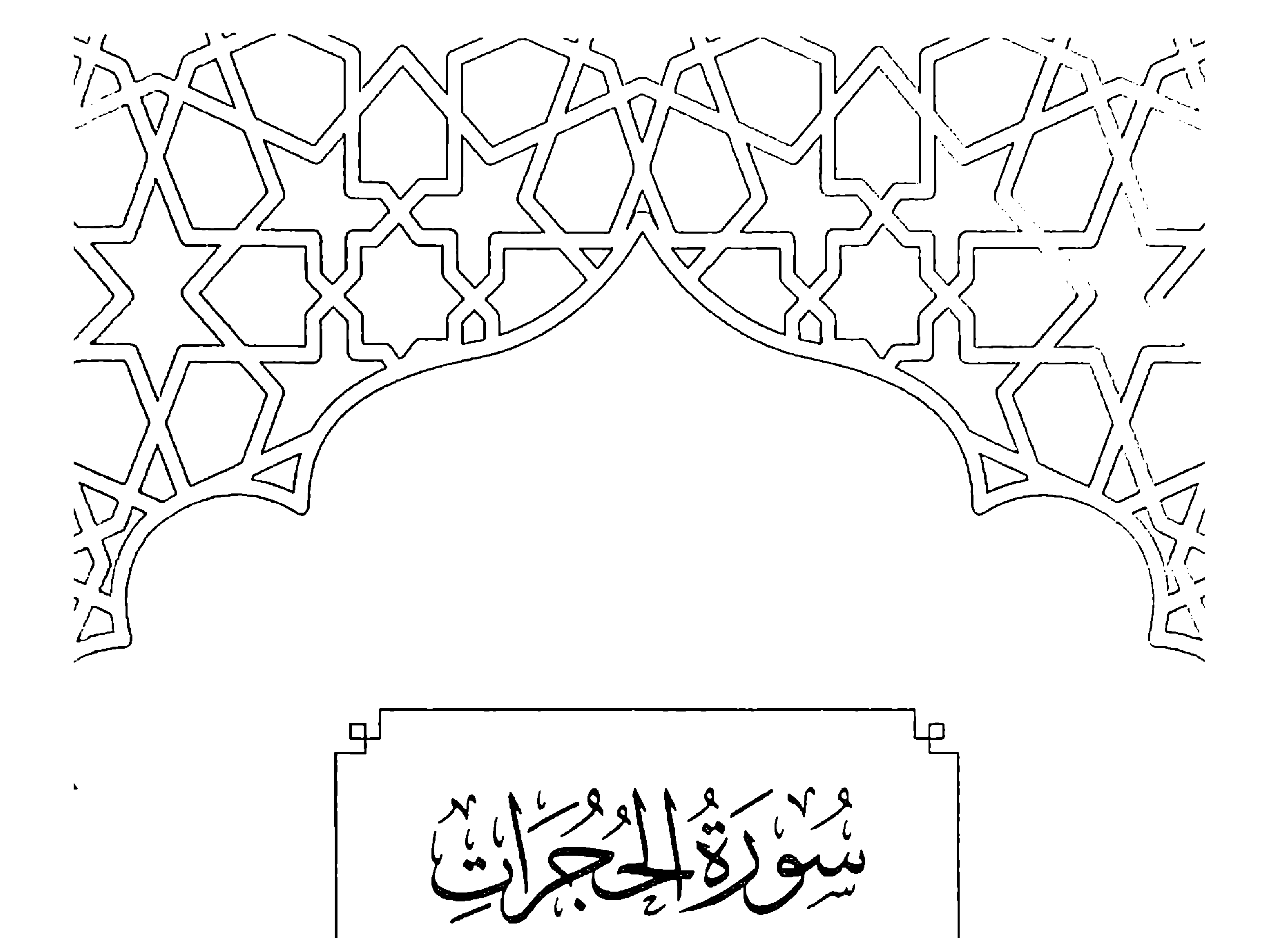
﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ الذين زرَعُوه وتعِبُوا فيه.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: إنما قوَّاهم وكثَّرهم ليقهَرَ بهم الكفَّار.

وقد ورَدَ عن السلف - ومنهم الإمام مالك -: أنَّ مَن أصبح وفي قلبه غَيظٌ على واحدٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ أصابَتْه هذه الآية[1].

---

(١) ذكر ذلك عددٌ من المُفسِّرين، ينظر: تفسير السمعاني ٥/ ٢١١، وتفسير البغوي ٧/ ٣٢٨، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ٢٦/ ٢١٠، وغيرها.



سورة الحجرات

المجلس الرابع والثلاثون بعد المائتين: منظومة القيم الإسلامية

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

إذا كانت المنظومة العقديَّة - كالتوحيد، والنبوَّة، والمعاد - تُؤسِّسُ الدينَ والملَّة، فإنّ المنظومة القِيَميَّة تُؤسِّسُ المجتمعَ والأمَّةَ، مِن هنا كان الترابُط المتِين بين المنظومتَين من بداية نزول الوحي، حتى كأنّهما منظومة واحدة.

فالقرآن المكِّي يدمِجُ بين الإيمان بالله وبين احترام الإنسان ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢]، ويجعل تحرير العبيد ومساعدة المساكين طريقًا للفوز وتجاوز العقبة ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١- ١٦]، ويتوعَّد بالويل لمن يأكل حقوق الآخرين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣]، ويُندِّد باضطهاد الأُنثى ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، ويُنبِّه إلى مُراعاة المُعاقِين ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢]، وغير ذلك كثيرٌ، وهذا كلُّه في القرآن المكِّي، وبذلك تسقُط نظريةُ أنّ القرآن المكِّي جاء لتأصيلِ العقيدة حَصرًا، فبناء الإنسان لا يقِلُّ أهميَّة وضرورة عن بناء الإيمان، وهل يحمِلُ الإيمانَ إلَّا الإنسان.

وقد مرَّت معنا سورٌ مكيَّة عنِيَت أشدَّ العناية بموضوع القِيَم، مثل: سورة الأنعام، وسورة النحل، وسورة الإسراء.

هذه السورة تكاد تكون مُخصَّصة بالكامل لموضوع القِيَم، خاصَّةً تلك التي تُسمَّى اليوم بـ(القِيم العلائقيّة)، وهي المعاييرُ التي تحكُم علاقة الناس بعضهم ببعضٍ، ويمكن تلخيص هذه القِيَم وما يتّصِل بها في النقاط الآتية:

أولًا: الأدب مع الوحي، وعدم التقدُّم عليه برأيٍ أو هوى نفسٍ وما إلى ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ إذ الإسلام إنّما هو الاستسلام

لأمر الله ونَهيِه، وتلك حقيقة التقوى، فمن قدَّم عليهما ما يراه هو من تصوُّراتٍ وأفكارٍ وآراء فقد أساءَ الأدبَ مع الله، وخالف نَهجَ المتقين.

ثانيًا: الأدب مع رسول الله ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

وقد جاء التحذير شديدًا بحقِّ مَن يرفع صوته بحضرة النبي الكريم ﷺ إلى حدِّ التهديد بإبطال العمل، وهذا لم يَرِد في القرآن إلا بحقِّ الكافرين المشركين، كقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥].

ثالثًا: التبيُّن من الأخبار وعدم التسرُّع في تصديقها، خاصَّة تلك التي تنبَني عليها مواقف وتصرُّفات قد يندم عليها صاحبها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾.

رابعًا: الإصلاح بين الناس ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾.

خامسًا: ردُّ الباغي المُعتَدي، ونصرة المظلوم المُعتَدى عليه ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾.

سادسًا: الحكم بالعدل بين المختصمين ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾.

سابعًا: ترسيخ معاني الأخوَّة الإيمانيَّة، وتساوي المؤمنين جميعًا في ذلك ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثامنًا: وجوب احترام الإنسان وعدم السخريَّة منه، أو لمزه، أو نبزه بما يُسيء إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

تاسعًا: حُسن الظنِّ بالمسلمين، وتجنُّب إساءة الظن؛ فالأصل في المؤمن الخير، والأصل في الإنسان براءة الذمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾.

عاشرًا: تحريم التجسُّس ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ ولا يأتي التجسُّس إلّا بعد إساءة الظنِّ، فيكون المُتجسِّس قد ارتكَبَ إثمَين في آنٍ واحدٍ.

حادي عشر: تحريم الغِيبة ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ والغِيبة: ذِكرُك أخاك بما يكرَه وإن كنت صادقًا.

ثاني عشر: اعتقاد المساواة بين الناس في أصل الخِلْقة؛ فكلّ الناس خُلِقوا من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، بمعنى أنّ البشريَّة كلّها إنّما هم أسرةٌ أو قبيلةٌ واحدةٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾.

ثالث عشر: التعارُف بين الناس وعدم الانعزال أو التقاطع ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾.

رابع عشر: وضع الميزان العدل للتنافس والتفاضل بين الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ والتقوى مجالٌ يقبلُ التنافس، فبإمكان أي شخصٍ أن يتقدَّم فيه أو يتأخَّر، بخلاف الجنس واللون والنوع.

خامس عشر: التواضع والطموح نحو الأفضل، والتنافس في مدارج الإيمان والطاعة، والاعتراف لأهل السبق بسبقهم، ولأهل الفضل بفضلهم ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ

تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

سادس عشر: اليقين والإيمان الصادق الذي لا تشُوبه شائبةُ الشكِّ والتردُّدِ، ولا يعقُبُه النكوث والنكوص ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾.

سابع عشر: الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس عن عقيدةٍ وصدقٍ ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

ثامن عشر: ضبط مصدر التلقي؛ فالدين لا يُؤخَذ بالأهواء ولا الآراء المجرَّدة، وإنّما يُؤخَذ من الوحي، وأمّا الاجتهاد فإنّما هو طريقٌ لفهم الوحي وتنزيله على الواقع، وإدراك غاياته وقواعده ومقاصده ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

تاسع عشر: الإخلاص في النيَّة وصدق التوجُّه باعتقاد حاجةِ الإنسان إلى التديُّن، لمعرفة طريق نجاته وسعادته في الدنيا والآخرة ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فإذا كانت منَّة الإنسان على الإنسان مفسدة للصدقة والبر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. فكيف بالإنسان الذي يمُنُّ بإسلامه على الله؟

عشرون: الشكرُ لله بالاعتراف له سبحانه بالفضل والنعمة ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي: لا تُقدِّمُوا قولكم على قولِ الله ورسوله، وهذه لها صور كثيرة، منها: الاستعجال بإبداء الرأي قبل معرفة حكم الله، ومنها: الإفتاء بغير علمٍ

ولا بيِّنةٍ، ومنها: من يُقدِّم قانونَ البشر وعاداتهم وتقاليدهم على شريعة الله، وهذه الصور ليس حُكمها في الإسلام سواء، وإن كانت كلّها داخلة في أصل النهي.

﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: لا ترفعوا أصواتكم بحضرته فوق المستوى المُعتاد من صوته ﷺ حينما يتكلّم معكم، أمّا في وقت كلامه فيجِب الإصغاء ولا تجوز مقاطعته.

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ هذا أدبٌ آخر يخصُّ طريقةَ مُخاطبته ﷺ؛ إذ لا يجوز أن تكون كمُخاطبة بعض الناس لبعضٍ، بل يجب تعظيمه في الخطاب، كأن يُقال: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله، ولا يُقال: يا محمد، وأن يكون الخطاب ليِّنًا مُتواضعًا لا شدَّة فيه ولا غِلظة.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ مخافةَ أن تحبَطَ أعمالُكم إذا لم تكُفُّوا عن ذلك، أمّا مَن قصَدَ الإساءَةَ إليه ﷺ فعمله مُحبَط قطعًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: اختبَر الله قلوبهم ونظر فيها فوجدها تقيَّة نقيَّة، بمعنى أنّ غضَّ الصوت بحضرته ﷺ أدبًا معه، وإجلالًا له هو دليل التقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حيث كان بعض الأعراب يأتي إلى رسول الله ﷺ فلا ينتظره حتى يخرج إليه، بل يُنادِيه بصوتٍ عالٍ من خلف حُجرات نسائه، وقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ كأنّه يعزُو هذا الفعل إلى قلَّة التعقُّل والتفقُّه، وليس إلى قلَّة الدين؛ إذ هؤلاء لم تُتَح لهم فرصة التربية الكافية، وهو تنبيهٌ إلى أهميَّة تعلِيمِهم وتوجِيهِهم، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: تثبَّتوا وتأكَّدُوا قبل أن تحكُمُوا على الناس، وتقَعُوا فيهم عن غير بيِّنةٍ، والحكمُ هذا لا يخصُّ الفاسق -وهو الخارجُ عن طاعة الله-، بل يدخُلُ فيه غيرُه.

والضابط في هذا تحقُّق التبيُّن كالبحث في عدالة الراوي، وإذا كان الراوي ينقلُ الخبر عن غيره فعدالتُه لا تكفي، بل لا بُدَّ من التأكُّد من عدالة مَن نقلَ عنه، وهكذا، والراوي المجهول الذي لا يُعرف له فسقٌ داخل في الحُكم أيضًا.

وإنما نصَّت الآية على الفاسق؛ تنبيهًا على أنّ الأصل في الأخبار المُؤذِية للصفِّ المسلم إنّما ينقُلُها ويُشِيعها الفَسَقَة والكَذَبَة، فإذا نقَلَ المسلمُ خبرًا من هذا النوع، فليس هذا دليلًا على فسقِه، بل قد يكون بسبب غفلَتِه أو ثِقَتِه بمن ينقُلُ عنه، والله أعلم.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: خوفًا من أن تُعاقِبُوا قومًا لا يستحِقُّون العقوبةَ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ هذا تنبيهٌ وتذكيرٌ للمؤمنين أنّ الذي بينهم هو رسولُ الله ﷺ، فلا ينبغي أن يتعاملوا معه كما يتعاملون مع غيره من البشر، وهذا تمهيدٌ لما بعده، وهو أنّه ﷺ لن يفعل كلّ ما ترغبونه، أو تطلبونه منه، أو تنقلونه إليه، فلو أخَذَ بكلّ ذلك لأصابكم العَنَت، وهو المشقة والضرر والإثم.

﴿ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بمعنى أنّ النبيَّ ﷺ حينما لا يستجيب لرغباتكم وطلباتكم؛ فما ذاك إلّا لأنّ الله اختارَ لكم الأفضل والأحسن، وهو الإيمان بالله، والتسليم لحكمه وشريعته.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ هذه ثلاثةُ مستويات:

- الكفر: وهو ضد الإيمان، وهو معروف.

- والفسوق: الخروج عن طاعة الله حتى يكون شأنًا لازمًا، ووَصفًا غالِبًا، وهذا دون الكفر.

- والعِصيان: ارتكاب المعصية وإن لم تكن غالبة ولا دائمة، وهذه دون الفسق.

وهذا الترتيب يتأكّد باجتماع هذه الكلمات، أمّا إذا افترَقَت فيصِحُّ إطلاق الفسق مثلًا على الكفر، وكذا إطلاق المعصية على الكفر وعلى الفسق، بل قد ورد إطلاق الكفر على بعض

المعاصي، وكلّ ذلك لأغراضٍ يقتضيها المقام، وإنّما تُفهم مدلولاتها من خلال السياق، والله أعلم.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ والطائفة هنا معناها: الجماعة المُتناصِرة فيما بينها؛ كالقبيلة والقرية ومن تجمَعهم مصلحة مشتركة، وافتراض القتال بين المؤمنين واردٌ دون أن يسلبهم وصف الإيمان، وعلى هذا كان موقف أهل السنَّة والجماعة في الفتنة التي حصَلَت بين الصحابة ﷺ.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ هذا الخطاب مُوجَّهٌ لبقية المُسلمين ممن لم يشترك في القتال.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ برفض الصلح، أو بنكثه، أو بعدوان ظاهر.

﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قاتلوا الفئة المعتدية بعد استنفاد وسائل الصلح حتى ترجِع إلى الحق، والخطاب هنا للمؤمنين الذين لهم شَوكة وإمام مُطاع، وإلّا قد يتحوَّل الأمر إلى فتنةٍ عامة.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ حتى تخمد الفتنة فلا تثور مرة أخرى.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مهما حصل بينهم؛ إذ رابطة الإيمان أقوى من كلِّ شيءٍ، وبقَدر ما يعظُمُ الإيمانُ في النفوس تعظُمُ حُرمات المؤمنين فيما بينهم.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ تأكيدٌ لقيمة الإصلاح، وتنبيهٌ إلى لِينِ الخطاب والرحمة بين المؤمنين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ هذا التفصيلُ في النهي عن احتِقار المسلم لأخيه المسلم - رجلًا كان أو امرأة - دليلٌ على خطورة هذا النوع من الآثام؛ فالسخرية التي تعني: الاستهزاء والازدراء والاحتقار لا تكون إلّا في قلبٍ تشوبه شائبة الكِبْر والعُجب بالنفس؛ ولذلك قرَنَ القرآن النهيَ عن السخرية بالتنبيه إلى ميزان الخيريَّة، فكم من مُعجبٍ بنفسه، وغيرُه خيرٌ منه، وكم

من مُتكبِّرٍ يرى الناس دونه، وفيهم مَن هم أعلى شأنًا منه.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ لا يَعِب بعضكم بعضًا، ولا يلمِزه بما يُحقِّره ويشِينُه، وأنزَل المُقابِل منزلة النفس؛ تنبيهًا إلى مكانته التي يُريدها الله أن تكون في قلب أخِيه؛ ولأنّ الذي يعِيبُ الآخرين فإنّ العَيبَ يرجع عليه.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ أي: لا تُنادُوا إخوانكم إلَّا بأسمائهم وألقابهم المُحبَّبة، أمّا الألقاب المُشعِرة بالإهانة والشتيمة، فهذا منهيٌّ عنه بإطلاق.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ بمعنى أنّ الذي يسخرُ مِن الآخرين ويلمِزهم وينبزهم بالألقاب المشينة هو الذي يستحقُّ اسم الفُسُوق، وبئس هذا الاسم بديلًا عن اسم الإيمان، وفي هذا ترهيبٌ ووعيدٌ كافٍ لمن كان له قلب.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالذي يُصِرُّ على هذه الآثام المتقدِّمة من السخرية واللمز والتنابز، استحقَّ أن يكون في ميزان الله ظالمًا؛ فجمع بذلك بين الفسق والظلم، والعياذ بالله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ ترغيبٌ عامٌّ بحسن الظنِّ بالمؤمنين؛ إذ هو نقيض سوء الظنِّ، والتحذير من غالب الظنِّ الذي يقَع بين الناس، وهو الظنُّ الذي لا تشفعُ له قرينة، ولا يستندُ إلى دليلٍ.

أما الظنُّ المقترن بالشبهة واللوث كما في أصحاب السوابق والمجرمين ومَن عُرِف عنهم العدوان وأكل أموال الناس بالباطل، فهؤلاء مُستثنَون؛ لأنّ الاحتِياط منهم واجِب، وجعلهم في دائرة الشكِّ مِن الحزم والعزم، إلَّا أنَّه لا يجزم بحالهم لمجرد ذلك، بل لا بُدَّ من التحقيق المُنصِف العادل.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ لا تتبعوا عورات الناس؛ لأنّ هذا التَّتبُع إنّما يدفَعه سوءُ ظنٍّ مُسبَق، وهذا لا ينطَبِق على حالات الحروب واحتِمالات العدوان؛ فالتجسُّس على هؤلاء وما يمكن أن

يُخطِّطوا له أمرٌ مشروعٌ؛ لحماية المجتمع ووقايته، لكن لا يترك هذا لآحاد الناس، والله أعلم.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغِيبة: ذِكرُكَ أخاك بما يكره وهو غائِبٌ، فإن كان ما قُلتَه فيه كذبًا، جمعتَ الكذبَ إلى الغِيبة فكانا كبيرتَين، فإن لم يكن غائبًا كان ذلك من السخرية واللَّمْز والنَّبْز، وكلها أفعال مُحرَّمة تُؤدِّي إلى الفسق والظلم.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ هذا تشبيهٌ قُصِد به التنفير الشديد من الغِيبة؛ إذ هي كمَن يأكل لحمَ أخيه ميتًا، بجامع أنّ الميت لا يقدِر على الدفاع عن نفسه وكذلك الغائب، والتشبيه على صيغة السؤال لاستِنطاق السامع وتنبيهِه إلى بشاعة هذا الفعل؛ ولذلك قال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ يعني أنّه فِعْلٌ تشمئِزُّ منه الفطر السليمة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ بيان للأصل البشري الواحد، والذي تتساوَى فيه جميع الأقوام والأجناس والألوان، وهذه قاعدةُ المُساواة الإنسانيَّة في الإسلام، والمقصود بالذَّكَر هو: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالأنثى: حوَّاء، فتكون البشريَّة كلّها من عائلةٍ واحدةٍ.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ مقصدٌ من مقاصِد الخلق، يعرف الناسُ بعضُهم بعضًا، ويستفيد بعضُهم من خبرة بعضٍ، ويتعاونون لتحقيق مصالحهم الإنسانيَّة المشتركة، وقال: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ تعريضًا بمن بدَّلَها بغيرها من الذين يتلامَزون ويتنابَزون ويسخَرون من بعضهم البعض.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ هذا هو ميزان التفاضل بين الناس، والتقوَى هي العمل الصالح، فخيرُ الناس أقربهم إلى الله وأنفعهم للناس.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الأعراب هم: أهلُ البادية البعيدون عن مُجتمعات التحضُّر والتعلُّم، ووصفهم ليس على سبيل الانتقاص منهم - حاشا لله -، بل لبيان حالهم وما يصلُحُ لهم، فهؤلاء كانوا يأتون المدينة، فيظنُّون أنهم بمجرد نُطقهم بالشهادة أصبَحوا كأصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون: ﴿آمَنَّا﴾ أي: نحن مثلكم، ولا ميزَة لكم علينا.

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ العلاقة بين مفهومَي (الإيمان) و(الإسلام) علاقة مُتداخِلة ومُتشعِّبة، وقد يُطلَق هذا مكان هذا، وهذا مكان هذا، وقد يُطلَقان على معنًى واحدٍ، لكنهما باجتماعهما في عبارةٍ واحدةٍ لا بُدَّ أنّهما يَحمِلان معنيَين مُختلفَين، في التسلسل المنطقي يكون الإيمان أولًا؛ لأنّه تصديقٌ قلبيٌّ، ثم يعقُبُه الانقياد والاستسلام للدين ظاهرًا وباطنًا، ويبدأ هذا الانقياد بإعلان الشهادتَين، ثم بإقامة الصلاة، وهكذا.

وعلى هذا فالمسلمُ الحقُّ لا يمكن إلّا أن يكون مؤمنًا؛ إذ الإيمان أساس الإسلام، وفي مثل حالة الأعراب هذه كأنَّ الأمر معكوس؛ فقد أثبتَ لهم الإسلامَ، ونفَى عنهم الإيمانَ، وهذا محمول على أوجه:

منها: أنّ الإسلام الثابت لهم هو الانقياد الظاهر كإسلام المنافقين، فهو إسلامٌ مقبولٌ عند البشر بحكم الظاهر؛ لأنّ البشر لا يعلمون الغيب، وليس مقبولًا عند الله، وهذا الوجهُ مُستبعَدٌ هنا؛ لأنّ القرآن أشارَ إلى قُرْبِ تحقُّقهم من الإيمان؛ حيث استعمل في النفي كلمة (لمَّا) والتي تفيد قُرب حصول ما نفَتْه.

ومنها: أنّ معنى الإيمان هنا أدقُّ من معنى التصديق المجرَّد، بل هو الرسوخ والوعي والقدرة على الالتزام بمقتضيات التصديق، وهذا المعنى واردٌ في القرآن في أكثر من موضعٍ، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

فوَجَلُ القلوب معنًى مضافٌ على مُجرَّد التصديق، وإدخاله في مسمَّى الإيمان هو الذي جعل الإيمان قابلًا للزيادة والنقصان، ولذلك كانت تتِمَّة الآية: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وهذا مُختلِفٌ عن معنى الإيمان الوارِد في حديث جبريل: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ ...»(١)، فهذا لا يقبَلُ الزيادة ولا النقصان، وهذا هو المقصود بقول أبي حنيفة المعروف أنّ: (الإيمان لا يزيد ولا ينقص).

وقد ورَدَ في القرآن نفسه ما يُعضِّدُ هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] حيث جعل العمل الصالح تابعًا للإيمان معطوفًا عليه، وليس جُزءًا من ماهيَّته.

والخلاصةُ: أنّ للإيمان أكثر من إطلاق، والراجح أنّ ما نفَاه القرآن عن الأعراب إنّما هو الإيمان بمفهومه الكامل الشامل، المُتضمِّن للأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وهذا يزيدُ وينقصُ، ويتفاوَتُ فيه الناس؛ ولذلك عادَ القرآن في نهاية السورة ليُثبِتَ لهم الإيمانَ بمعناه الأول - وهو التصديق - فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: لم يكتَمِل دخولُ الإيمان في قلوبكم بَعْدُ.

﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ لا ينقصكم مِن أجور أعمالِكم شيئًا.

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ إنكارٌ على هؤلاء الأعراب الذين يقولون في معنى الدين والإيمان أقوالًا لا تستَنِدُ إلى علمٍ، والمقصود من السؤال: تعليمُهم أنّ الله هو الذي يُبيِّنُ الدينَ، ويحكُمُ على الناس، فانتظِروا ولا تتسرَّعوا، وهنا تذكيرٌ بصدر الصورة: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ كأنّهم مُتفضِّلُون عليك بإسلامهم.

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ فالله هو المتفضِّلُ عليكم، وهو المستحقُّ للشكر والمنَّة.

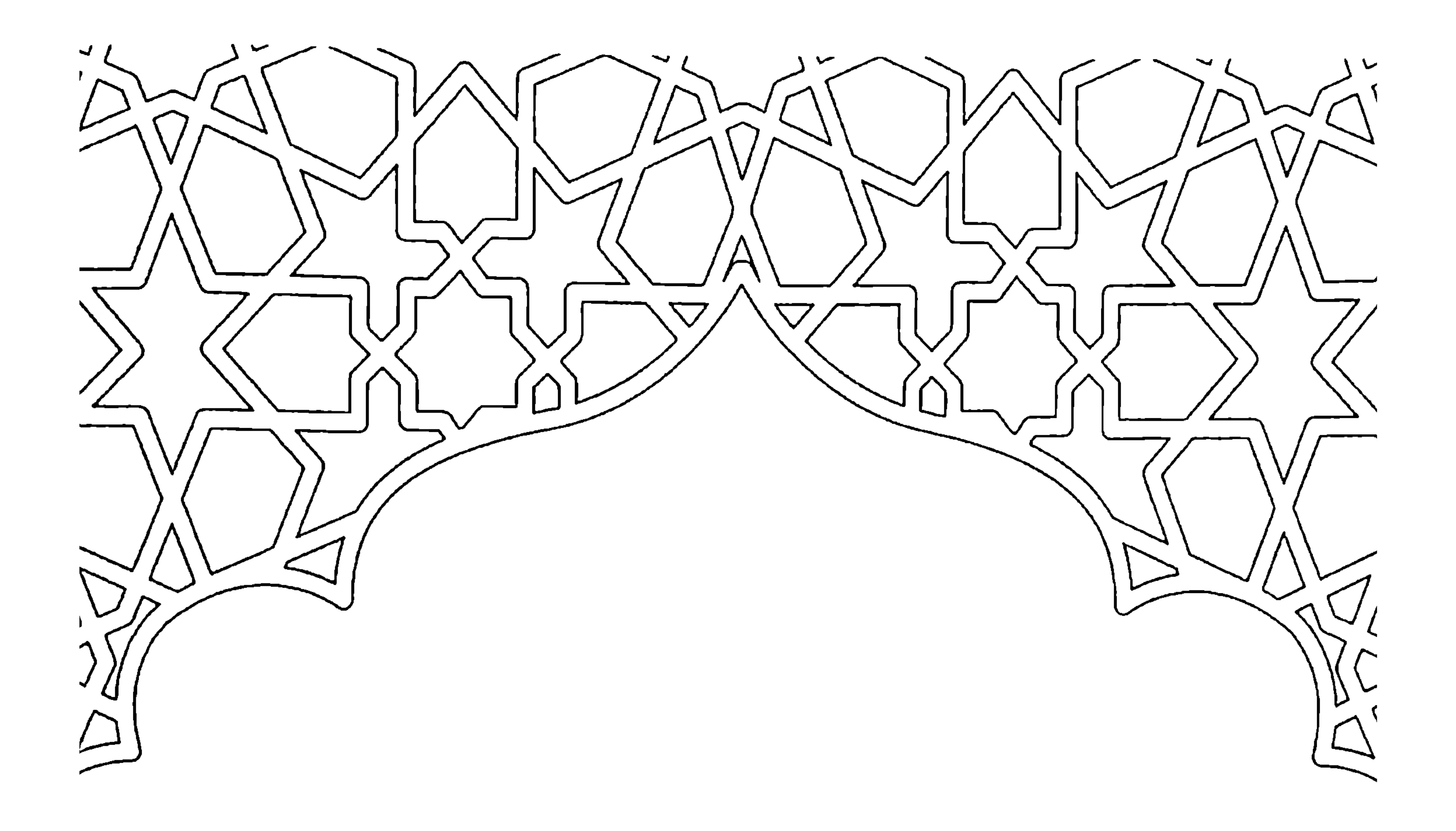
---

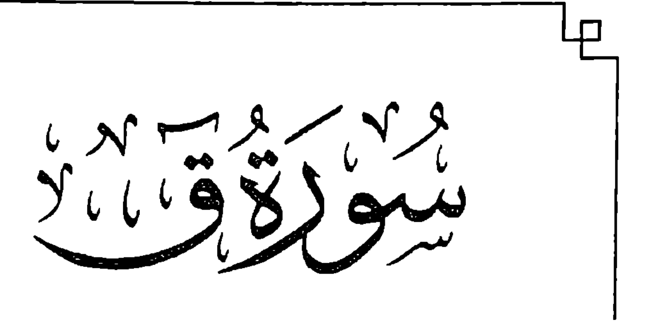
(١) حديثُ جبريل الشهير ورَدَ بعدَّة صِيَغ، وهو متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢٧/ دار ابن كثير، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، تح د. مصطفى البغا)، وصحيح مسلم (١/ ٣٠/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين)، وانفرَدَ مسلمٌ بروايته عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا، ينظر: صحيح مسلم (١/ ٢٩).

(٢) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في عددٍ من السور القرآنيّة: سورة الشعراء/ ٢٢٧، وسورة ص/ ٢٤، وسورة الانشقاق/ ٢٥، وسورة التين/ ٦، وسورة العصر/ ٣.

وهنا ملحوظةٌ دقيقةٌ، وهي: أنّ القرآن الذي نَفَى عن هؤلاء الأعراب الإيمان: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ أثبَتَه هنا: ﴿هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ والأقربُ في هذا: أنّ القرآن عاد واستعمل الإيمان بمعنى التصديق، بتأكيد أنّ الإيمان يُطلَقُ على أكثر من معنًى، ولكلِّ معنى حكمه، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ختَمَ القرآن هذه السورةَ بهذه الآية؛ ليُنبِّه أنّ القِيَم الواردة في هذه السورة لا تُؤتِي ثمارها إلَّا بوجود رقابةٍ ذاتيَّةٍ، وقوةٍ داخليَّةٍ للتطبيق، مُستنِدة إلى استِشعار عِلْمِ الله وإحاطته الكاملة بكلِّ حركاتنا وسكناتنا.




سورة ق

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾

بل كذبوا بالحق لمّا جاءهم

سورة ق سورةٌ مكيَّةٌ تتناول قضية الإيمان ومعركته الطويلة لإنقاذ البشريَّة من متاهات الشرك والوثنيَّة، والتصورات الجاهليَّة.

تبدأ السورةُ بتشخيص موقف المشركين من الدعوة الجديدة وتساؤلاتهم حول الرسول والرسالة، وعقيدة البعث والجزاء، ثم تأخذ بهم في رحاب هذا الكون لتُجيبهم بما يرونه ويلمسونه من واقع حياتهم، ثم تطوفُ بهم في صفحات التاريخ لعلَّهم يقفون على بعض دروسه ومواعظه، ثم تدخلُ في عُمق نفوسهم لتهزَّها من داخلها علَّها تفيقُ من هذه الغفلة:

أولًا: استهلَّت السورة بقسَمٍ عظيمٍ يُقصد به بيان عظمة هذا القرآن، والتنبيه إلى خطورة الكلام الآتي بعد هذا القسَم: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

ثانيًا: نقل القرآن تعجُّبَ المشركين من أمرين اثنين: أن يبعثَ الله إليهم رسولًا منهم، وأن يُبلِّغهم هذا الرسول بما ينتظرهم بعد موتهم من بعثٍ وحسابٍ وجزاءٍ ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم

مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ثم يتحوَّلُ هذا التعجُّب إلى تكذيبٍ صريحٍ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ثم يُبيِّن القرآن حالَهم بعد هذا التكذيب: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

ثالثًا: ردَّ القرآنُ تعجُّبهم بتأكيد علم الله تعالى الشامل، فهو يعلم ما يذهب في الأرض من أجسادهم، وليس هناك شيءٌ منها يغيب عن عِلمِ الله ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ بمعنى أن هذا الذي تفتقدونه وتتعجَّبون من إعادته هو عند الله ليس بمفقود، فالتعجُّب وارد بالنسبة لعِلمِكم أنتم، أمّا بالنسبة لعِلمِ الله وقدرته المطلقة فليس بوارِد.

ثم أكَّدَ القرآن هذا المعنى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، وفي هذا جوابٌ أيضًا لتعجُّبهم من بعثته ﷺ؛ إذ كلّ هذا إنّما يجري على علم الله وتقديره ﷻ.

رابعًا: بعد تأكيد علمه ﷻ الشامل، جاء ليؤكِّد قدرته تعالى الشاملة، والتي يرى المشركون وغيرهم آثارها في هذا الكون ونظامه المُحكم الدقيق ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

خامسًا: لفَتَ القرآن أنظار هؤلاء المشركين المكذِّبين بالبعث إلى ظاهرةٍ متكررةٍ في حياتهم، تقرِّبُ لهم بشكلٍ حسِّيٍّ ملموسٍ إعادةَ الحياة بعد الموت ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ فإعادةُ الشجرة الكبيرة من بذرةٍ صغيرةٍ مدفونةٍ في التراب يقرِّبُ صورةَ إعادة الحياة للإنسان بعد أن تُدفن خلاياه في التراب أيضًا.

سادسًا: ذكَّر القرآن هؤلاء المشركين بما أصابَ أسلافهم المشركين من الأُمم السابقة؛ لعلَّهم يتذكَّرون ويتّعظون ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

سابعًا: عاد القرآن ليناقشهم في تكذيبهم بالبعث، محتجًا عليهم بدليل العقل بعد أن احتجّ عليهم آنفًا بدليل الحسّ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ وهذا سؤالٌ يصعق هذه العقول ويصدمها بالحقيقة الكبرى؛ فالله الذي خلق الإنسان الأوّل لا من شيءٍ، كيف يُعجزه أن يُعيد خلقه من شيء؟

وهذا التعجُّبُ مِن تعجُّبهم هو الذي صاغه القرآن بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بمعنى أنّه كيف يلتَبِس عليهم الخلق الجديد، وهم موجودون بالخلق الأول.

ثامنًا: بعد الدليل الحسّي والدليل العقلي، دخل القرآن في أعماق نفوسهم ليُحذِّرهم من وساوسهم التي تدفعهم لهذا التكذيب؛ فالإنسان المُجادِل ليس شرطًا أن يكون مُقتنِعًا بما يقول، فالحسد مثلًا كافٍ لتكوين حالةٍ من العِناد والخصومة لا ينفع معها حوارٌ، ولا يردُّها دليلٌ.

من هنا جاءت هذه الآيات لتحذِّر هؤلاء مما يمكن أن يكوِّن الدوافع النفسيَّة الخفيَّة لهذا الإنكار والتكذيب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فالله سبحانه يعلم الوساوس الداخلية، ويعلم المُجادلات والمُماحكات اللفظيَّة، وكلّ ذلك في كتابٍ محفوظٍ.

دقائق التفسير

﴿قٓ﴾ من الحروف المُقطّعة، وقد تقدَّم الكلام فيها وبيان الراجح من الأقوال في سورة البقرة.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ يُقْسِمُ الله تعالى بكتابه المجيد، والمجيدُ مِن المجدِ، وهو: الشرف الكامل.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ والعَجَبُ: إنكارٌ لشيءٍ غير مألوفٍ في العادة، وهؤلاء المشركون عجِبُوا من أن يُرسِل الله إليهم رسولًا منهم، كأنّهم يُريدون مَلَكًا من السماء، وعجِبُوا أيضًا مما يُنذرهم به، وهو البعث والحساب بعد البعث.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ أي: رجوعهم إلى الحياة بعد موتهم بعيدٌ عن تصوّر عقولهم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: نعلم ما يَنقُصُ منهم بسبب الموت، ثم يُدفن فتأكله الأرض، فكانت الأرض كأنّها هي التي تنقصُ منهم، أي: تأخذ منهم.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أمرٌ مضطربٌ.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ إشارةٌ إلى قيمتَين مُتكاملتَين من قِيَم الإسلام: الإتقان، والجمال.

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ليس فيها من شُقوق، بمعنى أنّها مُحكمة البناء ومُتقَنة.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسَطنَاها لتكون صالحةً للسُّكنى والزراعة والسير ونحو ذلك، والبَسطُ هذا لا يُنافي كرويّتها؛ لأنّ بَسطَها بقدر حاجة الناس، وهذا ظاهرٌ، أمّا الشكل الكلّي للأرض فهو أكبر من أن يُحيط به نظرُ الإنسان المُجرَّد.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وجعلنا فيها جبالًا شامخات، وقد شبَّه وجود الجبال على الأرض بالأشياء التي تُلقى من فوق من حيث تناثرها؛ حيث يراها الناظر بلا نسقٍ، بخلاف ما لو قال مثلًا: بنيناها.

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: من كلِّ صنفٍ مُبهِجٍ، أي: يُدخِل البهجة في نفس الناظر، وهنا إشارةٌ إلى قيمة الابتهاج، وانشراح الصدر، وحسن المنظر.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ بمعنى أنّ هذه الآيات المبثوثة في هذا الكون مِن شأنها أن تُبصِّرَ الناس بالحقائق والمعارف، وتُذكِّرهم بها فتجعلها حاضرةً أمامهم.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: لكلِّ عبدٍ باحثٍ عن الحقِّ وعائدٍ إليه.

﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ هو ماء المطر، وسمّاه مباركًا؛ لما يحمله من خيرٍ ونعمةٍ.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ نبَّه إلى نوعَين من الزرع: الأشجار وما فيها من ظلالٍ وثمرٍ، والحَبِّ الذي يُحصَد؛ كالبُرِّ، والشعير، والأُرز.

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ أي: عالِيات مُرتفعات، وخصَّ النخل بالذِّكر؛ تنبيهًا لفضلها على باقي الشجر.

﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ والطَّلعُ: أوَّل ظهور العذوق من أكمامها، والنضيد أي: منضودٌ بعضه مع بعض.

﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ أي: أحيَينا بماء المطر أرضًا كانت قاحِلَة ليس فيها زرع ولا ثمر.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ تشبيه لخروج الناس يوم البعث بإعادة الحياة للأرض بعد المطر.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قومٌ من الأقوام الكافرة والمكذِّبة بدعوة الرسل، ولم يَرِد في القرآن ولا في السنّة الصحيحة ما يُبيِّن حالَهم، فالأَولَى أخذ العبرة العامة دون الجزم بهويتهم، ومعنى الرسّ في اللغة: البئر المطويَّة بالحجارة.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ هم قومُ شُعيب ﷺ، وأصلُ الأَيكة الشجرة.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: استَحقُّوا العذابَ الذي توعَّدَهم الله به.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ استفهامٌ بمعنى اللوم والتقريع، أي: أعَجَزْنا عن خَلقهم أوَّل مرة؟

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بل اضطرب هؤلاء المشركون واختلط عليهم أمر الخلق الثاني، ولو فكَّروا في وجودهم وكيف خلقهم الله أوَّل مرة لزالَ عنهم خَلطهم واضطرابهم.

﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ فالله يعلمُ كلّ شيءٍ؛ يعلمُ أقوالهم المُعلَنة، ووساوسهم الخفيَّة التي يُحدِّثون أنفسهم بها.

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ والوريد هو: الشريان الغليظ المُمتد مع الرقبة، وقد شبَّهه بالحبل لغلَظه، والمقصود بهذا الإخبار أنّه تعالى أعلم بنا من أنفسنا، وأقدر علينا منها.

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ وهما المَلَكَان المُوكَّلان بكلِّ إنسانٍ، فيتلقَّيان عنه أعمالَه وأقوالَه ويُدوِّنانها.

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ والرقيبُ: الذي يُراقِبُ، والعَتِيدُ: المُتهيِّئُ، وهما صِفتان للمَلَكَين، تُشعِران بدقَّة الحفظ والتدوين فلا يفوتهما شيءٌ.

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

وجاءت سكرة الموت بالحق

في الشَّطر الثاني من هذه السورة الكريمة يعرِض القرآن حالَ هذا الإنسان وهو يتهيَّأ للرحيل عن هذه الحياة، ويمشي معه في سكَرَاته حتى يُعرَض أمام مصيره المحتوم؛ فإمَّا ناجٍ بصدقه وإيمانه وحُسن عمله، وإمَّا هالك بكذبه على نفسه، وكفره بربِّه، وسوء خلقه وعمله.

أولًا: أخبر القرآن عن حتميَّة الموت وسكَرَاته، رغم كراهة الإنسان له، ومحاولته نسيانه أو التهرُّب منه ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾.

ثانيًا: أكَّد القرآن حتميَّة البعث أيضًا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ ثم يؤكِّد

هذه الحقيقة الكبيرة في خواتيم السورة ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

ثالثًا: ينقل القرآن مشهدًا من مشاهد ذلك اليوم العصيب؛ حيث يُلقى في النار كلّ كفارٍ عنيدٍ، وهناك ترتفع خصومتهم فيما بينهم، ويشهد الشهود عليهم، وتستشيط جهنّم غيظًا بهم، وتطلب المزيدَ منهم، وكأنّها كائنٌ حيٌّ وقد أخذ به الغضب كلَّ مأخذٍ على هؤلاء المُكذِّبين المُتجرِّئين على ربِّ العالمين ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

رابعًا: ثم ينقل مشهَدًا آخر تتجلَّى فيه رحمة الله بعباده الصالحين وما أعدّ لهم من كرامةٍ ونعيمٍ دائمٍ مُقيمٍ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

خامسًا: يدعو القرآن أولئك المشركين إلى النظر في أسلافهم الأسبقين، وكيف كانت عاقبتهم بعد تكذيبهم للنبيين ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

سادسًا: ثم يدعوهم للنظر في آثار قُدرة الله الشاهدة والمحسوسة في هذا الكون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

سابعًا: ثُمّ يُوجّهُ القرآنُ خطابه إلى نبيِّنا الكريم ﷺ يُوصِيه بالصبر، واللجوء إلى الله وحده بالذكر والتسبيح والصلاة ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

ثامنًا: يختم القرآن هذه السورة ببيان أنّ محمدًا ﷺ ليس جبَّارًا في الأرض، ولا يُمكنه أن يتحكَّم بقلوب الناس، وإنّما مُهمَّته حمل هذا القرآن وتلاوته على الناس؛ فمَن آمَن فلنفسه، ومَن ضلَّ فعليها ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بداية الموت، وسُمِّيَت سَكرَة؛ لما يَصحَبها مِن ذهولٍ شديدٍ، وانشغالٍ عن الواقع، فكأنه السُّكْر الذي يذهَبُ بالعقل.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بمَوعِدِها الحقِّ، فلا يتخلَّف الموتُ عن أحدٍ.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ كلُّ نفسٍ مِن المُتحدَّث عنهم - وهم الكافرون -؛ بدلالة الآتي:

﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملَكان؛ أحدهما يسوقها إلى محشرها ويكون وراءها بحيث يراها فلا تفلِت عنه، وثانيهما يشهدُ عليها بما كسبت، ويحتمل أن يكون هذان وصفان لملكٍ واحدٍ فهو يسوقها وهو يشهدُ عليها.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: حادٌّ نافِذٌ لا يحجُبُه شيءٌ.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي: قال المَلَك الشاهِدُ عليه: هذا ما هو مكتوبٌ عندي عنه مُعدٌّ ومُحضَّرٌ.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الخطاب للسائق والشهيد على الاحتمال الأوَّل أنّهما مَلَكان، أمّا على الاحتمال الثاني فيكون الخطاب للواحد بصيغة المثنَّى جريًا على عادة العرب، كما قال امرؤ القيس: (قِفَا نَبْكِ)، والله أعلم.

﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكّ في الله وفي كتابه ولقائه.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ هذا قرينُه من الإنس أو الجنِّ، وهو صاحبه في النار، يتبرَّأ منه ومن إضلاله لمّا كانا قرينَين في الدنيا.

﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: لا ينفعكم خِصامُكم بعد أن جاءكم الرسل وأنذرُوكم هذا اليوم فكذَّبتُمُوهم.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ القولُ هنا سُنَّةُ الله في الثواب والعقاب.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي التي لا تتخلَّف.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ سؤالٌ يُقصد به توبيخ مَن بداخلها.

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ كأنّها تتشوَّف وتشتاق لأهلها من شدَّة غيظها وغضبها، وهذا قد يكون تشبيهًا لها بحال الكائن الحيِّ الذي يغضَبُ ويغتاظُ، وقد يكون على الحقيقةِ؛ فأحوال الآخرة لا تُقاسُ على الدنيا، ولا يَبعُد أن يكون هذا جواب خزَنَتها، والله أعلم.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبَت لهم.

﴿أَوَّابٍ﴾ كثير التوبة والإنابة إلى الله.

﴿حَفِيظٖ﴾ حافِظٌ لحدود الله.

﴿مُّنِيبٍ﴾ مُقبِلٌ على الطاعة.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ أي: فوق ما يشاؤون، وكرَمُ الله ليس له حَدٌّ.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ من أُمَّةٍ وقومٍ.

﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: تحكَّمُوا فيها وفي طُرُقها.

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ هل كان لهم من مهربٍ.

﴿أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ أصغَى لسماع الحقِّ.

﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ حاضِرُ القلب يَعِي ما يسمَعُ.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأنَّ يومنا هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكلِّ كوكبٍ يومه، فكيف

باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلَّا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيّام إنّما هو التقدير على مراحل، كما هي سُنَّةُ الخلق كلّه، حتى الجنين في بطن أمه، والبذرة في بطن التربة.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ إعياء وتعب، فالله مُنزَّهٌ عن ذلك، وفي هذا ردٌّ على قول اليهود: إنَّ الله استراحَ في اليوم السابع.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أي: سبِّحِ الله واحمَده أوَّلَ النهار استِعدادًا للعمل، ونهايتَه استِغفارًا عن الزَّلَل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ في الليل نافلة مطلقة، وخلف كلّ صلاة ليليَّة أو نهاريَّة، فهذه أربعة أوقات يُستحب فيها التسبيح والتحميد: أوّل النهار، وآخره، وآناء الليل، وعقِب الصلوات.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ (واستمع) أي: أَصغِ لما سنقولُه لك، وفيه تنبيهٌ على خطورة القول الآتي: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ تفسيره ما بعده: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ فالنداء هو: الصيحة

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ يوم البعث.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ ليخرجوا منها، وذلك يوم البعث، ويوم الخروج.

﴿سِرَاعًا ۚ﴾ جمعُ سريعٍ.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ﴾ بمُسلَّطٍ عليهم بقوتك وجبروتك، بمعنى أنّه ليس لك عليهم إلَّا التبليغ والبيان.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ذكِّر المؤمنين، وهذا دليلٌ أنّ الدعوة لا تخُصّ الكافرين؛ فالمؤمنون بحاجةٍ إلى التذكير أيضًا.

تم الجزء الثالث،

ويليه الجزء الرابع

﴿ وأوله سورة الذاريات ﴾